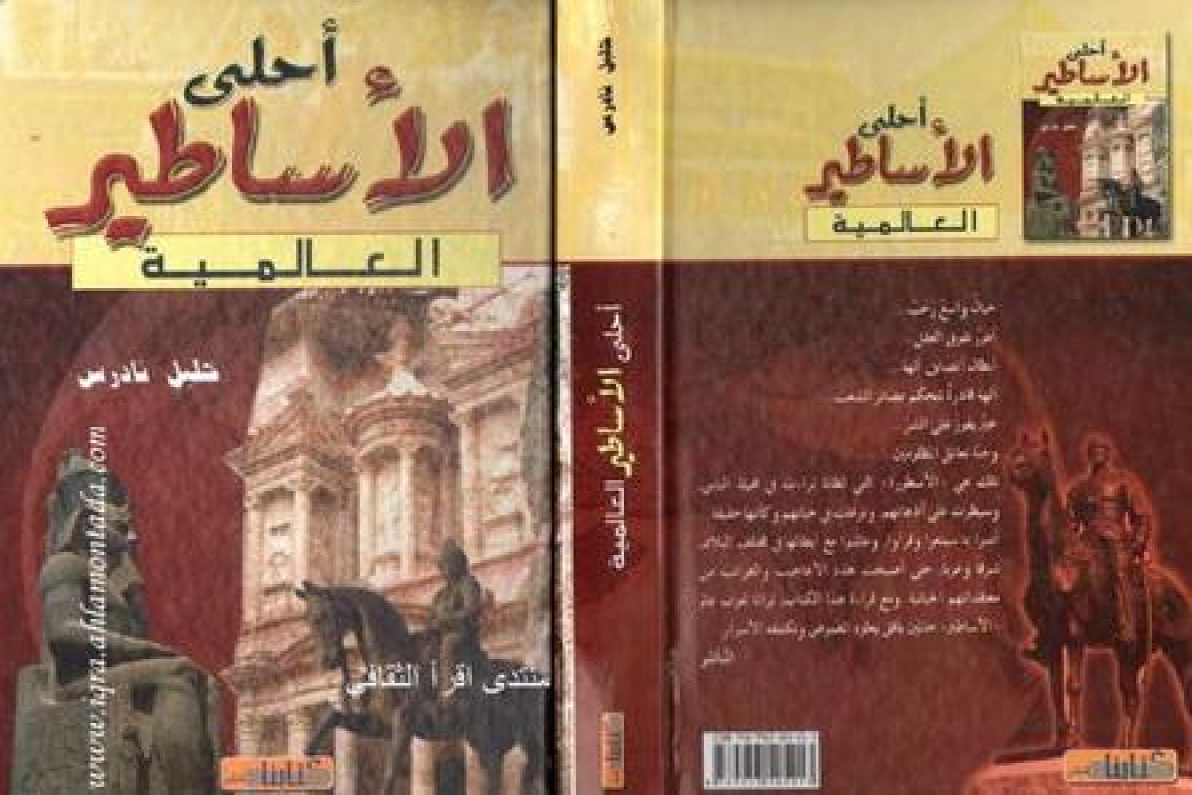

أحلى
الأساطير
العالمية
خليل تادرس
منتدى اقرأ الثقافي
www.iqra.ahlamontada.com
خليل تادرس
أحلى الأساطير العالمية
أحلى
الأساطير
العالمية

خليل حنا تادرس

أحلى
الأساطير العالمية

مجموعة رائعة
من أساطير العالم



كتابنا للنشر

ISBN: 978-9953-505-21-3

لبنان، المنصورية (المتن)
ص. ب. : 269 ـ المنصورية (المتن)
هاتف/ فاكس : 00961 /4 /532255 ـ جوال : 00961 /3 /629910
E-mail: kitabouna@yahoo.com
طبع في لبنان

مقدمة

الأسطورة...

هي الأحداث الواقعية.. الخارقة التي قد لا يصدقها العقل.. ولكنها حقيقة واقعية قد حدثت بالفعل.. إنها تحلق بك.. تأخذك على أجنحة الخيال. تثير دهشتك وتنقلك إلى أجواء مدهشة رائعة..

وقديماً... كانت الأساطير، وعاش أبطالها أيام الإغريق. وكان الشاعر اليوناني القديم هوميرس أروع من كتب الأسطورة خاصة الإلياذة والأوديسة... والفراعنة، قدماء المصريين كانت كل حياتهم أساطير فوق الخيال وخاصة قصة إيزيس وأوزيريس.

وكل بلد فى العالم عاش حقبة من الأساطير الخالدة التي لن تنسى على مر العصور.

وفى هذا الكتاب قدمت لك، أيها القارئ، مجموعة شيقة من أجمل الأساطير فى العالم، أرجو أن تحوز إعجابك وتعيش معها في جوها.. وفي واقعها.

خليل ح. تادرس

الأسطورة والخرافة

كثيراً ما تستخدم كلمتا «أسطورة» و«خرافة» كأنهما كلمتان مترادفتان. والواقع أن هناك فرقاً جوهرياً بين الأسطورة والخرافة من حيث المضمون وما يجب أن يستخدم فيه.

ولعلنا نبادر إلى القول بأن الجذع المشترك للأسطورة والخرافة هو الجذع اللاشعوري الوجداني الذي يرتبط به الإنسان ارتباطاً لا محيص عنه. فالأسطورة تتعلق باللاشعور الجمعي وتنشأ عنه. بينما ترتبط الخرافة باللاشعور الفردي وإن كانت في كثير من الأحيان تنعكس بأصدائها على ذلك اللاشعور الجمعي.

فالأسطورة ليست ظاهرة فردية، ولا تتبدى لدى مجموعة من الأفراد، بل هي ظاهرة تصدر عن شعب بأمره أو عن جود جمعي لا سبيل إلى إحصائه أو حصر عدد أفراده.

ومن جهة أخرى فإن الأسطورة تتسم بالقدم والامتداد بالجذور المتأصلة فى الماضي السحيق. فهى لا تتصل بالماضي القريب، وبالأولى لا تتصل بالحاضر.

وأكثر من هذا فإننا لا نستطيع أن نتخيل أساطير يقيّض لها البزوغ والظهور والتبلور في المستقبل القريب أو المستقبل البعيد. ذلك أن الأسطورة تنشأ عن الجذع اللاشعوري لدى شعب من الشعوب أو حتى لدى مجموعة من الشعوب.

ومن جهة ثالثة لا تتعلق الأسطورة بأي أمر من الأمور اليومية العادية، بل هي تتصل اتصالاً وثيقاً بأساسيات الحياة ومقوماتها، وتقدم تفسيراً عاماً وشاملاً للكون والوجود والإنسان. تفسيراً أشبه ما يكون تاريخاً وجودياً لنشأة الكون وتفتّقه عن هذه الموجودات المتعينة والمتباينة.

ولكن هل تقدم الأسطورة تاريخاً للوجود يتسم بالصراحة والتحديد؟ الواقع كلاّ. فالأسطورة عندما تقدم قصة عن الوجود، فإنما تقدم رموزاً تتسم بالعمومية من جهة، وبالبساطة من جهة أخرى.

ولعل هذه العمومية وتلك البساطة تشكلان السر في ذيوع الأسطورة وبقائها وترسخها في العقول والقلوب. وقد تعمل الرمزية التي تنحو إليها الأسطورة بإزاء قصة الوجود على فتح آفاق الواقع والمستقبل، وتدفع الإنسان اليوم ـ بعد أن تطور ونضج فكره وكثر تأمله ـ إلى إحالة تلك الرموز إلى أفكار واجتهادات للشرح والتأويل.

فإذا ما عمدت الأسطورة مثلاً إلى ذكر عدد من الأيام تم خلالها خلق العالم، فإن المفسرين يقولون أن كل يوم من تلك الأيام يمثل دهراً. والدهر من الزمان يقدر بملايين السنين.

وهكذا دواليك بالنسبة للأشخاص: فقد ذهب البعض إلى اعتبار الشخصيات المحددة والمذكورة في بعض الأساطير، سلالة من السلالات البشرية، رُمز إلى كل منها بفرد من أفراد الناس. وهكذا قُلْ عن جميع نواحي الأسطورة وما قد تتضمنه من أفراد أو أحداث أو مواقف أو علاقات.

على أن المؤمنين بإحدى الأساطير ـ مهما كانت جنسيتهم أو دياناتهم ـ فهم يقدسون أساطيرهم ويخشون من تناولها بالعقل والنقد والتمحيص الذهني. ذلك أن قدسية الأسطورة تحول دون تناولها بالمناهج النقدية. فمثل تلك المناهج تعمل على إفسادها وتفكيكها وإضاعة جوهرها. وشأن من يتناول الأسطورة بالنقد أو حتى بالشرح كشأن من يتناول لؤلؤة ثمينة، عامداً إلى تقطيعها لمعرفة سر قيمتها. إنه بمثل تلك المعالجة يعمل على إفسادها. فهي عظيمة القيمة طالما يتناولها المرء بغير محاولة لسبر أغوارها، أو لتفهم ما تحتويه من مضامين أو للوقوف على ما تحمله من قيم ذاتية. فالواقع أن قيمة اللؤلؤة ـ وكذلك قيمة الأسطورة ـ في كليّتها لا في جزئياتها. فأنت عندما تتناول الأسطورة من حيث مضمونها ومحتوياتها، فإنك قد تجد أن ذلك المضمون أو المحتويات بسيطة أو حتى ساذجة.

ولكن عظمة الأسطورة تتبدى في مغزاها ودلالتها، بل قل في وظيفتها الإيمانية عبر العصور المتعاقبة. فالأسطورة سابقة للفلسفة والعلم. وبعد ظهور الفلسفة والعلم أخذت تسير معهما على خطين متوازيين، ولم يعمل ظهور الفلسفة أو ظهور العلم على التقليل من قيمتها أو الاستغناء عنها.

ولكن الخطأ يبدو فيما ترغب فيه الفلسفة أو يرغب فيه العلم من إخضاع الأساطير لأحكامهما وتقديراتهما أو حتى لتذوقاتهما.

والواقع أن الأسطورة تنهج نهجاً مضاداً للنهج الذي تنهجه الفلسفة وتسير وفقه. فبينما نجد أن الفلسفة تأخذ نتائج العلوم والمعارف وتصعد بهما إلى نظرة شاملة للحياة والوجود، فإننا نجد أن الأسطورة تتباين عن ذلك تباينا تاماً من حيث أنها ـ وقد سبقت العلوم والمعارف ـ تقدم الحقيقة الكلية دفعة واحدة في سياق القصة التي تتضمنها. فهي لا تصعد من الجزئيات ـ التي هي في حالة الفلسفة تتمثل في نتائج العلوم وجميع المعارف الإنسانية التي يتسنى للفيلسوف إحرازها والوقوف عليها ـ بل هي تبدأ من الكل وتقدمه. لذا تعتبر التعبير المباشر عن اللاشعور الجمعي التليد.

بيد أن الأسطورة على قدمها وبعدها السحيق عن الحاضر الراهن ـ بل وعن الماضي القريب أيضاً ـ فإن تدوينها قد حدث بلا شك بعد وجودها بمدة طويلة.

ومعنى هذا في الواقع أن ما يتسنى لنا قراءته من أساطير، إنما هو مرحلة سبقتها مراحل أخرى من تطور الإنسان وتقدمه، بل قل إن الأسطورة لم تنشأ من فراغ ثقافي، بل كانت تعبيراً عن ذلك اللاشعور الجمعي تعبيراً نسبياً لا تعبيراً مطلقاً، أو قل أنها تتمتع بأكبر قدر من ذلك اللاشعور الجمعي. والأمر هنا شبيه بأمر الفنان أو الشاعر.

وإذا سأل سائل عن مدى صحة وحقيقة الأسطورة ـ أيا كانت تلك الأسطورة بغض النظر عن ذاتيتها وعن الشعب الذي يؤمن بها أو الكتاب الذي ترد به ـ فإننا نقول إن صحة الأسطورة يمكن أن ينظر إليها من زاويتين: الزاوية الأولى هي الزاوية اللاشعورية الجمعية ومدى قدرة الأسطورة على أن تعبّر عن ذلك اللاشعور الجمعي التليد. أما الزاوية الثانية فهي الزاوية النقدية العلمية المتعلقة بعلم من العلوم الوضعية أو بمنهج من مناهج التفكير الفلسفية النقدية. ولعلنا لا نغالي إذا قلنا إن الزاوية الأولى وحدها هي الجديرة بالتناول والأخذ بعين الاعتبار. أما الزاوية الثانية فيجب أن تُستبعد تماماً. ومن الواضح أن إنسان الحضارة واقع تحت تأثير العلوم الوضعية، وهو متحيز لها أراد ذلك أو لم يرده.

ولكن مهما كان ذلك التحيز، فممّا لا شك فيه أن الأسطورة يجب أن تتباين في الأذهان عن الخرافة. وممّا لا شك فيه أيضاً أن الأسطورة تتضمن منهجاً قائماً بذاته هو المنهج الكلي في النظر إلى الوجود. وقد تباين الإنسان الحديث عن ذلك المنهج، ومن

ثم فليس من المتوقع أن يقبل عليه، أو أن يخضع له تفكيره. فمنطق الإنسان الحديث يخضع للشك بالدرجة الأولى، بينما الأجدى به أن يكون مؤمناً ليتناول الأساطير تناولاً صحيحاً جديراً بها، تناولاً تستحقه الجواهر الثمينة المقدسة.

وعلى الرغم من أن الأسطورة هي أقرب تعبيراً عن اللاشعور الجمعي لمجتمعات قديمة، فإنها مع ذلك تعبر عن أحداث ووقائع تاريخية أو ذكريات ظلت محفوظة مدة طويلة، إلى أن قيض لها أن تترجم في صيغ محسوسة مدونة، سواء بالتماثيل المنحوتة أم بالصور المرسومة أم بالكلمات الرمزية أو شبه الرمزية المكتوبة. فالواقع أن الخبرات التي مرت بها الشعوب القديمة لم تكن مجرد أحداث تترسخ وتتأصل وتستمر محفورة في ذاكرات أبنائها وأحفادها، بل كانت أيضاً أحداثاً لها أثرها الوجداني العاطفي العميق. وقل أكثر من هذا إنها كانت بالدرجة الأولى تؤثر في الوجدان والحياة العاطفية، وبالدرجة الثانية في الفكر وما يرتبط به من تفسير وتعليل.

ومن هنا فإن من يتناول الأساطير بالإطلاع والتأمل، عليه أن يتناولها من هذه الزاوية التفاعلية الانفعالية، ونعني بالتفاعلية التفاعل بين العاطفة والعقل، كما نعني بالانفعالية ذلك الجانب السائد بالأسطورة وهو الجانب الذي سجلت به الأسطورة، أعني الجانب الإيماني والذي يُقصد به التأثير على من يقرأها أو يقف عندها، دون القيام بالمناقشة والتحليل. ذلك أن التحليل كما قلنا مفسد للأسطورة، ومضيع لمضمونها، ومفتت لمقوماتها، ومبدد لتأثيرها، ومعطل عن تحقيق الأهداف التي جعلت لها.

وقد نقول إن الأساطير ـ وهي الجانب الذى سمح بإعلانه على الملأ وسمح بإذاعته ونشره بطريقة أو بأخرى ـ كانت مجرد ظل للحقيقة، أو كانت مجرد إشارة إلى الحقيقة في نطاق حضارات اتسمت الحقائق العلمية فيها بالسرية، ولم يكن يسمح لجميع الناس من أفراد الشعب بالمشاركة فيها أو الوقوف عليها.

ومن ثم فإن رجال الدين والسحرة ـ وكثيراً ما كان رجل الدين هو الساحر، كما كان الساحر رجل دين ـ كانوا يضربون بستار من الكتمان على جميع المعارف العميقة، ولم يكونوا ليسمحوا بإذاعة أي من تلك المعارف إلا في صور قصصية تصلح لأن تذاع بين الناس، ولا تعمل في نفس الوقت على إفشاء أسرارهم. فكانوا في صياغتهم للأساطير يغترفون من معرفتهم بعض الشذرات القليلة، يصوغونها في صيغ رمزية غير صريحة ومكتنفة بالغموض.

وما نحو إليه هنا يتضمن فيما يتضمنه بطلان الزعم القائل إن العصور التي دونت فيها الأساطير كانت عصوراً ساذجةً وخالية من المعرفة الذهنية العميقة. وأكثر من هذا، إن فئة أو فئات بأسرها من المعارف المتباينة لكل من الفلسفة والعلم كما نعرفهما اليوم قد اندثرت مع انقضاء تلك العصور، ومع وقوع الأحداث التاريخية التي أدت إلى تبديد الكتب والنقوش والرسوم وغيرها من وسائل التدوين.

من ذلك مثلاً الكثير مما كان يحتفظ به الكهنة والسحرة من معارف حبست عليهم وصارت وقفاً على أتباعهم ومريديهم. فاندثرت تلك المعارف لأنها لم تكن منتشرة وذائعة، ولم يبق إلا بعض الأساطير، مما أغرى بالبعض بأن يزعموا أن حضارة تلك العصور لم تكن في جعبتها إلا تلك الأساطير فحسب.

فالأساطير إذاً كانت مجرد شذرات معرفية مسوقة في قالب شعري أو أدبي أو رمزي، أو قل إنها كانت أصداء لمعرفة عميقة محبوسة عن طبقات الشعب من غير رجال الدين والسحرة. بيد أن ذلك التدوين الأسطوري لم يكن ليتم بطريقة شعورية مقصودة، بل كان يتم بطريقة إلهامية أيضاً ولكن من قبل الجن.

لقد كان رجل الدين أو الساحر لا يقوم بكتابة الأسطورة وهو في حالته الشعورية الواعية، بل يفعل ذلك، وهو في حالة غياب عن الوعي، لوجود قوى روحية ـ خيِّرة أو شريرة ـ تحل فيه وتسيطر عليه وتملك ناصيته التعبيرية وتدفع به إلى كتابة أو تدوين الأسطورة بشكل أو بآخر فالكاهن أو الساحر كان مسوقاً في كتابته بواسطة قوة روحانية.

وهذا الموقف شبيه في الواقع بموقف الشاعر الملهم أثناء قيامه بقرض الشعر، وهو أيضاً حال الفنان النحات أو الرسام أثناء قيامه بنحت التمثال أو رسم الصورة.

وهذا هو نفسه ما كان يحدث أثناء كتابة الأسطورة قديماً. ولكن المسألة لم تكن مجرد شعور أو لا شعور، بل كان هناك ما يعرف بالحلول، سواء حلول روح خيِّرة أو روح شريرة مؤقتا أو بصفة مستمرة، وتوجيه دفة التعبير لدى واضع الأسطورة.

بيد أن هذا لم يكن يعني أن الأسطورة لم تكن مرتبطة بشكل مباشر أو غير مباشر بالواقع التاريخي للعصر أو للعصور السابقة عليها، بل إن جميع المعارف التاريخية والموضوعية الواقعية كانت مسخرة لإمرة الجني الخيِّر أو الشرير، فتأتي الكتابة معبرة عن تفاعل مركب يشارك فيه الروح الحال من جهة، والمعارف المختزنة بعقل الشخص الذي تحل فيه تلك الروح من جهة أخرى.

على أن المؤرخ عن طريق الأساطير يجد نفسه في حيرة إزاء كل واقعة ترد بأي منها. فهو إما أن يعتبر الواقعة حقيقية، وإما أن يعتبرها رمزية.

ولكنه في الواقع ـ وهو يعيش في ظل الواقع العلمي الراهن ـ سوف يعتبر كل ما يتعارض مع حقائق العلم الحديث رمزاً ـ فإذا ما تناول أسطورة تقول إن الكون كان بيضة كبيرة ثم فقست وخرج منها الشمس والقمر والأرض والنجوم، فإنه بالطبع سوف يعتبر أن تلك البيضة بيضة رمزية وليست بيضة حقيقية.

على الرغم من أننا قد أكدنا أن الأساطير قد نشأت في الماضي البعيد معبرة عن اللاشعور الجمعي لمجموعات كبيرة من الناس، وأنها قد وجدت بالفعل على الألسنة وشاعت وتناقلها الناس في تلك العهود السحيقة حتى قبل أن يتسنى للناس القيام بتسجيلها بوسائل التسجيل المتباينة، فإننا نقرر مع هذا أن الأساطير القديمة قد ألقت كثير بالٍ إلى المستقبل. فهي لم تكن مجرد ترديد لأحداث وقعت، بل كانت تتضمن أيضاً نبوءات وتوقعات وترقبات بما سوف يقع في المستقبل البعيد. فهي لم تكن لتعنى بنشأة الكون فحسب، بل كانت تُعنى أيضاً بالتعرض لما سوف يؤول إليه الكون، وما سوف يتعرض له من أحداث أو ما سوف يصيبه من كوارث أو ملمات.

وأكثر من هذا فإن الكثير من الأساطير قد عني بالتنبؤ بشخصيات من الزعماء أو المصلحين سوف يظهرون ويقودون أممهم ويخلصونهم من براثن الضعف أو من الصعاب التي تعترض طريق حياتهم كما كانت تشير إلى الصعوبات والكوارث والمصائب التي سوف تكتنف المجتمعات، وما قد يصادفه البطل المرتقب من أهوال لينتصر في النهاية عليها، ويقود شعبه إلى بر الأمان، ويتغلّب على كل من يقف في طريقه من أعداء ومناوئين.

على أن المستقبلية في الأسطورة لا تكون غالباً مستقبلية صريحة، بل تكون مستقبلية رمزية. فأشخاص الأسطورة يرمزون إلى جماعات كما هو الحال في أسطورة إيزيس وأوزيريس وست وحورس، وإن كانوا قد وردوا بها كأفراد، وكأنهم عاشوا في عصر سابق أي في الماضي. والرمزية في الأسطورة تتبدى في أمرين أساسيين: الأول: أن بعض أفراد الأسطورة لا يشيرون إلى أفراد بل إلى جماعات من الناس، فيرمز كل فرد من أبطال الأسطورة إلى فئة من الناس، أو إلى أفراد سوف يظهرون في المستقبل البعيد. ومن جهة أخرى فإن الأحداث الفردية والعلاقات القائمة بين شخص وآخر في الأسطورة

ـ وإن كانت قد وقعت فيما مضى ـ فإنها قد تشير رمزياً إلى المستقبل وليس إلى الماضي.

على أن الأساطير ـ وإن كانت قد توقفت بصفة رئيسية عن الظهور بعد انقضاء ذلك الماضي السحيق عندما كانت القبائل والشعوب في حالة لا شعورية ـ فإن الإنسان سوف يظل هو الإنسان، ذلك أن اللاشعور الذي كان يعتمل قوياً ويسيطر على حياة الإنسان البدائي، ما يزال قوياً وذات فاعلية في حياة الإنسان الحديث أيضاً، على الرغم من التنافس الشديد القائم فيما بين اللاشعور والشعور، أو فيما بين القطاع الوجداني من الجهاز النفسي الإنساني ـ الفردي والجمعي ـ والقطاع الذهني المنطقي.

وحتى بالنسبة للأساطير التي ينتصر فيها الشر على الخير، أو يكون فيها الأشرار أقوياء، بينما يكون الأخيار ضعفاء واهنين، فإن قارئ الأسطورة والمطلع عليها سرعان ما يجد نفسه حانقاً على أولئك الأشرار ويكاد يذرف الدمع على ما لاقاه الضعفاء الأخيار من ذلك أو عبودية أو اضطهاد أو ألم.

وهنا تكون السمة العاطفية متوافرة أيضاً، طالما أن الهدف قد تحقق والخير قد انتصر على الشر انتصاراً جوهرياً ودائماً.

ومن يدري فلعل انتصار الخير على الشر في نفوس القرّاء والمتأملين بالأسطورة أقوى وأكثر فعالية من انتشار الأخيار على الأشرار في سياق الأسطورة وفي تتابع أحداثها.

فالفنان الذي يقوم بوضع الأسطورة يحقق التناغم أو السمة العاطفية فيما يضعه من أحداث. ناهيك عما ينحو إليه من إضافة أحداث لم تقع في الواقع، ولكنها كان يجب أن تقع حتى تكتمل الصورة، ويتم التجانس.

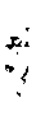
من هنا فإن ثقافة الإنسان القديم لم تكن بكمية ما يقوم بقراءته، بل بتأمل ما يقوم بقراءته أو مشاهدته. وكلما كان ما يطلع عليه متسماً بالغموض، كان تأمله أعمق.

لهذا السبب انتشرت الرمزية في الأساطير حتى يتسنى لمن يقوم بتأملها أن يغوص إلى أعماقها، وأن يكشف عن غوامضها، وأن يستشف ما فيها من حكمة ومن صلة روحية يقيمها بين ذاته وبين المعاني العليا التي تتضمنها.

والأسرار الرمزية في الأسطورة لم تكن لينكشف النقاب عنها عن طريق إعمال

العقل الواعي، بل إعمال التأمل الحدسي، وإعداد الذات لتقبل الإلهام، والكشف الإلهي أو الكشف الروحي عن طريق ما أسميناه بالحلول المؤقت أو الدائم لجنّي أو أكثر في عقل الحكيم.

وهذا هو في الواقع ما كان يقال عن كثير من فلاسفة الإغريق النسكيين من أمثال أنبادقليس، كما شاع الأمر عن سقراط نفسه وعندما كان يغيب عن وعيه ويستغرق في تأمل عميق لا يتصل بالعالم الخارجي من قريب أو من بعيد.



آلهـة فـي الأسـاطيـر..

ملك الآلهة اليونانية وإله السماء هو: زيوس

ملك الآلهة الرومانية وإله السماء هو: جوبيتر

عملاق الآلهة اليونانية: أطلس

ملكة الآلهة اليونانية وإلهة السماء: هيرا

ملكة الآلهة الرومانية وإلهة السماء: جونون

إله الحبّ عند اليونان هو: إيروس

إله الحبّ عند الرومان هي: كيوبيد

إله الحرب عند اليونان: آرِس

إله الحرب عند الرومان: مارْس

إله النار عند اليونان: هيفايتوس

إله النار عند الرومان: فولكان

إله البحار عند اليونان: بوسيدون

إله البحار عند الرومان: نبتون

إله الزراعة عند اليونان: كرونوس

إله الزراعة عند الرومان: ساتورن

إله الكرمة عند اليونان: ديونيسوس

إله الكرمة عند الرومان: باخوس

إله المواسم عند اليونان: ديمتري

إله المواسم عند الرومان: سيريس

إله الشمس والطب عند اليونان والرومان: أبولون

إله الشفاء عند اليونان والرومان: إسكليبوس

إلهة الحب والجمال عند اليونان: أفروديت

إلهة الحب والجمال عند الرومان: فينوس

إلهة الخصب والزهور عند اليونان: أفروديت

إلهة الخصب والزهور عند الرومان: ڤينوس

إلهة الحكمة والحرب عند اليونان: أثينا

إلهة الحكمة والحرب عند الرومان: ميزفا

إلهة الصيد والقمر عند اليونان: أرتيميس

إلهة الصيد والقمر عند الرومان: ديانا

إلهة القمر عند اليونان: لونا

إلهة القمر عند الرومان: سيلين

إله الشمس عند الفراعنة: رع

إله الشرّ عند الفراعنة: سِت

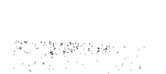
إلهة الخصب والأمومة والوفاء: إيزيس

إله الموتى: أوزيريس

إله القمر عند الساميين: سيناء

إله الخصب عند عرب الجاهلية: قيس

إلهة الخصب والجمال عند الفينيقيين: عشتار



أساطير فرعونية



أسطورة إيزيس وأوزيريس

ومن أجمل الأساطير الفرعونية تبزغ شخصيات هامة مثال إيزيس وأوزيريس، وست وتحوت، وشخصيات أخرى أقل أهمية مثل مين إله الإخصاب، وباتست وغيرهما.

أما إيزيس فقد حيكت حولها أساطير لا حصر لها، بل إن الأسطورة الأصلية لها ولزوجها أوزيريس تروى بشتى الصيغ. والروايات الكثيرة تختلف في التفاصيل وإن كانت تتفق في اللب والجوهر. وبالرغم من أن شخصية إيزيس إنما بدأت في البزوغ الحقيقي بعد ذيوع قصتها مع زوجها أوزيريس، وأخيها ست، وابنها حورس، إلا أنه يبدو أنها كانت إلهة معبودة حتى قبل هذا، كما أنها استمرت تعبد، واستمر عدد كبير من أتباعها يزاولون طقوسها إلى القرن السادس الميلادي وما بعده.

وتروي أسطورة إيزيس أن إله الأرض «كب» وآلهة السماء «نوت»، أنجبا أربعة أطفال: ولدين، هما أوزيريس، وست، وابنتين، هما إيزيس ونفتيس. وتزوجت إيزيس من أوزيريس، كما تزوجت نفتيس من ست. وورث كب أوزيريس ملك القطرين. فكان ملكاً عظيماً حكم البلاد بالعدل، وسطع على عرش أبيه كالشمس حين تشرق في السماء: عادلاً في تثبيت أقدام الحقيقة في مصر، ومظفراً أوقع بأعدائه، ووسع رقعة بلاده، فمدحته التاسوعة الكبرى من الآلهة، وأحبته التاسوعة الصغرى.

وأوغر ذلك صدر ست فاحتال الأخير بأن صنع تابوتاً جميلاً، وأقام حفلاً، وقال أنه سيهدي التابوت لمن يكون على مقاس جسمه. ودخل الكثيرون في التابوت ولكنه كان إما صغيراً، أو كبيراً عليهم، حتى دخل فيه أوزيريس. ومن البديهي أن التابوت كان مصنوعاً على هيئته تماماً، فطابقه كل المطابقة. وما إن دخل أوزيريس حتى أغلق ست عليه التابوت، وألقاه في اليم.

وبقيت إيزيس وحيدة تنعى أخاها وزوجها. وبحثت عنه دون ملل أو كلل وجابت

الأرض، حتى علمت أن التابوت قد قذفه اليم على شاطئ «بيلوس» وهي مدينة في مستنقعات الدلتا، وأن شجرة نمت حتى ضم التابوت ساقها تماماً.

وذهبت إيزيس إلى المدينة، ورعت ابن ملكتها حتى أحبتها الملكة، وأجابتها إلى طلبها بأن تقطع الشجرة. واستخرجت إيزيس جثة زوجها من التابوت، وراحت تنوح عليه مع أختها نفتيس بنشيد أضحى فيما بعد نموذجاً لكل الأناشيد الجنائزية، ومطلعه «إرجع إلى منزلك، أرجع إلى منزلك، أيها الإله» أو. «عد إلى منزلك، أنت الذي لا أعداء لك...».

وتشكلت إيزيس في شكل طائر، وحملت من جثة زوجها بالصبي حورس. وفي هذه الأثناء عرف ست ما حدث، فاختطف جثة أوزيريس، وقطع أشلاءها إلى أربعة عشر جزءاً بعثرها في أنحاء مصر. وراحت الزوجة الثكلى تبحث ثانية عن جثة زوجها حتى عثرت على أجزائها فجمعتها، وعطف عليها رع فأرسل إليها ابنه الرابع أنوبيس ليدفن زوجها. ورفرفت إيزيس بأجنحتها على أوزيريس حتى دبت الحياة في جسم الميت، وحرك ذراعه، ثم انقلب على جانبه، ورفع رأسه. ولما كان من العسير عليه أن يحيا بعد هذا على الأرض حياته الأولى، لذلك أضحى لزاماً عليه أن يحيا حياة ثانية وبذلك صار ملكا لمملكة الموتى «امنتي».

وخافت إيزيس على ابنها حورس، الذي أنجبته من جثة أوزيريس، من بطش ست الذي أصبح ملكاً مكان أخيه، فذهبت به لتعيش في مستنقعات الدلتا تحت حماية الإلهة حاتور، إلهة الحب والجمال، ومع ذلك فقد عرف ست مكانهما، وأرسل عقرباً ساماً لدغ الطفل، ولكن أمه أنقذته، بأن قرأت تعويذة سحرية عليه. واستمرت محاولات ست لقتل حورس، ولكن إيزيس كانت دائمة تحميه، وترعاه، وتنقذه.

وكبر الطفل حورس وراح يطالب عمه «ست» بعرش أبيه، أوزيريس، وتقاتلا قتالاً مريراً، فقد فيه حورس عينا، كما فقد ست خصيتيه، حتى خلصهما تحوت من بعضهما.

وعرض الأمر، في الرواية القديمة للأسطورة، على مجلس كب، والآلهة الذين حكموا لصالح حورس، في حين ادعى ست أن حورس لاحق له في الميراث حيث أنه ليس ابنا لأوزيريس. ولكن تحوت ناصَرَ حورس، ودافع عنه حتى اقتنع باقي الآلهة. وتصور النسخة الحديثة من الأسطورة، الجزء الأخير على أنه نزاع قانوني، بين حورس وست نظرته محكمة التاسوعين، يقود المناقشة فيها «شو» أو أنوريس، ويدون محاضِرَها

تحوت. واستمر انعقاد المحكمة ثمانين عاماً دون أن تستطيع إصدار حكم، حتى اقترح شو إحضار كبش منديس لكي يكون حكماً، على اعتبار أنه إله النسل. ولكن كبش أوتيس منديس رفض التدخل في الأمر، واقترح كتابة خطاب إلى نيت العظيمة

ووافقت الآلهة على هذا وقام تحوت بصياغة الخطاب، وردَّت نيت بقولها: «اعهدوا بمنصب أوزيريس لابنه حورس، ولا ترتكبوا ظلماً كبيراً وإلا سأغضب، وستسقط السماء على الأرض».

ورفض ست الإذعان للأمر، وناصره رع، ولكن إيزيس استمرت في تدخلها، وحيلها أمام المحكمة حتى طلب ست عقد الجلسة بعيداً عن إيزيس. ووافقت الآلهة على ذلك، فانتقلت إلى جزيرة نائية، وأوصوا الملاح بأن لا يسمح لامرأة بالعبور. وتخفَّت إيزيس بشكل امرأة عجوز، وأعطت الملاح رشوة من ذهب، بحجة أنها تود الذهاب إلى الجزيرة لإطعام ولدها، الذي تركته فيها. وسمح الملاح لها بالعبور، وفي الجزيرة استعملت الصيغة السحرية التي انقلبت بها إلى امرأة رائعة الجمال.

ولما رآها ست فتن بها، واتجه نحوها فقالت له «يا سيدى العظيم إني كنت زوجة راعي قطيع، وأنجبت له ولداً. غير أن زوجي توفي، وتولى ابني رعي ماشية أبيه. ولكن أجنبياً حضر وجلس في حظيرتي، وقال لابني: سأضربك وسآخذ ماشية أبيك، وأطردك. «هكذا قال، ولكني أود أن تكون له حامياً ومعيناً» فقال لها ست: «أتعطي الماشية إلى رجل أجنبي على حين يوجد ابن الرجل على قيد الحياة»؟

وعندئذٍ تحولت إيزيس إلى طائر، وطارت واستقرت في أعلى قمة شجرة سنط وصاحت به «الخزى لك، إن فمك نفسه قد قالها، وإن مهارتك نفسها قد حكمت عليك، فماذا تريد بعد ذلك»؟

ولم يرض ست بذلك واستمر النزاع مدة أخرى، بينه وبين حورس، انتهى أخيراً بأن حكم حورس الأرض، وكلف أتوم إيزيس بأن تحضر ست مقيداً بالأغلال، ولامه على عدم إذعانه لقرارات المحكمة. فأذعن ست. وترك لحورس منصب أبيه. وعوضته الآلهة بأن جعلته آلها على الأرض الحمراء ـ الصحرا.

هذه باختصار شديد أسطورة إيزيس وأوزيريس: وقد كرس لها بلوتارك في القرن الأول الميلادي كتاباً بأكمله. وهي كما ترى قصة بسيطة حَوَت كل المشاعر الإنسانية. من

تفاني الزوجة، إلى تفانٍ في الأمومة. ولهذا كانت أحب الأساطير إلى قلوب المصريين، بل لقد أحبها الأدباء في جميع العصور من بلوتارك إلى فولتير.

وكان للأسطورة أثرٌ أكبر من مجرد الأدب. فقد رأينا أن إيزيس كانت تتلو العزائم، وتتشكل كيفما أرادت وشاءت سواء في هيئة بشرية أو حيوانية، بل أنها كانت أيضاً تخترق بسهولة النار والماء والصخور وأي شيء أرادت.

ومن هنا نشأت عبادة إيزيس أو ربما كان الأصح أن تقول شعائر إيزيس وطقوسها، فقد استهوت الآلهة المصريين بما أبدته من ضروب الحب والوفاء الزوجي، وملأت مشاعرهم بالأحاسيس بحنانها الأموي وخوفها على حورس ورعايتها له. كما استولت على إعجابهم بسعة حيلتها وبضروب السحر والتعاويذ التي أبدعتها ومارستها.

ولم يقتصر تأثير إيزيس على الشعب المصري، وإنما تعداه إلى سائر الشعوب. فقد حركت فيهم ما تمثله من رقة الأمومة، والوفاء للزوج، والخصوبة، واكتمال الأنوثة. كل المشاعر الإنسانية. كانت تهيمن على كل ما ولد، وكل ما ينمو. وكانت دموعها في بكائها على زوجها تملأ النيل بالماء حتى يفيض ويخصب الأرض، وهامت روحها في النجم سيريوس حتى أن ظهور سيريوس في فجر الانقلاب الصيفي، استمر يمثل للمصريين فيضان النيل ولسائر الشعوب الخصب والخير. وكان نواح إيزيس وبكاؤها على زوجها هو الذي أعاد إليه الحياة، فأضحت أيضاً تمثل عودة الروح إلى الجسد، كما كانت مثلاً لعودة الخصب إلى الأرض حين الفيضان بعد الجفاف والموت.

وهكذا استمرت شعيرة إيزيس عبر القرون لآلاف السنين، إيزيس المرأة، والأم، والزوجة، إيزيس إلهة الإخصاب والتناسخ. وتعرفت عليها شعوب العالم، مقارنة إياها بآلهتها الخاصة: فهي منيرفا، وأفروديت، وسيرس، وهيكات، وهي عشتروت وأنات، وسيبل. ولم تقف عظمة إيزيس عند هذا الحد بل إنها تسامت على كل شبيهاتها في الشرق والغرب. كانت الآلهة الأخرى تحب الأضحيات الحيوانية والبشرية، وكانت إيزيس تمثل الحياة، وعودة الحياة.

وانتشرت شعيرة إيزيس في الشرق، إلى آسيا وفي الغرب في إفريقيا والشمال في أوروبا.

وراح علماء الفلك واللاهوت والسحر والفلسفة يفسرون الأسطورة، ويفحصون

تماثيلها والرسومات التي تصورها. كان كل شيء ذا مغزى في نظرهم سواء في شكلها أو ملابسها أو ما حولها وما تقبض عليه. وفي قاعدة تمثالها في سايس حفرت الكلمات الآتية: «أنا كل شيء. وكل شيء كائن، وكل شيء سيكون... ولم يستطع، أو لن يستطع أي كان أن يكتشف ما يخفيه قناعي». ورسم أبوليس صورة حية للآلهة في القرن الثاني الميلادي ومن وصفه استمد أثناسيوس كيرتشر الجزويتي (1601 ـ 1680) وحيه في حفر على الخشب صور فيه الإلهة يتوج رأسها خصلات شعر، رمز تأثير القمر على النباتات والأعشاب. وعلت سنابل القمح رأسها، كتذكرة بأنها هي التي اكتشفت الحبوب، وعلَّمت البشرية طريقة زراعتها. ويصور رأسها وحوله هالة ترمز إلى العالم. وتستقر الهالة على كتلة من الزهور، تفصح عن سيطرة الآلهة على النباتات، ويحلى غطاء الرأس ثعبانان يرمزان إلى قوة القمر المولدة للحيوية، وإلى مساره المتعرج، ويعني شعرها المتهدل أنها أرضعت السكون وتطعمه وتقبض في يدها اليسرى على دلو، يمثل فيضان النيل، وفي يدها اليمنى صلاصل، وهي آلة موسيقية مقدسة لديها وهي الشخليلة، وهذا طبقاً لكيرشر يفصح عنها كمصدر النيل وحامية ضد الشر. ويزهو ثوبها بجميع ألوان القمر. وبما أنها ملكة القبة السماوية الزرقاء، فإنها ترتدي دثاراً مرصعاً بالنجوم، وزينت حواشيه بالأزهار، رمز التربة، لتذكرنا بأنها هي إيزيس التي اكتشفت الأعشاب الطبية، ورحيق الزهور، وعلى رحمها وضع نصف قمر إشارة إلى أن أشعته السحرية تخصب الأرض، وتستقر قدمها اليمنى على الأرض، واليسرى على البحر، فهي سيدة العناصر جميعاً.

ويحدثنا بلوتارك، الذي كانت آراؤه متأثرة إلى حد بعيد بالأفلاطونية وخفايا الشرق، عن ثالوث أوزيريس وإيزيس وابنهما حورس. فيقول إنهم يمثلون العقل، والمادة، والكونيات، ويسميهم الثالوث الكامل. وتوضح أجزاء هذا الثالوث سراً مقدساً، القاعدة وهي تساوي أربعة، هي إيزيس الأنثى التي تحتوى في رحمها على العناصر: والسمت، أو الخط الرأسي يماثل ثلاثة هو أوزيريس الذكور الخالق الرئيسي. أما حورس التاج، فهو الوتر في المثلث، ويقابله العدد خمسة.

وأي مثلث يرسم بهذه النسب يكون رسماً قدسياً، له قوة سحرية وكذلك الأعداد الثلاثة، فإنها ذات قوى فوق الطبيعة. ونود بهذه المناسبة أن نقرر أن المصريين، ومَنْ تبعهم في ذلك الفيثاغورثيون، كما سنرى في فصل لاحق، كانوا يعتقدون بحكمة الأرقام. والواقع أننا لو تتبعنا في الأزمنة اللاحقة أية تعويذة أو دائرة سحرية تظهر فيها

الأرقام، فلا شك في أننا سنجد أن لها أصلاً يعود بنا إلى قدماء المصريين. ويقول بلوتارك إن للأرقام شيئا لاحظه مؤسس الطائفة في المعابد المصرية، إذ تشير إلى بعض الطقوس التي كانت تتبع فيها، أو إلى رموز معروضة على جدرانها. ولكن بلوتارك لا يعطينا أي تفسير لهذه الأرقام، بل ولا مجرد إشارة حتى إلى التفسير، إما لأنه لم يكن يعرفها، وإما لأنه لم يكن يود أن يبوح بها. هذا على الرغم من أنه أكثر من الكلام عنها في مواضع متعددة. على أن القياس ليفي في كتابة السحر المتسامي، حاول في فصول متعددة أن يشرح نظرية الأرقام طبقاً للمدرسة الفيثاغورثية.

ولا نرى موضعاً هنا للكلام عنها، فمن شاء فله أن يرجع إلى الكتاب المذكور.

ولم يقف تأثير إيزيس وأوزيريس على مجرد الرموز، والتعاويذ وغيرها، بل إننا نجد أن عبادتها قد تغلغلت حتى الهند شرقا، حيث كان يعبد الساكيون الملوك البرابرة، سارابو إلى جنب بوذا وهرقل. كما نجد الشعيرة أيضاً قد جذبت الإغريق، فأقيم في بيرى، في القرن الرابع قبل الميلاد، معبد لإيزيس. وعُبِدَت الآلهة المصرية أيضاً في رودس ولسبوس، وثيرا، وأزير، وفي جزيرة ديلوس المقدسة، حيث شيد أحد كهنة سيرابيس، من منف هيكلاً صغيراً للآلهة في بيته ثم جعل حفيده سيراً بيوم، بناء على أمر الآلهة. وصل الأمر بالإغريق إلى حد ظهور عادة غريبة في القرن الثاني قبل المسيح، خاصة في كل من أرخومين، وطروتي، وهي نذر من كان يراد عتقهم من العبيد لإيزيس وسيرابيس، كأنهما كانا الإلهين العظيمين الرئيسيين لهاتين المدينتين.

وامتزجت الآلهة المصرية باليونانية، أو ربما كان الأصح كما يقول هيرودوت، أن اليونانيين اقتبسوا من الآلهة المصرية. فأصبحت إيزيس نميزس ديكانوسيني ونيكي، وهيجيا، وصارت في ديلوس تسمى إيزيس ـ سوتيرا استارتي ـ افروديت. وكان إيروس ـ حريوقراط، أبوللو ولداً لها.

وتغلغلت الآلهة المصرية كذلك في الدولة الرومانية، فنجد في روما في عهد سلا جماعة مصرية، كانت أصالة من العبيد المعتقين، تطبّق شعيرة إيزيس. ومنها انتقلت إلى مختلف طبقات الشعب ولم تؤثر فيها سائر الأديان التي كانت وقتئذ تتصارع في الإمبراطورية، فلا الأم العظيمة من آسيا الصغرى، ولا متراس، إله الشمس عند الفرس، ولا يهوه إله اليهود أمكنهم أن ينتزعوا السبق من الآلهة المصرية ذات الطقوس والأعياد الحافلة بالأسرار.

ويبدو أن شعيرة إيزيس قد بلغ من تغلغلها في الدولة الرومانية أنها أصبحت خطراً على الدولة نفسها، مما حدا بالأباطرة الرومان إلى تدمير معابدها: حتى أنه وصلنا أنها دمرت على الأقل خمس مرات في أحد عشر عاماً بين 59 ـ 47 ق. م وأخيراً حرم أغسطس بناء أي معبد لها داخل المدينة. وفي سنة 19 بعد الميلاد دمر تبيريوس معبد الإلهة وصلب الكهنة، وأمر بإلقاء تمثال الإلهة في التيبر، كما نفى في الوقت نفسه آلافا من العبيد المعتقلين، وأرسلهم إلى سردينيا ليحاربوا قطّاع الطرق كما كان على غيرهم أن يهاجروا من إيطاليا إن لم يعودوا عن القيام بطقوسهم.

ولكن هذه النكسة ما لبثت أن زالت، فقد أقيم في حقول مارس معبد كبير جديد لإيزيس. وكان الذي أقامه في هذه المرة أحد الأباطرة وهو كاليجولا، وزاد فيه إمبراطور آخر، وهدومتيان، كما ساهم خادريان كثيرا في هذا التطور إذ زار مصر، ومعه الإمبراطور، ورجال البلاط، مظهرا شدة تحمسه للبلاد وآلهتها.

وبهذا نرى الإلهة المصرية قد تمكنت تماما من قلوب الرومان، وعقولهم، حتى أن لوسيان حينما كان يهاجم «الآلهة ذات رؤوس الحيوان» في تهكم لاذع أنهى حواره على لسان زيوس بأن هذه الأشياء المصرية كريهة ممقوتة، ولكنه يضيف بحيطة وحذر: «إن كثيرا منها ألغاز وأحاجي، وما ينبغي أن يهزأ بها من لم يحط بأسرارها» وفي هذه الجملة عود إلى ما قاله بلوتارك «إن من يأخذ هذه الأشياء بحرفيتها ولا يعبأ بمعناها السامي، فإنما ينبغي له أن يتفل، وأن يطهر فمه».

فأوزيريس هو عنصر الرطوبة، وقوة الإخصاب في التناسل، إنه في الروح العقل، وفي العالم، كل رتيب متسق مع القانون هو الخير. وست (تيفون) هو الجفاف، والإمحال، والعقم، هو السفاهة، والحماقة في النفس، وهو المرض والدمار في العالم، هو الشر. وإيزيس هي الأرض الخصبة جسداً وهي الأنثى التي تتلقى اللقاح، هي مادة الخير والشر والشخليلة التي يصلصل بها المرء أمام الآلهة، مستديرة الشكل عند قمتها ولها قضبان أربعة. وفي هذه الدائرة إشارة إلى دائرة القمر التي تحيط بكل شيء، وإلى العناصر الأربعة التي تتحرك فيها الماء والهواء والتراب والنار.

لنراجع من النصوص الإغريقية. «إنني أنا إيزيس، عاهلة البلاد جميعاً. لقد تعلمت على يد هرمز، وابتدعت بالإتفاق معه الكتابة الشعبية حتى لا يكتب كل شيء بحروف واحدة. سننت القوانين للناس وأبرمت ما لا يستطيع بشر نقضه، أنا كبرى بنات كرونوس

أنا زوجة الملك أوزيريس وأخته، إنني أنا التي تشرق في نجمه الكلب، إنني أنا التي يسميها النساء إلهة. من أجلي شيدت مدينة بوسطة. أنا التي فتقت السماء عن الأرض. وبينت للنجوم مسالكها، واخترعت الملاحة... أنا التي عقدت بين الرجل والمرأة، وقضيت بأن يحب الأبناء آباءهم. لقد وضعت مع أخي أوزيريس حدا للنمنمية (أكل لحوم البشر) وأعلمت الناس الأسرار الخافية، وكيف يعبدون تماثيل الآلهة، وحددت مناطق معابدها. أزلت دول الطغاة، وحملت الرجال على حب النساء وجعلت العدالة أقوى من الذهب والفضة وقضيت بأن يرى الناس الحق جميلاً.

واستمر بناء المعابد في الإمبراطورية الرومانية لإيزيس وسيرابيس (أوزيريس) طوال القرون الأولى بعد الميلاد. فنرى رجلاً يدعى منابتوس من مالسسين، على بحيرة جاردا، يعيد بناء معبد إيزيس، ويشيد على نفقته الخاصة مبنى أمامه. وفي بنفنت شيد من يدعى لوسليوس «قصراً فخما من أجل إيزيس العظيمة سيدة بنفنت ورفاقها الآلهة» وفي بومبي، حيث دمر الزلزال معبد إيزيس سنة 63 بعد الميلاد أعادت أسرة بوبديوس بناء ذلك المعبد.

واحتفظت الشعائر اليومية العادية في المعابد الأوروبية لإيزيس بالصيغ القديمة التي كانت لها في مصر، حتى أن مرتِّل المعبد كان يوقظ الآلهة باللغة المصرية القديمة، بل وبأنشودة الصباح نفسها «إنك تصحو في سلام، وصحوك لطيف» التي كانت تنشد منذ آلاف من السنين خلت. واحتفظت أعياد إيزيس بطابعها خاصة عيد نوفمبر الذي كان يستمر ثلاثة أيام، يمثل فيها موت أوزيريس، والبحث عن جثته ،ثم العثور عليها. وكان العيد يحتفل به عامة الشعب، إلا أن الشعائر السرية كان يحتفظ بها لدائرة ضيقة للغاية من المؤمنين الذين كانوا يؤلفون أخوة صالحة، وكانت لهم مدرستهم بجوار المعبد.

والعيد الثاني هو عيد مارس الكبير، الذي كانت تفتتح به إيزيس ملاحة العام، وكان يبدأ بمجموعة بملابس تنكرية، ثم موكب النساء بأثواب بيضاء، يتلوهن الرجال والنساء بالمصابيح والمشاعل، ثم الموسيقيّون، ثم المكرّسون الذين يصلصلون بالشخاليل، ثم الرؤساء الستة، ويحملون مصباحاً، ومذبحاً، وأدوات أخرى مقدسة، وتليهم الآلهة يتقدمها أنوبيس، برأسه المذهبة وشارته والعصا ذات الثعابين والنخلة. ويحمل خادم تمثال بقرة واقفة، وهي صورة الإلهة الولود، ويليه خادم يحمل صندوقاً يحتوي على «أسرار الديانة المجيدة».

وقد ورد لنا وصف هذه الأعياد بدقة بالغة على لسان رجل في القرن الثاني بعد

الميلاد يدعى كوكيوس، ويروى أيضاً كيف كرس في ديانة إيزيس ليكون من أتباعها المخلصين. فيقول إن كاهن كنشيرى قاده إلى المعبد، ثم أخذ من قدس الأقداس كتباً بحروف على أشكال الحيوان وتنميقات عجيبة (أي بالخط الهيروغليفي). وتلي منها ما يلزم لتكريسه ثم اقتيد بصحبة بعض الأتقياء إلى الحمام وطهر بسكب الماء عليه، وبعد الظهر في المعبد أفشيت له الأسرار عند قَدَمي الآلهة، ثم فرض عليه أن يمتنع عن أكل اللحم، وشرب العصير عشرة أيام. ولما انقضت هذه الفترة اجتمع المؤمنون في المساء، واقتاده الكاهن إلى قدس الأقداس. أما ما حدث له هنالك فلم يكن له أن يحدثنا عنه إلا تلميحاً: لقد دخل عالم الموتى ثم عاد منه مارا بكل العناصر؛ وقد رأى الشمس تضيء في حلك الليل ونظر إلى الآلهة الأعلين، والأسفلين وعبدهم وسمح له برؤية الشمس وهي تعبر بالليل مملكة الموتى مع حاشيتها. وعندما خرج في الصباح أصعد على مرقاة في وسط المعبد، أمام تمثال إيزيس، ثم ألبس ثيابا مبرقشة، محلاة بصور الحيوان، ووضع في يده مشعلاً، وحلى رأسه بتاج من خوص.

هذه هي إيزيس أم الأشياء وسيدة جميع العناصر، البداية الأولى للأزمنة التي كانت تعتبر في فريجيا أما مقدسة ليسنيوس، وفي أثينا الإلهة أثينا، وفي قبرص أفروديت بافدس، وفي كريت أرتميس، وفي صقلية برسيفون استكس، وفي الوسيس ديمتر، وهي أيضاً هيرا وبللونا، وهيكات، والإلهة الرامنوسية.

هذه هي إيزيس ذات الأشكال المتعددة، والأسماء الكثيرة، التي ابتلعت كل الآلهة في أوروبا فضلاً عن البلاد المصرية والتى اجتاحت آلهة بلاد الشرق الأدنى، عشتروت في صيدا، واترجاتس في سوريا ولكتينس في كريت. هي فيضان النيل في مصر والنهر الكبير في فينيقيا، والكنج في الهند. هي صاحبة السلطان على الرياح، والرعد والبرق والعواصف: هي إيزيس التي لا تقهر التي اقتحمت شعيرتها شمال أفريقيا وأسبانيا، وبلاد الدانوب وفرنسا وحتى في انجلترا حيث نرى نقوشا تكرم فيها إيزيس، ويكرم زوجها أوزيريس. وتقول إحدى المصادر المسيحية أن تونسبرج، جنوب بوزن، كانت كأنها إسكندرية ثانية مليئة بحماقات إيزيس، واختفاء سيرابيس. وكان في مارينهوزن في مقاطعة الرين، مذبح لسيرابيس أقامه ضابط روماني، كما عثر مراراً في منطقة الرين على تماثيل صغيرة من البرونز للإلهة المصرية. وربما كان أقوى شاهد هو ذلك الذي حفظته لنا كنيسة أورسولا في كولونيا وهو تمثال صغير لإيزيس التي لا تقهر، وقد استخدم في العصر الوسيط في تاج أحد سلاطينها.

وبالرغم من انتشار المسيحية وبدء نهاية الوثنية إلا أننا لا زلنا نرى في أوروبا أثر إيزيس واضحاً في أماكن كثيرة. ففى أثينا في منتصف القرن الرابع عثرنا على قبر لكاهن لإيزيس دفنت معه الأدوات الفضية التي كان يستخدمها في المعبد. وفي العصر نفسه نجد في الرين الأمير الألماني مديرش الذي تلقن هذه «الأسرار الإغريقية» وهو أسير في بلاد الغال. تؤدي به حماسته لسيرابيس إلى تسمية ابنه بإسم سيرابيون. وحاول جوليان إحياء الوثنية فكرَّم بذلك الإلهة المصرية. وفي عام 392 لم ينس إريو جاست الفرنجي عبادة إيزيس عندما نصب أويجيين على العرش. وفي عام 394 احتفل نيكوماك فلاقيان بصفته قنصلا، بآخر الأعياد الرسمية في روما تمجيدا لماجناماتر، وإيزيس.

وحتى حينما تم النصر نهائيا للمسيحية في أوروبا على يد تيودسيوس ظل الفلاسفة العارفون يحملون مشعل إيزيس، حتى أن أحدهم وهو إسكلبيادس الذي عاش في القرن الخامس عمد الإقامة مدة طويلة في مصر ليدرس التعاليم المقدسة من مصدرها.

ولم يقتصر دخول إيزيس على العقائد الوثنية الأخرى بل تعداه إلى العقائد المسيحية. ويكفي هنا أن نذكر ما قاله فريزر في هذا الصدد «الواقع أن طقوسها الفخمة بكهنتها الحليقى الذقون والرؤوس، بصلاتها في الصباح، ونواقيسها في المساء بموسيقاها الرنانة وتعميدها والنضح بالماء المقدس، ومواكبها المهيبة، والصور المتوجة بالمجوهرات للإلهة الأم تمثل نقط تشابه عديدة مع مواكب وطقوس الكاثوليكية».

وتعدى الأمر هذا الحد حتى أن شعيرة إيزيس عاشت أيضاً في نظريات السحرة في الغرب المسيحي الذين تبعوا آراء بلوتارك فوجدوا في قدم عهد الإلهة الأم شعيرة رمزية شعيرة روح الكون، التي تغذي كل مخلوقات الله. فبعد أن طردت من جنة المسيحيين استمرت إيزيس في عالم النجوم وعلى الأرض لتبذر جوهر الحياة» هي الجزء الأنثوي من الطبيعة أو هي تمتلك ما يجعلها كائناً مناسباً لإنتاج كل الكائنات الأخرى.

ونشاهد في القرن السابع عشر حفراً يوضح روح الكون ونرى فيه الكثير من الرموز التي ترجع إلى إيزيس: الشعر المسدول والهلال على الرحم وقدم على الماء والأخرى على اليابسة وهي مقيدة بالرب، أو كما قال بلوتارك: «إن إيزيس دائماً ترتبط بالأعلى» أما الرجل (قرد الرب) فيظهر في الحفر مقيداً إلى إيزيس، فهو يدين بحياته ذاتها للبذرة التي تتدفق من ثديها.

وتمر قرون، وما زالت شعيرة إيزيس باقية. يذكرنا روبسبير بالنصوص التي وردت في سايس وهو يقوم في احتفال مهيب بالكائن الأعلى بإشعال النار في خمار يغطي تمثالاً ضخماً لا يراه، إيزيس التي أضحت قواها الحيوية الدافقة تمثل العقل مغذى التقدم.

هل انقطعت شعيرة إيزيس بعد هذا؟ أبداً فإنه بالرغم من أن المسيحية كما سوف نرى قد عاملت السحر، والشعائر الوثنية عامة بمنتهى القسوة، إلا أننا نرى أن شعيرة إيزيس قد اتخذت أسماء أخرى كالعذراء السوداء في أوروبا وأفروديت السوداء في قبرص، واستمر انتشارها حتى في أحلك عصور الاضطهاد. بل إننا نعلم عن يقين وجود ست جمعيات على الأقل في أنحاء أوروبا تحت إسم العذارى السوداء في سنة 1939، أي منذ أقل من سبعين سنة خلت.

من شعيرة إيزيس إنها لم تحمل من أوزيريس كما تحمل النساء، بل تشكلت بشكل طائر وحملت منه أو من روحه وهو متوفي. وتعلمنا منها قوة الاسم السحرية فهي التي خادعت رع حتى باح لها بإسمه المقدس، وكذلك القوى الخفية للأرقام. وتعلمنا المثلث السحري، ودائرة القمر السحرية، وأخيرا تعلمنا الطقوس التي كان يزاولها الكهنة.

أسطورة إنقاذ البشر من الفناء

هذه الأسطورة من أروع أساطير المصريين القدماء، تحدثوا بها لكي يظهروا من طرف خفي، ما عُرِف عن الإنسان من ميل إلى الشر، وتعسفٍ ومغالاة في الاستبداد إذا ترك له الحبل على الغارب. فأغضب هذا النزوع إلى الشر الإله الكبير وأراد أن ينتقم من هذه المخلوقات الضعيفة التي شقت عصا الطاعة على خالقها. ولكنه في آخر الأمر أخذته الرأفة وعفا عنهم إبقاءً على من بقي منهم، عسى أن يكون في ذلك عبرةً ومثلاً يضرب للبشر الضعاف فيردعهم ويقوّم من ميلهم إلى الشر والخيانة.

ويبدو أن هذه الأسطورة كانت محبوبة عند المصريين لأننا عثرنا عليها مكتوبة في أكثر من مكان. وكان الملوك أنفسهم يتعلقون بما انطوت عليه من حكمة عميقة. فأمروا بنقشها على جدران مقابرهم الداخلية لتصحبهم إلى الدنيا الثانية.

ومن بين المقابر التي خلدت الأسطورة، مقابر سيتي الأول ورمسيس الثاني ورمسيس الثالث في وادي الملوك بالأقصر. ويمكننا أن نؤرخها ما بين القرن الرابع عشر والثاني عشر قبل الميلاد.

وهذا هو نص الأسطورة:

«حدث فيما مضى من الزمان ـ حين كان «رع» يسكن الأرض وبعد أن خلق الناس وخلق كل ما يدب على ظهر الأرض، كما خلق الآلهة ـ أنَّ الناس كانوا يتقدمون من الإله الأكبر بكل فروض الطاعة والعبادة اللازمتين لمقامه العلي.

ولكن الإله كان قد داهمته الكهولة بتعاقب السنين والأجيال وأصبح عجوزاً، عظامه من فضة ولحمه من ذهب وشعره من لازورد.

فأخذ الناس يتهكمون عليه ويرمونه بالضعف والهزال.

وعلم جلالة الإله ما كان يدور بين الناس وما كانوا يهمسون به. فغضب وأمر الآلهة التي كانت في ركابه قائلاً:

«أدعوا لي عيني على عجل وكذلك «شو» و«تفنوت» و«كب» و«نوت» وكذلك كل الآلهة من الآباء والأمهات الذين كانوا معي عندما كنت أسكن «نون». وكذلك أدعوا «نون» نفسه ولْيَأتِ مع أفراد حاشيته.

ادعوهم جميعاً في السر حتى لا يراهم البشر، وأحضروهم إلى القصر الكبير».

وحضر هؤلاء الآلهة جميعهم واجتمعوا سراً حتى لا يعرف البشر بأمر اجتماعهم. وعندما دخل عليهم الإله خروا ساجدين بين يديه واضعين أيديهم على الأرض.

ـ ثم هتفوا قائلين:

«تحدث إلينا، حتى نعرف ما خطبك».

ـ فقال «رع» موجها كلامه إلى «نون»:

«أي «نون» يا أكبر الآلهة سناً يا من وجدت فيه.

«يا أقدم الآلهة. أدعوك لتدلي برأيك.

«إن البشر الذين خلقتهم قد تآمروا ضدي.

«إن البشر الذين خلقتهم من عيني يتهامسون ضدي.

«إنهم يقولون في قلوبهم متهكمين: «انظروا! إن الملك أصبح كهلاً، تحولت عظامه إلى فضة ولحمه إلى ذهب وشعره إلى لازورد. هل لك أن ترشدني إلى ما أنا صانع بهم. من أجل ذلك دعوتك لاستشارتك».

«أعلم أني لم أقدم على إفنائهم حتى أسمع منك ما تنصحني به».

ـ وتكلم «نون» قائلاً:

«أنت أيها الإله العظيم».

«أنت يا من تفوق خالقك في عظمتك».

«أنت الابن الذي فاقت قوته قوة أبيه».

«أرسل عينك لتفتك بالمتآمرين عليك».

«عندئذٍ سوف يختفون من فوق الأرض».

فأرسل «رع» عينه لتفتك بالبشر حسب نصيحة «نون» ولكنهم عندما شعروا بذلك تفرقوا في الصحارى واختفوا بين الصخور.

ـ فقال رع: «انظروا كيف هرب البشر إلى الصحارى واختفوا بين الصخور. إن قلوبهم ترتجف هلعاً من عيني».

عندئذٍ تقدمت جموع الآلهة إلى الإله «رع» بنصيحة أخرى وهي أن يرسل عينه بين الناس على الأرض لتفتك بهم عن كثب. وقالوا له:

«دع عينك تنزل إلى الأرض لتقبض على أولئك الذين يتآمرون بالشر ضدك.

«إن قوّة عينك لا تكفي أن تقوم بمهمتها هذه.

«فلترسلها في شكلها كابنتك «حاتحور».

فنزلت هذه الإلهة إلى الأرض وفتكت بالبشر المنتشرين في الصحراء ورجعت إلى أبيها.

ـ فقال لها الإله:

«مرحبا بك يا «حاتحور» يا من قمتِ بما أدعو إليه من أعمال».

ـ فقالت الإلهة «حاتحور»:

«يا من تحيا من أجلي

«لقد كنت جبارة قوية بين البشر

«مهمتك هذه، أقوم بها بقلبٍ مفعمٍ بالسرور والهناء»

ـ فرد عليها الإله قائلاً:

«إن فتكك بهم سوف يوطد سلطاني عليهم.

«ولكن كفى ما قمتِ به.

«لا تقتلي منهم بعد ذلك فرداً»

أما الإلهة فلم تستمع إلى ما قاله لها أبوها. واستمرت طوال الليل تفتك بالبشر

وأخذت تسبح في دمائهم وخشي «رع» في صبيحة اليوم الثاني أن تأتي «حاتحور» على ما تبقى منهم فصلح فيمن حوله:

«ادعوا لي على عجل رسلاً يسابقون الريح، تفوق سرعتهم سرعة الظل»

فحضر الرسل على الفور وأمرهم جلالة الإله:

«اذهبوا إلى (إلفنتين) واحضروا لي كل ما تستطيعون حمله من أل «ددى»

وعندما أحضر الرسل ال «ددى» إلى الإله أمر بصحنه كما أمر بعض الخادمات بإعداد كميات كبيرة من الشراب وخلطها بأل «ددى» فأصبح لونها كدماء البشر. ثم ملأ بها سبعة آلاف جرة.

وفى الصباح أمر «رع» أتباعه أن يحملوا هذه الجرار بما فيها من حمراء وسكبها في المكان الذي اعتزمت «حاتحور» أن تفتك فيه بمن تبقى من البشر.

ـ وقال الإله متمتماً:

«ما أجمل ما فعلت. سأحمي ما بقي من البشر من فتكها»

وبدت الحقول كبركة كبيرة تعلوها طبقة من الشراب إلى ارتفاع ثلاثة أكف.

ولقد تم ذلك كله بأمر من جلالة هذا الإله.

وفي الصباح المبكر أتت الإلهة «حاتحور» إلى هذا المكان الذي غمره ذلك الفيضان وتمتعت برؤية وجهها الصبوح مرتسماً على سطحه. فضحكت وعم السرور نفسها

ثم شربت ولذ لها الشراب حتى ثملت. فرجعت تترنح ولم تقو على إتمام ما اعتزمته من الإتيان على ما تبقى من البشر.

وأقيمت الاحتفالات وسرَّ الإله. ورضيت نفسه بنتيجة هذا العمل.

رأى المصري في هذه الأسطورة أشياء أخرى غير ما قدمت، إذ ربط بين الفيضان الذي نتج عن سكب هذه الأواني السبع من الآلاف وبين الفيضان الحقيقي الذي يغمر البلاد مرة كل عام.

ومما يؤكد لنا هذا الربط أن المصري القديم كان يحتفل بعيد «حاتحور» الذي يمتاز بكثرة الشراب والإقبال على تعاطي الشراب في شهر توت وهو أول شهور فصل الفيضان.

وفي هذه الحالة يمكننا أن نقارن بين غضب «رع» على البشر وبين القحط والجفاف الذي يسبق شهور الفيضان في مصر.

ووصلت إلينا بعض نماذج مختلفة لهذه القصة، لم تكن نهايتها كما ذكرنا، بل أتبعوها بفصل آخر يتحدث عن هذه الإلهة وثورة غضبها عندما ذهب عنها تأثير الشراب.

فنددت بأبيها الذي منعها من إكمال مهمتها والقضاء على البشر جميعهم. واعتزمت الهجرة من مصر واتخذت لنفسها شكل أنثى (زوجة) الأسد. واختارت السودان مكانا لسكناها.

فحزن «رع» لفراقها وأرسل وراءها الرسل بعد الرسل يتوسلون إليها حتى يقنعوها بالرجوع إلى بلدها. ولكن جهودهم كانت دائماً تبوء بالفشل.

وفى آخر الأمر التجأ الإله إلى الأخذ بنصيحة مجمع الآلهة. فأدلوا له برأيهم ونصحوه أن يرسل حكيم الآلهة «تحوت» فهو الوحيد الذي تؤهله صفات الحكمة والدراية بخلق الإلهة أن يقنعها بالعودة إلى مصر.

فاتخذ «تحوت» لنفسه شكل القرد وذهب إليها ووجدها تتجول في صحراء السودان. وعندما رأته زمجرت. فعرف أنها لا تزال غاضبة. ولجأ إلى حيلة، علّه يجلب السرور إلى قلبها.

فقام بقفزات مختلفة وحركات لطيفة جعلت الإلهة تهدأ بل تبدأ بالضحك.

وعندئذٍ انهمك «تحوت» في أساليبه المضحكة حتى لاحظ أن حالة الإلهة أصبحت تسمح له بمفاتحتها بأمر المهمة التي أتى من أجلها.

وفي آخر الأمر نجح ورجعت معه الإلهة وسعدت مصر بقدومها كما فرح أبوها بلقائها بعد غياب طويل.

امرأة بـين رجلين

المرأة هي المرأة، في كل العصور، في عصر الفراعنة، في عصر المماليك، في العصر الحديث، في القرن العشرين.. وحتى في العصور القديمة أيام أجدادنا الفراعنة العظام. وما أحرزوه من تقدم مذهل وحضارة رائعة رهيبة. وتلك الأسطورة التي سوف تقرأ سطورها، تعد مثلا مجسداً لتلك الأنثى. وهي تجسد هذا اللون من الصراع الأبدي بين المرأة والرجل. وتبين مدى ما تصل إليه العلاقة حتى بين الأخوة إذا ما دخلت بينهما امرأة.

تبدأ أسطورتنا الفرعونية تلك، أيام عصر الملك أمنحتب الثاني. بين أخّين هما توت وأنجيدو. كانا يعيشان معاً في دارٍ صغيرة تقبع على ضفاف نهر النيل العظيم. يقيمان فيها مع زوجة توت الأكبر. وكان هو الذي يتولى تنظيم حياتهما، والإنفاق من الدخل الذي يعود لهما، في حين كان الصغير أنجيدو هو الذي يقوم بحراثة الأرض وزراعتها ثم ينظم المنزل الذي يقبع فيه أخوه وزوجته، بينما هو يقيم في الحظيرة يفترش الأرض كل يوم في المساء. ورغم ذلك وعندما تبزغ شمس النهار، يقوم ويجهز الحافلة بكل ما طابت به الأنفس. وبعد أن ينتهي الجميع من تناول إفطارهم يتناول ما تبقى منه، ثم يسوق الحيوانات إلى الحقل وينطلق بهم ليقوم بالعمل اليومي المكلف به. أما العائد الذي يحصلون عليه فكان يحصل عليه أخوه توت ولا يقتسم ثمنه مع أخيه الذي يشقى ويكد بلا مقابل. وكان أنجيدو راضيا بتلك الحياة إلى أن جاء ذات صباح.. وكان الأخوان يعدان الأرض للزرع فخرجا في صبيحة ذلك اليوم إلى الحقل. حيث أخذ أنجيدو في العمل تحت لفح الشمس وفي وهج حرارتها، بينما وقف أخوه الأكبر توت يشرف على العمل ويوجهه. ويأمر وينهي ولا يفعل شيئاً سوى ذلك. وأنجيدو يعمل بكد وهمة ولا ينبس بكلمة واحدة رغم قسوة العمل وخاصةً أيام الصيف.

وبعد أن أتمَّ أنجيدو حرث الأرض وأصبحت جاهزة لاستقبال البذور قال توت لأنجيدو:

- إذهب الآن إلى المنزل واحضر منه أكياس البذور ولكن لا تتأخر حتى يتم زرع البذور اليوم

وقال أنجيدو:

- سمعا يا أخي سأعود حالاً

وانطلق أنجيدو عائدا إلى المنزل وهو يلهث من التعب. ودخل قاعة الطعام حيث توجد أكياس البذور فانتقى كيساً كبيراً ملأه بالبذور والقمح والشعير ثم استجمع قواه ورفع الكيس فوق ظهره وسار في طريقه إلى خارج الدار عائداً إلى الحقل. وهنا رأته زوجة أخيه وهو يحمل ذلك الكيس الضخم. ورفعت المرأة عينيها وهي ترقب ذلك الفتى القوي. لقد كان جسده القوي يتصبب عرقاً وقد برزت عضلاته وفتوته. إن كل جزء من ذلك الجسد كان يوحي بالقوة والشباب.

وأحست المرأة فارق المقارنة بين زوجها الذي يوشك على بلوغ الحلقة الرابعة من عمره وبين ذلك الفتى الذي دخل في الحلقة الثانية من عمره. فأخذت تقترب من الشاب الصغير وقالت له:

- ألا تئن من هذا الحمل الذي تضعه فوق ظهرك؟ انتظر حتى أدعو لك بعض العمال فيساعدوك في حمل ذلك الثقل.

وانتفض أنجيدو وهو يسمع هذا الكلام ولكنه استمر ينطلق في طريقه وكأنه لم يسمع ما قالته زوجة أخيه. ولكن المرأة بإلحاحها لم تتركه يسير بل استمرت تقول:

- ما أجملك يا أنجيدو وأنت تحمل ذلك الكيس! إنك تبدو كأحد الآلهة التي هبطت من السماء لتعيش في الأرض، وما أروع أن يكون للمرأة زوجاً هو هبة من الآلهة في القوة. إنك مفتول العضلات، يافع السن، عكس أخيك الذي قد قارب فترة الشيخوخة ووهنت قوته.

واقتربت المرأة من أنجيدو، ووضعت يدها الساخنة على ذراعه المفتولة العضلات.

وهمست قائلة:

- لكم تمنيت أن أكون زوجة لك يا أنجيدو. فإنك أقوى من أخيك وأبهى منه عنفواناً وروعة.

وانتفض الفتى من كلام المرأة. وأحس وكأنما أصابته الحمى وارتفعت درجة حرارته. أو كأن أفعى سامة قد لدغته. فإن بعض الكلام تصيب الإنسان وكأنه قد أثخن بالجراح أو طُعن بمئات الخناجِر.

وقال أنجيدو لامرأة أخيه:

- إن المرأة التي تتكلم عن زوجها بمثل ما تكلمت به أنتِ، لا تستحق أن تعيش ولو يوماً واحداً بعد ذلك. ولكنه أخي ومن العار أن تتحدث امرأة مثلك عنه بهذه الطريقة. إنك لا تستحقين مثل توت، ولا ينبغي لك الحياة الكريمة.

وانطلق أنجيدو يهرب من ذلك المنزل.. إنه يفرُّ منه وكأنما تطارده آلاف الأرواح الشريرة أو تطارده الشياطين. وبالفعل فإن ذلك المسكن كان يقطن فيه شيطانٌ ممثَّلٌ في تلك المرأة الوقحة القبيحة اللسان.

وذهب أنجيدو إلى الحقل ولكنه قد عوَّل بينه وبين نفسه على ألا يحدّث أخيه عن ذلك الموضوع وذلك الكلام الذي جرى بينه وبين امرأته.. وانهمك في العمل الشاق دون أن يتكلم وكأنه لم يحدث شيئاً.

أما المرأة فقد تملَّكها الرعب.. إنها فزعت وتصوَّرت أن أنجيدو سوف يحدّث زوجها يخبره بما حدث منها.

وفي نفس الوقت اجتاحتها رغبة عارمة في الثأر والانتقام لأنوثتها التي أهانها أنجيدو. إنه أذل كبرياءها ولذلك عزمت على الإفضاء إلى زوجها افتراء حتى ينتقم منه ولو أدى الأمر إلى أن تكون تلك هي نهايته.

وأخذت المرأة الشيطانة تلطخ جسدها بالطين ثم تخمش ذراعيها وكفيها. حتى يخيل إلى من يراها أنها قد خرجت لتوها من معركة قاسية. إنها فعلت كل ذلك لتوهم زوجها بنشوب معركة بينها وبين أنجيدو ولكنها رفضت الاستسلام له عندما حاول الإيقاع بها بين براثنه.

وعندما حل الظلام، قفل توت الأخ الأكبر عائداً إلى المنزل وترك أنجيدو يجهز الأشياء التي سوف يعود بها. وأخذ العجب بتوت وهو لا يرى امرأته تستقبله على باب

المنزل فتلك هي عادتها تستقبله يومياً وفي يدها المصباح تنير له الطريق والمدخل إلى المنزل.. ولكنه دخل إلى منزله وتعجب أكثر عندما لم يجد الماء الساخن الذي تعودت أن تجهزه له ليغسل يديه وقدميه بعد عناء اليوم وقد أحس أن هناك شيئا ما قد حدث جعلها تنسى أو تتناسى كل هذه الأشياء ولذا انطلق على حجرتها ففوجئ بامرأته وهي راقدة تبكي وتتوجع ونظر إلى جسدها فوجده ملطخاً بالطين والتراب، والخدوش والجروح تغطي معظم ذلك الجسد فسألها توت:

ـ ماذا بك؟.. ماذا حدث؟

فقالت امرأته وهي ما زالت تبكي

ـ إنه أخوك يا توت.. إنه أنجيدو.. فعندما حضر هنا ليأخذ كيس البذور وجدني بمفردي فحاول الإيقاع بي وسوَّلت له نفسه أن يعتدي على عرضك ويدنس شرفك. وأخذ يتفاخر بقوته وإنه على استعداد لأن يقتلك لأنك أضعف منه.. فلما حاولت نهيه عن ذلك وحاولت أن أفهمه أنك أخوه الأكبر وولي نعمته، راح يسخر مني ومنك وألقاني على الأرض وانهال عليّ ضرباً فقاومته. لكنه أقسم أن يقتلني إذ أنا واجهتك بهذا الموضوع ولذا فأنا أقول لك ما حدث رغم أنني أعرف أن ذلك ربما يكون فيه نهاية حياتي.. إذا لم تسبق أنت وتضع حداً لحياته هو.. ذلك الخائن الذي تأويه في دارك وتنفق عليه.

ولعبت تلك الكلمات في رأس توت.. وأتت ثمار خطة تلك الشيطانة مفعولها.. ونضجت فكرة وضع حدٍّ لحياة أخيه ولم يطق الصورة التي نقلتها امرأته كذباً وافتراء على أنجيدو. فشحذ خنجره وتربص في الحظيرة منتظراً حضور أخيه وعودته من الحقل وهو يسوق أغنامه وأبقاره التي كانت ترعى طيلة ذلك النهار المنصرم.. ولم تكد أولى البقرات تدخل باب الحظيرة حتى سمعها تحذره وهي تقول له:

ـ حذار... حذار... يا أنجيدو إن أخاك متربص لك يريد أن يقتلك فانطلق واهرب قبل أن ينالك.

ولكن أنجيدو لم يعبأ بذلك الكلام ودخلت البقرة الثانية ولدهشته سمعها تقول نفس الكلام الذي قالته البقرة الأولى وكلما دخلت إحدى الأبقار إلى الحظيرة رددت نفس كلام السابقة لها.. وأخذ العجب بأنجيدو.. وتلصص يتلفت بحذر فإذا به يرى قدمي أخيه توت وهي تستعد للانقضاض عليه.

ولذا انطلق يعدو مبتعداً عن الحظيرة بكل ما أوتي له من قوة ومن خلفه انطلق توت يحاول أن يقتله وهو يرفع خنجره. ولما كاد أن يلحق به.. وفي لحظة الضعف انطلق أنجيدو وهو يرفع رأسه إلى السماء إلى الآلهة وهو يقول:

ـ أيتها الآلهة.. أيها الإله حورس.. يا من تعرف أنني مظلوم وإنني لم أقترف إثماً ولا ذنباً.. أنقذني مما أنا فيه. أخي يريد قتلي لأنني حافظت عليه وعلى شرفه ولم ألوثه.

واستجابت الآلهة لدعوة ذلك المظلوم.. فإذا سيل من مياه الأمطار يفصل بين الأخوين المتخاصمين.

وإذ رأى أنجيدو ما فصل بينه وبين أخيه توقف عن الجري والتفت إلى توت وقال له:

ـ لا تنصرف يا أخي توت.. أبق مكانك حتى تبزغ علينا شمس الصباح وتفصل الآلهة بيننا وتحكم بالعدل ويأخذ كل منا حقه من الآخر. ولكن إذا ظهرت براءتي فإني لن أعود معك إلى تلك الدار مرة أخرى.. إنها النهاية بيننا.

وطلعت شمس الصباح وأشرق حورس يغطي الأرض بضيائه فوقف الأخوان يحتكمان وكلٌّ يسوق أدلة اتهامه.

فقال أنجيدو:

ـ لقد حكمت عليّ بالموت يا توت واستمعت إلى وشاية زوجتك ولم تستمع إلى دفاعي.. قد أرادت أن أقتل بيدك خوفاً على نفسها من أن تقتل.. إنني لا أخونك ولا يمكن أن ألوث شرفك وأدنسه.. اطمئن يا أخي. كيف غاب ذلك عن بالك وعن خاطرك؟. إن زوجتك هي التي زينت لي الإثم والرذيلة وأرادت هي لا أنا أن تنال من عرضك.. وتمنت هي أن أقتلك لننعم سوياً فوق أطلال جثتك. فلما نهرتها ورفضت ذلك أقسمت أن تختلق تلك القصة الطويلة حتى تقتص مني.. فاستمعتَ أنت إلى الشيطانة وخنت أخوك الذي كان يحافظ عليك وعلى شرفك وأردت أن تقتلني. أليس كذلك يا توت ؟. وسكت أنجيدو فترة وأخذ يمسح دموعه التي انهارت على خديه واستطرد يقول:

ـ ولكن رغم كل ذلك فأنا أخوك ولن أحقد عليك ولن أسعى إلى تدميرك والدفاع

عن نفسي. عد يا أخي إلى منزلك وإلى زوجتك التي آثرتها على أخيك وأتمنى لك الحياة السعيدة رغم أنك تمنيت لي الموت.

وأخذ توت يبكي ويعتذر لأخيه وهو يقول:

ـ لقد عرفت صدق قصتك يا أنجيدو.. وعرفت أنني أخطأت بحقّك عندما سمعت كلام زوجتي ولكني أرجوك بحق الآلهة أن تعود.. لا تجعل الغضب يأخذ منك مأخذاً. عد لنعيش كأحسن ما يعيش الأخوة.

وقال أنجيدو:

ـ لقد قررت أن أذهب إلى وادي الموت لأعيش هناك.

ورد توت:

ـ وادي الموت!!. كيف ستعيش في هذا الوادي حيث الشياطين والوحوش لا تأوي إلا في هذا المكان.

ولكن الفتى أنجيدو قال:

ـ منذ رفعت خنجرك في وجه أخيك انقطع ما بيننا يا توت. ومع هذا إن كنت لا زلت تحب أخاك فإن الآلهة سوف تيسّر لك سبيل التوبة وإصلاح هذا الذنب ولن يستطيع أحد أن ينقذني إذا وقعت في مأزق يعرض حياتي للخطر، إلاّ أنت.

فقال توت:

ـ كيف أستطيع إنقاذك يا أنجيدو وأنت في ذلك الوادي وأنا لا اعرف عنك شيئاً؟

قال أنجيدو:

ـ بفضل قوة السحر سوف أعلق قلبي على إحدى زهرات الطلح فإذا حدث وقطع أعدائي ساق الشجرة سوف يقع قلبي على الأرض وعندئذٍ يفور الطعام الذي تتناوله وتحس مرارة في فمك. فإذا أردت أن تنقذني فأسرع إلى وادي الموت وابحث عن قلبي الملقى على الأرض. فإذا وجدته ضعه في إناء بارد وعندئذٍ سترتد إلى جسدي الحياة ومن ثم أنهضُ وأنتقمُ بنفسي من كل من يريد لي الموت.

وودع أخاه ثم انطلق إلى وادي الموت.

وعاد توت يبكي يصر على الانتقام من تلك المرأة التي جعلت أخاه يهجره ويضحي

بنفسه في سبيله وهو الذي كاد أن يقتله.. فمزّق تلك المرأة والشيطان الذي يسكن روحها بنفس الخنجر الذي كاد أن يقتل به أخاه.

عاش أنجيدو في وادي الموت بسعادة لا يشاركه الحياة أحد من بني الإنسان.. وذلك بمنأى عن شرورهم. وكان يقضي وقته في مطاردة الحيوانات ويعود في الليل إلى البيت الذي أقامه في جانب الوادي.

إلا أنه ذات يوم، مرَّ به أحد الآلهة ورآه في عزلته هذه، فاقترب منه وقال له:

ـ أتعيش بمفردك هنا يا بني ؟ ألا تؤلمك هذه الوحدة ؟. عد إلى دارك فقد انتقم أخوك لك من زوجته وقتلها ونَدِم وكفَّر عن الذنب الذي اقترفه في حقك. فلماذا هذا الخصام؟. عد له يا ولدي إنه ينتظرك.

ولكن أنجيدو قال له:

ـ يا إلهي إنني أقسمت ألا أعود إلى هذا المكان. فدعني أدبر شؤوني.. ولكن باركني قبل أن تنصرف.

فأشفق عليه الإله وباركه بعد أن ترك له زوجة جميلة خلقها خصيصاً له لتشاركه هذه الحياة. وهبطت الزوجة لتقع بين أحضان ذلك الفتى الصغير، الذي ملأته الفرحة من هبة الآلهة له. ولكن ربات الجمال اللواتي رأينها تنبأن لها بأن حياتها، سوف يضع السيف حداً لها، وأن دماءها سوف تهدر جزاءً لخيانتها.

وأحب أنجيدو تلك المرأة التي هي من نسل الآلهة حباً جماً وبلغ به هذا الحب حدّ الغيرة حتّى أنه لم تخرج إلى نهر النيل لتستحم فيه.. وبسبب هذا الحب كله فقد صارحها بسر قلبه المعلق فوق زهرة الطلح.. ولكنه حذرها من قطعها حتى لا يموت ويفقد حياته.

وذات صباح خرج أنجيدو يصطاد الحيوانات كعادته كل صباح وكان الملل والسأم قد أخذا بزوجته بسبب مكوثها معظم وقتها بمفردها انتظاراً لعودة زوجها. فانتهزت الفرصة وغادرت الدار وانطلقت إلى شجرة الطلح حتى ترى قلب زوجها المعلق عليها. ودفعها الفضول وأرادت أن تعبر النهر وكشفت عن ساقيها الجميلتين وأدلتهما في الماء وهي تحركهما في صخب. وانطلاق فاضطرب النيل وأثاره مرأى هاتين الساقين الجميلتين وأحس بهما. فاندفعت الأمواج تضمها وتحاول اختطافها ولكنها صارعت برفع ساقيها العاريتين وانطلقت إلى داخل الدار من الخوف والرعب وأخذ الأسف بالنيل

لهرب تلك المرأة التي أثارته ورغب بها، وراح يتوسل إلى شجرة الطلح المطلة عليه أن تدعه يخطفها وتيسر له ذلك. ولكن الشجرة رفضت توسله وظلت على رفضها ثم رضخت في نهاية الأمر لتوسلاته وأعطته خصلة من شعرها يطفئ بها ظمأه المجنون إليها ويشم عبيرها منه.

وحمل النيل تلك الخصلة فرحا وراح يجري بأمواجه هنا وهناك ولكنه لم يتبين ذلك الحوض الذي يتخذه خدم فرعون مغسلاً له. وإذا بالخصلة تسقط في ذلك الحوض لتسرَّبت منها رائحة الطيب إلى ثياب الفرعون الذي ارتدى تلك الثياب، واشتم تلك الرائحة. فثارت أعصابه وسرت في جسده رعشة الحب وأقسم ليقتلن رئيس الغسالين إذ لم يقل له سر ذلك العطر ومن أين جاء.

وأخذ رئيس الغسالين يبحث وينقب حتى عثر أخيراً على خصلة الشعر في الحوض فحملها إلى الفرعون الذي أخذ يشمها وأحس بتلك النشوة مرة أخرى. ومن ثم أرسل الرسل والجنود إلى جميع أنحاء البلاد يبحثون عن صاحبة تلك الخصلة وعاد بعضهم وهو يحمل راية الفشل. أما الذين ذهبوا إلى وادي الطلح فلم يعودوا إذ قتلهم أنجيدو جميعاً عندما حاولوا أن يقتربوا من منزله إلا جندياً منهم استطاع أن يفر من بطش أنجيدو وعاد يحمل سر المرأة إلى الفرعون.

وحشد الملك فرقة من الفرسان والرماة وذهبوا إلى وادي الطلح ليعودوا بتلك المرأة التي هام بها الفرعون حباً من قبل أن يراها. وأرسل مع الفرقة امرأة أوصاها بأن تكون في خدمتها بعد أن يختطفها الجنود.

واستطاعت تلك الفرقة أن تقتحم منزل أنجيدو خلال خروجه لصيد الحيوانات كعادته فاختطفوا المرأة وهي بمفردها وانطلقوا بها إلى الفرعون قبل أن يعود زوجها ويبطش بهم.

وعاشت المرأة في منزل الفرعون وشعرت بالسعادة تتملكها وهي تحس أنها ملكة وأخذت تتصرف على هذا الأساس. بل لقد عزمت على أن تعيش أبد الدهر والزمان في ذلك القصر وقررت ألا تعود إلى زوجها، حتى ولو عثر عليها، رغم أن الإله قد خلقها لهذا الرجل بمفرده.

ولكن مكر النساء ودهاءهن جعلاها تعيش في خوف دائم من أن يعثر عليها زوجها. ورأت أنه من الأسلم أن تصارح الفرعون بسر القلب المعلق على زهرة الطلح في وادي

الموت، وكيف أن زوجها سوف يفقد حياته إذا قُطعت تلك الشجرة وسقط القلب المعلق فوقها.

وأرسل الملك رسله من جديد إلى وادي الموت وقاموا بقطع الشجرة وسقط القلب واختفى في جوف الأرض وسقط أنجيدو على الفور يصارع الموت وينتظر معجزة الإله التي سوف تنقذه من هذا المصير الذي أعدته له زوجته.

ومضى ذلك النهار وانقضى. . وجاء المساء.

عاد توت إلى منزله وأخذ يجهِّز طعامه. وحين همَّ بتناوله أخذ الطعام بالفوران والغليان. لكن توت كان قد نسي تحذير أخيه له حول تلك الظاهرة وحدوثها يعني أن حياته في خطر. فتناول من هذا الطعام وأحس بمرارة في حلقه كالعلقم. وهنا تذكر كلام أنجيدو وأحس أنه في خطر وأن عليه إنقاذه لأنَّه بحاجة إليه.

وارتدى توت ملابسه وحمل سلاحه وتوجه إلى وادي الموت وعثر على منزل أخيه ودخله. فوجد أنجيدو على فراشه وجثته لا تزال ساخنة. وراح يبحث عن القلب هنا وهناك ولكنه لم يستطع العثور عليه. واستمر توت بالبحث حتى يئس من العثور على قلب أخيه وأدرك أنه لابد من دفن الجثة كيلا يتركها كذلك، وفي اليوم الذي همَّ فيه بالرحيل قام يبحث للمرة الأخيرة فعثر على بذرة بشكل قلب، لم يكد يضعها في الماء حتى انتفخت وصارت بحجم القلب الذي لم يكد يبلغ حجمه الطبيعي، حتى تحرك الجسد الذي كان محنطاً فوق الفراش. وفتح أنجيدو عينيه وعادت نسمات الحياة إليه.

إنطلق الأخوان عائدَيْن إلى ممفيس. وخلال تلك الرحلة روى أنجيدو لأخيه قصة خيانة زوجته له وأقسم على الانتقام منها. واتفقا على الطريقة التي ستساعداهما بالدخول إلى قصر الفرعون لتنفيذ هذا الانتقام.

وفي الصباح، تحول أنجيدو بقوة السحر التي يملكها إلى ثور مقدس يحمل كل علامات التقديس. وطلب من أخيه توت أن يقوده إلى بلاط الفرعون.

فانطلق توت يقود أخاه على القصر. وأطلت الملكة زوجة أنجيدو فرأت ذلك الثور المقدس وأمرت بإدخاله إلى القصر والسهر عليه ورعايته وعنايته.

ومضت الأيام وبدأ الثور في التعوّد على القصر، وأخذ يتردد في دهاليزه المختلفة دون أن يضايقه أحد أو يتبعه أحد من الحرس المكلفين برعايته والاهتمام به. ولم يجرؤ أحد على اعتراض طريقه أو حرمانه من التمتع بحريته.

وذات يوم دخل الثور المقدس حمام القصر. ووقف أمام امرأته التي كانت تمثل أجمل نساء القصر وأحلاهن. وأخذ في التحرك والدوران حتى يلفت أنظار الملكة فانتبهت وأخذت تداعب الثور وتربت على شعره في هدوء. ولم تكد تفعل ذلك حتى سمعت صوتاً يقول لها:

ـ انظري.. إنني حي يرزق.

وهتفت الملكة وهي تقول: ـ من أنت؟.

فقال لها الصوت: ـ هل نسيتني؟ ألا تذكرين زوجك؟

فصرخت الملكة رعباً وانطلقت إلى حجرتها وأغلقت بابها عليها.

وغادر الثور القصر عائداً إلى حظيرته التي يمكث فيها..

وانصرم ذلك اليوم. وبينما كان الفرعون يتناول طعامه حول مائدته العامرة بأحلى أصناف الطعام وامرأته جالسة بجواره تصب له كؤوس الشراب الواحد وراء الآخر، قالت له:

ـ هل تعدني أن تلبي لي طلباً؟.

وضحك الفرعون من هذا الكلام ثم قال:

ـ لكِ ما تريدين بحق الآلهة.

فقالت المرأة:

ـ إذن امنحني كبد هذا الثور الحبيب.

وفي نشوة السهر وإعجابه بأمرأته، أمر الملك بذبح الثور فذبحوه. وحينما حمله الخدم إلى الخارج، سقطت قطرات من دماء ذلك الثور أمام الباب ولم ينتبه أحدٌ لهذا.

ومر اليوم وجاء الصباح.. فإذا شجرة عظيمة قوية الجذور قد نمت حيث سقط الدم وهي تحمل ثماراً حلوة لذيذة.

وعلم الجميع بالمعجزة التي ظهرت أمام قصر الفرعون، فأقام الملك حفلاً عظيماً اشترك فيه جميع الناس.

ومضت الأيام وهبط الملك إلى الحديقة ذات يوم، وجلس تحت تلك الشجرة يتناول الطعام هو وامرأته.

وسمعت صوتاً يقول لها:

ـ أيتها المرأة الخائنة، للمرة الثانية تحاولين قتلي.

فصرخت المرأة وهي تنظر إلى الشجرة بذهول وعزمت على أن تقطع هذه الشجرة في أقرب وقت.

ومرت أيام أخرى، وطلبت الملكة من الملك قطع تلك الشجرة ليصنع من خشبها خزانة جميلة لها.

وفي اليوم التالي أمر الملك بقطع الشجرة وتنفيذ ما أمرت به. وتم لها ما أرادت تحت إشرافها إذ وقفت هي مع النجارين وهم يقومون بقطع تلك الشجرة.

وأثناء وقفتها وهي تأمر هذا وتنهي ذاك، طارت قطعة صغيرة من الخشب إلى فمها فابتلعتها دون أن تعي ذلك ولم تهتم لها أبداً.

وبعد فترة، جاء الملكة المخاض فوضعت ولدا ذكراً. لم يكن سوى زوجها أنجيدو.. وفرح الملك بالطفل الصغير وأعلنه ولياً للعهد وأورثه حكم البلاد. ومات الملك واحتفل الجميع بتنصيب ولي العهد ملكاً عليهم.

وبينما الجميع ينتظرون أن يقص الملك حكايته كما كان ذلك جارياً في تلك الآونة. انطلق ولي العهد يروي لهم حكايته منذ هرب من دار أخيه إلى أن وصل إلى حكمهم.

وارتفع صوت الملك يسأل كهنته:

ـ ما حكم تلك المرأة الخائنة ؟.

فصاح الجميع بصوت جهوري.

ـ الموت... الموت... الموت.

وأمر أنجيدو بتنفيذ الحكم، وبالسيف قطع رأس الملكة، تماماً كما تنبأت لها ربّات الجمال.

أما أنجيدو فقد استمر يحكم البلاد عشرين عاماً وهي الفترة التي عاشها حتى مات.

وهكذا أوصلت المرأة شاباً إلى حكم البلاد ورعايتها وهي التي كانت تدبر له الموت على يَدِ أعز الناس إليه وأقربهم إلى قلبه.. على يدِ أخيه..

قصة «آتون» إله التوحيد

في الدولة الحديثة كان الإله الأكبر هو «آمون» إله طيبة وملك الآلهة. واندمج فيه معظم الآلهة الأقوياء في مصر وعلى رأسهم إله الشمس «رع». وعلى ذلك فإن آمون وحورس وخنوم وآتوم، كل هذه الآلهة صارت تعتبر في الدولة الحديثة إلهاً واحداً.

ومع ذلك فإن وجود المعابد المختلفة لكل من هذه الآلهة يجعلنا نعتقد أن فكرة التوحيد بينها لم تكن إلا أقوالاً شعرية جوفاء. كما أنَّ كهنة آمون قاوموا ـ بطبيعة الحال ـ هذه النظريات التوحيدية المضادة لتعدد الآلهة في الدولة الحديثة، لأنهم كانوا على درجة كبيرة من الثراء وخشوا أن تطيح هذه النظريات بثرائهم الطائل.

ويذكر التاريخ محاولة وحيدة عملية للقضاء على تعدد الآلهة قام بها ابن أمنحوتب الثالث آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة العظام وهو المشهور باسم «أخناتون».

وقد انطوت محاولة هذا الملك على استبدال جميع آلهة العصور السابقة بإله واحد سماه «آتون الحي العظيم»..

ولعل القارئ يود أن يعرف شيئاً عن تاريخ هذا الإله. وفي الواقع لم يذكر هذا الاسم بين الآلهة المصرية إلا مرات معدودات، على أنه إله محلي ضئيل الشأن، عبد في عصر الدولة الوسطى (حوالى 2000 ق.م) في قرية صغيرة من القرى المجاورة لمدينة هليوبوليس، وبقي مهملاً لا نعرف عنه شيئاً، حتى جاء هذا الملك المتحمس ورفع من شأنه وجعل من عقيدته ديناً رسمياً للبلاد.

ويجدر القول بأن الملك تحوتمس الرابع (ثامن ملوك الأسرة الثامنة عشرة) كان أول ملك جاهر بالتعبد لصورة من صور هذا الإله. ثم جاء بعده الملك أمنحوتب الثالث وبنى بعض المعابد لهذا الإله في طيبة ومنف.

ويبدو أن الملك الأخير كان مدفوعاً بحب زوجته «تي» المشهورة التي سلبت لبه بجمالها. واحتفل بزواجه منها احتفالاً لم يذكره التاريخ لأي ملك آخر، وجعل منها الزوجة الملكية الأولى برغم أنها لم تكن من سلالة ملكية.

وعندما تولى أمنحوتب الرابع بن أمنحوتب الثالث من زوجته «تي» العرش لقب نفسه كبير كهنة («رع ـ حور ـ آختي»)، المبتهج في جبله المضيء واسمه «شو» وهو اسم «آتون».

ومعنى هذا أن الملك أخناتون رأى في هذا الإله صورة معنوية غير مجسدة تسكن الجبل المضيء (بمعنى الأفق).

وفي أوائل أيام حكمه كان هذا الملك يتعبد لكل من الإلهين «آمون» و «أتون». عبد الأول بصفته ملكاً على مصر وتعبد إلى الثاني بصفته الشخصية.

ويظهر من بعض الوقائع التاريخية أن كهنة «آمون» عزَّ عليهم أن يستمر هذا الملك الشاب الضئيل المريض الجسم .. الذي كاد يبدو كالمعتوه ـ في التقرب إلى ذلك الإله الدخيل «أتون». فأخذوا يحيكون حوله المؤامرات كما حاولوا عدة مرات اغتياله ـ مِمَّا أدَّى إلى نتيجة لم يكن يتوقعها كهنة «آمون» إذ شن عليهم أخناتون حرباً شعواء لا هوادة فيها، وتعقبهم وشتت شملهم وصب جام غضبه على الإله «آمون».

وقصارى القول أن ثورة الغضب التي اجتاحت أخناتون جعلته يتعقب «آمون» وجميع الآلهة القديمة المندمجة فيه. ولا نجد لهذه الثورة مثيلاً إلا في تاريخ التعصب. فقد محا رجال الملك أسماء «آمون» وصوره حيثما وجدت، وكان أتباعه يتسللون حتى إلى بطون المقابر ليصبوا غضبهم على الإله البغيض.

ولا غرابة إذاً، إذا كره الملك عاصمة ملكه طيبة مقر عبادة «آمون» وزملائه من الآلهة إذاً فهجرها وأمر بتشييد عاصمة جديدة لتحل محل مدينة طيبة الدنسة.

وشيدت مدينة «تل العمارنة» في مصر الوسطى بالقرب من ملوى. ومن هذه المدينة انبثقت أشعة عصر جديد كله مجد وكله فخار.

فهنا نبت الدين الجديد الذي يوحد بين العبادات ويطلب إلى المصريين أن يتعبدوا إلى إله واحد لا شريك له. وهنا أيضاً أدخل الملك أساليب جديدة في كل مظهر من مظاهر الحياة في مصر.

وكان الفن من أهم ما تناولته يد التغيير فقد أخذ يرنو إلى تقليد الطبيعة حتى أصبح فنا واقعياً يستمد مادته مما هو كائن وبذلك تحرر الفنان من تلك القيود العتيقة الجامدة التي كانت تسيطر على الأسلوب الفني طوال العصور السابقة.

إذن كان للثورة هدفان: الأول إزاحة ذلك الكابوس الذي جثم على صدورهم سنين عديدة من تعدد الآلهة وإقامة الطقوس وتشعبها وتعنت الكهنة. والهدف الثاني كان الجنوح بالفن إلى الناحية الطبيعية البحتة يستلهمها صوره وأخيلته ومعانيه.

وسنحاول هنا أن نثبت ترجمةٍ للأنشودة الكبرى التي دبجها أخناتون لمعبوده الجديد وهي تضفي على هذا المعبود صفاتاً عالمية خليقة بأن يرى فيها كل إنسان ـ مصرياً كان أو أجنبيا ـ مثله العليا التي يتطلع إليها كل متعبد تقي.

كما يجدر بنا أيضاً أن نشير إلى تلك المشابهة الكبيرة بين الكثير من فقرات هذه الأنشودة وبين فقرات أحد مزامير داود وهو المزمار رقم 104، وقد كان هذا التشابه موضع ملاحظة كثير من علماء اللاهوت.

والأنشودة ـ موضوع الحديث ـ مأخوذة من مقبرة «آي» المحفورة في الصخر بمنطقة تل العمارنة. ولا نشك في أنها كانت تنشد كل صباح عند شروق الشمس ومساء عند غروبها في معبد «آتون» بتل العمارنة.

وها هي ذي ترجمتها:

«إنك تسطع جميلاً في أفق السماء.

«يا «آتون» الحي. يا بدء الحياة.

«إنك إذا أشرقت من جبل النور الشرقي.

«ملأت كل بلد بجمالك.

«إنك جميل. إنك عظيم

«إنك تتلألأ عاليا فوق كل بلد.

«إن أشعتك تغمر البلاد وكل شيء خلقته.

«إنك «رع» الذي تأسر كل من رآك.

«إنك الإله الذي دان الجميع بحبك.

«إنك ناء ولكن أشعتك على الأرض.

«إنك قصي ولكن طبعات قدمك على الأرض هي النهار.

«إذا غربت في الأفق الغربي للسماء،

«أظلمت الأرض وأصبحت كأنها ميتة.

«فيستقر الناس في حجراتهم وقد غطوا رؤوسهم.

«لا ترى عين عينا أخرى.

«إذا سلبهم سارق ما تحت رؤوسهم فإنهم لا ينتبهون.

«أما السباع فتخرج من جحورها،

«والثعابين تنسل وتلدغ.

«ويخيم السكون على الأرض.

«لأن خالقها قد استراح في أفقه الغربي.

«تضيء الأرض إذا ما أشرقت من أفقك.

«إذا سطعت في النهار كـ «آتون» تبدد الظلام.

«إذا أرسلت أشعتك عم الفرح كلا القطرين،

«واستيقظ الناس وهبّوا على أقدامهم.

«لأنك أنت الذي تقيمهم.

«فيغتسلون ويلبسون ملابسهم.

«وترتفع أذرعتهم متعبدين لشروقك.

«ثم ينتشرون في الأرض يباشر كل منهم عمله.

«أما الأشجار والنباتات فهي تزدهر.

«أما الطيور فهي ترفرف خارجة من أوكارها.

«تسبح أجنحتها بحمدك.

«وتقفز الحملان على أقدامها.

«وكل مخلوق حي تهتز أعطافه.

«لأنك تشرق من أجله.

«وتبحر السفن شمالاً وجنوباً.

«وتعج الطرق بالناس.

«لأنك تضيء.

«أما الأسماك في النهر فتتقافز أمامك.

«إن أشعتك تنفذ إلى أعماق البحر.

«إنك خالق النطفة في الرجال.

«إنك تعطي الحياة للجنين في أحشاء النساء.

«تهب الحركة للوليد في بطن أمه.

«وتسكّن من روعه فلا يبكي.

«إنك بمثابة المربية للجنين وهو لا يزال في بطن أمه

«إنك تهب نسيم الحياة.

«لتحيا به جميع مخلوقاتك.

«إذا خرج الجنين من بطن أمه،

«جعلت من ذلك يوم ولادته.

«ثم تفتح فمه ليتحدث،

«وتدبر ما يحتاج إليه.

«وإذا صاص الفرخ في بيضته،

«فإنك تهبه الهواء لتبقيه حيا،

«ثم تمده بالقوة حتى يثقب بيضته،

«ويخرج منها وهو يصيص بكل ما لديه من قوة،

«ويسعى على قدميه إذا خرج منها.

«ما أكثر ما خفي علينا منها.

«أنت يا إله، يا أوحد.

«لقد خلقت الأرض حسبما تهوى أنت وحدك.

«خلقتها ولا شريك لك.

«خلقتها مع الإنسان والحيوان كبيرة وصغيرة.

«مع ما يسعى على قدميه فوق الأرض

«وكل ما يحلق بجناحيه في السماء.

«خلقت بلاد سوريا والنوبة ومصر.

«وأقمت كل إنسان في مكانه.

«ودبرت لكل إنسان ما يحتاج إليه.

«وجعلت لكل منهم أيامه المعدودة.

«لقد تفرقت ألسنتهم باختلاف لغاتهم.

«كما اختلفت أشكالهم وألوان أجسادهم.

«وهكذا قد ميزت بين الشعوب.

«لقد خلقت النيل في العالم السفلي.

«ودفعت به إلى (أعلا) حسب مشيئتك.

«لتحيي به البشر يا سيد الجميع.

«لأنك قد خلقتهم لنفسك.

«أنت يا شمس النهار.

«يا عظيما في جلالك.

«يا من خلقت البلاد البعيدة.

«وجعلتها تحيا هي الأخرى.

«لقد جعلت نيلا يهبط إليهم من السماء،

«وجعلت له أمواجاً تتدافع على الجبال كالبحر.

«فتجد حقولهم ما تحتاج إليه من الماء.

«ما أعظم تدبيرك يا سيد الأبدية.

«وهبت نيل السماء لشعوب الجبال.

«فأحييت حيوانها ومن يسعى فوق أقدامه.

«أما النيل فهو يخرج لمصر وحدها من العالم السفلي

«فتغذي أشعتك كل حديقة،

«وينمو كل نبات إذا ما أشرقت عليه.

«لقد خلقت الفصول لكى تحيي كل مخلوقاتك.

«وجعلت لهم الشتاء ليتعرفوا على بردك،

«ثم جعلت لهم الصيف ليتذوقوا حرارتك.

«وخلقت السماء البعيدة لتشرق فيها.

«ولترى منها كل ما خلقته أنت وحدك.

«أنت الوحيد الذي يشرق في صورته كآتون الحي.

«ساطعا متلألئاً رائحاً وغادياً.

«لقد خلقت من نفسك تلك الأشكال التي تعد بالملايين

«مدنا وقرى وقبائل وجبالاً وأنهاراً

«كل العيون ترنو إليك.

«لأنك أنت آتون الذي يشرق في النهار على الأرض

«إنك في قلبي.

«ليس هناك من يعرفك غير ابنك أخناتون.

«إنك أنت الذي أمددته بالحكمة.

«إنك أنت الذي ثقفته بتدبيراتك وقوتك.

«إن الدنيا بين يديك.

«ولا غرابة في ذلك فأنت صانعها.

«إذا ما أشرقت عاش الناس.

«وإذا ما غربت ماتوا.

«إنك أنت الحياة.

«ولا يحيا الناس إلا بك.

«تستمتع العيون بجمالك حتى تغرب.

«فإذا غربت في الأفق الغربي.

«ترك الناس أعمالهم كلها.

«لقد خلقت العالم.

«وجعلت الناس يحيون.

«كل ذلك من أجل ابنك الذي نشأ منك.

«ملك مصر العليا ومصر السفلى.

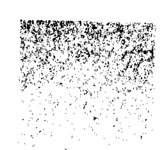
«الذي يحيا في الحق.

«سيد الأرضيين أخناتون، الذي يحيا إلى الأبد.

«وكذلك من أجل زوجته المحبوبة.

«سيدة الأرضيين نفرتيتي.

«التي تحيا وتزدهر دائماً وإلى الأبد».



أساطير عربية



سليمان النبي والغراب

قرأت هذه الأسطورة التاريخية في كتاب أساطير شعبية تأليف «عبد الكريم الجهمان». وهي إحدى الأحداث التي مرت في حياة نبي الله سليمان بن داوود، الذي وهبه الله الحكمة ومعرفة لغة الطيور، وسخَّر له الكثير من المخلوقات. كما أنه كان ـ عليه السلام ـ يعرف منطقتها ويخاطبها بلغاتها ويفهم إشاراتها. وكانت الطير تجتمع عنده كل يوم عندما يجلس في مجلسه العام لتقدم له فروض الطاعة وتأتمر بأمره.. وتنتهي عما لا يريد وتظلله عن حر الشمس إذا طار على بساطه.

وكان سليمان بن داود ـ عليه السلام ـ حاذقاً بصيراً دقيق النظر كثير الفحص للأمور والبحث وراءها!

ولاحظ سليمان ـ عليه السلام ـ أن الغراب هو آخر من يحضر من الطير في الصباح.. كما أنه أول من يطير عند نهاية الجلسة في المساء. وظن سليمان عليه السلام أن هذا التصرّف غير دائم. فراقبه سليمان ووجد أن هذه قاعدة لم يشذ عنها الغراب في يوم من الأيام، وعلم أن وراء هذا التصرف سراً.

ذات يوم طلب سليمان بن داوود الغراب وخلا به في مجلس خاص.. وأفضى إليه بتلك الملاحظة وهي أنه آخر الحاضرين وأول المنصرفين فما السبب في ذلك؟. هل هو ضيق بهذه الجلسة. ونفور منها.. أم كراهية لأحد من الحاضرين فيها أم نوع من العصيان والجفاء الذي يسلكه العاجزون؟

وعندما انتهى سليمان بن داوود من كلامه، قال الغراب: إنني استميحك يا نبي الله العفو.. وأعتذر إليك عن سوء تصرفي.. ولكنني أؤكد لك أن هذا التصرف ليس مبعثه كراهية لمجلسكم.. ولا كراهية لأحد فيه وليس نوعاً من العصيان. فأنا وآبائي وأجدادي لم يكن فينا واحد ممن عصي ولي أمره، أو خرج من ربقة الجماعة. ولكن والداً شيخاً

كبيراً قد تساقط ريشه.. وبقي في وكره لحمة لا يسترها شيء. وأنا أخشى عليه من جوارح الطير أن تأكله فأغطيه بجناحي. وأبقى بجواره حتى تذهب جميع الطير وإذا ذهبت جئت إليك وإذا انتهت الجلسة كنت أول الطيور انصرافاً.. خوفاً من أن يسبقني إلى والدي أحد جوارح الطير أو يسبقني إليه عدو من الأعداء فيفتك بشيخ لا يستطع الهرب.. ولا يستطيع الدفاع عن نفسه.

وهذا يا نبي الله هو السبب في تصرفي الذي يبدو شاذاً وقد يدل على شيء من الجفاء.. ومعاذ الله أن أسلك مسالك الجفاة أو الشاذين!

فسُرَّ نبي الله سليمان بن داوود عندما علم بالسبب وسأل الغراب عن عمر والده فقال: أنه يبلغ من العمر ثلاثمائة من السنين.

وقال سليمان للغراب: احمل والدك إلينا لنسأله عن أغرب ما شاهده وما مر عليه في هذا العمر الطويل!! فقال الغراب: سمعاً وطاعة يا نبي الله.

وطار الغراب مسرعاً إلى مكان والده حتى وصل إليه متأخراً واستغرب الوالد من ولده هذا التأخر.. فأخبره بما حصل.. وقال: إن نبي الله سليمان طلب إحضارك عنده!

فقال الغراب الشيخ: وماذا يريد مني سليمان. إنني رمة هامدة لم يبق فيّ من القوى إلا قوة لساني.. فسمعي ضعيف! ونظري ضعيف! وجسمي ضعيف. وكل ما في ضعيف.. ومنظري منظر بشع حيث أن جمال الطير بالريش. وأنا ليس على جسدي إلا الزغب.

قال الغراب لوالده: وما رأيك؟

فأجاب الغراب الشيخ: الأمر إليك. فأنا أعتبر نفسي قد انتهيت من هذه الحياة فلا أخشى أحداً ولا أرجو أحداً. وليس أحب إليّ من أن ألقى مصيري المحتوم. فليس في العيش بالنسبة إليّ إلا الآلام والأمراض والوساوس النفسية، والأحلام المزعجة!

علاوة على أنني صرت عبئاً ثقيلاً عليك يا ولدي العزيز، فقد شغلتك عن كثير من شؤونك الخاصة. وفرض وجودي عليك بهذه الحالة سلوكاً خاصاً. بلا شك إنّه قيد ثقيل يكبلك.

وقال الغراب لشيخه: لا عليك من هذه الأمور فتلك ديون نؤديها لمن سبقنا

ويؤديها إلينا من لحقنا. وإنني أرى تلبية الدعوة وسوف أحملك على ظهري في وكرك. وسوف نصل دون تعب أو مشقة.

وعندما رأى الغراب الشيخ تصميم ولده على هذا الأمر وافق عليه.

وحمل الغراب والده على ظهره.. وطار به حتى وصل إلى نبي الله سليمان.. نظر نبي الله إلى الغراب الشيخ فمسح جسده العاري بيده فاكتسى جسمه ريشا أسود لماعاً.. ونفخ في جسمه المهدم فعاد إليه شبابه.

ثم نظر إليه سليمان بن داوود فرأى أن إحدى عينيه مفقودة. وأنه لا يرى إلا بعين واحدة..

فسأله نبي الله سليمان عن سبب فقدانها.. كما سأله عن أغرب ما رأى وما سمع في عمره الطويل.

فقال الغراب: إنَّ أغرب ما مرَّ علي في حياتي هو قصة فقداني لعيني هذه.

وأشار الغراب إلى عينه المفقودة.

فقال سليمان بن داوود للغراب: قصّ علينا هذه الحادثة.

فقال الغراب سمعاً وطاعة. لقد كنت في أيام شبابي كثير الحركة.. كثير الأسفار والانتقال من بلد إلى بلد.. للبحث عن الرزق.. ولمعرفة ما حولي ولاختيار أحسن الأمكنة وأخصبها.

أثناء تجوالي مررت بمدينة عجيبة.. يعيش أهلها في خصب ورخاء.. ويحيط بمدينتهم سور من حديد فوقه شرفات من ذهب وقد أعجبني منظر هذه المدينة التي لم أر لها مثيلاً في حياتي الطويلة على كثرة ما رأيت من المدن.

وقد وقعت على سورها لأنظر إليها وإلى أهلها.. وبقيت ساعة من النهار مأخوذاً بروعة هذه المدينة وحسن تخطيطها، وقوة بنائها والرخاء العظيم الذي يعيش فيه أهلها وقد بصر بي أحد سكان المدينة وأنا فوق السور. فلم أشعر بعد دقائق معدودات إلا بناقة تخرج من المدينة.. ثم تساق إلى أن قربت مني.. ثم ذبحت وأشير إليَّ أن هذه ضيافتي. فنزلت من شرفات السور.. وصرت آكل من لحم هذه الناقة التي أضافتني إياها تلك المدينة بضعة أيام. حتى أتيت عليها كلها وبعد ذلك واصلت أسفاري وتنقلاتي من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة.. وأنا لا آكل ولا أملّ. لأني كنت أعيش في عنفوان شبابي

وأجد لذة عظيمة في التنقل من بلد إلى بلد كما أنني أزداد بذلك خبرة وعلماً وسعة اطلاع. إلا أنني في كل تجوالي لم أجد أحسن من تلك المدينة التي أضافتني أهلها بناقة كاملة..

وقد غبت عن هذه المدينة فترة طويلة من الزمن ثم تاقت نفسي إلى رؤيتها مرة ثانية.. فطرت حتى وصلت إليها فحلقت عليها عدة مرات لأتمتع بمنظرها العجيب. ثم وقعت على إحدى شرفات سورها التي انقلبت إلى شرفات من فضة وبقيت منتظرا لأرى هل ما زال أهلها على ما كانوا عليه من كرم ورخاء.

وبعد فترة وجيزة بصر بي أحد سكان المدينة فاخرج إلى كبشاً وذبحه خارج السور ثم أشار إليَّ بأن هذه ضيافتي. فنزلت من فوق شرفات السور وصرت آكل من لحم ذلك الخروف عدة أيام حتى أكلته كله. ثم غادرت المدينة مواصلاً تنقلاتي وتجوالي.

وغبت عن هذه المدينة إلى ما شاء الله ثم اشتقت إليها وإليَّ أهلها ثانية فعدت إليها ووجدت أن أحوالها قد تقهقرت. وأن ذلك الرخاء قد تقلص. وأن تلك المدينة قد بدأت تخيم عليها سحب الكآبة والجدب والعوز. فوقعت على إحدى شرفات السور التي انقلبت إلى حديد.

ومكثت فترة من الزمن حتى رآني أحد السكان فلم أشعر بعد فترة وجيزة إلا بدجاجة يخرج بها أحد السكان ثم يذبحها ويشير إليَّ بأن هذه ضيافتي. ونزلت من فوق السور وأكلت تلك الدجاجة في أول يوم ثم غادرت المدينة متنقلاً من بلد إلى بلد متفكراً في هذه الدنيا وتقلباتها. وبعد مدَّةٍ طويلة، عدت إلى تلك المدينة التي سورها من حديد. وشرفاتها من ذهب. وحلقت فوقها عدة مرات. لكنني فوجئت برؤية حالها قد تقهقرت بسرعة مذهلة. وأن ذلك النعيم والرخاء الذي كان يخيّم عليها قد تقلص. وخلَّف بعده الفقر والعوز.

ووقعت على السور ناظراً مفكراً معتبراً. وقلت في نفسي سبحان من يغير ولا يتغير. كيف انتقلت هذه المدينة وأهلها من ذلك الخصب والرخاء والسعادة والهناء إلى هذا الفقر المدقع تبدو مظاهره على السكان في كل ركن. وفي كل ميدان.

ويواصل الغراب كلامه ونبي الله سليمان منصت إليه، متعجب من هذه المدينة وأهلها.

قال الغراب: وبينما أنا في زيارتي الأخيرة على إحدى شرفات السور. وإذا بأحد

السكان يسير في أحد الشوارع فيراني. ثم يقترب مني رويداً رويداً. وبلمح البصر شعرت بحجر ينطلق من يده فيصيب عيني فيفقأها. وكان يقصد قتلي ليأكلني ويطرد بلحمي ويلات الجوع التي يعانيها.

لقد كان هذا الحجر الذي أصاب عيني مفاجأة غريبة ما كانت تخطر على بالي. فأنا من عادتي الخوف والحذر وافتراض أسوأ الافتراضات للنجاة من شرور البشر إلا أنني كنت آمناً مطمئناً إلى سكان هذه المدينة لأنني لم أعتد منهم إلا الكرم والفضل والإحسان. ولم يسئ إليَّ أحد منهم في يوم من الأيام.

ثم أن هذا الرجل لم ينحن ليأخذ الحجر من الأرض أمامي. والذي يظهر أنه كان قد أعده في جيبه قبل أن يراني. ولهذا فقد جاءني الحجر ممن لا أتوقع أنه يسيئ إلي. كما أنَّ إمارات الغدر لم تظهر من هذا الإنسان لآخذ حذري منه.

لهذا وقع المحذور وفقدت نصف نظري. وطرت من فوق سور هذه المدينة. وأنا لا أكاد أرى طريقي من شدة الألم وهول المفاجأة الغادرة التي جاءتني من حيث كنت تعودت الكرم ومن حيث كنت انتظر الإحسان.

وغبت يا نبي الله عن هذه المدينة ردحاً من الدهر لا أعرف عدد سنيه. ثم إني أحببت أن أعرف إلى أين انتهت بهذه المدينة حوادث الدهر. وعرفت أن أمر هذه المدينة في إدبار. منذ أن ذهب منها الأخيار، ولم يبق فيها إلا الأشرار.

وكنت عازماً في هذه المرة أن آخذ حذري. فإن المؤمن لا يلدغ من الجحر مرتين كما أنه لا يؤخذ بعد النذر إلا هتيم. وحلقت فوق المدينة فلم أر لها أثراً. وهبطت من عليائي حتى قربت من الأرض، ولكنني لم أر تلك المدينة.

لقد اختفت تماماً. وتراكمت فوقها الرمال. حتى لم يظهر فيها أي أثر يدل عليها. تعجبت أشد العجب. وجعلت أنتقل من رأس كثيب إلى رأس كثيب لعلي أرى من يدل على المدينة. ولكنني لم أر شيئاً مع أنني جازم ومتيقن أن المدينة تحت تلك الرمال.

وعندما يئست من وجود آثار لهذه المدينة طرت منها وقد أوجست في نفسي خيفة ووحشة. وخشيت أن يحيق بي ما حاق بهم من عقوبة وعذاب.

وختم الشيخ الغراب حديثه هذا لنبي الله سليمان بأن قال: إنَّ هذه هي أغرب قصة جرت لي في حياتي.

وقال سليمان عليه السلام للغراب: هل نعرف الآن أين موقع هذه المدينة؟.

فقال الغراب: نعم إنني أعرف موقعها كما أعرف هذا الشخص الذي حملني إليك وأشار إلى ولده.

وطار سليمان بن داوود على بساطه الذي تحمله الريح، وطار الغراب وتبعه البساط الذي صار يطير بسرعة الغراب.

وعندما توسطوا الصحراء رأوا الغراب يحطُّ على أحد كثبان من الرمال العالية. وهبط البساط على نفس الكثيب الذي وقع عليه الغراب، وعليه نبي الله سليمان ومن حوله حاشيته وأركان مملكته.

وقال الغراب إن هذا هو موضع تلك المدينة. ونظر نبي الله إلى ذلك المكان وإذا هو كله رمال فوق رمال. وليس هناك أي لمدينة أو أثر لحياة أو أحياء.

وأراد نبي الله أن يتأكد أكثر فأكثر. فأعاد السؤال مرة ثانية على الغراب قائلاً: هل أنت واثق من نفسك بأن هذا هو مكان المدينة ؟.

فقال الغراب: إنني واثق تمام الثقة ورقبتي هذه رهينة عندكم إذا كنت غير صادق فاقطعوها.

ونظر نبي الله سليمان إلى تلك الأرض فإذا هي رمال قد ركّب بعضها فوق بعضٍ حتى صارت كهضبات الجبال، الأمر الذي يجعل المرء لا يصدق أن تحتها مدينة كانت آهلة بالسكان.

ودعا نبي الله سليمان الرياح الأربع فحضرت بين يديه. وقال للجنوب أريد أن تهبي علي هذه الرمال فتزيحيها عن مكانها إلى مكان بعيد. فاعتذرت ريح الجنوب لنبي الله بأنها ضعيفة. ولن تستطيع حمل هذه الرمال من مكانها إلى مكان آخر.

فقبل نبي الله عذرها لأنه يعلم ضعفها وخورها في كثير من الأوقات والمناسبات.

وقال نبي الله للشمال مثل ما قاله للجنوب، فأجابت الشمال نبي الله سليمان: إنني قوية عاتية. وأخشى إذا انطلقت ألاّ أُبقي في هذه الأرض رملة فوق رملة أو حجراً فوق حجر.

وقبل نبي الله عذرها لأنه يعرف قوتها. ويخشى أن تزيح الرمال ثم تهدم بقايا المدينة المطمورة إذا كان هناك مدينة تحت تلك الكثبان.

وقال نبي الله للريح الشرقية مثل ما قال لأختيها فاعتذرت له بعذر لم يحفظه الراوي إلا أنه أقْنَع به نبي الله سليمان.

ولم يبق الآن إلا الريح الغربية وقال لها نبي الله مثل ما قال لأخوات لها من قبل فأبدت استعداداً تاماً بتنفيذ الأمر. وسألها نبي الله عن المدة التي تستطيع فيها إتمام هذا العمل. فأجابت: أربع وعشرون ساعة.

واشترط نبي الله على الريح أن تنقل الرمال فقط أما المباني والحيطان فيجب أن تحافظ عليها محافظة تامة وألاَّ تزيل حجراً من فوق حجر.

فأبدت الريح استعداداً وكتبت بذلك تعهداً وشرعت في عملها. وطار سليمان بن داوود فوق بساطه هو وحاشيته ومعه الغراب الشيخ وابنه.

وعندما جاء الغد واقترب الموعد الذي حددته الريح الغربية للانتهاء من مهمتها طار سليمان بن داوود فوق بساطه ومعه الحاشية التي حضرت عند بدء هذه العملية. ومعه الغراب الشيخ وابنه.

وعندما هبط البساط بنبي الله سليمان وحاشيته وجد الريح قد انتهت من مهمتها. ورأى مدينة كاملة تصفق أبوابها الرياح. ورأى ذلك السور العتيد الذي عمل من الحديد لحماية المدينة. إلا أنه لم يحمها من قدرة الله التي تقهر كل قوي تعجّبت وتذل كل جبار.

وتعجب نبي الله سليمان من هذه المدينة واتساعها وقوتها. كما تعجب حاشيته أكثر منه ونادى نبي الله في المدينة: هل فيها من أحد من الأحياء؟ فلم يجبه أحد ثم نادى ثانية وثالثة وعندئذ أجابته حية بأنها موجودة في بئر من الآبار المردومة بالرمال.

وذهب سليمان بن داود إلى جهة الصوت ووقف على حافة البئر الذي تستقر في قعره الحية وسأل نبي الله هذه الحية عن هذه المدينة وكيف فني أهلها ودفنتها الرمال ؟.

فقالت: يا نبي الله إنني أنا التي قتلت سكان هذه المدينة بأجمعهم. وعندما مات السكان وصارت النباتات هشيماً تذروه الرياح انهالت الرمال شيئاً فشيئاً حتى غطت المدينة بأجمعها وجعلتها كثباناً لا أثر للحياة فيها.

وقال نبي الله للحيّة. وكيف أهلكت مدينة بأجمعها ؟

فقالت الحية: لقد ذهبت إلى البئر الوحيدة التي يوجد فيها الماء العذب والتي

يستقي منها أهل المدينة بأجمعهم. فنزلت إلى قاعها وتمددت في غار من الغيران القريبة من الماء. وصرت أشرب من هذا الماء حتى يمتلئ جوفي. وأترك ما شربت حتى يمتزج بسمومي. ثم أقذف ما شربت في الماء حتى يتسمم. فأيّ شخص يشرب من هذا الماء يهلك حالاً. بهذا قضيت على سكان هذه المدينة.

وسألها نبي الله عن اسمها وعن الدوافع التي دفعتها إلى هذا العمل الإجرامي الخطير. فقالت الحية: اسمي لس وأنا لا أعرف دافعاً محدداً. إلا أنني كنت مدفوعة إلى عملي هذا بحكم طبعي، وبحكم شعوري نحو بني البشر في أنهم لو وجدوني لقتلوني. لذا فمن حقي إذا استطعت قتلهم أن أقتلهم. إنه أمر منطقي لا غبار عليه.

وعندما انتهت المناقشة إلى هذا الحد سكت نبي الله وسكتت الحية.

ثم قال نبي الله للحية: أخرجي من هذا البئر لأرى قدرة الله في خلقك. وأجابت الحية بأنها تخشى البشر ولا تأمن شرورهم. وأنها مستعدة لامتثال الأمر ولكن على شرط أن يعطيها النبي عهداً وميثاقاً بألاّ يمسها أحد بسوء.

وأمنها نبي الله سليمان وقال لها: أخرجي بأمان الله وعلى حكم شرع الله.

وفهمت الحية من هذا الكلام أماناً مطلقاً. وبدأت تخرج من البئر. وصارت تنطوي في أرض فضاء حول تلك البئر. واستمرت تخرج وتنطوي إلى أن كادت أن تملأ ذلك الفضاء.

وسئم نبي الله من طول الانتظار حتى يتكامل خروج الحية من البئر. وسألها هل بقي من جسمك شيء كثير لا يزال في البئر؟

فقالت الحية لسليمان عليه السلام. إذا رأيتم الشامة الزرقاء التي في ظهري فاعلموا أنه قد خرج نصفي. ونظر نبي الله وإذا الشامة الزرقاء لم تخرج بعد. واستمرت الحية في الخروج والتكور. ونبي الله ينتظر خروج الشامة الزرقاء بفارغ الصبر.

وبعد فترة من الوقت خرجت الشامة الزرقاء من البئر. وتكورت مع جسم الحية في ذلك الفضاء الواسع الذي يحيط بالبئر.

وعندئذ رفع نبي الله سليمان سيفه وضرب الحية ضربة شديدة على تلك الشامة الزرقاء، التي هي منتصف جسم الحية. وبهذه الضربة ماتت الحية. وعجب أحد رجال الحاشية: كيف يؤمنها نبي الله ثم يقتلها؟.

وسأل ذلك الرجل نبي الله وقال له: يا نبي الله كيف تؤمنها ثم تقتلها؟.

فقال سليمان: أخرج العدو بأمان الله. ثم اقتله بشرع الله. وقد أعطيناها الأمان بموجب حكم الله. وحكم الله أن القاتل يقتل وهي تستحق القتل بشخص واحد فكيف وقد قتلت أهل مدينة بأكملها. فاقتنع ذلك الرجل وسكت.

وأمر نبي الله بأن يقطع رأس تلك الحية فقطع وأخذت أنيابها. ونصبت أنياب لس على باب من أبواب تلك المدينة. وصار السكان يتوافدون لسكن تلك المدينة بعد أن زال عنها الخطر وأعلن أن المدينة قد صارت آمنة مطمئنة.

وعادت المدينة إلى حالتها السابقة من عمران ورخاء واستقرار. وعندما كثر السؤال والجواب عن هذا الناب. صار الغريب يسأل ما هذا فيقال له ناب لس. والجاهل يسأل عنه فيقال له ناب لس. فصار ناب لس المنصوب على بوابة هذه المدينة وقصتها هي حديث الغادي والرائح والقريب والبعيد ثم ما زال ناب لس يتكرر على الألسنة كلما جاء ذكر هذه المدينة. حتى علقت بها هذه الكلمة وصارت لا تعرف إلا بها أي «نابلس».

إلا أن الراوي لا يدري هل كان مسرح هذه الأحداث هو نابلس المدينة التي في فلسطين أم نابلس أخرى. قد طواها الزمان في طوايا النسيان.

الأميرة الساحرة

هذه الأسطورة من الأساطير العربية التي كانت تتداول منذ زمن بعيد.

وقد راحت الجدة العجوز تقص على أحفادها قائلة: رجلٌ رزقه الله من زوجته ولدين وابنتين، كان له بستان جميل في طرف من أطراف المدينة.

وكان هذا البستان عامراً: بكل أنواع الأشجار: ففيه النخل والتين والرمان والتفاح والعنب. كما أن أرضه تنبت جميع أنواع البقول والخضروات.

وكان الابن الأصغر لصاحب البستان مغرماً بهذا البستان لا يكاد يفارقه ليلاً ولا نهاراً. يتمتع بخضرته، ويجني من فاكهته ويحرسه من العابثين.

العمال في البستان يعملون فيه نهاراً. فإذا جاء الليل ذهب كل واحد منهم إلى أهله في المدينة ولا يبقى في البستان إلا هذا الشاب ابن صاحب البستان.

وكان هذا الشاب شاعراً مرهف الإحساس، ينظم القصائد ويغنيها على ربابة لديه، بصوت ساحر جذاب ونغمة حلوة مؤثرة.

هذا هو دَيْدن وهذه هي هوايته المفضلة. وذات ليلة، بينما كان يناغي ربابته، وربابته تناغيه، مرت في جو هذا البستان الأميرة الساحرة تطير على جذعها ومعها وصيفتها.

وسمعت الأميرة صوت الشاب وصوت ربابته. فأعجبت بالصوت أيما إعجاب واستشارت وصيفتها في الهبوط في البستان والتعرف بهذا الشاب والتمتع بصوته فوافقت.

وهبطت الأميرة بجذعها في أحد جوانب البستان. وجاءت مع وصيفتها إلى جهة

الشاب. حتى وقفتا عنده وهو يغني فسلَّمتا عليه فسكت عن الغناء ورد عليهما السلام، وهو مبهور بجمالهما وخائف منهما ومتعجبٌ لكيفية دخولهما.

وسألهما الشاب قائلاً من أنتما؟ ومن أين أتيتما؟.

فقالت الأميرة: إننا من بلدك ومن المعجبات بصوتك وقد تسللنا من أهلنا خفية لنجتمع بك. أما من نحن فهذا سرّ لا يمكن أن نبوح به من أول ليلة. ولكنك سوف تعرف كل شيء عنا فيما بعد.

وأنس بهما الشاب بعض الشيء. واستأذن منهما ليقوم ويأتي لهما ببعض الفاكهة فأذنتا له. وجاء بالفاكهة فأكلتا منها وأكل معهما. ثم طلبتا منه أن يغني لهما إحدى أغانيه. فقال لهما: حباً وكرامة.

وأخذ ربابته بين يديه وشرع يغني إحدى أغانيه وهما جالستان سامعتان منصتتان. وانتهت الأغنية الأولى. وهما في غاية السرور والسعادة. وشعر الشاب بقوة تأثير صوته عليهما، ومدى أنسهما وسرورهما بهذه الألحان.

ثم طلبتا منه أن يغني لهما أغنية ثانية. فأخذ ربابته أيضاً وشرع في الأغنية الثانية وأجاد فيها أيما إجادة وكان تأثيرها عليهما أعظم من تأثير الأولى.

وقرب طلوع الفجر، فلم يكن من الأميرة إلا أن قامت، وكان بيدها قارورة من الطيب الفاخر. فقالت للشاب: سوف امسح عليك من هذا الطيب. ثم أودعك ونذهب إلى أهلنا قبل طلوع الفجر. وسنعود إليك في الليلة الثانية.

وشمَّ الشاب ذلك الطيب فراح في غيبوبة كاملة، فغرفت الأميرة عقله وجعلته في وعاء من الصين ثم تركته جثة هامدة.

واخفت الإناء الذي فيه عقل الشاب تحت إحدى الأشجار، وذهبت مع وصيفتها إلى الجذع وركبتا عليه ثم طار بهما في الجو ليعود بهما إلى أهلهما.

وفي الليلة الثانية عادت الأميرة ووصيفتها إلى البستان فوجدت الشاب في مكانه حيث وضعته، فأسقته عقله في كأس من البلور وعادت إليه الحياة وفتح عينيه فإذا الفتاتان أمامه. فسلمتا عليه ورد عليهما السلام. ثم استأذن منهما وقام ليأتي لهما بفاكهة.

وبعد قليل عاد مع الفاكهة، فأكلتا وأكل معهما. وبعد أن فرغوا من الأكل قالتا له:

غنِ لنا. فأخذ ربابته وشرع في الغناء بأغنية ثالثة لم يسمعاها من قبل. وأنصتتا لهذه الأغنية وسرّتا بها أيما سرور.

وكان تأثيرها عليهما أعظم من تأثير سابقاتها. ثم طلبتا منه أغنية رابعة فقال الشاب حبا لهما وكرامة وأخذ ربابته وغنى لهما أغنية رابعة. فسمعتا صوتاً ونغمة لم تسمعا مثلها من قبل.

ثم قرب الفجر. فقامت الأميرة لتطيبه وتودعه فشمَّ الرائحة الزكية وأغمي عليه وغاب عن الوجود. فغرفت الأميرة عقله من جديد وجعلته في وعاء الصين وتركته جثة هامدة. وأخفت الإناء الذي فيه عقله تحت إحدى الشجيرات ثم طارت مع وصيفتها.

واستمرت الفتاتان على هذه الطريقة بضعة أيام. ولا أحد يعرف شيئاً عن هذا الشاب وما هو فيه. إلى أن جاء والده ذات يوم يبحث عنه في البستان. فقد مضى عدة أيام لم يروه فيها.

وبحث الوالد عن ولده في جوانب البستان فلم يجده ونادى بإسمه فلم يردّ عليه أحد. وازداد قلق الوالد على ولده. وجعل يبحث عنه تحت الأشجار فلعله سهر في الليل ونام في النهار.

وصار الوالد ينتقل من ظل شجرة إلى ظل أخرى. حتى جاء إلى عريش العنب. فأطل تحته وإذا به يرى ولده نائماً تحت ذلك العريش. وحاول أن يوقظه برفق، لكنه عندما قبض على يده وجدها باردة. ولم يحس فيها بنبض. ثم جسَّ يده الثانية فوجدها مثل أختها.

ووضع أذنه على قلب ولده فلم يسمع دقات قلبه. فازداد قلق الوالد وخوفه. وقلَّب ولده من الجنب الأيمن إلى الجنب الأيسر فلم يتحرك. وعاود الإنصات إلى دقات قلبه فلم يسمع شيئاً.

وأيقن الوالد أن ولده قد مات. فغطاه بثوب، ثم ذهب إلى والدته وإخوانه فأخبرهم بحالة ابنه فجاوءا إليه مسرعين، وقلبوه ووجدوه جثة هامدة.

فخيم عليهم الحزن، وشرعوا في تجهيز جنازته. فغسلوه وكفنوه ثم صلوا عليه وذهبوا به إلى المقبرة فدفنوه.

وعادت الأسرة والخوف والأسى يملأ قلوبهم على فقيدهم الشاب اللطيف

المحبوب، الذي غادر هذه الحياة ولم يتمتع بشبابه. وفارق أهله وهو العلق النفيس الذي يعلقون عليه أكبر الآمال.

وكان أكثر الأسرة تأثرا بموت هذا الشاب أخته الشابة التي كانت تحبه وتأنس به وترى فيه رمز سعادتها. وكانت هذه الأخت ـ علاوة على مشاعرها الخاصة نحو أخيها الأصغر ـ مرهفة الإحساس سريعة التأثر بما يحدث حولها.

لهذا فقد كانت أكثر أفراد الأسرة حزناً وقلقاً ووساوس. وعزفت عن الطعام والمنام. وبقيت هي الوحيدة التي لازمها المصاب. وألح عليها العذاب ليلاً ونهاراً.

وكانت هذه الفتاة تنام في فراشها ليلاً على عادتها فإذا نام جميع أفراد الأسرة قامت من فراشها وصعدت إلى السطوح. تقوم فتتجول فيها وتسهر مع النجوم وتفكر في هذا الكون وأحداثه.

فإذا قرب الفجر نزلت من السطوح وعادت إلى فراشها حتى إذا قام أفراد أسرتها من النوم أيقظوها من فراشها وكأنها كانت نائمة طيلة ساعات الليل. مع أنها لم تذق للنوم طعماً.

واستمرت الفتاة على هذه الحالة. وبينما كانت ذات ليلة على السطح تراقب النجوم. سمعت صوتاً جميلاً مؤثرا يأتي إليها من جهة المقبرة. وأنصتت إلى هذا الصوت. فإذا هو صوت أخيها الميت. وكذبت سمعها في أول ليلة.

وانتظرت حتى جاءت الليلة الثانية وصعدت إلى السطوح على عادتها. وأرهفت سمعها: وإذا بالصوت الذي سمعته في الليلة الماضية يأتي إليها في هذه الليلة.

وكذبت نفسها بادئ ذي بدء لكنها أرهفت سمعها وأنصتت إلى الصوت تسمع أوله وتسمع آخره. فلا يزيدها كل ذلك إلا يقينا بأن الصوت هو صوت أخيها. لكن أخاها قد مات ودفن فكيف يخرج من قبره وكيف يغني على ربابته؟

واحتارت الفتاة في أمرها. ومن تخبر من أفراد عائلتها. هل تخبر أباها ؟. هل تخبر أمها ؟ هل تخبر أخاها؟. أما أمها وأبوها فقد رأت ألاّ تفاتحهما في الأمر لئلا تنكأ جرحاً قد اندمل وتثير حزناً قد بدأ يطغى عليه النسيان. وإذاً فليس هناك إلاّ أخوها.

ولكنها احتارت أيضاً كيف تصوغ الخبر لأخيها. وكيف تقنعه؟. وأخيراً صممت على أن تخبر أخاها بما وقع لها كما وقع!. سواء صدقها أو لم يصدقها وانتهزت فرصة في النهار وخلت بأخيها وأخبرته بما سمعت.

فقال الأخ لأخته: يظهر أنك ترين أحلاماً في المنام!. وإلا فكيف يتكلم وكيف يغني؟ وأردف قائلا: إنك يا أختاه من فرط الحزن على أخيك تتوهمين أموراً ليست في دنيا الواقع.

ولكن أخته ألحت عليه بأفكارها. وقالت له: لك أن تشك في كلامي. ولكنني مستعدة أن أوقظك في الوقت الذي أسمع فيه صوت أخي لتسمعه كما سمعت. فهل أنت مستعد لذلك ؟. فأجابها الأخ بأنه مستعد تمام الاستعداد لسماع ما سمعت.

وجاء الليل. وصعدت الفتاة إلى السطح كما كانت تصعد وأصغت بسمعها للصوت. فسمعته. إنه صوت أخيها الميت يأتي من جهة المقبرة. وصوت ربابته التي تناغيه ويناغيها.

وذهبت مسرعة فأيقظت أخاها. وصعد الأخ مسرعاً مع أخته، وسمعت كما سمع هو أيضاً الصوت إنه صوت أخيه وصوت ربابته.

وعرف الساعة التي سمع فيها الصوت. وقال لأخته: سوف أذهب غدا وأختفي في أحد القبور المهجورة ثم استمع إلى الصوت عن قريب. وأرى رؤية العين ماذا يحدث.

وفرحت الفتاة بما توصلت إليه من إقناع أخيها وتصميمه على أن يرى بنفسه ماذا يحدث عن قريب.

وجاء الليل وذهب الأخ واختفى في أحد القبور. وقبل أن تحين ساعة الغناء رأى جذعا يحلق في الجو ثم يهبط قليلاً قليلاً حتى يلامس الأرض بقرب قبر أخيه ويستقرّ عليها.

وخرجت من داخله فتاتان جميلتان. أزاحتا التراب عن القبر وردّتا عقل الميت إليه. فجلس بشراً سوياً. وقدمتا له طعاما فأكل وأكلتا معه ثم قالتا له: غن لنا فأخذ الربابة وجعل يغني وهما تسمعان. حتى قارب الفجر على الطلوع. فاعطيتاه طيباً ثم غرفتا عقله ووضعتاه في إناء من الصين وبعد ذلك أعادتاه إلى قبره ورميتا عليه التراب. وركبتا على الجذع وحلقتا به في الجو.

هذا والأخ يرى ما يحدث أمام عينيه ولا يكاد يصدق ما يرى، إلا أنه لا يستطيع ان يتجاهل هذه المشاهد التي تحدث أمام ناظريه.

وعاد الشاب إلى أخته فوجدها في انتظاره. لم تذق طعم النوم. فأخبرها بما شاهد. وقال لها: إنني سوف آخذ السهم والنشاب في الليلة القادمة. وانتظر قدومهما. فإذا جلستا معه أسدد سهمي للرئيسة فلعلي أجرحها جرحا يعوقها عن الطيران.

وبعد ذلك سوف نرغمها على إعادة أخي إلى حالته الطبيعية. وإن لم تفعل هدّدناها بالقتل.

ففرحت الفتاة بما توصلا إليه وحبذت خطة أخيها الكبير وأملت أن يكون فيها نجاة أخيها الصغير.

وجاء الليل وأخذ الشاب قوسه ونشابه وذهب إلى المقبرة. وفي الموعد المحدد جاء الجذع فحلق فوق المقبرة ثم هبط قليلاً قليلاً حتى لامس الأرض واستقر عليها. وخرجت الفتاتان وفعلتا في هذه الليلة كما كانتا تفعلان في الليالي الماضية.

وعندما ردّتا عقل الشاب عليه أوتر الشاب قوسه. ثم سدد السهم إلى فخذ الرئيسة التي عرفها من طريقة جلوسها وتأدب الأخرى معها. وعندما أطلق السهم أصاب فخذها فصرخت صرخة مكتومة. وقامت مسرعة والدم ينزف من ساقها. ومرت بالسعوط عند خشم الشاب فغشي عليه وغرفت عقله ووضعته في إناء الصين. وأخذته معها وركبت مع وصيفتها فوق الجذع. وهمهمت ببضع كلمات فطار بهما الجذع والدم ينزف من ساق الأميرة.

حلق بهما الجذع في أجواء السماء. ولم يبرح الشاب الرامي مكانه حتى غاب عنه الجذع خوفاً منهن. ثم نهض من مخبئه متوجهاً إلى جهة أخيه. فوجده جثة هامدة.

وحركه فلم يتحرك. فحمله بين يديه. وذهب به مسرعا إلى دارهم. ووضع أخاه بمساعدة أخته في مكان خفي من البيت وأخبر أخته بما جرى.

وقال: لقد جرحت الرئيسة. وطارت والدم ينزف من فخذها. وسوف أعرف اتجاههما من قطرات الدم التي تتساقط من فخذ الفتاة المجروحة.

وجاء الصباح. وذهب أخو الشاب يتتبع قطرات الدم. حتى عرف اتجاه الفتاتين. فاشترى راحلة قوية واستعد للسفر في أثر هاتين الفتاتين.

وعندما تكامل استعداده أوصى أخته بأخيه وقال: إخفي الخبر عن والدي حتى

أعود. سأتتبع آثار هاتين الفتاتين. وسيكون دليلي قطرات الدم الساقطة من فخذ الفتاة المجروحة.

وأعطى الشاب لوالديه مبررا لسفره: سوف أذهب إلى البلد الفلاني ولن يستغرق غيابي سوى بضعة أيام. فدعت له أمه ودعا له والده بالسفر السعيد والعود الحميد.

وسافر الشاب متتبعاً قطرات الدم. وصار ينتقل من بلد إلى بلد. وقطرات الدم هي دليله إلى مبتغاه. وطال السفر بالشاب ولكنه مصمم على الوصول إلى نتيجة.

واستمر في السير بضعة أيام حتى وصل إلى مدينة عظيمة يحكمها سلطانٌ قويٌّ وعادل وهو في نفس الوقت مسلم.

وتتبع قطرات الدم حتى توقفت عند قصر السلطان. إنها لم تتجاوزه. ولم تقصر دونه. وإذاً فهاتان الفتاتان من حاشية السلطان، وهن تابعات لحرم القصر السلطاني.

وجاء الشاب على راحلته حتى أناخها أمام باب السلطان وقال لبواب القصر: إنني جئت من بلاد بعيدة، أقصد السلطان وأريد مقابلته لأمر يهمه ويتعلق به شخصياً.

وأُبلغ السلطان الخبر فقال: أنزلوا هذا الشاب في قصر الضيافة وسوف نخبره بوقت المقابلة بعد أن يرتاح من سفره.

وأخبر الشاب بما قاله السلطان، وأنزل في دار الضيافة، واستراح بقية يومه. وجاء اليوم الثاني، فأذن السلطان لهذا الشاب الغريب بمقابلته ليسمعَ منه الخبر الهام الذي يتعلق بالسلطان. فدخل عليه ووجده وحيداً في انتظاره. وقد نحى الخدم والحشم بعيداً عن مكان جلوسه وسلم على السلطان. ورد عليه السلطان التحية بأحسن منها ورحب به في بلاده وقال لضيفه الشاب: لقد بلغني أن لديك أخباراً تهمني شخصياً فما هي أخبارك ؟.

فقال الشاب: يا عظمة السلطان لقد جئت من بلاد بعيدة وتعرضت في سفري هذا لمصاعب جمة. وذلك بسبب حادث غريب وقع لأخي الصغير.

فقال عظمة السلطان: وما هو الحادث الغريب الذي حدث لأخيك؟

فقص عليه الشاب كلَّ ما جرى لأخيه.

وتعجب السلطان من هذه الحادثة، ولكنه قال للشاب: وما علاقة هذه الحادثة بنا أو بمملكتنا وأنت من بلاد أخرى غير بلادنا؟.

فقال الشاب لقد رميت الرئيسة من الفتاتين بسهم كما أخبرت عظمتكم وصار الدم ينزف من ساقها. وقد تتبعت قطرات الدم من بلادي حتى وصلت إلى عاصمة مملكتكم الزاهرة ثم تتبعت قطرات الدم حتى توقفت عند قصر عظمة السلطان. ونظرت فإذا هي لم تتجاوزه ولم تقصر دونه.

وتكلم الشاب بكلام بليغ أثنى فيه على السلطان وأشاد بعدله وحكمته وبعد نظره وأطال في هذا المجال.

فأثر كلام الشاب في السلطان وتحمس للأمر. وقال للشاب: ثق أن الذي فعل فعلة سوف يلقى جزاءه سواء كان من أسرتي أو من أفراد رعيتي! ولن تسافر من مملكتي إلا بعد أن اكتشف الجريمة والمجرمين، ويلقى المعتدي جزاءه العادل إن شاء الله.

فدعا الشاب لعظمة السلطان بأن يوفقه الله ويحفظه وأن يجعله هادياً مهدياً، واستأذن منه وخرج.

أما السلطان فقد شكَّ في ابنته، لأنه لم يرها منذ بضعة أيام وكان كلما سأل أمها عنها قالت إن عيونها مريضة. وهي محتجبة في غرفة خاصة لا يدخل عليها أحد خوفاً من روائح الطيب التي تزيد مرض العيون وتضاعف آلامها.

وقد حاول السلطان عدة مرات أن يزور ابنته ليطمئن على صحتها. ولكن والدتها كانت تصده وتقول: إن في عظمتكم روائح عطرية حادة، وقد تضاعف آلام عيون ابنتك وتزيد من التهابها.

كان السلطان ومتى قالت الزوجة هذا الكلام، يقتنع به ويعدل عن زيارة ابنته. لكنه، بعد أن سمع من الشاب الغريب ما سمع، داخله الشك في ابنته وقال في نفسه لماذا لا تكون ابنتي هي الفاعلة لما قاله هذا الشاب؟.

فلبس ملابسه، ومشى متجها إلى غرفة ابنته باسم الزيارة. فالتقى بأمها التي سألته: أين تريد؟. فقال إنني أريد زيارة ابنتي. فقالت له زوجته: لقد أخبرتك أن زيارتك تؤثر عليها وتزيد من آلامها.

واعترض السلطان بعزم وتصميم: لا بد أن أزورها الآن.. وأرى كيف حالها. واستدعي لها الأطباء إذا اقتضى الأمر ذلك.

وحاولت الوالدة صرف السلطان عن رأيه، لكنه لم ينصرف. فقالت الوالدة: إذا فاسمح لي أن أذهب إلى ابنتي قبلك لتكون على استعداد لاستقبالك، ولأعمل الاحتياطات اللازمة لسلامة عيون ابنتي.

فوافق السلطان على هذا الرأي، وجلس في غرفة الانتظار وذهبت الوالدة إلى ابنتها. وأخبرتها بأن والدها سوف يزورها الآن. فدهشت الفتاة وخافت. وقالت لوالدتها حاولي أن تصرفيه عن رأيه.

أجابت الوالدة: لقد بذلت كلَّ ما أستطيعه من محاولات لمنعه من هذه الزيارة. وقد نجحت فيما مضى. ولكنني في هذه المرة فشلت، فقد وجدت والدك اليوم مصمماً على الزيارة مهما كانت النتائج. عليك إذاً أن تخفي ما في فخذك، وأن تظهري بمظهر الذي تؤلمه عيونه لا غير.

واستعدت الفتاة لمقابلة والدها السلطان. وجاء السلطان فدخل عند ابنته وسلم عليها فردت السلام وهي تغطي وجهها وعينيها. وجلس السلطان في مكان بعيد عنها بعض الشيء. ودار الحديث وتفرع ثم قال السلطان لابنته: تعالي يا ابنتي إليَّ لأرى عينيك.

ردَّت الفتاة: إنني لا أرى الطريق إليك. فقال السلطان لوالدتها: شدّي على يدها وقوديها إليَّ لأرى عينيها.

وأحرجت الفتاة كما أحرجت والدتها وخافتا من انكشاف أمرهما إذا مشيت الفتاة ولكنه لا بد من تنفيذ أمر السلطان. وقامت الوالدة وأخذت بيد ابنتها وقادتها إلى والدها. ومشت الفتاة. ولاحظ السلطان أنها عرجاء وإن إحدى رجليها غير طبيعية.

وسأل السلطان عن هذا العرج فأجابت الفتاة: إن رجلي خادرة من طول الجلوس وليس بها أي مرض. وجلست بقرب والدها.

نظر السلطان إلى عينيها فرأى فيهما إحمراراً. غير ناتج عن مرض، وإنما عن البكاء وفرك العيون.

قال السلطان: أريني رجلك. وخافت الفتاة أن ينكشف أمرها وأن يبدو من شأنها ما كانت تخفيه، ولكنه لا بد من أن يرى السلطان رجلها. وقربت له رجلها فكشفها ورأى آثار اللفائف والأربطة.

وسألها عما أصاب رجلها. فأجابت: لقد كنت أنزل الدرج وعينيّ محجوبتان فزلت قدمي وسقطت فأصاب رجلي هذه بعض الرضوض.

وقال لأمها: فكي هذه الأربطة عن رجلها لأرى مدى خطر الرضوض حتى نعالجها قبل أن يستفحل أمرها.

وترددت الأم بعض الشيء عن فك اللفائف، ولكنه لا بد من تنفيذ أمر السلطان. وجاءت إلى ابنتها وفكّت الرباط حتى ظهر موضع الألم. ورآه السلطان فوجده طعنة سهم وليس رضوضا من الدرج. وتحقق السلطان أن ابنته هي التي فعلت ما ذكره الشاب الغريب.

وقال السلطان لابنته: إن الذي في فخذك ليس آثار رضوض وإنما هو ضربة سهم فاصدقيني الخبر وأخبريني بجلية الأمر. ولا تحاولي أن تخدعيني. فإن حبل الكذب قصير فتلعثمت الفتاة ولم تعرف طريقا للخروج من هذا المأزق غير السكوت. ولكن السلطان يريد الحقيقة. والحقيقة مؤلمة. واستمرت الفتاة في سكوتها.

وسئم السلطان من هذا السكوت. فتكلم بنفسه بالحقيقة، وجابه ابنته بالواقع. وقص عليها قصة الشاب الغريب، وأخيه المسحور. ثم أردف السلطان قائلاً:

لا يخامرني أي شك في أنك أنت الفاعلة. وعليك أن تعترفي بالحقيقة وألاّ تحاولي خديعتي أكثر مما حاولت. وعليك أن تخبريني بصويحبتك التي كانت معك في تلك الرحلات.

وتيقنت الفتاة بأن والدها عظمة السلطان قد أطلع على كل شيء وأنه ليس هناك مجال للف والدوران ولا فائدة من المماطلة والمراوغة وكتمان الحقيقة.

وقالت الفتاة لوالدها. نعم إنني أنا الفاعلة أما صويحبتي فهي فلانة. وهذه هفوة من هفوات الشباب ونزوة من نزوات المراهقة أرجو من والدي أن يغتفرها لي. وسوف تكون هي الأولى والأخيرة بعون الله.

فقال السلطان: يا ابنتي إن جريمتك هذه ليس من حقي أن أعفو عنها لأن ضررها يمس الدين، ويمس قوماً آخرين. ولا بد من تنفيذ عقوبة رادعة تتناسب مع هذا الجرم الشنيع الذي يشتمل على السحر وعلى انتهاك الحرمات، وعلى الاعتداء على الناس، وتركهم أمواتاً، أو كالأموات.

وأيقنت الفتاة بأنها سوف تلقى جزاءها. وأنه لا مجال للعفو أو للشفاعة وسلمت أمرها لله وندمت على ما فعلت ولكن هذا الندم جاء متأخراً.

وطلب عظمة السلطان إحضار الفتاة المراهقة فحضرت. كما أمر بأن تحبس كل واحدة منهما في غرفة مهجورة في أحد أركان القصر وألاّ يأتي إليهما أحد فالزيارة بالنسبة لهما ممنوعة أشد المنع. وسوف يعاقب كل من يخالف هذه الأوامر السلطانية.

وذهب السلطان إلى ديوانه يدير شؤون مملكته ويصرف أمور رعيته، ويفكر في موضوع ابنته ورفيقتها. إنه لابد من أن تلقيا جزاءهما العادل.

ولكنه لا يعرف حكم الشرع الشريف في هذا الموضوع على وجه التحديد كما أنه لا يمكنه أن يعرضه على القضاة لئلا ينكشف أمر ابنته. لأن انكشافه فضيحة تمس السلطان شخصياً وتمس عائلته.

ولهذا فقد صمم السلطان أن يكون هو القاضي الذي يصدر الحكم في هذه القضية. وسوف يجتهد ويخلص النية لله. فإن أصاب في حكمه قواعد الشرع وأحكامه فذلك بفضل الله وتوفيقه. وإن اخطأ فإنه لن يحرم الأجر. فنيته طيبة وقصده سام وشريف. وهو في سبيل تحقيق العدالة سوف ينفذ حكماً قاسياً صارماً في فلذة من فلذات كبده.

كما صمم السلطان على أنه كما أصدر الحكم بنفسه، فإنه سوف ينفذه بنفسه أيضاً. وذهب إلى غرفة الفتاتين بعد أن هدأ كل شيء حولهما. ودخل عليهما وسيفه معه.

ووجود السيف مع عظمة السلطان أمر لا يلفت النظر فإن السيف لا يفارق يده ليلاً ولا نهاراً. وأبعد السلطان قبل دخوله عليهما كلَّ من حول غرفتهما من الخدم. ثم دخل عليهما واستلَّ سيفه وقطع رأس ابنته، ثم اتبعه برأس رفيقتها. ووضع الرأسين في إناء واحد وغطاه. ثم طلب من أحد الحاشية أن يحمل هذا الإناء وأن يضعه في مجلسه الخاص. كما أمر السلطان أن يغسل الفتاتين ليدفنهما في التراب.

هذا وقبل أن ينفذ في الفتاتين حكم الإعدام كان قد أخذ وعاء الصين الذي فيه عقل الرجل المسحور كما أخذ من ابنته شرحاً وافياً في كيفية إعادة هذا العقل إلى صاحبه.

وطلب السلطان حضور ضيفه الشاب الغريب. والرأسان عن يساره. وإناء الصين الذي فيه عقل الشاب المسحور عن يمينه. وعندما جاء الشاب الغريب إلى السلطان سلم عليه ودعا له. وجلس في مكان يبعد عن السلطان قليلاً.

لكن عظمة السلطان أمره بالقرب منه وعيَّن له المكان الذي يجب أن يجلس فيه وامتثل الشاب لأمر السلطان وقام حتى يجلس في المكان الذي أُشير إليه.

ولم يتفوَّه السلطان بكلمة واحدة فقد كان يخيم على نفسه مزيج من الغضب والثورة والحزن على ما جرى أولاً وعلى ما جرى آخرا. وكشف الإناء الذي يحتوي فيه الرأسين. وقال للشاب: أنظر إلى هذين الرأسين: إنهما الرأسان اللذان شكوت منهما. قد نالتا جزاءهما العادل.

ثم التفت يميناً فأخذ إناء الصين الذي فيه عقل أخيه. وقال: هذا هو عقل أخيك. ولكي تعيده إلى وضعه الطبيعي يجب ان تعمل به كذا وكذا. وسرد وصفاً دقيقاً مفصلاً عن كيفية إعادة عقل الشاب المسحور إليه، كما وصفت له ابنته قبل أن يقتلها.

وسمع الشاب من السلطان وصف إعادة عقل أخيه ووعى الخطوات التي يجب أن يتبعها وينفذها الواحدة تلو الأخرى. وتأكيداً على عدم نسيانها كتبها على ورقة.

وشكر الشاب الغريب عظمة السلطان على اهتمامه بالأمر وعلى تنفيذ الحكم. وإعادة عقل أخيه إليه. وودّعه وشد الرحال قافلاً إلى بلده بعد أن نَقَدَه السلطان مبلغاً من المال ولفافات من الملابس الفاخرة.

وواصل الشاب سيره ليلاً نهاراً حتى وصل إلى بلده، وحط الرحال في داره، وذهب بإناء الصين ووضعه في مكان خفي أمين.

وبعد أن سلم على والديه، ذهب إلى أخته وأخبرها أنه وفّق في رحلته. وتوصل إلى كل ما يريد. وقصَّ عليها قصة سفره، منذ أن فارقها حتى عاد إليها. وطلبت الأخت من أخيها أن يسرع في إعادة عقل أخيها المسحور إليه.

لكن أخاها قال لها: لا تعجلي فإن كل شيء مرهون بوقته وقد صبرنا الكثير ولم يبق إلا القليل. وتعرفين أن عقل أخي سلب منه ليلاً. ولا يمكن أن يعاد إليه وتنجح الإعادة إلا إذا أعيد ليلاً.

وسكتت الفتاة، وبقيت تنتظر الليل بقلق ورجاء، وخوف وأمل.

وجاء الليل، ونام أهل البيت ما عدا الشاب وأخته. وأخذ الشاب إناء الصين، وذهب به إلى الغرفة التي يتمدد فيها أخوه المسحور. وساعدته أخته فأقعداه. ثم بلَّا قطنة

فانشقاه إياها. وجعلا يبلان القطنة من إناء الصين وينشقانه إياها. حتى بدأت تدب فيه الحياة شيئاً فشيئاً. ثم سقوه البقية الباقية في الإناء.

ففتح الشاب عيناه. ونظر حواليه وقال أين أنا؟ فقال له أخوه وأخته، أنت في دارنا. وراح يتذكر ما مر به قبل ساعته هذه ولكنه لا يذكر شيئاً وإنما يشعر أنه كان يسبح في أحلام متواصلة، ينتقل فيها من حلم إلى حلم. ثم عندما صحا من النوم كانت أحداث تلك الأحلام قد تبخرت من ذاكرته، فهو يحس بآثارها ولكنه لا يتذكر دقائقها وأحداثها

والمهم أن الشاب المسحور رجع إليه عقله، وعاد إلى حالته الطبيعية. وخرج به أخوه إلى البستان حتى لا يفاجأ والداه بوجوده بينهم. فقد يحدث ما لا تحمد عقباه. فإن الفرح المفاجئ قد يقتل. كما أن الحزن المفاجئ لا يقل عن ذلك ضرراً. كما قال الشاعر العربي:

هجم السرور عليَّ حتى أنه　　من فرط ما قد سرني أبكاني

وأمر الأخ أخته أن تخفي الخبر عن أمها وأبيها، حتى يخبرهم هو بطريقة تدريجية، وبأسلوب لبق لا يحدث لهم فرحاً جارفاً قد ينقلب إلى كارثة جارفة.

وعاد الشاب إلى البيت واجتمع بوالده ووالدته. وقال لهما وأخبرهما أنَّ لديه بشرى سارة يزفها إليهما بمناسبة قدومه من رحلته. واشرأب الوالدان لما سيقوله ابنهما.

وقال الابن: لقد كان موت أخي بتلك الحالة المفاجئة مثار دهشتي وتساؤلي. لأني كنت قد سمعت أن هناك وفيات يحيا أصحابها بعد فترة من الزمن لأنهم يصابون بإغماء عميق. يبقون فيه فترة من الزمن ثم تعود إليهم حياتهم من جديد.

لهذا ونتيجة لهذا التفكير ذهبت ليلاً وجلست بالقرب من قبر أخي فسمعت صوته داخل القبر. فلم يكن مني إلا أن حفرت القبر وأخرجته منه. فوجدته حياً ولكنه كان منهك القوى. لهذا أخذته معي وسافرت به إلى طبيب ذكر لي في البلد الفلانية، فعالجه حتى عاد إلى حالته الطبيعية بحمد الله وتوفيقه.

وسمع الوالدان هذا الكلام. وكادا ألاّ يصدقا ما سمعاه. وقالا لولدهما: هل أنت جاد أم هازل؟. وهل أنت تخبرنا بحقيقة أم بخيال؟.

وقال الشاب لوالديه: إنني أخبركم بحقيقة. وليس هناك مجال لخداعكم أو التغرير

لكما. وإنَّ ما قلته لكم هو عين الحقيقة وأخي الآن موجود في البستان وهو يتمتع بكامل الصحة والسرور. وعلينا أن نذهب الآن سوياً لنراه ونطمئن على راحته.

ولبس الوالد والوالدة ملابسهما على عجل. وذهبا مع ولدهما إلى البستان وهما بين المصدِّق والمكذب.

وقد سُرَّ الشاب بتقبّل والديه هذا الخبر، بحيث أن رؤيتهما له لن تحدث لوالديه أثراً عكسياً.

ولهذا، عندما دخل البستان مع والديه نادى أخاه بأعلى صوته، فأجابه أخوه من طرف البستان. فسمع الوالدان صوت ولدهما وصدقا ما قيل لهما ولكنهما قالا:

لعلنا خدعنا بصوت يشبه صوته.

ولكن الشاب المسحور جاء يمشي مسرعاً حتى رأى والديه فأقبل عليهما يقبل رأس كل واحد منهما ودموع الفرح تتساقط غزيرة من عيونهم جميعاً.

وعاشت الأسرة كلها في سعادة وهناء.

زوجة أخي الخائنة

خيم الليل على الكون وأرخى سدوله ولم تعد الرؤية الواضحة ممكنة، ليواصل الأطفال لعبهم وحركتهم ونشاطهم، فاجتمعوا حول جدتهم ليتحرك خيالهم بعد أن احتبس نشاطهم، وليحلقوا بالخيال بعد أن هدأت حركة أجسامهم، وقالوا لجدتهم: قصّي علينا سالفة سالم وزوجته وأخته.

فقالت الجدة حباً وكرامة: هناك هاك الواحد والواحد لله في سماه العالي. وهنا هاك الرجل الذي تزوج زوجة جميلة كانت مثال الزوجة الصالحة، التي تجعل البيت جنة وتوفر لزوجها فيه كل وسائل الراحة والاطمئنان لينطلق منه إلى أعماله وهو مرتاح الفكر، سليم الجسم، نشيط الحركة. وكان لسالم هذا أخت يتيمة صغيرة ليس لها من يقوم بتربيتها إلا أخوها. تعيش معه ومع زوجته.

كبرت الفتاة سلمى وبدأت تتعرف إلى أمور الحياة، وتدري بما يدور حولها. وسافر سالم لبعض شؤونه المعاشية إلى بعض الأقطار المجاورة. وفي غيابه، رأت الأخت ما ساءها. رأت رجلاً غريباً لا عهد لهم به ولا معرفة يتردد إلى البيت في أوقات معينة وتتصرف معه زوجة أخيها تصرفات مريبة. فدبَّت الغيرة في نفسها على أخيها ومحارم أخيها وبيت أخيها الذي ترى فيه هذه الأعمال المشبوهة، كما ترى محارم الله تنتهك في حجراته.

تألمت الأخت من هذه الأعمال، لكنها صبرت لعلها تكون هفوة عابرة أو شهوة طائشة تخيم فترة ثم تنقشع، رغبة مكبوتة تندفع ثم ترتدع. وجاء سالم من سفره فوجد كل شيء في بيته على ما يرام: زوجة مطيعة وبيت منظم مريح وحياة هادئة مستقرة. وبالاختصار فإن سالماً يجد في بيته كلَّ ما يحلم به رجل من زوجة مثالية صالحة.

رأى سالم أن كل شيء في البيت بحالة جيدة إلا أخته. يرى أن صحتها تتدهور

وشبابها يذبل ونفسها تتحطم يوما بعد يوم. فسألها: ما بك يا أختاه؟ هل تحسين بمرض فأعالجه أو بنقص في شؤون معاشك فأكمله؟ هل في هذا البيت ما يضايقك فأزيله؟.

نفت الأخت كل هذه الأمور وهدأت من روع أخيها وقالت: إنها وعكة بسيطة أحس بها وسوف تزول بإذن الله. وهذه الحالة التي أنا فيها ليست خطيرة، بل هي عارضة بسيطة وسوف أتغلب عليها بحول الله وقوته.

وترك الأخ أخته بعد أن أكدت له أنها مرتاحة وأنها لا تحس بشيء يستحق الانزعاج.

لكن الأخت في واقع الأمر تحس بعكس ذلك، وتفكر في هذا الأمر بينها وبين نفسها وتفكر بالصدمة العنيفة التي سوف تسببها لأخيها. لو أخبرته بما يحصل في بيته. ولهذا فقد رأت أنه من الحكمة أن تضغط على أعصابها تسكت على مضض وتتحمل الآلام والعذاب التي تحس بها من جراء هذه الأمور التي تجري دون علم أخيها.

وسأل سالم زوجته عن أخته وأفضى إليها صراحة بأنه ليس راض عن حالتها، وغير مطمئن على صحتها، وسألها هل ينقصها شيء؟. هل في البيت ما يزعجها ويديم آلامها. فقالت الزوجة: أنه لا شيء من ذلك مطلقاً، ولكنني مطلعة على بعض الأمور في سلوكها. إلا أننى أرجو أن أوفق لإقناعها بالعدول عنها. فقال الزوج بلهفة وخوف ما هي هذه الأمور؟.

فأجابت الزوجة: إنني حتى الآن لم ألاحظ عليها شيئاً يدنس شرفها، أو يشين عائلتها. وإنما هو شاب يقف تجاه البيت في أوقات معلومة، فيحادث أختك وتحادثه. ثم يذهب الفتى في سبيله وهي تعود إلى ما كانت عليه. ولكن ثق أنني سوف أتغلب على هذا الانحراف وسوف أعيدها إلى جادة الصواب. وسأقنعها بأن مثل هذا الحب العابر قد يجني على مستقبلها ويحطم حياتها. فاستاء الأخ من هذه الأنباء، لكنه ضبط أعصابه وأكد لزوجته أنه واثق بحكمتها وحسن تدبيرها وأنه يترك علاج هذا الأمر لها.

وسكت سالم على مضض. ودب الشك في نفسه من ناحية أخته. ولكن ماذا يصنع؟. إنه يرى صحتها متدهورة فهل يزيدها سوءاً على سوء. ويرى نفسها محطمة فهل يساعد الأحداث عليها فيحطم ما تبقى من نفسيتها؟

لا... إنه لن يصنع شيئا من ذلك، وسوف يترك الأمر لزوجته الحكيمة التي

ستعالج الأمر بنفس مجردة لا تعميها العواطف، ولا تندفع وراء الانفعالات الجامحة التي قد تصدر من الأخ نحو أخته لو بحث معها مثل هذه الأمور.

كتم الأخ هذا الجرح في نفسه، وأمات هذا السر في طوايا ضميره. وما أشد مثل هذه الحالة! إنه يريد أن يميت هذا الأمر. ويخفيه حتى عن نفسه، ولكنه ينمو ويزداد على مر الأيام.

رحل سالم في إحدى رحلاته. فاتصلت الزوجة بحبيبها وصار يتردد عليها في أوقات معروفة اكتشفتها الأخت. وعلمت الزوجة بأن الأخت اكتشفتها وأنها إذا لم تدهور هذه الأخت فإنها سوف تدهورها. وإنها إذا لم تسبق إلى المعركة للخلاص منها وإماتة هذه الأسرار في نفسها فإنها سوف تكشفها لأخيها فتكون ما لا تحمد عقباه.

صممت الزوجة على التخلص من هذه الأخت بأسرع وسيلة ممكنة وفكرت وبحثت عن طريقة الخلاص. فسنحت لها الطريقة ووضحت لها معالمها. وذلك بأن تأتي ببيض الحمر وهو طائر صحراوي بحجم العصفور. ثم تلزم الأخت بابتلاعه بحجة أنه طيب لصحتها التي تتدهور من سيّئ إلى أسوأ.

وأوصت الزوجة حبيبها أن يجمع لها من أطراف الصحراء مجموعة من هذا البيض. وفعلاً جاء هذا الحبيب بما طلبت وأجبرت الأخت على أن تبتلع هذا البيض كما هو بدون طبخ أو شوي أو مضغ. وغلبت الأخت على أمرها فبلعت البيض الواحدة أثر الواحدة.

تجمع هذا البيض في بطنها فانتفخ حتى لا يشك من يراها أنها حبلى. وجاء الأخ من رحلته وقابلته زوجته بوجه مشرق. وأعدت له في المنزل كلَّ ما تطلبه نفسه، من هدوء وراحة. وسأل عن أخته فقالت الزوجة: إنها مريضة قليلاً. وهناك سرّ وراء مرضها. فسأل الزوج عن هذا السر في لهفة.

فقالت الزوجة: إنني لا أقوى على البوح به. إنه يتعلق بشرف العائلة. وقد حاولت مراراً وتكراراً ألاَّ يحصل هذا ولكنني غلبت على أُمري وأخفقت جميع الوسائل التي حاولت بها تفادي هذا الأمر.

فارتبك الأخ وثارت أعصابه وغلي دمه. وقال: أوضحي لي الأمر. فليس بيني وبينك أسرار والشيء الذي يعيب أختي يعيبنا جميعاً.

فقالت الزوجة: لقد خرجت أختك وتكرر خروجها من البيت بدعوى زيارة إحدى

صديقاتها. وحاولت منعها، ولكنها تمردت علي وعصت أمري وصارت تخرج من البيت في أوقات معلومة. وهي الآن حبلى وأنا لا أشك في هذا الحمل نتيجة لعلاقتها بالشاب الذي كنت أخبرتك عنه. وقد حاولت مراراً وتكراراً أن أبعد هذا الشاب عنها أو أبعدها عنه، لكنني لم أستطع. والآن تتظاهر أختك بالمرض، وما هو بمرض وإنما هو الحمل الذي يملأ بطنها ويشل حركتها، ويجعلها تبتعد عن كل أحد خوفاً من اكتشاف هذا الأمر.

فتغلغل كلام الزوجة في نفس الزوج، ولم يشك بحرف واحد مما قالته زوجته.

فصمم على الخلاص من أخته. ولكنه يريد هذا الخلاص مستوراً وبغاية من السرية، لأن انكشافه يؤثر على سمعة العائلة وشرفها ومركزها الاجتماعي. ولهذا فكر طويلاً في طرق الخلاص كلها. هل يقتلها ويدفنها في حفرة في بيته ؟ أم يسافر بها فيلقيها في إحدى المدن النائية ؟ أم يعمد بها إلى صحراء قاحلة فيرميها فيها ويتركها للوحوش والجوع والظمأ يقضي على حياتها ؟.

فكر في هذه الطرق الثلاث وفي طرق أخرى غيرها. فرأى أن أنسب طريقة هي أن يخرج بها إلى مجاهل الصحراء فيتركها فيها، حتى تموت جوعاً وظمأ وتأكلها الوحوش، فلا يعثر لها على عين ولا أثر.

وهكذا صمم على سلوك هذا الطريق. وأخبر زوجته بما دبر فشجعته عليه وقالت: إن هذا خير وسيلة لغسل العار وإخفاء حادث القتل.

وفي ليلة باردة مظلمة قال الأخ لأخته: يا أختاه إنني أريد أن أسافر وإياك إلى طبيب في مدينة قريبة، لعلاج ما تحسين به من المرض فاستعدي. وليكن ذلك سريعاً فإننا سوف نمشي في الساعة الرابعة ليلاً أي بعد ثلاث ساعات من الآن. .

فلبَّت الأخت هذه الدعوة وأعدت نفسها، وجمعت كلّ ما تحتاجه من أغراضها الخفيفة. وأودعته صندوقاً صغيراً كان معها. ولما جاء موعد السفر كانت البنت جاهزة. فأخذ الأخ أغراضها وحملها على الراحلة. ثم أخذ يد أخته وأركبها عليها. ومشى بها في ظلام الليل حتى لا يعلم أحدٌ من أهل البلدة بهذا السفر، ولا يدري شيئاً عنه. .

وكان الأخ طيلة الطريق ساهما حزينا على فراق أخته. لكن شرفه المنتهك أعز عليه من أي اعتبار آخر. وسكتت الأخت منتظرة من أخيها أن يكلمها، أن يؤنس وحشتها، أن يزيل بعض ما في نفسها من آلام مكبوتة سببتها زوجته العزيزة عليه، المنتهكة لحرماته.

ورجت الأخت أن يجر الحديث إلى ذكر طرف مما تعمل هذه الزوجة، ليعالج أخوها الأمر بالحكمة المعهودة فيه، وسداد الرأي المعروف عنه.

لكن أخاها لم يتفوّه بكلمة طيلة ساعات الطريق. ولم تجد الأخت مجالاً للحديث. ولا منفذاً لعرض مشكلة الزوجة أمام زوجها. وهي قادرة على أن تفاجئ أخاها بما تعلم عن زوجته. ولكن الأمر، إنّ كان هكذا فسوف يكون مشكوكاً فيه. بخلاف ما إذا جاء في الوقت المناسب وقد جرَّ الحديث إليه. والسامع مستعد لسماعه.

لهذا لم تجد الأخت مجالاً لأي حديث، لأن أخاها كان ساهماً حزيناً تتجاذبه الأفكار السوداء والهواجس العمياء. وجاء آخر الليل وهما يمشيان. وتعمَّقا في مجاهل الصحراء وهما صامتان. وبدأ النعاس يدب إلى الأجفان من آثار التعب والسهر. وأناخ الأخ راحلته بقرب شجرة عوسَج، وأنزل أخته من فوق الراحلة. وفرش فراشين متجاورين أحدهما له والثاني لأخته.

نام الأخوان. إلا أن الأخت من كثرة خوفها وتعلقها بأخيها قالت أعطني طرف ثوبك، لأقبضه بيدي وأنام وهو في يدي. فإنني أخشى أن يأتي وحش فيجرني دون أن تشعر بي. فأعطاها طرف ثوبه. فقبضت عليه بأصابعها الخمس ونامت وطرف الثوب في يدها.

كان الأخ يراقب أخته مراقبة دقيقة. فلما استغرقت في النوم أخرج سكيناً فقطع بها طرف الثوب الذي في يدها، فانفصلت القطعة عن الثوب الذي يلبسه.

بهذا لم يبق رابطة تربط الأخ بأخته. فطوى فراشه بهدوء وحمله على راحلته بسكينة. وعاد أدراجه إلى زوجته تاركاً أخته في هذا الجزء الموحش من الصحراء الذي، إن لم تقتلها فيه الوحوش فسوف يقتلها الجوع والظمأ. ووصل الزوج إلى زوجته وأخبرها بما جرى. فأظهرت الحزن وأبطنت السرور، لأن أسرار خيانتها لزوجها قد ماتت وإلى الأبد، بموت هذه الأخت التي كانت تعد عليها أنفاسها وتحصي عليها كل صغيرة وكبيرة. لقد استراحت منها وأمنت من شرورها، وأصبح لها الجو صافياً. لا يكدره أي مكدر.

حفرت الأسرة حفرة في فناء المنزل ودفنت فيها جذعاً من جذوع النخل، ادّعوا أنه أختهم العزيزة التي وافتها المنية من آثار المرض الذي كانت تعانيه. ونسوا هذه الأخت تماماً واعتبروها في دنيا الأموات.

أما الأخت، فقد استيقظت في الصباح على حرارة الشمس، ولم تجد اخاها بجانبها. ونظرت يميناً وشمالاً لعلها تراه يرعى راحلته ولم تر شيئاً. ونظرت إلى الجزء الذي كان يربطها به فرأته مقطوعا بسكين. فعلمت أن مكيدة دبرت لها من قبل زوجة أخيها، وأن تلك المكيدة قد نفذت بحذافيرها، ونجحت بكل جزء من جزئياتها.

ونظرت سلمى فيما حولها فلم تر إلا رمالاً وصحارى قاحلة لا ماء فيها ولا أنيس. وكان الوقت شتاء والجو بارداً، فبحثت لها عن ركنٍ يأويها، حتى وجدت غاراً في جبل مجاور، لها فجمعت حوائجها فيه ونظفته ونظمته. واستعدت للبقاء في هذا الغار حتى يوافيها أجلها المحتوم. وصارت تتجول فيما حولها من الصحراء فتأكل من أعشابها وتقتات من أوراق شجرها. واستمرت على هذا وقتاً طويلاً.

ثم أحست بآلام الوضع. إن بطنها مليء ببيض الحمر وهي تحس أنَّ نموه تكامل ولم يبق إلا أن يخرج من بطنها. وفي صباح أحد الأيام جاءها المخاض، فولدت حمرة أي طائراً من نوع الطير الذي أكلت بيضه.

احتضنتها سلمى وعطفت عليها. واهتمت بها حتى شبت وترعرعت فكانت حوقلاً، ثم مقصاباً، ثم مطياراً، ثم بلغت حد الكمال فصارت طائراً كجملة الطير. وصارت هذه الحمرة تطير إلى ما حولها وتنقل إلى أمها أنواعِ الأطعمة وتأتي إليها بالماء.

واستقرت سلمى وأنست بهذه الحمرة اللطيفة التي أذهبت وحشتها وآنست وحدتها ووفرت لها كل ضروريات العيش الذي يبقي على حياتها. واستمرت على هذا فترة من الزمن. وقالت هذه الحمرة لأمها: ما هي قصتك يا أماه؟ فأخبرتها حادثتها من أولها إلى آخرها. كما أخبرتها بأخبار زوجة أخيها.

فقالت الحمرة لأمها: سوف أسعى لرد الكيد إلى نحر عامله والسهم إلى قلب صانعه. فدعت لها أمها بالتوفيق ورجت أن تكلل أعمالها بالنجاح حتى تنكشف الحقائق، ويعلم الأخ أن أخته بريئة براءة الذئب من دم ابن يعقوب، وحتى يتخلص من زوجته التي تعبث بشرفه وتسرف في ماله وتحطم أسرته.

وطارت الحمرة متوجهة إلى المدينة وأهوت على بيت سالم فوقعت على بعض حيطانه. وأشرفت فرأت سالماً يجلس في ركن من أركان المنزل يقرأ كتاباً فأطلت عليه. وألقت عليه هذه الكلمات المسجّعة أو الشعر المنثور:

«يا الحمرة.. يا المدمرة يا بايع أخته بالمرة.. ترى البنية ما زنت إلا ببيض الحمرة».

فأنصت الأخ إليها. وسمع كلاماً متقطعاً عرف بعضه وأنكر بعضه الآخر. وعجب كل العجب من طائر صغير يتكلم بمثل هذا الكلام. وعندما أنهت هذه الحمرة نشيدها أو شعرها المنثور، حلقت في السماء وعادت إلى أمها في غارها المنزوي في مجاهل الصحراء تؤنس وحشتها وتقوم بخدمتها. وفي اليوم التالي وفي نفس الموعد عادت الحمرة إلى شرفة البيت التي كانت عليها بالأمس. فألقت نشيدها المعهود فالتفت إليها سالم أكثر من ذي قبل وجعل يستعيد كلامها في ذهنه ويحلله ليخرج منه بنتيجة.

إن ما تقوم به هذه الحمرة وما تقوله ليس عبثاً وليس صدفة بل هو أمر مقصود ولاشك وله معان ووراءه حقائق وأسرار. فلينتظر إلى الغد فإن جاءت كعادتها فإنها بذلك تقطع الشك باليقين ويتحقق من أن وراءها سراً لابد من اكتشافه..

صبر إلى الغد وهو يتعجل الساعات ويستبطيء سير الزمن. فلما جاء موعد مجيئها، إذا بها على الشرفة وهو في مكانه قد استعد للسماع والفهم. ومتابعة هذه الحمرة حتى يعرف ما وراءها.

ألقت الحمرة نشيدها وفهمه كل الفهم وعرف مغزاه معرفة لا يشوبها الشك. وقام من فوره وتبع الحمرة وهي تطير أمامه قليلاً ثم تقع لانتظار وصوله. وهكذا جعلت الحمرة تطير وتقع فإذا لحق بها طارت وإذا ابتعدت عنه قليلاً وقعت حتى وصلا إلى سلمى.

كانت سلمى جالسة في الغار وحدها ترفو بعض ملابسها. رأت أخاها على باب الغار وفوجئ بها أخوها فأقبل الأخوان بعضهما إلى بعض بشوق وحنين. وندم الأخ ندماً لا يماثله ندم وقبّل رأس أخته وقبلت أخته رأسه وجلس الأخوان وجها لوجه.

وقال سالم لأخته: قصي عليَّ كلَّ ما جرى لك مع زوجتي. فلقد تسرعت وخدعتني فانخدعت.

فقصت عليه الأخت قصتها وقصت عليه قصة زوجته مع عشيقها أي محبوبها الذي يختلف إليها عند غياب زوجها وانكشاف هذا السر للأخت وخوف الزوجة من أن يعرف زوجها هذه الأعمال فيكون في ذلك خراب بيتها وتقويض سعادتها.

بكى الأخ بكاءً مريراً وكرر اعتذاره وأسفه لأخته. وقال لها: هيا اجمعي ملابسك، وهيا بنا إلى الزوجة الخائنة الماكرة لأذيقها ثمرة مكرها وخيانتها. ووصل الأخ وأخته إلى البيت ودخلا. فكان دخولهما مفاجأة غير سارة للزوجة. التي أيقنت بانكشاف أمرها كما أيقنت بالهلاك لا محالة، وهكذا حصل.

فقد أخذ الزوج زوجته الخائنة، وانتحى بها جانباً فظنت انه سوف يعاتبها ثم يضربها ويطلقها. هذا هو أسوأ شيء ظنته الزوجة. لكن الزوج كان مصمما على الخلاص منها بالقتل السريع. وعندما اختلى بها أخذ لباس رأسها الذي يسمونه الشيلة وخنقها به حتى أسلمت الروح لبارئها وانتقلت من عالم الأحياء إلى عالم الأموات.

ثم حفر الحفرة التي دفن فيها الجذع بحجة انه قبر الأخت فدفنها فيها.. وجمع أثاث بيته وسافر مع أخته من تلك المدينة إلى مدينة أخرى لا يرى فيها من المعالم ما يذكره بهذه المأساة المحزنة التي انتهك فيها شرفه، وقطع فيها رحمه وحطم بها بيته الذي كان يغبط نفسه به. ويرى أنه أسعد زوج وأن بيته أنظف بيت وأن زوجته أنقى وأوفى زوجة.

إلا أنه فوجئ بهذه القيم تتحطم، وإذا بعكسها يحل محلها. هذا البعد هو العلاج الوحيد لتناسي هذه المأساة المؤلمة.

ووصل سالم مع أخته إلى المدينة التي قصدها، وعاش معها وحرم على نفسه الزوجات. وعاشت أخته بجانبه لأنها لا يمكن أن تتركه وحيداً.

أساطير هندية



رامايانا

رامايانا هي أوديسة الهند في تاريخ الأدب الأسطوري وهي أشهر أساطير الهند وأحبها إلى النفوس. وتتناول حياة بطل اسمه راما، نفاه أبوه في غابة الشياطين حيث لقي من المصائب والأهوال ألوانا شتى. ونشب صراع جبار بينه وبين رافانا ملك الشياطين الذي تمكن من خطف زوجته، فظلت تنتظر زوجها صابرة طاهرة لا تستسلم لليأس أبداً.

والهندي يعتبر رامايانا كتاباً مقدساً، ويعتبر راما صورة مجسدة للألوهية، ولا يزال يتوجه إليه بالصلاة. وهو حين يقرأ الأسطورة إنما يشعر بأنه يستمد من قراءاته سموا دينيا كما يستمد متعة أدبية وارتفاعاً خلقياً، إذ تطهّره هذه القراءة من أوزاره جميعاً وتجعله ينجب ولداً حتى ولو كان عقيماً.

كان الجميع سعداء إلا الملك، فبرغم العصر الذهبي الذي كان يعيش فيه كل الشعب، شيءٌ واحدٌ كان ينغص على الملك حياته. فقد أبت الآلهة أن تنعم عليه بولد يتولى من بعده عرش البلاد.

ولقد كان سكان مدينة أيوذيا يعرفون تلك الحسرة التي تأخذ بقلب الملك داشاراذا سيد بلاد «كوسلا». إلا أنهم ما كانوا يملكون شيئا قط سوى أن يدعوا إلى «براهما» ـ وهم يقدمون القرابين ـ ليمنح ملكهم الطيب ولياً للعهد.

ولعل رب الأرباب قد استجاب لدعوات القوم الصالحين. فذات يوم وبينما كان الملك مجتمعاً بكهنته يقدمون القرابين لبراهما، ظهر لهم الإله «فشنو» بشكل نمر متربعاً وسط النيران وقال للملك:

ـ خذ هذا الأَرُزّ المقدس واللبن الحليب، ووزعه على زوجاتك فقد أرسلني براهما لأبشرك بغلام اسمه راما، يكون له ثلاثة أخوة آخرين من كل زوجة من الزوجات.

وحمل الملك اللبن والأرز إلى زوجاته وقسمه عليهن. وكانت نتيجة هذا الأرز خصبة: فأنجبت «كوشالا» زوجة الملك الأولى ولداً سماه «راما» ثم تبعتها «كايكي» بولد سماه «باراتا». أما الثالثة فقد أنجبت ولدين هما «لاكشمان وساتروجنا».

وعاش الأخوة الأربعة في كنف الملك حتى شبوا. ومع مر السنين كان راما قد اتخذ من أخيه لاكشمان صديقا وتابعا ورفيقا. في حين كان ساتروجنا قد جعل من نفسه هو الآخر حارساً لأخيه باراتا.

وكبر راما حتى بلغ السادسة عشرة. وبدأ الملك يمنحه من قلبه كل شيء ويدربه على أن يكون ملكاً من بعده على كوسلا. ومن أجل أن يأمن على ولده ـ متى تولى العرش ـ من عداوات جيرانه، امتلأ رأسه بفكرة تزويجه من سيتا كبرى بنات «جاناك» ملك «ميثالا».

والحق أن سيتا كانت أجمل فتيات ذلك العصر، غير أنها لم تكن في الحقيقة ابنة الملك. فقد رُزق بها بصورة فجائية غير منتظرة. إذ كان يسوق المحراث، يحرث به بستان قصره ذات يوم، إذا بالأرض تنشق من تحته، وتخرج من مجرى الحرث طفلة صغيرة يشع من حولها النور، ذات جبين من عاج، وشفة من مرجان، وأسنان تسطع بلمعة اللآلئ. كانت هي نفسها سيتا التي اعتبرها الملك هدية من الآلهة، فتعهدها في قصره حتى شبت وعندما حان وقت زواجها، قرر جاناك ألا يزوجها إلا لمن يستطيع أن يثني القوس المقدس الذي أهدته الآلهة لأجداده الأقدمين.

وتقدم لخطبة الأميرة أبناء القصور من كل الممالك حوله. غير أن أحداً لم يستطع أن يثني القوس. فقد كان قوسا ماردا عملاقا، صنعه الإله شيفا لنفسه، ثم أهداه لأجداد جاناك، ومنذ ذلك اليوم عجز الجميع عن ثنيه فلا الآلهة، ولا المردة ولا الشياطين كانوا يملكون القوة التي تستطيع أن تثنيه.

وقرر راما أن يشترك بالمباراة وانطلق إلى ميثالا حين كان الملك يستعد لإقامة عيد الضحية. وكان الشعب كله يحيّي الملك حين دخل راما الساحة، وأعلن عزمه على خطبة سيتا ابنة الملك.

فتحولت إليه كل الأنظار. كان صدره بارزاً كليث، وجسده فارعاً كإله، وعيناه مهيبتين كفيل.

وأمر الملك بالقوس فأحضر على عربة ذات عجلات ثمان يجرها خمسة آلاف عملاق. ومد راما يده فأخرج القوس من كيسه وبدأ يثنيه وارتعد الجميع، فما كان أسهل ما انحنى القوس في يد راما الذي ظل يثنيه حتى تلامس طرفاه، ثم تحطم في صوت كالرعد، وهزة كالزلزال، حتى أن آلاف المشاهدين سقطوا على الأرض سوى جاناك وراما والأميرة التي فتحت عينيها في ذهول.

وأقيمت الأفراح، وأرسل جاناك إلى جاره الملك داشاراذا يدعوه إلى حفل الزواج. فجاء ومعه أبناؤه الباقون، وعندما عادوا إلى أيوذيا. كان مع كل منهم عروس أخرى رائعة من بنات ملك ميثالا الجميلات.

وظلت السعادة تغمر كل مكان من أرض كوسلا. حتى دخلها الشر عن طريق كايكي، الزوجة الثانية للملك.

ذات يوم أعلن الملك دعوته للشعب لحضور حفل تنصيب ولي عهده في اليوم التالي. وعمَّت الأفراح كل «أيوذيا» التي امتلأت قلوب سكانها جميعا بحب «راما» وزوجته الأميرة «سيتا» ابنة الآلهة، ما عدا قلبٌ واحدٌ امتلأ غماً وحسداً، هو قلب الملكة كايكي. فقد أحزنها، أن يكون العرش لابن ضرتها دون ولدها باراتا الحبيب.

ولعل تلك الغيرة التي ملأت قلب كايكي، لم تكن لتريحها لولا خادمتها العجوز «منتارا». فقد أشعلت العجوز في أعماق مولاتها كل نيران الحقد والحسد، وراحت تحرضها على التخلص من راما ليكون العرش من نصيب ولدها باراتا.

وبكت كايكي غيظاً ويأساً. فما كانت تملك أن تمنع زوجها الملك من إعلان ولاية العهد لأي ولد، غير أن منتارا ابتسمت بخبث وهي تقول:

ـ في إمكانك يا مولاتي أن ترغمي الملك على إعلان العهد لولدك. وإرسال ابن ضرتك إلى أعماق غابة الشياطين، فلا ينافسه على العرش أبداً.

قالت الملكة كايكي:

ـ كيف يكون ذلك يا منتارا ؟.

ومن بين شفتيها المملوءتين بحمى الحقد، راحت منتارا تذكر سيدتها بذلك اليوم الذي أصيب فيه الملك بجراح خطيرة خلال إحدى معاركه مع شياطين الجن. في ذلك اليوم كانت كايكي تعيش في المكان. وتصادف مرورها من نفس الطريق الذي سقط فيه

الملك غارقا في لجى من الدم. وعندما شهدته ووجدته يقترب من الموت، جاهدت حتى استطاعت حمله بعيدا عن الميدان، وبذلت كل ما تملك ليرتدَّ إليه الصواب. وراحت تعتني بجراحه فأنقذته من موت كان لابد منه. وعندما شفي الملك، تزوجها، وأقسم أن يحقق لها أي أمنيتين تطلبهما منه، في أي وقت تريد. ومضت الأيام والشهور والسنون، ولم تكن الملكة قد طلبت من زوجها شيئاً بعد.

ودارت رأس كايكي بهذه الفكرة. وقد بدأت تدرك ما تقصد إليه منتارا واستمرت العجوز تقول:

ـ لقد حان الوقت لكي تطلبي من الملك أمنيتيك. أطلبي منه أن يتخلى عن العرش لولدك بارتا. وأن ينفي راما إلى غابة الشياطين أربعة عشر عاماً. خلال تلك السنوات يكون باراتا قد استطاع أن يجتذب لنفسه حب الشعب، ولا يخشى منافسة أخيه.

وانطلقت كايكي إلى الملك تذكره بوعده، وأقسم لها أنه لم يخنث فيه، وأنه سيحقق لها في الحال كل ما تطلب، كائناً ما كان. وهنا ألقت الملكة بقنبلتها على رأس الملك الذي وقف كالمشدوه. فما خطر بباله قط أن تجرؤ على مثل ما تطلب الآن غير أن الملك لم يكن يستطيع أن يخنث بوعده.

وبقلب حطمته الأحزان، أحنى رأسه للمرأة التي خدعته.

لقد كانت هذه هي أول مرة يحني الملك داشاراذا فيها رأسه. وقد اضطر إلى إحنائها مرة ثانية أمام راما الذي وقف ومن حوله كل رجال البلاط في انتظار أن يباركه أبوه ويعلن له ولاية العهد. فإذا به يفاجأ بصوت الملك يخرج كسيراً محطماً وهو يولي العرش لباراتا. ويأمر بنفي ابنه راما إلى غابة الشياطين أربعة عشر عاماً.

وهتف الفتى في حيرة:

ـ ولكن ما الذي صنعته يا أبتاه ؟

وأشار الملك إلى كايكي وكأنه يشير إلى الشياطين. وراح يقص على الجميع قصة الأمنيتين الخبيثتين والوعد الذي لم يكن يستطيع أن يخنث فيه.

واندفع باراتا نحو أخيه راما وأمسك بيده وهو يقسم إنه لا يمكن أن يمس عرشاً من حق أخيه وحده. غير أن راما هز رأسه وهو يقول.

ـ أبداً أيها الأخ الكريم. لقد انتقل التاج إليك، ولابد من تنفيذ الوعد الذي أقسم به أبي. ستجلس أنت على العرش. أما أنا فسأنطلق وحدي وفوراً إلى غابة واندك فلا أعود إلا متى انقضت الأعوام الأربعة عشرة كاملة.

واندفعت سيتا نحو زوجها. وسجدت أمامه تتوسل وتقول له:

ـ خذني معك يا زوجي الحبيب. فما أستطيع أن أعيش في هذا المكان بعدك. إن العربة والخيل المطهمة والقصر المذهب كلها عبث في حياة المرأة. وهي تؤثر عليها كلها ظل زوجها المعبود، إن سيتا ستهيم معك في كل مكان في الغابة. فذلك عندها أسعد مقاما من قصور العالم كله. إنها لن تفكر في بيتها لحظة أو في أهلها، ما دامت ناعمة بحبّ الزوج الذي اختارها لتشاركه الحياة. وستجمع الثمار الحوشية في الغابة اليانعة العبقة. فطعام يذوقه راما هو أحب الأطعمة عند سيتا الوفية.

وكذلك فعل لاكشمان. فقد راح يتوسل إلى أخيه أن يأذن له بمرافقته فإذا لم يكن يريده صاحبا فليكن حارسا له ولسيتا من هجمات سكان الغابة الملاعين.

وحاول راما أن يثني زوجته وأخاه عما صمما عليه. غير أنهما ظلا يصران ويتوسلان. ولم يكن أمامه سوى أن يذعن لرغبتهما. وانطلق الثلاثة معا في الطريق إلى وانداك غابة الشياطين.

لم يكد الأمراء الثلاثة يمضون، حتى سقط الملك ميتا لفرط ما ألم به من حزن. وبرغم أن كايكي ملأها الفرح لوفاة زوجها، إلا أن باراتا رفض العرش، وأقسم ألا يحكم باسم أخيه حتى يعود من منفاه.

ومضت أعوام عشرة طويلة. عاش الأمراء الثلاثة خلالها متنقلين بين حنايا الغابة الموحشة، يقتاتون الفاكهة، ويجمعون عشبا، ويصطادون طيراً وحيوانا، ويزداد بهم العجب لمرور السنين دون أن يلتقوا قط بأحد من الشياطين التي قيل إنها تملأ الغابة.

وبينما كان الأمراء الثلاثة يستأنفون تجوالهم ذات يوم، إذ وجدوا أنفسهم فجأة أمام صومعة ناسك هرم يدعى اجستاى. لم يكد يلمحهم حتى رحب بمقدمهم وأقسم أن يستضيفهم لعدة أيام.

ولم يكن بد من أن يقبل راما ضيافة الناسك. وخلال الأيام التي قضاها لديه، عرف راما أن رافانا ملك الشياطين يقيم غير بعيد من أطراف الغابة عبر المكان الذي يقيم فيه الناسك. غير أنه لا يجرؤ على الاقتراب منه لما يملكه الرجل الطيب من أسلحة رهيبة

يخشاها الجن والشياطين ولعله كان أجدر براما أن يبتعد بزوجته وأخيه عن ذلك المكان، غير أنه وهو الشجاع الذي لا يعرف الجبن قط ـ أبى أن يستسلم للخوف، وأقسم أن يستمر في تجواله حتى تنقضي مدة النفي.

وعندما وجد الناسك أن الفتى وأخاه يرفضان إلا أن يستمرا في طريقهما، أقسم أن يساعدهما ويزودهما بما يقيهما شر الطريق. فأخذ بأيديهما إلى مغارة تحت الأرض حيث آلات حرب فتاكة أعدها لصراع الجن والشياطين. فأعطاهما شيئاً منها، كما منح راما قوساً وسهاماً مسحورة لا تحصى، ومنح لكشمان سيفا ذهبي النصل يثير الرعب في قلب كل من يراه.

وأخذ راما ورفيقاه طريقهم من جديد في أعماق الغاب وظلوا يسيرون حتى أخذ التعب بسيتا وأحست بحاجة إلى الراحة وهنا فقط حط الثلاثة الرحال وقرروا أن يبنوا مسكناً صغيراً يأوون إليه، وترتاح سيتا فيه.

ومرت الأيام سعيدة هانئة. حتى كان ذات يوم..

كانت «سورباناجا» أخت رافانا ملك الشياطين تتنزه في الغابة حينما شهدت راما جالساً يناجي زوجته. وأحست «سورباناجا» نحو الفتى بهوى غريب. وراحت تنتهز الفرص لتنفرد به. فلما آتتها الفرصة وراحت تصب في أذنيه ترانيم الهوى. سد عنها سمعه، ورفض أن يستجيب لعاطفتها.

ولكن الرغبة المجنونة كانت تلح بالشيطانة العاشقة حتى بلغ بها الأمر أن صممت على قتل سيتا التي تمنعه عنها. وراحت «سورباناجا» تتحين الفرص حتى وجدت الفتاة وحدها فهاجمتها. غير أن لكشمان كان غير بعيد فأسرع إليها، وبحد سيفه البتار قطع أنفها وأذنيها. وصرخت الشيطانة، في غضب وانطلقت تجري والدم ينبثق صاخباً من جروحها. حتى التقت بأخيها الصغير كارا، وعندما عرف كارا الأمر أقسم لينتقمن لها، وأرسل أربعة عشر تنيناً ضخماً ليقتلوا الأمراء الثلاثة.

غير أن الشيطان الصغير لم يقدّر ما يتمتع به راما من قوة وهبتها له الآلهة. فإن التنانين لم تكد تهاجم مقر راما ورفيقيه، حتى نهض هو فخنقها جميعاً بيديه بغير سلاح.

وهنا جن جنون كارا وأعلنها في الغابة حرباً شعواء على راما ورفيقيه.

خرج كارا على رأس أربعمائة ألف تنين يثير كل منها رعب عالم بأسره.

وعندما لمح راما طوابير الجيش الزاحف، أمر زوجته وأخاه بالاختفاء ثم لبس درعه واستل سيفه وأخرج رمحه ووقف وحده ينتظر التنانين.

وكانت التنانين تزحف كأمواج البحر. وتحتك حراشيفها فتخرج أصواتاً رهيبة كالرعد. وملأ الرعب قلوب كل من في الغابة إلا راما الذي وقف صامداً تطل النبال من منطقته. وظل ساكناً في وقفته حتى ازدادت صفوف الجيش الزاحف اقتراباً منه. وهنا مد راما يده إلى نباله وسهامه وراح يرسلها نارية عنيفة على التنانين التي ملأها الرعب والفزع. وبدأت تتراجع وتتلوى تلتمس النجاة. غير أن سهام راما كانت تلاحق الهاربين وراحت أرض الغابة ترتوي بالدماء، والتنانين تتساقط واحداً إثر الآخر، حتى لم يبق سوى كارا وحده وليس حوله أحد قط.

واقترب كارا من راما. ونشبت معركة عنيفة مهولة، راحت شظايا النبال وقطع الأخشاب تتطاير خلالها لتملأ جو الغابة. ثم فجأة، رفع راما قوسه وهزه كزلزال، ثم أطلق سهمه سريعاً إلى قلب الشيطان.

غير أن المعركة لم تكن لتنتهي عند هذا الحد.

فقد تلقى رافانا ملك الشياطين أنباء مصرع أخيه وجيوشه فجن جنونه. ونهض عن عرشه وهو يقسم ليقتلن راما ويمثلن به.

ونهض رافانا يستعد لمعركة رهيبة قاسية مع راما وصاحبيه. غير أنه لم يكد ينهض حتى انحنى عليه أخوه «ماريشى» يحذره من قوة راما، ويكشف له سر الذخيرة الفتاكة التي منحها له الناسك، ويقص عليه قصة الآلهة التي احتارته ليقضي على الجن والشياطين ويشتتهم أجمعين.

وبدأ الأمر لملك الشياطين أكثر صعوبة مما كان يتصور. وانحط على عرشه ساخطاً يفكر كيف يستطيع أن يأخذ بثأر أخيه.

إن له عشرين ذراعاً يستطيع أن يحمل في كل منها سلاحاً جباراً، وعشرة رؤوس يستطيع كل منها أن يخترع ألف وسيلة لكسب النصر ولكنه مع هذا أحس بالجبن. فقد أقنعه أخوه «ماريشى» أن النصر لن يكون حليفه إذا دارت المعركة بينه وبين «راما» وجها لوجه.

وإذن فليبحث عن سبيل آخر غير القتال.

وراح كل رأس من الرؤوس العشرة يبحث الأمر.

وفجأة قفز رافانا بفرح كبير. فقد خطرت له بعد طول التفكير فكرة خبيثة رائعة. فقتل «راما» لن يذل كبرياءه وأنفته أو ينال منه ولكن الذي يذله وينغص عيشه هو أن يفقد أعز شخص لديه.

وهكذا قرر رافانا أن يرسل أخاه ماريشى ليخطف سيتا زوجة راما الحنون.

فى ذلك الوقت كان الأمراء الثلاثة يجلسون تحت شجرة مورقة يلتمسون الظل، ويتذاكرون بلادهم وأهليهم. وفجأة لمحت سيتا منظراً أطلقت له صيحة فرح. لقد كان هناك ظبى يقفز على مدى البصر، رائع الجمال، له شعر يبرق كما يبرق الذهب.

ولمس الأمير فرحة زوجته وشغفها لمرأى الظبي. وعندما تمنت أن تملكه وتحتفظ به لأيام عودتها، أقسم ليأتينها به، حياً بغير جروح.

وقفز «راما» من مكانه يعدو وراء الظبي، بعد أن أوصى أخاه بحراسة سيتا، وألا يغفل الطرف عنها قط أو يتركها مهما جرى من الأحداث.

وأحس الظبي بالمطاردة فاندفع يقفز ويعدو، يظهر آنا ويختفي آنا آخر. والأمير من ورائه لا يريد ان يفلت منه، يخترق وراءه الأشجار، ويسعى خلفه داخل الجحور، ويأبى أن يستعمل قوسه وسهامه حتى لا يصيبه أو يجرحه.

وظل الظبي يخترق الغاب والأمير وراءه حتى أنهكه الجهد واخذ به اليأس. وأطل خلفه فإذا هو قد ابتعد تماماً عن مكان زوجته وأخيه. وهنا فقط ملأه القلق واحس أن في الأمر مكيدة دبرتها له الشياطين. فقرر أن يعود، ولكن بعد أن يقتنص الظبي بسهامه، ويحمل جلده البراق إلى سيتا الحبيبة.

وأرسل «راما» سهمه المسحور فأصاب الظبي، وأسرع يجري نحوه ليحمله وعندما اقترب وجد شيئاً آخر ما كان يتوقعه قط. فقد كان الظبي يتلوى على الأرض، ويتحول شيئاً فشيئاً إلى صورة أخرى بعيدة كل البعد عن صورته. وحدق «راما» جيداً إلى حيث كان الظبي المحتضر، فإذا هو «مارتشى» شقيق ملك الشياطين.

وأحس «راما» فرحاً عظيماً عندما وجد أنه قتل الشيطان، غير أن هذا لم يدع فرصته

تطول، فقبل أن يلفظ النفس الأخير، أرسل في الغاب صرخة داوية قلد بها صوت راما، ليوهم بها من يسمعها بأنه هو «راما» نفسه، يطلب النجدة والغوث.

والحق لقد نجح الشيطان فيما رمى إليه. فقد ملأت الصيحة آذان سيتا ولكشمان، وخيل إليهما أن «راما» يستغيث بعد أن دهمه خطر مخيف.

ونسي لكشمان كل تحذيرات راما، وانطلق يجرى إلى الجهة التي خيل إليه أن الصوت يصدر منها.. بينما جلست سيتا تنتظر، وفي قلبها هلع وذعر.

ومضت لحظات، راحت «سيتا» خلالها تلوم نفسها إذ أغرت زوجها بالسعي وراء الظبي. وبينما هي تفكر وتنتظر، طرق سمعها وقع أقدام تقترب منها، فقفزت وقد ظنت القادم زوجها، غير أنها توقفت عندما وجدت أمامها ناسكاً هرماً يتوكأ على عصا، وقد أحنت السنون ظهره، وقوست قامته، وقربت ما بين خطواته.

وطلب منها الناسك أن تأذن له بالجلوس لحظات يستريح خلالها. وفي أدب ورفق، أذنت له سيتا، وأحضرت ماء وفاكهة، ثم راحت تنصت إليه وهو يسألها عن سبب وجودها في ذلك المكان. وبرغم الدهشة التي ملأتها للسؤال الغريب، إلا أنها راحت تقص عليه كل الأمر حتى بلغت قصتها مع الظبي.

وهنا توقفت في ذعر.. فقد أخذ الناسك العجوز يضحك ويصفق، ثم إذا بقامته تعتدل، وظهره يستقيم، وإذا به ينتفض ليصير شاباً قوياً، له عشرون ذراعاً، وعشرة رؤوس.

لقد كان العملاق الواقف أمامها هو رافانا نفسه.

وانقض ملك الشياطين على «سيتا» وهو ينادي على مركبته، ودفع الأميرة إلى داخلها وانطلقت بهما المركبة تخترق الجو في طريقها إلى جزيرة سرنديب حيث مقر عرشه.

ظلت المركبة تطير، والأميرة مشدوهة حائرة لا تكاد تعي. وأطلت فإذا ملك النسور يطير غير بعيد فاستغاثت به وانتبه ملك النسور إلى الاستغاثة فإذا عدوه ملك الشياطين قد اختطف فتاة حملها في عربته السحرية الطائرة. وتحول النسر الضخم يتبع العربة وينقض عليها. غير أن الشيطان كان أسرع منه، فطعنه في جنبه بخنجره طعنة قاتلة سقط النسر على أثرها من ذلك العلو الشاهق نحو الأرض، وقد غرق في بحر من الدم.

واستمرت العربة تطير، حتى اجتازت غابة وانداك، ثم حطت قليلاً على جبل تعيش عليه مخلوقات تشبه القرود. وعندما استأنفت الطيران، كانت الأميرة قد عمدت إلى إلقاء وشاحها وعقدها ليسقطا على سفح الجبل بين أيدى القرود. لم ينتبه ملك الجن إلى سقوط الوشاح والعقد على حين كان يسرع إلى جزيرته. أما هي، فقد ملأها الأمل أن يعثر راما عليهما إذا كان قد نجا، وتدله القرود على المكان الذي اتجهت إليه.

بينما كان كل ذلك يحدث. كان «راما» قد انطلق في طريقه عائداً إلى الوادي بعد أن انتصر على الشيطان مارتشى. وفي طريقه التقى بأخيه لكشمان الذي كان قد انطلق في نجدته. وصرخ «راما» إذ وجد أخاه وحده، وراح يؤنبه إذ لم يستمع لتحذيره وتوصيته بألا يترك «سيتا» وحدها. فقد أدرك أن المؤامرة قد نجحت في إبعادهما عنها، لينفرد بها «رافانا» ويخطفها. وأسرع الأخوان إلى حيث تركا الأميرة، فإذا المكان خال، وآثار المعركة بادية، ولا شيء هناك سوى السكون.

لم يستطع «راما» احتمال الصدمة. فسقط غائباً عن الوعي. وعندما انتبه إلى نفسه راح يبكي ويصرخ وأخوه يحاول التخفيف عنه بغير جدوى. وأحس لكشمان بخطورة الأمر إذا ما طال انتظارهما في ذلك المكان إذ سيفقدان فرصة البحث ومتابعة أثر ملك الجن. فراح يدعو أخاه إلى مغالبة اليأس، والإسراع إلى الجنوب حيث تقع مملكة «رافان» التي يتحدث عنها الجميع.

أخذ الأميران طريقهما إلى الجنوب. وبينما هما يسيران إذا بهما يبصران شيئاً ضخماً يتمدد على الأرض ومن حوله بركة واسعة من الدم. واقترب الأخوان يتأملان، فإذا به ملك النسور يحتضر والدم لا يزال يسيل من جنبه ساخناً حاراً. واقتربا منه يسألانه سر ذلك الجرح فقص عليهما القصة، وأشار إلى الطريق الذي سلكه ملك الشياطين.

وقبل أن يستأنف الأميران السير، شقا مدفنا للنسر الذي فقد حياته وهو يدافع عن فتاتهما. ثم أمعنا في السير إلى حيث أشار لهما. وبلغا آخر الأمر جبلاً ضخماً وقفا لدى سفحه يفكران في وسيلة لارتقائه. وبينما الحيرة تأخذ بهما مأخذهما إذ بقرد كبير يخرج عليهما من إحدى مغارات الجبل ويسألهما عن سر وجودهما في ذلك المكان. وقال له راما:

ـ ومن تكون أنت. وما هو اسمك ؟

قال له القرد:

ـ أنا هانومان سفير الملك سجريفا، الحاكم الحقيقي لهذا الجبل. فما الذي تبغيان من حضوركما إلى هذا المكان ؟.

وقص عليه راما قصته. وهز هانومان رأسه وهو يقول:

ـ لقد رأيت بنفسي مركبة رافانا وهو يطير بها نحو الجنوب. لقد كانت الأميرة الجميلة جالسة في إعياء بداخلها. وعندما مرت بالجبل أسقطت عامدة وشاحها وعقدها. ربما لتدل الباحثين عنها إلى المكان الذي إليه تطير.

وأخذ هانومان بيد راما، وانطلق به إلى ملكه سجريفا لعله يمد له يد العون. وفي الطريق قص القرد على راما كيف أن سجريفا يعيش الآن مغلوبا على أمره، وحوله قليل من الأتباع، بعد أن اغتصب أخوه عرشه وطرده من قمة الجبل، ووعد راما القرد أن يساعد سجريفا لاستعادة عرشه بعزيمته الماضية وسهامه القاضية إذا هو وعد بمساعدته في الوصول إلى زوجته.

وكان هذا هو ما حدث بالفعل. فقد اتفق سجريفا مع راما على أن يتبادلا المساعدة. وحمل راما قوسه وسهامه ونباله. فشن بها حربا شعواء على ملك الجبل الذي اغتصب عرش أخيه. وبعد صراع عنيف استطاع «راما» الفوز بالنصر. فهزم الغاصبين وأعاد سجريفا إلى عرش الجبل.

ومن أجل أن يرد سجريفا الجميل لحليفه، وجه أربعة من جيوشه التي تضم آلافا من القردة العملاقة الهائلة، إلى جهات العالم الأربع، وأمرها أن تسير في الأرض باحثة عن المكان الذي نزل فيه رافانا والأميرة المخطوفة.

وكان على «راما» و«ولكشمان» أن ينتظرا في مملكه القرود عودة الجيوش الأربعة. وانقضت أيام طويلة كأنها السنين عادت بعدها ثلاثة جيوش بغير نتيجة. ولم يبق غائباً سوى الجيش الذي كان قد توجه إلى الجنوب. وعلى رأسه هانومان سفير الملك. والذي أخذ معه خاتم راما.

والحق، أن جيش الجنوب ظل يلقى من الأهوال والمخاطر ما لم يتصوره أحد قط. ولقد بلغ إخلاص هانومان لصديقه راما حدا جعله لا يهتم أبداً بما يقاسيه هو وجيشه في سبيل بلوغ مقر ملك الشياطين. وظلت الأيام تمر وهو يقود جيشه حتى بلغ آخر الأمر شاطئ المحيط وأطل. فإذا هناك على مسافة بعيدة جزيرة مسحورة يحيط بها ضباب كثيف.

وأدرك هانومان أن هذه الجزيرة هي المكان الذي يسعى إليه. وبرغم طول المسافة التي تمتد بين شاطئ المحيط والجزيرة المسحورة، فقد قرر هانومان الوفي أن يقفز قفزة جبارة هائلة إما أن تصل به إلى الجزيرة وإما أن تورده الهلاك.

وكان «هانومان» يحب المخاطرة، فترك جيشه حيث هو، واعتلى ذروة صخرة ناتئة من صخور الشاطئ ثم قفز قفزة هائلة في الهواء.

كانت القفزة رائعة حتى كاد ظهر هانومان يصطدم بالسماء. وإذا به قد عبر المحيط الواسع وحطَّت قدماه على شاطئ جزيرة سرنديب. .

وعندما أحس هانومان أنه قد نجح في الوصول إلى الجزيرة، استخدم سحره ليتحول إلى قرد صغير لا يلفت إليه الأنظار. وراح يتنقل بين بيوت الشياطين باحثاً عن قصر «رافانا» حتى بلغه. وعندما اجتاز أسواره شهد سرداباً (سرادقاً) صغيراً يمتد في حديقة القصر الواسعة. فاقترب منه. ومد بصره يتلصص في خفية، وإذا به يقف مبهورا ممتلئاً عجباً. فقد كانت سيتا هناك. بارعة الجمال كملاك، ترقد على فراش مريضة منهوكة. ومن حولها ماردات من العفاريت يحرسنها. ورافانا واقف على رأسها يهددها ويتوعدها بأن صبره قد نفد لطول ما أمعنت في رفض الزواج منه، والتصميم على الوفاء لزوجها راما. وعندما عجز رافانا عن استرضاء سيتا كما كان يعجز كل يوم، غادر السرادق وقد أقسم ألاَّ ينتهي ذلك اليوم حتى يكون قد أذل كبرياءها. وما كاد رافانا يغادر السرادق حتى اقترب القرد الصغير من الفراش، ثم همس باسم راما.

فانتفضت الأميرة وتلفتت حولها، فإذا قرد صغير ولا شيء آخر هناك. وظنت انها كانت تحلم فأغمضت عينيها. ولكن القرد عاد يذكر اسم راما. ففتحت عينيها من جديد فإذا بالقرد يخرج خاتماً ذهبياً ما كادت تراه حتى أيقنت أنه خاتم زوجها الحبيب. وقبل أن تصرخ من الفرح كان هانومان قد أشار إليها بسرعة خفية، يحذرها من الصراخ، وأومأ إليها أن تنتظر وتطمئن، وفهمت هي إشاراته، وعرفت أنها النجاة.

غادر هانومان المكان مقرراً الرجوع سريعاً إلى بلاده ليعود بجيش ضخم ومعه «راما» لينزل النقمة بملك الشياطين. ولكنه لم يكد يبتعد قليلاً حتى ملأت رأسه فكرة جديدة، هي أن ينزل نقمته هو أيضاً بمملكة الشياطين ويحطم كبرياء ملكها ويذله.

وبلمح البصر رفع «هانومان» عن نفسه السحر فعاد قرداً مارداً ضخماً، وراح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر. ولم يكد يفعل حتى أحاطت به

الشياطين من كل جانب. وأطل حوله فإذا هو وحيد وهم كثيرون. وأدرك بعد فوات الأوان مقدار خطئه وتهوره وعرف أنه واقع لا محالة بين أيديهم. وهنا خطرت له فكرة. فاقتلع من بهو القصر عموداً كبيراً من الرخام قفز به وسط جموع الشياطين ففرق شملهم. ثم قفز في الهواء قفزة هائلة كان واثقاً أنها ستبلغه شاطئ المحيط. إلا أنَّ سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه. ومع أن الإصابة كانت خفيفة، إلا أنها كانت كافية لأن تهوي به قبل أن يبلغ الشاطئ. فجذبته الشياطين، وأوثقوه بالحبال، وقادوه إلى «رافانا» الذي كان ثائراً يرغي ويزبد ويهتز كزلزال.

وأصدر رافانا أمره في الحال بإحراق هانومان. ولفّ الشياطين جسم القرد بلفائف القطن، ثم أشعلوا النار في القطن حول الذيل. وبدأت تتسرب بطيئة إلى جسد القرد.

وشهدت السماء ذلك العذاب الذي نزل بالمنقذ. فأشفقت عليه وتجمعت السحب وأمطرت مطراً غزيراً كان كافياً لإخماد قيده.

وتوقف المطر فجأة. فنهض هانومان وطرف ذيله لا يزال يشتعل.

فخطرت له فكرة جديدة: لقد كانت الأسيرة في سرداقٍ بعيد عن القصر، فلا خوف عليها إذا هو أحرق القصر.

فهبَّ من فوره وراح يقفز هنا وهناك، يدور بذيله في كل اتجاه ويشعل النار في كل شيء حوله. وأمسكت النيران بكل جزء في القصر. ولم تمض لحظات حتى كان قد تحول إلى شعلة كبيرة هائلة.

وفى نشوة عارمة قفز هانومان قفزة هائلة بلغ بها شاطئ المحيط. وأسرع بلمح البصر حتى بلغ الجبل، وقصَّ الأمر على «راما» الذي أسرع إلى الملك «سجريفا» يطلب منه أن يمده بباقي الجيوش.

وعلى رأس أضخم جيش شهدته الأرض، سار راما ولكشمان وهانومان حتى بلغوا شاطئ المحيط، ووقفوا في مواجهة جزيرة سرنديب.

وأطل الشياطين من بعيد وملأهم الرعب. لقد استطاع قرد واحد فقط من هذا الجيش اقتحام جزيرتهم وإنزال الخراب بقصر الملك. فكيف لو نزلت كل هذه الآلاف من القردة بالجزيرة التي ملأها هانومان وحده من قبل رعباً؟.

كان «رافانا» على يقين من الهزيمة بعد أن تحالف ضده راما وهانومان. فجمع مستشاريه وراحوا يبحثون الأمر من كل الوجوه.

واختلف الشياطين ونشبت بينهم ثورة. ونهض «فبهيشان» شقيق رافانا الأصغر يطالب بتنحية أخيه وتسليم «سيتا» إلى زوجها ليحل السلام محل الحرب، غير أن «رافانا» ثار عليه وكاد يقتله.. فهرب هذا من أمامه، وقد أقسم أن ينتقم..

وقفز الشيطان الصغير فصار على شاطئ الأرض، وانطلق إلى «راما» يقص عليه قصته ويعرض عليه خدماته. وظنه «راما» أول الأمر جاسوساً، لولا أنه أشار عليه بإقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها الجيوش البحر.

وفكر «راما» فيما أشار به الشيطان الصغير. واقتنع بصواب الفكرة ونفذها..

ولم تكد تمضي خمسة أيام حتى كانت ملايين القردة قد جمعت كل ما أمكنها جمعه من جذوع الشجر وقطع الصخر. وأقيمت القنطرة وعبرتها الجيوش في جنح الظلام.

ونشبت المعركة هائلة مروعة بين جيوش راما وجيوش رافانا. ومن الجانبين سقط آلاف القتلى والجرحى. إلاّ أن قتلى الشياطين كانوا أضعاف ما أصاب جيوش «راما» الذي استعمل سهامه المسحورة. فراحت تقصف بالشياطين قصفاً مخيفاً.

واستمرت الحرب طاحنة لعدة أيام انتهت بهزيمة جيوش الشياطين. وعندما وجد «رافانا» أنها الهزيمة، امتلأ غيظا وحنقا، وانتفض مقسماً أن يقتل «راما» ولو كلفه ذلك حياته. ونشبت مبارزة هائلة بالنبال بين راما ورافانا.

كان ملك الشياطين عنيفا في مبارزته حتى شعر راما بأنّه سينهار، وكاد يستسلم لولا أن جمع قوته كلها قبل أن يسقط عدوّه على الأرض في رمية واحدة بسهم مسحور من قوسه. وأخذ السهم طريقه سريعاً إلى قلب رافانا فأرداه.

وردت نشوة النصر إلى راما قوته. وانطلق يجري نحو السرداق الذي تسجن فيه زوجته يقوده هانومان الوفي. ولم يحس كل من الزوجين كم من الوقت مر بهما وهما متعانقان. إلا أنهما عندما انتبها كان الهدوء قد ساد المكان. وكان فهبشان الشيطان الحليف واقفاً على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران.

وانتصب «راما» قائما من جديد. وأصدر أوامره بالعفو عمن بقي من الشياطين، على أن يحكمهم فهبشان ويمنعهم من الهبوط إلى الأرض بعد ذلك.

وعندما أخذ راما وسيتا ولكشمان طريق العودة إلى الوطن. كانت الأنباء قد سبقتهم إلى هناك على لسان هانومان. فخرجت أيوذيا كلها وعلى رأسها نائب الملك باراتا الذي رفض أن يجلس على العرش طوال أربع عشرة سنة. وظل محتفظاً به ليضع التاج بعد ذلك بنفسه على رأس أخيه راما وزوجته سيتا الحسناء.

الأساطير في بلاد الهند

عرف العرب الهند منذ فتحها محمد بن القاسم الثقفي، في أواخر القرن الأول للهجرة. وقد أخذوا منذ هذا الفتح يختلطون بأهلها، وينقلون عنهم عروض تجارتهم بحراً وبراً، كما نقلوا عنهم الكثير من حكمهم وكتبهم وأساطيرهم ومعتقداتهم. وبعض ما نقلوه عنهم أخذوه عمن أسلموا منهم، أو عن الفرس، مثل كتاب كليلة ودمنة. وقد نقلوا عنهم في الرياضيات والفلك والنجوم كثيرا، كما عرفوا أطرافاً من تأملاتهم المتصلة بنزعاتهم الصوفية، وكان لهذه التأملات أثرها في التصوف الإسلامي. وكذلك عرفوا كثيراً عن نساكهم من البراهمة وغيرهم، وتعذيبهم لأنفسهم تطهيراً لها من الآثام، وما اشتهر عندهم من حرقهم لأجسادهم أو إغراق أنفسهم في نهر الغانج المقدس.

واسترعى هذا الإحراق والإغراق نظر ابن وهب القرشي، فتحدث عنه، ولاحظ أن منشأ ذلك عندهم إيمانهم بالتناسخ، وتمكنه من قلوبهم، وزوال الشك عنهم وفي هذا الموضوع يقول القرشي: وإذا أحرق الملك نفسه أو مات، أحرق رجاله المقربون إليه أنفسهم بالنار، حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر ومنهم من – إذا عزم على إحراق نفسه – أوقدت له النار حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا، ويدورون به في أسواقهم، وبين يديه الصنوج، وعلى رأسه إكليل من الريحان، يصبون عليه الزيت والنفط وقد يمشي بين الناس وهو يحترق حتى تأتي النار عليه، ويصبح هشيماً تذروه الرياح ومنهم من يشق صدره قبل دخوله في النار أو يشق بطنه، وينزع قطعة من كبده، استهانة بالموت وصبراً على الألم. ومنهم من يغرق نفسه في الغانج، كل ذلك ثقة منهم بالرجعة إلى الحياة بصورة أخرى.

ويقول ابن وهب: للهند عباد وأهل علم، بلاهوتهم يعرفون بالبراهمة ولهم شعراء يغشون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان وسحرة، يظهرون ضروباً غريبة من السحر

والتخيّلات. ومن البراهمة قوم عراة غطت شعورهم أبدانهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب، وهم يسيحون في الهند، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم البشر، فإذا اشتد بواحد منهم الجوع وقف بعض بباب بعض الهنود. فإذا رأوه استبشروا به وأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ، فيأكل في تلك الجمجمة، ومتى شبع انصرف، ولا يعود إلى طلب الطعام. وينهي ابن وهب حديثه بأن للهنود شرائع يتقربون بها ـ كما زعموا ـ من خالقهم جل الله وعز عما يقولون. ولهم هياكل كبيرة، وأصنام عظيمة يعبدونها، ومن أصنامهم ما يقصدونه في مسيرة أشهر كثيرة.

وتحدث مسعر بن مهلهل عن عجائب الهند وما بها من هياكل لعبادتهم، وقال إنهم لا يذبحون الحيوان، ولا يأكلون السمك ولا البيض وهم من عبدة الكواكب، ولهم حساب محكم، ومعرفة بالنجوم كاملة وتعمل الأوهام في طباعهم، فمن ذلك ما يحكون من أن بعض ملوكهم بعث إلى أحد الأكاسرة (ملوك الفرس) هدايا فيها صندوقان مقفلان فلما فتحوها وجدوا في كل صندوق رجلاً، فسألوهما عن شأنهما، فقالا: «نحن إذا أردنا شيئاً همتنا إليه، يحدث» فاستنكر كسرى ذلك واستبعده، فقالا: «جرّبنا في عدو لك لا تستطيع قهره الحرب، فأننا إذا صرفنا همتنا إليه مات»، فقال كسرى لهما: «اصرفا همتكما إلى موتكما»، قالا: «أغلقوا علينا صندوقينا» فأغلقوهما، ثم كشفوا عنهما بعد فترة فوجدوهما ميتين.

ونزل مسعر في مدينة «الملتان» (في الجزء الغربي من البنجاب) وهي بيت حجهم، ودار عبادتهم، وبها صنمهم الأكبر الذي كانوا يحجون إليه، ويقدمون له القرابين والنذور وهو مبني في هيكل كبير، وعليه قبة سماكتها في الهواء ثلاثمائة ذراع أما طوله فعشرون ذراعاً، وصورته صورة إنسان جالس متربع على كرسي، وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من الذهب، وقد مد ذراعيه على ركبتيه، وجعلت أصابعه كالقابض على أربعة. وهو معلق في جوف القبة، لا تمسكه قائمة من أسفله ولا علاّقة من أعلاه، وهو ثابت في مكانه بتأثير مغناطيس يجذبه. وزعم مسعر أنه رأى في السند هيكلاً من ذهب، في صحراء قدرها أربعة فراسخ، والثلج لا يقع عليه بينما يقع على ما حوله!.

وأكبر من تحدث عن الهند وأعظمهم شانا الريحان البيروني المتوفي سنة (440هـ). فقد مكث في الهند أربعين سنة درس فيها لغتهم السنسكريتية وثقافتهم ومعارفهم في الميثولوجيا وفي الفلك والتنجيم، وكان فيلسوفاً ناقداً بصيراً، فأحاط بكتبهم المقدسة، وجملة أساطيرها وعلومهم ومعارفهم، ودوّن ذلك في كتابه تصويراً دقيقاً.

ونحن لا نكاد نقرأ في هذا الكتاب، حتى ترانا ندخل في عبادة أو ديانة وثنية معقدة، تكثر فيها الآلهة والأرواح وتنبث في قوى الطبيعة، فإذا لكل قوة إلهها الذي يرمز إليها، مثل أندر ويرمز إلى العاصفة، وهو رئيس الملائكة، وسومى وهو يرمز لنبات مقدس يسكر عصيره الآلهة والناس جميعاً، وأجنى رمز النار، وبراهما هو كبير آلهتهم. وكانوا يعتقدون أن الكون يمتلئ بالأرواح من حولهم، ومنها الخيرة والشريرة، وهي أرواح الشياطين، ولا ينجي الإنسان منها إلا مهارته في السحر ومعرفته بالرقي والتعاويذ. ولذلك كان للسحر عندهم شأن عظيم. ومن مزاعمهم في نشأة العالم أن إلها عظيماً شعر بالوحدة، فانشق نصفين، أوجد منهما كل الخلق، إذ انقسم إلى زوج وزوجة، ما زالت تختفي منه في صور الكائنات، وهو يتمثل لها ذكرا سويا في كل صورة تتحول إليها فإذا تحولت بقرة تحول ثوراً وإذا تحولت فرساً تحول حصاناً وإذا تحولت أتانا تحول حماراً، وإذا تحولت نعجة تحول كبشاً، وهكذا خلقت الكائنات زوجين زوجين، وهي جميعاً ترجع إلى خالق واحد، إذ ليست أكثر من صور مختلفة له. وواضح ما تحمله هذه الأسطورة من فكرة وحدة الوجود، وتناسخ الأرواح، في صور مختلفة.

ويحكي البيروني عن مزاعمهم:

إن براهما الأكبر رأى شرارة تحت الأرض، فأخرجها وجعلها أثلاثا، الأول النار المعهودة التي توقد الحطب ويطفئها الماء، والثاني الشمس، والثالث البرق. وعندهم أن العالم ينقسم إلى علوي وسفلي وفي العالم العلوي الجنة وفي العالم السفلي مجمع الحيات وهو جهنم، وفي العالم الأوسط الناس، وهم يثابون بالصعود إلى العالم الأعلى، ويعاقبون بالهبوط إلى العالم الأسفل، كل حسب عمله وفي اعتقادهم أن النفس ترتبط بالعالم عن طريق وثاق جسدها ولذلك يتهاونون بالبدن ويحالون فراقه بالحرق أو الغرق. وأجناس الخلائق عندهم ثلاثة: الروحانيون في الأعلى، والبشر في الوسط، وفي الأسفل الحيوانات، أما أنواع الخلائق فأربعة عشر، منها للروحانيين ثمانية هي براهما وأندر وسوما إلخ. وللحيوانات خمسة: بهائم ووحش وطير وزحافة ونابتة، هي الأشجار، أما البشر فنوع واحد ومع كل هؤلاء الأبالسة والشياطين. ويتقدم النساك وسدنة النار عندهم على الأطباء والمنجمين وأصحاب العلوم.

ويوغل البيروني في بحث شرائعهم وعبادتهم للأصنام، حاكيا لأساطيرهم في ذلك كله.

ومن طريف ما قصه عن مبدأ عبادتهم للأصنام والتماثيل هذه الأسطورة:

«ملك يسمى أنبرش، نال من المُلْك مناه فرغب عنه، وزهد في الدنيا، وتخلى للعبادة والتسبيح زماناً طويلاً، حتى تجلى له إلهه في صورة «أندر» رئيس الملائكة، راكبا فيلا، وقال له: سل ما بدا لك لأعطيك إياه.

فأجابه: أني سررت لرؤيتك، وأشكر ما بذلته لي من مساعدة، لكني لست أطلب منك شيئاً، إنما أطلب ممن خلقك.

قال أندر: إن الغرض من العبادة حسن المكافأة عليها، فحصِّل الغرض ممن وجدته منه، ولا تقل: إني لا أريد منك بل من غيرك.

قال الملك: أما الدنيا فقد حصلت لي، وقد رغبت عن جميع ما فيها، وإنما مقصودي من العبادة رؤية الرب وليست إليك، فكيف أطلب حاجتي منك؟

قال أندر: كل العالم ومن فيه، في طاعتي فمن أنت حتى تخالفني؟.

قال الملك: أنا كذلك سامع مطيع إلا أني أعبد من وجدت أنت هذه القوة من لدنه، وهو ربّ الكل الذي حرسك من الغوائل. فخلني وما آثرته، وارجع عني بسلام.

قال أندر: إذا أبيت إلا مخالفتي فإني قاتلك ومهلكك.

قال الملك: قد قيل: إن الخير محسود والشر له ضد، ومن تخلى عن الدنيا حسدته الملائكة، فلم يخل من إضلالهم إياه، وأنا من جملة مَنْ أعرض عن الدنيا، وأقبل على العبادة، ولست بتاركها ما دمت حياً ولا أعرف لنفسي ذنباً أستحق به منك قتلاً. فإن كنت فاعله بلا جرم مني فهذا شأنك. على أن نيتي، إن أنا أخلصت لله ولم يشب يقيني شائبة لم تقدر على الإضرار بي. وكفاني الآن ما شغلتني به عن العبادة وإني راجع إليها.

ولما أخذ فيها تجلى له الرب في صورة إنسان، على لون النيلوفر الأكهب (الأسود) بلباس أصفر، راكباً الطائر المسمى جرد، في إحدى أيديه الأربع الحلزون الذي ينفخ فيه على ظهورُ الفيلة، وفي الثانية سلاح مستدير حاد، وفي الثالثة حرز، وفي الرابعة نيلوفر أحمر. فلما رآه الملك اقشعر جلده من الهيبة وسجد وسبح كثيراً، فآنس وحشته وبشره بالظفر بمرامه.

فقال الملك: كنت نلت ملكاً لم ينازعني فيه أحد وحالة لم ينغصها عليَّ حزن أو

مرض، فكأني نلت الدنيا بحذافيرها، ثم أعرضت عنها لما تحققت أن خيرها في العاقبة شر عند التحقيق، ولم أتمن غير ما نلته الآن، ولست أريد بعده غير التخلص من هذا الرباط.

قال الرب: هو بالتخلي عن الدنيا بالوحدة والاعتصام بالفكرة وقبض الحواس إليك.

قال الملك: هب أني قدرت على ذلك بسبب ما أهلت له من الكرامة فكيف يقدر عليه غيري، ولا بد للإنسان من طعام ولباس، وهما من مظاهر الدنيا، فهل من طريق غير ذلك ؟.

قال الرب له: استعمل من ملكك وبالدنيا الوجه الأجود والأحسن، وأصرف النية إلى ما تعمله من تعمير الدنيا وحماية أهلها، وما تتصدق به وفي كل الحركات، فإن غلبك نسيان الأنسية، فاتخذ تمثالا كما رأيتني عليه، وتقرب بالطيب والأزهار إليه، واجعله تذكارا لي لئلا تنساني. حتى إن فكرت فبذكري، وإن حدثت فبإسمي، وإن فعلت فمن أجلي.

ثم غاب الشخص عن عينيه، فرجع إلى مقره وفعل ما أمره به.

وقالوا: من حينها تعمل الأصنام، بعضها ذوات أربع أيد كما ذكرنا، وبعضها ذوات يدين. وأخبروا أيضاً أنه كان لرأس البراهمة ابن لم تكن له همة غير رؤية الرب، وكان يمسك عصا معه ويلقيها فتصير حية، ويعمل بها العجائب، وكانت لا تفارقه، وبينما هو يتأمل يوماً، رأى نوراً من بعيد، فقصده ونودى منه: إن ما تسأله وتتمناه ممتنع عن الكون، فلا يمكنك أن تراني إلا هكذا ونظر فإذا شخص نوراني على مثال الناس. ومنذ ذلك الوقت وضعت الأصنام والصور. ومن أصنامهم المشهورة صنم مولتان باسم الشمس، وفي عينيه ياقوتتان حمراوان، ويقولون إنه أقيم منذ مائتي وستة عشر ألف سنة»..

ويفيض البيروني في ذكر أصنامهم وهيآتهم، وكيف يصنعونها، ويتحدث بالتفصيل عن كتبهم الدينية وسائر علومهم وشعرهم وعروضهم وحسابهم التي وضعها رأس البراهمة. وكان مترهبا، عقد مجمعا من الحكماء وسنَّ شرائعهم. وهو الذي وضع نظرية أدوار حياة العالم، وكانوا يزعمون أنه قال: «إن عمر العالم اثنا عشر ألف دور مقدار كل دور ست وثلاثون ألف سنة».

وعرض البيروني لسحر أهل الهند الذي اشتهروا به وتخايلهم بوجه من وجوه التمويه. وقال إن أصحاب هذه الصناعة مجتهدون في إخفائها، ومنقبضون عمن ليس من أهلها، وهي صناعة تقوم على معاجين وتراكيب أدوية، أكثرها من النبات وأصوله، ويزعم أهلها أنهم يستطيعون أن يعيدوا الصحة إلى المرضى والشباب إلى الشيب والشيوخ. ومن أساطيرهم التي يروونها في هذا الباب أنه كان في مدينة «اوجين» رجل يسمى «بيارى» صرف إلى هذا الفن همته، وأفنى فيه عمره وما ملكه، ولم يفده كل ذلك مِمَّا يسهل عليه مقصده، فجلس على شاطئ نهر متحسراً مغتماً ضجراً، وبيده الدرج الذي كان يأخذ منه نسخ الأدوية، فجعل يطرح في الماء منه ورقة بعد ورقة. واتفق أن في أسفل الشاطئ امرأة بغى، فمرت الأوراق عليها فجمعتها وأطلعت منها على صناعته بالسحر وهو يراها، وما زال حتى فنيت الأوراق، فأتته سائلة عن سبب فعله بكتابه، فأجابها: لأني لم أنتفع به، ولم أصل إلى شيء من مرادي، وأفلست بسببه بعد الأموال الكثيرة، وشقيت بعد الأمل الطويل في نيل السعادة. قالت المرأة: لا تعرض عما أفنيت فيه عمرك، ولا تيأس من وجود شيء قد أثبته الصناع قبلك، فربما كان الحائل بينك وبين الوصول إلى حقيقته أمراً تافهاً، ولي أموال كثيرة وكلها لك مبذولة لتنفقها على مطلوبك. فعاد الرجل إلى عمله، وكان يجد فيه صعوبة لأن كتب هذا الفن مرموزة، فكان يقع له غلط من جهة اللغة في الدهن أو في دم الإنسان، فيختلف الدواء ولا ينجح. وفي يوم أخذ في طبخ الأدوية، وأصابت النار رأسه ويبست دماغه، فأدهن بدهن كثير صبه على هامته، وقام من عند المستوقد لشغل. فوافق سمت رأسه من السقف وتد ناتئ. فشجه وأدماه، وعاد مطرقاً للألم الذي اعتراه وتقطر من يافوخه إلى وعاء الأدوية قطرات دم ممزوجة بالدهن، وهو لا يفطن لذلك، إلى ان تم مزج الأدوية، فطلى بها نفسه للإمتحان وصنعت صنيعه المرأة، فطارا في الهواء وعمل في ذلك الفن كتبا مشهورة، وهو معها إلى الآن حي لم يمت. هكذا يزعمون»

قال البيروني: ومن مشابه هذه الأسطورة أن في مدينة «دهار» على باب الوالي في دار الإمارة، قطعة فضية مربعة مستطيلة فيها تخاييل أعضاء إنسان، وقد ذكروا في أمرها:

«إن رجلا في ماضي الزمان اشتهر بأدوية، من عملها بقي حياً لا يموت، مظفرا لا يغلب، قادراً على ما يروم ويطلب فسمع به ملكه، فأحضره، وأمر بإحضار جميع ما طلبه، وأخذ يغلي الدهن أياماً، ثم قال للملك: أرم بنفسك فيه حتى أتمم لك الأمر، فهال الملك ما رأى، وخاف من التغرير بنفسه. فلما أحس الرجل خوفه وفزعه قال له:

«إن كنت لا تجترئ على ذلك ولا تريده لنفسك فهل ترضاه لو حتى أفعله بنفسي؟» قال الملك: «لكل ذلك» فأخرج الرجل صرر أدوية، وعرفه بعلامات تظهر منه، ليلقى عليه عند ظهور كل واحدة منها صرة معينة. وقام الرجل إلى الدهن وتردى فيه. فتفسخ وصهر جلده وجسده، وأخذ الملك يفعل مثله إلى أن قرب التمام، وبقيت صرة، فأشفق الملك منه على ملكه، إذا انبعث كما ذكر. فتوقف عن إلقاء الصرة، وبرد القدر والرجل مجتمع فيه. فأخرج بما عليه وهو تلك القطعة من الفضة».

ولهم في التعاويذ والرقي اعتقاد بالغ، وأكثرها ينصرف إلى الملدوغ، قال البيروني: «ويبلغ من إفراطهم في هذا الباب أني سمعت بعضهم يزعم أنه رأى ملسوعا ميتاً قام بالرقية وتكلم وأوصى، ودل على الودائع والأشياء، ولما استنشق رائحة الطعام خر ميتاً هامداً».

ومن خرافاتهم أن ملكاً من ملوكهم ذهب إلى جبل قاف هرما قد حناه الكبر، وانصرف منه شاباً معتدل القامة ممتلئا بالقوة قد اتخذ السحاب مركبا. وعقب البيروني على ذلك كله بقوله: «ولست أدري ماذا أقول في هذه الخرافات» ومما رواه منها: «زعم بعض الهنود أنهم شاهدوا ظباء ذات أربعة أعين، وأن في بعض براريهم دابة ذات أربع قوائم، وعلى ظهرها أربع قوائم أخرى ذاهبة إلى أعلى، ولها خرطوم صغير، وقرنان عظيمان تضرب بهما الفيل فتقطعه نصفين، وأنها ربما نطحت دابة، ورفعتها إلى ظهرها، فوقعت بين قوائمها العليا فتعفنت وحينئذٍ تحك ظهرها في الشجر حتى تموت وأنها ربما سمعت صوت الرعد فظنته حيوانا وقصدته، ووثبت إليه. ومما يزعمونه أنه نحو الشرق جبال القردة، وفي كل يوم يخرج ملكها مع الجماعات منها، ولهم مجالس مهيئة، ويحمل أهل تلك الأرض للقرود الأرز المطبوخ على اوراق، فإذا طعمت رجعت إلى الغياض، وإن تغافلوا عنها كان في ذلك هلاك الناحية لكثرتها وشدة صولتها. وفي رأيهم أنها أمة من الناس ممسوخة».

وللهند في الأفلاك والكواكب والنجوم أساطير كثيرة عرضها البيروني، ونضرب لها بعض الأمثلة فمن ذلك ما كانوا يزعمونه عن نجم سهيل من أنه: «لما طلعت الشمس في المبدأ، وسامتت جبل بند الشامخ في مرورها، أنكر علوها وبعثته الكبرياء على التعرض لها ليمنعها عن مسيرها وقصدها، ويحبس عجلتها عن المرور فوقه، فارتفع حتى قرب من الجنة ومواطن الروحانيين، فأسرعوا إليه لطيبه ونزهة بساتينه ورياضه واستوطنوه فرحين، يتردد فيه نساؤهم ويلعب أولادهم حتى إذا هبت الريح على ثياب بناتهم البيض تحركت

كالرايات الخافقة. والسباع والأسود تبدو في شعابه حالكة الألوان، والقرود تعلو قممه، والزهاد في غياضه مقتصرون على التغذي بثماره. ولما رأى سهيل أنَّ ذلك الماء من فعل الجبل، عرض عليه الصحبة فيما قصده، وأقبل على البحر يبلغ ماءه حتى غاض، وبدت سفوح جبل بند، فتشبثت دواب الماء به تخدشه حتى ثلمته بالحفر، وثقبته أخاديد، احتفظت بالجواهر واللآلئ تزدان بها وبالأشجار والحيات. واعتاض البحر عن ذلك بحسن لمعان السمك فيه وظهور الجواهر في قراره التي يتزين بها، زينة السماء بالكواكب. وكل ذلك من فعل سهيل الذي يطهِّر الماء من الأوساخ الأرضية. ومهما زادت الأنهار ونقصت، فإنها تقدم ما على وجهها من أنواع النيلوفر وألوانه إلى القمر وكذلك ما يسبح فيها من البط مثلما تقدم الفتاة الورود والتحف عند اقترابها. وما أشبه تردد البط الأبيض في الماء مصوتا بشفتي الحسناء وقد افترتا عن أسنانها وهي تضحك ضحك الفرح، بل ما أشبه النيلوفر الأبيض والأسود بسواد حدقتيها وما يحيط بهما من بياض. فإذا رأيت الحياض قد أشرق عليها ضياء القمر وانفتح، ما أنظم من نيلوفر الأبيض والأسود ظننتها وجه حسناء تنظر بعين دعجاء من مقلة بيضاء. وقد تسيل الحيات والسموم والقاذورات في الحياض، ولكن طلوع سهيل عليها يطهِّرها من النجاسات والآفات. ومن أجل ذلك كانت خطرة، ذكر سهيل، على بال الإنسان ماحية لآثامه الموجبة لعاقبة فانطلاق اللسان بمدحه أبلغ في حط الأوزار عنه واكتساب الثواب. ويجب أن يعرف وقت طلوعه ويقدم القربان إليه. وفي أول ظهوره يكون عسر الإدراك لا يهتدى له كل ناظر، فينبغي أن يسأل المنجم عن سمنت مطلعه، وحينئذٍ تُقدَّم النذور له، وتُفرش الأرض بما يتفق من الورود والرياحين، وتُلقى عليها ما توفَّر من الذهب والثياب والجواهر البحرية، ويُقدَّم البخور والزعفران والصندل والمسك والكافور مع ثور وبقرة وطعام كثير وحلوى. ومن فعل ذلك سبع سنوات متوالية بنية صالحة واعتقاد قوي وثقة مَلِكَ الأرض والبحر المحيط بها من الجهات الأربع».

ولهم مع كل كوكب وكل جبل وكل شجرة كبيرة وكل ظاهرة في الطبيعة مثل هذه الأسطورة، بل ما يزيد عنها خرافة وتهريفا، فمن ذلك ما يزعمون من أنه: «كان في الزمن القديم ستة عشر جبلا تطير بأجنحة لها، فأحرق أجنحتها شعاع أندر» رئيس الملائكة، فسقطت حول البحر المحيط، في كل جهة منه أربعة. وفيما بين الثالث والرابع من جبالها التي سقطت في الشرق نار تشرب ماء البحر، ولولا ذلك لامتلأ وفاض بدوام انصباب الأنهار فيه. وزعموا أنها نار ملك قديم لهم يسمى «أورب» ورث الملك عن أبيه وقد قتل

وهو جنين، فلما ولد وترعرع وسمع خبر أبيه غضب على الملائكة، وجرد سيفه لقتلهم، بسبب إهمالهم حفظ العالم مع عبادة الناس لهم، وتقربهم إليهم، فتضرعوا إليه واستعطفوه حتى أمسك. فقال لهم: «ماذا أصنع بنار غضبي»؟، فأشاروا عليه بإلقائها في البحر، فهي التي تشرب مياهه. ومن مزاعمهم في منازل القمر أنها بنات تزوج بهن، وأولع من بينهن بإحداهن وآثرها عليهن، وحملت الغيرة أخواتها على شكايته إلى أبيهن، فأغلظ عليه في التسوية بينهن ووعظه فلم ينجه فيه وعظه وحينئذٍ لعنه فأصاب وجهه البرص. وندم القمر على فعله، فجاءه تائباً عن ذنبه، فقال له الأب: «إن قولي واحد لا رجوع فيه، ولكني أستر فضيحتك في كل شهر مدة نصفه فلا تظهر للناس؟» فقال القمر: «فالذنب السالف كيف يُمحى عني أثره ؟» قال: «أنَصِّبُ مخدوماً لك» ونصِّب له مخدوماً أو صاحباً، وهو الذي يرمز إليه صنم «سومناة» وسوم هو القمر، ونات الصاحب، فهو صاحب القمر، وهو من أكبر أصنامهم». وقد قلعه محمود الغزنوي في سنة ست عشرة وأربعمائة.

وميثولوجيا الهند واسعة ومعقدة. وعلى هذا النحو يمضي البيروني في تصويرها من جميع أطرافها، وقد وقف طويلاً عند رسوم البراهمة في دينهم وصدقاتهم ومجاهداتهم، وما كانوا يبيحونه ويحرمونه من المطاعم كما وقف عند قرابينهم وتقديمها إلى النار لتقدمها بدورها إلى الآلهة. وزعموا في سبب ذلك أنها خجلت في أول الزمان من آلهتهم فسقطت إلى الأرض السفلى، وأقبل بعض الآلهة، يبحث عنها فدلته عليها الضفدع، فدعت عليها أن تكون ناقصة الصياح وتوارت في شجرة. فدلته الببغاء على مكانها، فدعت عليها بانقلاب اللسان. وأخيراً عثرت الآلهة عليها فأصلحتها وقومتها، وجعلتها واسطة بينهم وبين الناس، تأخذ قربانهم منهم وتوصله إليهم.

ويقص البيروني حَجّهم إلى الأصنام المقدسة، والأنهار المعظمة، وعلى رأسها نهر الغانج، ويزعمون أنه من أنهار الجنة، حملته الآلهة إلى الأرض، وجميعهم يرون من حق الميت على الورثة أن يغسل ويعطر ويكفن ثم يحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر الغانج ليلقى بها في الجنة. ومَنْ عَجِز عن الإحراق ألقى الجثة في الماء الجاري. وتحرق الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها، وكذلك يحرق كل من ملأ حياته أو تبرك بجسده من مرض عياء أو شيخوخة وضعف، وكأنما يرون في النار باب خروجهم إلى عالم وجودهم الحقيقي. ومن شعائرهم الصوم، ومنهم من يطيله تقربا إلى الله أيام شهر متوالية، لا يفطر فيها البتة. ويعتقدون أن من واصل جميع الشهور

صائماً، فلم يفطر في السنة إلا اثنتي عشرة مرة، مكث في الجنة عشرة آلاف سنة ثم عاد إلى الحياة في أهل بيت شرف ورفعة وحسب.

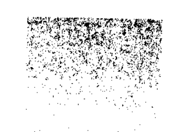
ولنترك البيروني إلى ما يقصه القزويني من عجائب الهند فمن ذلك شجرة كسيوس، وهي شجرة حلوة الثمرة يقع الحمام عليها، ويأكل من ثمرتها فيغشى عليه، وتراه الحيات فتقصده، تريد أكله ولا تستطيع الاقتراب من الشجرة ما دام على أحد أغصانها أو في ظلها. ومن ذلك البيش وهو نبات سام قاتل، إذا أكل منه أي حيوان مات، ومن غرائبه أن فأرة تتوالد تحته، إذا أكلت منه لم يصبها أي ضرر. ويقال إن ملوك الهند إذا أرادوا الغدر بأحد عمدوا إلى الجواري إذا ولدن وفرشوا من هذا النبت تحت مهودهن زمانا، ثم تحت فراشهن زماناً ثانياً، ثم تحت ثيابهن زماناً ثالثاً، ثم يطعمونهن منه في اللبن، حتى إذا كبرت الجارية وتناولت منه شيئاً لم يضرها، يبعثون بها مع الهدايا إلى من أرادوا الغدر بهم من الملوك، فإذا اقتربوا منها ومسوها ماتوا في الحال. وبها مَنْ يرقون من تلسعهم الحيات فيبرأون ولا يؤذيهم السم!.

وفي الهند طير عظيم الجثة جداً، إذا مات اتخذوا من نصف منقاره مركباً يركبونه في البحر. وببعض أرضهم نوع كبير من النمل أسرع عدواً من الكلب، وهو يأكل من يقترب منه!. بها جبل عليه صورة أَسَدَيْن، يخرج من فم كل منهما ماء كثير تدور عليه ساقيتان كل ساقية تروي قرية. وبها طائر على هيئة القمري، إذا أحضر الطعام وكان مسموماً دمعت عيناه وجرى منهما ماء وتحجر، فإذا تحجر سحق، وجعل على الجراحات فتلتئم في الحال. وبها معبد سومنات (في شمالي الهند) يحجون إليه عند مفارقتها لأجسادهم فيمن شاء على مذهبهم المشهور في التناسخ ويؤمنون بأن مد البحر وجزره عبادة له، وبينه وبين الغانج مائتي فرسخ وفي كل يوم يحملون إليه منه جراراً يغسلونه بها، ويقوم على سدانته ألف رجل من البراهمة. وبيت المعبد مبني على ست وخمسين سارية من الساج المصفح بالرصاص، وقبته مظلمة وهي تضاء بقناديل الجوهر الفائق. ومن عجائب الهند حجر إذا ألقى على النار ونظر إليه الإنسان انتفخ، حتى يصبح ضعف ما كان، ويروى أن بعض الهنود جلب منه عوداً ووضعه في مجمرة أمام بعض الناس، ففزع إذ رأى وجه من كان قاعداً معه انتفخ، وشخصت عيناه وتغير في الحال. فأمر برفع المجمرة، فرجع جليسه إلى حاله الأول، فقال له: إني رأيتك قد انتفخت انتفاخاً عظيماً، فقال له: وأنا أيضاً رأيت منك ذلك. فعرفوا أنه من خاصية العود الذي أُلقي في المجمرة.

وقد أقام ابن بطوطة في الهند ثماني سنوات تبدأ بسنة 734هـ واتصل بسلطانها

محمد بن تغلق، فأكرم وفادته عليه وولاّه منصب القضاء، وقد وصف في رحلته مدن الهند وعجائبها وصفاً مسهباً، وزعم فيما زعم أنه رأى على بعد سبعة أميال من مدينة لاهري مدينةً مُسِخ أهلها حجارة كما مسخت حيواناتهم وحبوبهم من القمح والحمص والفول والعدس. وتحدث عن إحراقهم لأجسادهم، وإغراقهم لأنفسهم في نهر الغانج المقدس، كما تحدث عن السحرة الجوكية، وأن منهم من يستطيع أن يتصور في صورة سبع ويهجم على الدور ليلاً ويفترس الصبية، وهم يقتدرون قدرة غريبة على الصيام حتى أن منهم من يقيم الشهور المتعاقبة لا يأكل. والناس يذكرون أنهم يعتمدون على حبوب خاصة يأكلون الحبة منها لأيام وأشهر معلومة، فلا يحتاجون إلى طعام ولا شراب، ويخبرون بأمور مغيبة وسلاطينهم يعظمونهم. ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ولا يأكل اللحم البتة.

يقول ابن بطوطة: «والظاهر من حالهم أنهم عوّدوا أنفسهم الرياضة على ذلك، وهم يعزفون عن الدنيا وطيباتها، ويزعم أن منهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته». وتقول العامة هناك: «إنه إذا قتل إنسان بالنظر إلى هؤلاء السحرة وشق عن صدره وُجِدَ دون قلب!. وأكثر ما يكون هذا السحر في النساء، والمرأة التي تشتهر بذلك تسمى «كَفتار»» ويظل ابن بطوطة يبالغ على هذا النحو الذي يجعل رحلته في بعض جوانبها حديث خرافة.



أساطير فينيقية



من قبرص إلى لبنان: أسطورة أبديّة

كان يعيش قديماً، في جزيرة قبرص التابعة لملك صيدون، شاب اسمه بكمليون لا يجد في نفسه هوى للنساء ولا ميلاً للزواج. فصمم أن يبقى عازباً مدى الحياة، وكان فناناً بارعاً يجيد نحت التماثيل الجميلة.

وقد ظهرت موهبته وفنه في صنع تمثال لفتاة من العاج. فجاء التمثال آية من آيات الفن والجمال. وما إن انتهى بكمليون من عمله حتى وقف مشدوهاً أمام فتاته العاجية، وراح يتلمسها برفق وحنان ويتساءل إن كانت معدناً ميتاً أم بشراً حياً. ثم أخذ يحدثها عن حبه لها وإعجابه بها، ويقدم لها الأزهار والعطور حيناً والحلي والملابس أحياناً.

وبقي هذا العاشق المسكين على هذه الحال إلى أن حل عيد فينوس، إلهة الحب والجمال. وكانت قبرص بكاملها تقيم لهذه الإلهة التي ولدت على شواطئها، عيداً كبيراً، يحتفل به جميع السكان، فيزورون معابدها ويحرقون البخور لها ويذبحون العجول على مذابحها. وكان من عادات ذلك العيد أن يتقدم الناس من هذه الإلهة بطلباتهم وتمنياتهم، وبما تشتهيه أنفسهم في هذه الدنيا. وكانت فينوس كريمة سخية مع عبّادها لا ترد لهم طلباً ولا تخيب لهم رجاء، خاصة في عيدها الكبير.

وجاء بكمليون بين جمهور المتعبدين لها، وقد وقف بخشوع وإجلال أمام تمثالها وخاطبها بلهجة غلب عليها التردد والحياء، قائلا: «أيتها الإلهة الكريمة، أنت التي تمنحين السائل حاجته، والجائع خبزه، والعاشق حبه، أتوسل إليك أن تعطي الحياة للفتاة العاجية التي عندي، وتجعليها زوجة لي» أصغت فينوس لبكمليون. وحنت عليه وأظهرت استجابتها لطلبه بأن جعلت النار في موقدها ترسل ثلاث مرات ألسِنة عالية نحو السماء.

وهنا عرف أن فينوس استجابت لطلبه.

عاد بكمليون إلى منزله مطمئن البال، وما إن وصل حتى أسرع نحو فتاته العاجية.

وانحنى فوقها وهي ممددة في سريره، ولشد ما كانت دهشته حين أحس بحرارة تطف منها، فمد يده إلى أنفها فشعر بأنفاسها تلفح أصابعه. فبهت ورقص قلبه فرحاً، وراح يجس جسدها من هنا وهناك، بعصبية وانفعال، حتى تأكد له أن فينوس قد حولت تمثالها إلى جسم بشري تجري الدماء الحارة في عروقه. فركع على ركبتيه ورفع صوته بآيات الشكر والثناء للإلهة الحنونة. ونهضت، على وقع كلماته، الفتاة من السرير، ونظرت إليه بحياء وخفر نظرات ملؤها الحب والحنان.

وما إن حل الليل حتى هبطت فينوس إلى منزل بكمليون، مصممة على إتمام عملها. وظهرت له ولفتاته، وأفهمتهما أنها جاءت لتحقق أحلامهما وسعادتهما. وعقدت لهما الزواج بحضور ابنها كوبيدون إله الحب، ليكون شاهداً على زواجهما. وعاش بكمليون هانئاً سعيداً مع زوجته، وبعد مضي تسعة أشهر ولدت لهما بنت أسمياها بافوس، أعطت اسمها فيما بعد للجزيرة التي ولدت فيها.

وعندما بلغت بافوس سن الشباب تزوجت من ملك أشور، في بلاد العراق وولدت له صبياً دعي سينيراس، تولى بعد أبيه. وكان سينيراس ملكاً عادلاً، عاش مدة ملكه ناعم البال حتى كبرت ابنته مرّة، فسببت له المرارة والشقاء.

ومفاد ذلك، أنه عندما أصبحت مرّة فتاة ناضجة، ظهرت عليها ملامح الفتنة والجمال. وشعرت فينوس بالغيرة منها، وشاءت أن تحرمها من التمتع بجمالها، وتجعلها شقية تعيسة فطلبت المساعدة من ابنها كوبيدون، وأطلق على قلب مرّة سهماً من سهامه التي ما أصابت قلباً إلا وأشعلته بالحب. إنما الحب الذي اشتعل في قلب مرة كان حباً مجنوناً لوالدها. وفهمت مرّة أنَّ حبها لوالدها حبٌّ غريبٌ عجيبٌ لا تقره أديان وعادات شعبها. وحاولت عبثاً أن تقاوم هذه العاطفة الأثيمة، لكن سهم كوبيدون لا يرد. وبسبب هذا الحب غير الطبيعي رفضت مرّة شبان ممالك الشرق الذي تراكضوا طالبين يدها. وصدتهم دون اكتراث لما هم عليه من جمال وثراء وجاه. وكم تمنت لو ولدت في بلاد الفرس حيث يسمح للآباء بالزواج من بناتهم لتتخلص من هذا الوضع المؤلم وهذا العذاب المرير.

أخيراً، وبعد أن فكرت طويلاً بالحالة التي تتخبط فيها، لم تجد مخرجاً لها سوى الانتحار، فأخذت زنارها الحريري الطويل وربطته حول عنقها وشدته شداً قوياً، فأزرق وجهها وجحظت عيناها، وراحت تغمغم غمغمة الموت. وصدف أن مرت هيبوليت

مربيتها العجوز أمام غرفتها، وسمعت زفراتها، فاضطربت ودفعت الباب وشاهدت مرّة على تلك الحال، فأسرعت إليها وحلت زنارها عن عنقها وخلصتها من موت محتّم. بعدئذ راحت تواسيها وتخفف عنها، وتسألها برفق وحنان عن سبب انتحارها، فلا تجيبها مرّة بغير البكاء والتنهدات. أخيراً باحت مرّة بسرها الرهيب للمربية بعد أن أقسمت لها بألاّ تبوح به لأحد، وأن تساعدها على الخروج من ورطتها. إضطربت المربية واستعظمت الأمر في البداية، لكنها تمالكت نفسها، وهي العجوز المحنكة التي ذاقت مرّ الحياة وحلوها، وأعملت فكرها في ما ينقذ ربيبتها ويوصلها لغايتها.

وجاء عيد سيريس، إلهة الخصب والنبات، وكانت الأمهات يحتفلن به احتفالاً مهيباً، فيلبسن ثياباً بيضاء كالثلج، ويقدمن للآلهة السنابل خصلاً خصلاً. وكان من عادات ذاك العيد أن تبتعد النساء عن منازلهن لمدة إثني عشر يوماً. ومشت الملكة كولشريس، والدة مرّة كعادتها، على رأس المحتفلات لتقوم بطقوس العيد.

وبحلول العيد، اختمرت في ذهن المربية العجوز، خطة جهنمية لإيصال مرّة لمخدع أبيها. فما إن خرجت الملكة الأم من القصر للإشتراك بموسم العيد، حتى جاءت العجوز الشمطاء إلى الملك سينيراس وأخذت تحدثه عن فتاة رائعة الجمال أحبته حبا قويا، دون أن تذكر له اسمها. فسألها الملك بشغف عن سنها، فأجابته بأنها في سن ابنته مرّة. ارتاح الملك لهذا الخبر، وعادت إليه روح الشباب، وأمر العجوز بأن تقودها إليه الليلة. ابتسمت العجوز ابتسامة النصر وذهبت إلى مرّة تزفها البشرى السارة. لكن مرّة لم تستسلم للفرح، ولبثت متخوفة قلقة.

ولما خيم الظلام وساد السكون جاءت العجوز وأمسكت بيد مرّة اليسرى تقودها إلى غرفة أبيها. وتركت لها اليمنى تتلمس بها الجدران. وقد تعثرت ثلاث مرات وكادت تقع، وسمعت البوم تنعق ثلاث نعقات منكرة، كأنها تريد أن تنبهها إلى فظيع فعلتها وتنصحها بالعدول عنها، لكنها لم تتراجع، واستمرت سائرة حتى أوصلتها المربية إلى غرفة أبيها، وقدمتها إليه في الظلمة الحالكة قائلة له: «هذه هي الفتاة التي حدثتك عنها، خذها فهي لك» وهكذا توصلت هذه العجوز بدهائها وخبثها إلى جمع الأب بابنته دون أن يعرفها. وتجددت علاقة مرّة بأبيها في الليلة الثانية. واستمرت خيانتها كل ليلة من أيام موسم العيد.

وقد تضايق الملك سينيراس من تواري هذه الفتاة عن عينيه، إذ كانت تأتيه في الظلام وتنسحب قبيل الفجر. وفي الليلة الأخيرة صمم ألاّ يتركها تخرج قبل أن يتعرف إلى وجهها. وعندما دخلت إلى غرفته، أخرج قنديلاً [illegible] وأدناه من وجهها. ولما عرفها وأدرك [illegible] لسانه، واستدار واستل سيفاً معلقاً في الجدار، ليذوق به [illegible] لها أثراً، إذ خرجت بسرعة البرق من الغرفة، وهربت [illegible] الظلام، ونجت بنفسها.

وراحت مرّة تضرب في السهول والبراري والصحاري، وابتعدت عن أرض أشور، ومضى عليها تسعة أشهر وهي تائهة في الأرض حتى وصلت أخيراً إلى مملكة سبأ، في بلاد اليمن. فانطرحت أرضاً تئن من التعب، وقد ثقل الطفل في أحشائها، وازداد شعورها بفظاعة العمل الأثيم الذي ارتكبته، فطلبت من الآلهة ألا تبقيها حية لئلا تنجس الأحياء، وألا تميتها لئلا تلوث الأموات.

وسمعت الآلهة صلوات مرّة وأشفقت عليها، فساعدتها على ولادة طفلها، وحولتها بعد ذلك إلى شجرة حملت اسمها «شجرة المر» وتركت دموعها تسيل من الشجرة حبوباً عطرة يجمعها الرعاة والمارة، هي حبيبات البخور.

أما الطفل، فقد احتضنته عرائس الماء وأضجعته على مهد من العشب الطريّ. وكان طفلاً فاتناً يشع النور من وجهه. وقد اختارت له اسم «أدونيس».

وشاهدت فينوس من عليائها الطفل أدونيس، وسحرت بجماله، وأحبت أن تشرف هي بنفسها على تربيته، فهبطت بمركبتها الطائرة على أجنحة حمائم بيضاء، وأخذت أدونيس من عرائس الماء، ووضعته في صندوق أحكمت أقفاله، وسلمته إلى شقيقتها برسيفون، إلهة الجحيم، بعدما أخذت منها وعداً بألا تفتحه، وأن تعيده إليها ساعة تطلبه منها ثم عادت طائرة من حيث أتت.

بعد ذهاب فينوس، لعبت الوساوس في نفس برسيفون بشأن الصندوق، ودفعها حب الاستطلاع إلى فتحه. ورأت ذاك الطفل بوجهه المنير، فافتتنت به، وصممت أن تحتفظ به لنفسها. وعندما جاءت فينوس لتستعيده منها، رفضت إعطاءها إياه رفضاً قاطعاً. فذهبت فينوس وشكت الأمر إلى زفس، سيد الإلهة، فقضى بأن يتقاسما تربية

الطفل. فيكون ستة أشهر لبرسيفون وستة أشهر لفينوس. وهكذا نشأ أدونيس برعاية الإلهتين الشقيقتين حتى بلغ سن الرشد، فتحرر من وصايتهما وأصبح طليقاً حراً. وراح يتجول في الغابات يطلق السهام على الوحوش، ويجد متعة كبرى في ملاحقتها وصيدها.

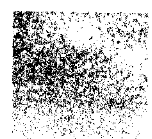
واتفق مرة، وهو يصطاد في جبال لبنان، أن مر أمام مغارة أفقا، فشاهدته الإلهة عشتروت التي كانت تغتسل تحت شلال هذه المغارة، فسحرت بجماله وتعلقت به. أما هو فلم يأبه لها، وتابع طريقه ساعياً وراء صيد مثير. وتعلقت عشتروت بأذياله فنسيت موطنها ولحقت به أينما حل، في الغابات والجبال والأودية، دون تعب أو ملل، وراحت تحدثه عن إعجابها به وحبها له، وهو مندفع وراء الصيد لا يهتم لما تقول. وعندما رأت فيه هذا الولع بالصيد، قررت أن تعاونه في هوايته، علها بهذه الطريقة تكسب وده، وصارت تقود كلابه وتسد على الطرائد السبل، فيصطادها أدونيس دونما خطر. وكانت تخشى عليه من السباع الضارية، فتنصحه قائلة: «لا تتردد أمام كل ما يفر أمامك من طرائد، كالأرانب والغزلان والبط، لكن حذار الحيوانات المفترسة من أسود ونمور وخنازير برية، فهي خطر عليك، وإياك يا حبيبي أن تصارعها».

أوصت عشتروت أدونيس وصيتها واعتلت مركبتها التي تجرها طيور البجع، وانطلقت في الفضاء نحو قبرص لقاء أمر عاجل. وكان أدونيس شجاعاً مغواراً، فلم يكترث لتحذيرات عشتروت. وأطلق كلابه نحو الغابة وراح يجري وراءها، فاكتشفت آثار خنزير بري وتتبعتها حتى وصلت إلى مرقده، فأيقظته وأهاجته بنباحها المتواصل. واندفع الخنزير من مخبئه يسعى إلى الخروج من الغابة، فشاهده أدونيس وعاجله بسهم جرحه جرحاً طفيفاً فجن جنونه وانقض عليه، وحاول أدونيس الهرب منه، لكن الخنزير الهائج أدركه وطعنه بنابيه في جنبه طعنة أوقعته أرضاً والدم يسيل منه.

ولم تكن بعد عشتروت قد بعدت كثيراً، فسمعت أنين أدونيس، والتفتت نحوه ورأته مضرجاً بدمائه، فعادت مسرعة إليه وعانقته بحرارة وحنان. وأسلم الروح بين يديها، فراحت تلطم وجهها وتندب حظها، ثم خاطبته قائلة:

«تموت يا حبيبا رغبت فيه، ورغبتي تبخرت كحلم. معك ذهبت لؤلؤة جمالي، لكن عليَّ أن أعيش، أنا الخالدة، ولا يمكنني أن أتبعك. مرة أخرى قبلني، قبلني قبلة طويلة حتى أرتشف روحك بين شفتي، وأرتوي من حبك».

قالت هذا، وأخذت من دمه قطرات سكبتها على الوادي، فتولدت منها زهرات شقائق النعمان، ووقع بعضها في النهر، فتحولت مياهه إلى أرجوانية حمراء. ثم غطت جسده الجميل بورق الخس والخبازى، ودفنته في أفقا. بعد ذلك نهضت وهامت على وجهها، ومشت دون وعي فوق الورود والأشواك، وسال الدم من قدميها، وتشربت منه الأزهار البيضاء، فاصطبغت بلونه وأصبحت حمراء.



أساطيـر ألـمانيـة



ملحمة فاوست الألمانية الخالدة

للشاعر العظيم غوتيـه

تبدأ الملحمة فإذا «الله» و«الشيطان» يتنازعان روح الإنسان. الخالق يؤمن بمخلوقاته، والشيطان الجاحد يكفر بكل شيء، ويرتاب في كل شيء، فهو المتشكك الخالد الذي يفضل الفناء على الوجود، ولا يرى معنى «لمسرحية القدر التي لا تنتهي، التي تخلق البشر لكى تهلكهم بعد ذلك» فهو يفضل على الدنيا ذلك الفراغ الدائم الذي بدأ منه الكون رحلته العقيمة خلال الزمان والمكان.. ومن ثم فهو يرى مهمته في أن يحبط الخليقة وينكر حكمة الله وطيبة البشر:

الله: ألا تجد إنساناً واحداً طيباً على الأرض ؟.

مفيستو (الشيطان): ولا واحد.. البشر جميعاً أشد وحشية من الوحوش.

الله: حتى «فاوست»؟

مفيستو: حتى فاوست.. إنه مثل بقية البشر.

ولكي يثبت الشيطان نظريته يعرض على ربه أن يتخلى له عن فاوست فترة كي يجربه: «أعطني إياه فترة قصيرة وأنا الكفيل بإفساد روحه إلى الأبد».

ويقبل «الله» الرهان، واثقاً بأن الشيطان سوف يخسره.

الله: عندما تثور في الإنسان شهواته، لا يستطيع إلا أن يخطئ ويضل. لكنه في غمار ضلاله في دجى الليل، يتجه بغريزته نحو النور.

وما إن قبل الطرفان «الرهان» هبط الشيطان إلى الأرض كي يجرب ويمتحن «فاوست».

ليلة عيد الفصح، وقد أوغل الليل وسيطر على غرفة كالقبو، يطل نور القمر من خلال نوافذها القذرة التي يلطخ التراب زجاجها. فلا يكاد يضيئ أكوام الكتب والمؤلفات الضخمة القديمة التي تتراكم صفوفها لصق الجدران التي سودها الدخان. وهنا وهناك يقع ظل القمر على أجهزة فلكية وأوان وأنابيب كيميائية. وعلى منضدة صغيرة مصباح يضيئ وجه رجل في ثياب العلماء القاتمة الوقورة، قد جلس إلى مكتبه يطالع بعينين توهجت فيهما نار الحماس للبحث عن الحقيقة، النار الملتهمة التي لا تشبع ولا تقنع، ولا تخمد أو تتراجع، وإنما تظل دائبة على الاستطلاع والبحث عن الجوهر المختفي وراء كل مظهر من مظاهر الكائنات الحية.

إنه «فاوست» العالم الألماني العلامة، الذي اشتهر في جميع الآفاق بعلمه وطيبته ونزوعه الدائم إلى الخير. لكنه يحس في ليلة عيد الفصح هذه بفيض من المرارة في قلبه فإن جهاده المتواصل خلال ربع قرن قد أظهر له تفاهة وعقم العلم والمعرفة البشرية. فإذا بعينيه لترتفعان عن صفحات الكتاب المبسوط أمامه، كي تجوسا خلال غرفته ـ ذلك المخزن العفن لأبحاث العقل البشري ـ فيسائل نفسه: «لقد تعمقت في الفلسفة والقانون والطب والدين. وأرقت عليها عصارة دراساتي الطويلة بحمية ونشاط وحماسة لا تعرف الملل، وها أنذا في النهاية أتبين أني لا أكاد أعرف شيئا، ولا أكاد أصل إلى نتيجة. وأن معارفي كلها لا تساوي كثيراً. ليست سوى قطرة من بحر. فيا لجهلي وغبائي وحماقتي.. هذه هي الفكرة التي تحرق القلب».

ويحس فاوست أن كل تلك السنوات التي قضاها في جد وعمل متواصل قد ضاعت سدى. وأنه بإنفاقه إياها مطموراً بين الكتب، غارقاً في دراساته العقيمة، لم يستمتع يوماً بحياته، لم يعش. وهو لا يعني «بالاستمتاع بالحياة» تلك المشاركة في ملذات الدنيا، بالحب، والضحك والرقص. فإن أوان ذلك على أي حال قد انقضى وهو الآن قد شاخ وإنما هو يعني ذلك الطريق الآخر إلى الحياة إلى المشاركة الداخلية مع قوى الطبيعة نفسها إلى الحياة البشرية السامية وفق المثل العليا، وهذا الطريق يرسمه الكتاب الفلكي الذي أمامه «طريقة (نوسترادموس) السحرية». وفيما هو يقلب صفحاته، يقف عند رسم بياني غامض، وفجأة يخيل إليه أن سر الكون قد انكشف لعقله. ثم يعود فيدركه اليأس الذي يعقب رؤى التصوف الروحي، فيعود إلى تقليب صفحات الكتاب. ومرة أخرى يعصف بصدره أمل جبار حين يعثر على علامة ترمز إلى «روح الأرض» فيشعر بأنه يكاد يصل إلى

فهم أسرار القوة التي تربط بين القلوب البشرية، وتنسج تلك الخيوط المتقاربة التي تسبب الفرح والألم.

ويستعين فاوست بعلمه ومعارفه المكتسبة طيلة ربع قرن، فينطق بتعويذة خاصة يستدعي بها إليه روح «الأرض». لكنه يفزع حين ينبثق في الحجرة نور يخطف البصر، تظهر الروح على أثره أمامه. ثم يتمالك نفسه فيتحدى الروح في تفاخر، منادياً بنفسه ندا لها:

فاوست: أيتها الروح التي تحيط وجودها بالأرض الواسعة. كم أحس بالتقارب بين طبيعتي وطبيعتك.

الروح: أيها الإنسان. إنك مثل المخلوقات التي يستطيع عقلك أن يصورها. ولست مثلي.

ثم تختفي روح الأرض كما ظهرت، تاركة صدى كلماتها يدوي في عقل فاوست، فيقضي على آخر آماله من الحياة: إنه قد يستطيع ـ إذا بذل أقصى محاولات التأمل الصوفي ـ أن يقف على «حافة» المعرفة القصوى. لكنه لن يستطيع أن «يعبر» الهوة التي تفصله عنها: «من أنا حتى أطاول الآلهة ؟. إنني أرتجف وأنا أحس وطأة الشعور بضآلتي. إنني كالدودة الحقيرة، من التراب خلقت، وفي التراب أعيش. فهل أجد هنا العلاج الذي أبحث عنه»؟.

ويرنو ببصره الشارد ـ وهو غارق في التأملات ـ إلى قارورة صغيرة بها سم، فيفكر في الانتحار.. ويناجي القارورة مرحبا بالشواطئ المجهولة التي سوف تنقله إليها محتوياتها المميتة. وفيما هو يشرع في جرع ما بداخلها تدق أجراس عيد الفصح دقاتها الفضية المرحة، ويسمع في سكون الليل صوت جوق من الفتيات يغنين لحناً ملائكياً فتعاوده ذكريات صباه ومشاعر فرحته بالعيد. ويلمع الدمع في عينيه. فينحي قارورة السم بعيداً ويصغي إلى دقات الأجراس.

وفي صبيحة يوم العيد يخرج فاوست وتلميذه المفضل «فاجنر» ـ الذي يرى فيه فاوست شبابه المفقود ـ كي يتجولا في أنحاء المدينة التي تغص بالجماهير، مارين بمختلف الفئات من الناس: طلبة يهرعون إلى الحانات ليشربوا العصير ويتبادلوا مع فتياتها القبلات. ونسوة عابثات، وعوانس وقورات على استعداد لنسيان وقارهن إذا وجدن أزواجاً. ورجال في منتصف العمر يشجعون الحروب في الخارج ما دام السلام يعمر

بيوتهم. وجنود يغنون أناشيد الحب والمجد في ساحات القتال. ومتسولون يجدون أعيادهم الحقة في أيام الأعياد وفلاحون يرقصون كل جماعة في حلقات. وشبان يمرون بقواربهم على صفحة النهر. إلخ.

ويتأمل فاوست تلك المظاهر الصاخبة للبهجة فيحس أنه حقاً في يوم عيد، وأنه إنسان. ذلك الإحساس الذي حرم منه طيلة أعوام دراساته الصارمة. ثم يلمح كلباً أسود في الطريق، يدور حوله ويقترب منه بالتدريج، فيأخذه معه إلى البيت. وهناك يعكف على ترجمة فقرات من الأناجيل، وفيما هو يجهد ذهنه باحثاً عن التعبير الصحيح، يأخذ الكلب في النباح. ويتبين فاوست أنه ليس كلباً عادياً، وإنما هو روح شريرة فيحاول أن يجري عليه تجاربه السحرية. وفي اللحظة التي يوشك فيها أن يستخدم أقوى تعاويذه يفصح الكلب عن نفسه، فإذا هو الشيطان «مفيستو» وقد ظهر الآن في هيئة طالب علم قادم من سفر. لكنه يقدم نفسه لفاوست على اعتبار أنه «متعهد توريد جميع ملذات الدنيا» ثم يعرض على العالم الشيخ خدماته..

فاوست: إنني أكبر سناً من أن أستسلم للملذات. وأصغر سناً من أن تفارقني شهيتي. فماذا تستطيع الدنيا أن تعطيني الآن؟. كفى، كفى.

لكن «مفيستو» يعد فاوست بحياة جديدة، وآمال جديدة، ومعرفة جديدة، ومطامع جديدة، ومغامرات جديدة إنه سوف يعيد إليه شبابه ويخدمه، ولكن بشرط:

مفيستو: سوف أكون عبدك المطيع في هذه الدنيا، وتكون أنت عبدي في الآخرة.

فاوست: وكم من الزمن سوف تخدمني على الأرض؟

مفيستو: هذا أمر متروك لك.

فاوست: إذن فقد اتفقنا.. أعيش متنقلاً من متعة إلى متعة في نشوة متزايدة، حتى أبلغ لحظة المتعة القصوى، التي أحس فيها بالشبع.

ويوقعان الميثاق بدمهما. وبفضل وسائل الشيطان السحرية يتحول فاوست إلى شاب في مقتبل العمر، ثم يبدأ الإثنان مغامراتهما الشائقة بحثا عن المتع والملذات.

وتقودهما مغامرتهما الأولى إلى حانة «أورباخ» حيث يلتقيان بجماعة من الشبان العابثين، فيعمد الشيطان إلى تسليتهم بألعابه السحرية، فيخرج كافة صنوف الشراب من منضدة جافة بواسطة ثقبها بمثقب «بريمة» ثم يخيفهم بتحويل الشراب الفوار إلى لهب متقد.

ومن حانة أورباخ يأخذ مفيستو فاوست إلى «مطبخ الساحرات» حيث يسقيه محلولاً سحرياً يوقد في عروقه نار الحب الجنسي واستهتاره. وبعد ذلك يقوده إلى شارع عام، حيث يقدر له أن يعثر على سعادته الأولى الفائقة، ويصادف مأساته الأولى المفجعة إذ فيما هما يراقبان المارة، تمر بهما «مرجريت».

فاوست: أيتها السيدة الحسناء، لا يسوءنك أن أعيرك ذراعي ورفقتي..

مرجريت: لست سيدة، ولا حسناء. أما بيتي فأستطيع أن أبلغه بغير رفقتك (وتخلص ذراعها منه وتمضي).

فاوست: كم أتوق إلى امتلاك هذه المرأة.

مفيستو: لكنها آتية لتوها من حيث أدت فريضة الاعتراف؟.

فاوست: لا تنطق أمامي بكلمة عن الدين. لئن لم تبت هذه الفتنة بين ذراعي الليلة، فاعتبر ميثاقاً مفسوخاً ابتداء من منتصف الليل.

مفيستو: أن شهوتك لأشد عنفاً حتى مما عهدته في الشياطين لكني سوف أحقق أمانيك. سوف أجد غرفتها وأقودك إليها.

ويحاول الشيطان أن يغوي «مرجريت» بمجموعة فاخرة من الحلي والجواهر يضعها خلسة في غرفتها. فتبتهج لدى رؤيتها وترتاع في وقت واحد. ثم تعرضها على جارة لها تدعى «مارتا» غاب عنها زوجها منذ أعوام:

مرجريت: أنظري يا مارتا.. وتأملي.

مارتا: يا طفلتي، أي حظ هذا الذي اتاك؟.

وفيما هما تفحصان الحلي في انفعال يدخل مفيستو متنكراً في هيئة سائح فينبئ مارتا بأن لديه أخباراً عن زوجها.

مفيستو: سيدتي. إن زوجك قد مات..

مارتا: أواثق أنت؟

مفيستو: كل الثقة. فإن لي صديقاً رأى نهاية زوجك وسوف أحضره هنا.

مارتا: أرجوك أن تفعل يا سيدي.

مفيستو: وهذه السيدة الشابة سوف تكون موجودة أيضاً؟ إن صديقي شاب رائع كثير الأسفار، يحظى دائماً بإعجاب النساء.

مرجريت: أخشى أن يحمر وجهي خجلاً في حضرته

مفيستو (في لباقة): هذا الحسن لم يصنع لحمرة الخجل.

مارتا: في حديقتي الخلفية سوف ننتظركما الليلة..

ويلتقي فاوست بمرجريت في حديقة مارتا. وبينما الشيطان يشغل مارتا بحديثه، يغازل فاوست مرجريت فيفتنها بشبابه، ووسامته، وأناقته، وحضور بديهته. وحين يذهب يتركها لاهثة الأنفاس، تحدث نفسها: «يا إلهي.. كيف يوجد رجل يفكر هكذا ويعرف إلى هذا الحد؟» وتصلي ملتمسة أن تنفحها السماء بزيارة أخرى منه.

وتستجاب صلاتها فيلتقيان مرة أخرى في حديقة منزل مارتا، ولكن على انفراد هذه المرة فيناشدها أن تسمح له بدخول غرفتها بعد أن تنام أمها. لكن مرجريت تبدي تردداً.

مرجريت: إن نوم أمي جد خفيف. ولن تلبث أن تشعر بوجودك.

فاوست: لا تخشي يا محبوبتي مرجريت، يا كنزي الجميل أن يقطع متعتنا شيء فإليك هذه الجرعة التي لو شربتها أمك لغابت في أعمق نعاس.

فتناولت مرجريت منه القارورة الصغيرة التي تحوي المخدر، ووعدته بأن تفي بموعدها.

مرجريت: لست أدري ما الذي يرغمني على إطاعة رغبتك فمهما طلبت مني، سوف أعطيك.

وتنعم مرجريت بخلوتها مع فاوست. بينما يحقق المخدر الذي سقته لأمها، الغرض الذي قصد منه، وأكثر فلقد كفل للأم النوم الأبدي.. وهكذا يسفر حب مرجريت لفاوست عن إنطفاء شعلة حياة. وانبثاق حياة أخرى في أحشائها.

ويعود شقيق مرجريت ـ المدعو «فالنتين» ـ من الجيش بعد أن سمع بعارها. وفيما هو أمام الباب يلمح شبحين يقتربان.

فالنتين: أواه، أكاد أمزق شعري غيظاً، وأحطم رأسي يأساً. سوف يلقاني أحقر صعلوك بأنف شامخة، ويلاحقني الناس بالقدح والتقريع اللاذع. ولكن ما هذا الذي أراه يقترب متلصصاً؟. إذا لم أكن مخطئاً فهما اثنان. إن كان «هو» أحدهما فلن يبرح المكان حياً.

ويقترب الشبحان فإذا هما فاوست ومفيستو.. الأول يحمل إلى حبيبته سلة أخرى

من المجوهرات.. والثاني يحمل قيثارة يغني على أنغامها.. يحطم فالنتين القيثارة. فينشب بين الثلاثة شجار وتحد ومبارزة تنتهي بأن يطعن فاوست فالنتين فيقتله. ويسقط الجندي الشاب مضرجاً بدمه. وشفتاه تلعنان أخته التعسة، التي تخرج مع جيرانها على صوت الضجيج، بينما يلفظ شقيقها أنفاسه الأخيرة وهو يحشرج لها: «إنني لأرى منذ الآن اليوم الذي يشيح فيه الناس بوجوههم عنك كما يفرون من طاعون.. وأسمع آهات الندم التي سوف تزفرينها حين تصيرين منبوذة شريدة في الطرقات. كيف ستحتملين نظرات المارة إليك؟ لن ترتدين صليبك الذهبي بفخرٍ بعد الآن. لن يشرق وجهك الفاتن في أبرز مكان من الكنيسة كما كان. وإنما حيث تعيش العاهرات ستعيشين. وحيث تموت المتسولات ستموتين. فلئن كان الله غفوراً رحيماً فليس الإنسان بغفور ولا رحيم».

وفي ليلة أول مايو، يأخذ الشيطان فاوست إلى قمة مرتفعات «بروكين» حيث تحتفل الأبالسة وجميع قوى الشر برقصة السبت فيشاهدان جميع شرور الأفكار، والنظريات والأشخاص، والأشياء والنزعات، والأفعال، ممثلة كلها ومختلطة في تلك الرقصة الجهنمية. وينسى فاوست مرجريت في غمار بحثه عن المتع الأخرى. وينضم إلى الأرواح الشريرة في عيدها فيصغي إلى أغانيها ويلعب معها، ويراقصها. لكنه بعد أن ينصرف من عيد العربدة والتهتك والفجور، يعلم أن مفيستو يخفي عنه نبأ: أن مرجريت قد وضعت طفلها، ثمرة خطيئتها مع فاوست. لكنها في نوبة ندم قتلت الطفل الوليد كي تخفي عارها، فاكتشفت جريمتها. وحوكمت. وحكم عليها بالموت. وهي الآن في زنزانتها بالسجن تنتظر مصيرها التعس.

ينهش الندم والشفقة قلب فاوست فيأمر مفيستو بأن يقوده إليها في السجن، ويعاونه على إنقاذها من الموت. وحين يصلان يسمعانها تغني أغنية مجنونة. وتسمع هي صليل سلاسل الباب وهو يفتح، فتخفي وجهها في حشية فراشها صائحة:

أواه، لقد أتوا. أتوا ليقتلوني. ما أفظع الموت.

فاوست (هامسا): صه.. بل جئت لأنقذك.

مرجريت (ترتمي عند قدميه): هل أنت إنسان؟. إذن فارحمني.

فاوست (هامسا): مرجريت!. مرجريت!.

مرجريت (تسترق السمع في انتباه): أين هو؟ أين؟ سمعت صوت حبيبي بعينه

(تهب واقفة) سأعانقه، سأتكئ على صدره، لقد سمعته ينادي، إنه واقف على عتبة الباب.

فاوست: مرجريت. . ها أنذا!.

مرجريت: أهو أنت؟ (تضمه إلى صدرها)

فاوست: مرجريت، تعالي معي.

مرجريت: بل أمكث معي برهة، لكم أحب أن أبقى معك. وهكذا ـ بمعونة الشيطان ـ يعرض فاوست على مرجريت أن ينقذها. لكنها ـ بمعونة الله ـ تفضل أن تبقى وتواجه عقوبتها.

ولا يكاد الشاب يخرج حتى يقبل الحراس فيسوقونها إلى حيث ينفذ فيها حكم الإعدام.

مفيستو: لقد هلكت المسكينة.

صوت من أعلى: بل لقد خلصت.

فإذا كان القسم الثاني من المسرحية رأينا فاوست يواصل بحثه عن سر السعادة، بعد أن جرب الملذات والمتع الحسية فلم يصل منها إلى مبتغاه: إلى المتعة القصوى. وإنه ليتوق إلى تجربة كل ما تنطوي عليه الحياة: «إلى تعريض صدره لكل الكروب ومعرفة جميع أفراح البشر وأحزانهم» بل أنه يريد أن يكد ويعمل مثل سائر الناس، ويشاركهم نهايتهم حين تغرق سفينة الإنسانية.

وهكذا يجرب معه الشيطان نوعا آخر من الإغراء. يستثير فيه شهوة الشهرة والسلطان. فيقدمه إلى إمبراطور ألمانيا، الذي يعينه مستشارا في البلاط الإمبراطوري، ويتيح المنصب الخطير لفاوست أن يحصل على المجد والترف، دون السعادة، فيغريه تذمره من حياته الحاضرة بأن يسعى إلى استحضار أرواح فاتنات الماضي، عن طريق استخدام فنون السحر. وهكذا يستحضر روح هيلين من أكفانها في طروادة ويحقنها بدم بشري حي ثم يحاول أن يعقد زواجه عليها. لكنه حين يعانقها يفاجأ باختفائها من بين أحضانه تاركة معطفها بين ذراعيه.

وعلى هذا المنوال يتخبط فاوست من مغامرة إلى مغامرة دون أن يجد السعادة المنشودة، فكل محاولاته تنتهي إلى الفشل، أو إلى نجاح أجوف أمرّ من الفشل. وحتى حين يربح لإمبراطوره معركة هامة يجد النصر أشدّ مرارة من الهزيمة.

ويقدم إليه الشيطان القصور الشامخة، والنساء الجميلات، والمدن الكبرى، والممالك الضخمة، والمجد الدائم، ولكنه يزهد فيها كلها. فإن متع الشباب وترف السن المتوسطة لم تتكشف له إلا عن سراب زائف. والآن تبدأ حياته في الإدبار وتداهمه الكهولة بما تحمل في طياتها من ضعف في الجسد والروح. إن نيران ورغبات شبابه قد صارت إلى رماد وحطام، والوحدة الموحشة قد تربعت على عرش قلبه الخاوي وحياته العقيمة.

ثم تأتي ثالثة الأثافي حين يطفئ العمى نور عينيه، فيكف عن مطارده السعادة التي أنفق حياته في السعي وراءها. ويدرك أخيرا عقم محاولاته، وسخف بحثه عن شيء ليس له في الواقع وجود.

ولكن هنا تحدث المعجزة. فإنه ففي اللحظة التي ينبذ فيها السعادة يجدها. فقد شرع في تنفيذ مشروع ضخم يرمي إلى ردم المستنقعات القريبة من البحر وإنشاء مساكن صالحة نظيفة مكانها، مجاناً لملايين الناس، كي ينعموا بحريتهم عن طريق اكتسابها من جديد بعرق جبينهم وعملهم اليومي. وتملأ الفكرة نفس فاوست فرحاً وغبطة. إنها الهدف الذي انفق حياته سعياً إليه، دون أن يشعر أن ينسى كل إنسان ذاته، ويعمل من أجل الآخرين مثلما يعملون لأنفسهم، تلك هي ذروة السعادة البشرية، واللحظة الذهبية التي يستطيع فاوست أن يتمنى بقاءها إلى الأبد، لحظة المتعة القصوى.

أما وقد بلغ فاوست حلم حياته فإن حياته تبلغ نهايتها. وقد ربح الشيطان الرهان، فيما يبدو. . فهو يطلب روح فاوست ثمناً لانتصاره، لكن الملائكة تنكر عليه زعمه فتهبط وسط طوفان من الأزهار وتحمل روح فاوست إلى السماء، إلى الفردوس، فلئن كان فاوست قد ضل أبشع ضلال إلا أنه خلال جميع مراحل ضلاله كان يتوق ويهفو بوحي من غريزته. . إلى النور.

وفي الفردوس، كانت أول روح تستقبل وتحيي روح فاوست هي روح مرجريت، التي أخطأت وماتت شريكة له في خطيئته، لكن الله قد غفر لها. فإنه غفور رحيم.

أما رسالة مرجريت الآن فهي أن ترشد فاوست إلى الطريق. فلطالما كانت المرأة رائدة الرجل في طريق الخلاص ومنقذته الخالدة.



الأساطير الإسبانية



الساحر وابنته

حدث هذا في قرطبة. فعندما تبدأ شمس النهار في الاختفاء وراء الأفق الغربي، مرسلة أشعة ضعيفة خافتة لا تكاد تبين، كان هناك عملاق ضخم غريب، في عباءة رمادية، ينحدر في الطريق إلى الفندق، وكأنه يعرف الطريق كواحد من أهل تلك المدينة.

وعجب «دون لويس» ـ أكبر مقامر عرفته أسبانيا ـ حين فوجئ بذلك الغريب المجهول، القادم من حيث لا يدري أحد، يتجه صوبه، ثم يشاركه مائدته من غير دعوة أو استئذان، وكأنهما صديقان حميمان، وازداد عجبه عندما أخرج ذلك الغريب من بين طيات ملابسه أوراق اللعب، وثروة هائلة من الذهب والفضة واللازورد.

وأسال الذهب لعاب «دون لويس» إلا أنه قال للغريب: أنا لا ألعب إلا بورق يقدمه الفندق. ولم يعترض الرجل، وأعاد أوراقه إلى جيبه في هدوء، واستعد للمباراة.

وكانت مباراة من جانب واحد: القادم الغريب يربح دائماً، والمقامر الشهير يخسر باستمرار وتشعل الخسارة المستمرة رغبته في الثأر، وإصراره عليه. فيمنى بالخسارة دائماً، وأمواله تتهاوى قطعة قطعة لتنضم إلى رصيد الرجل القادم من حيث لا يدري أحد.

واستغرق اللعب الليل كله. ومع انبلاج الصبح كان «دون لويس» قد خسر كل شيء: أمواله، وسيفه، وحصانه.. ولم يعد لديه ما يقامر به، ومع هذا، صرخ بالغريب عندما رآه ينفض يديه استعداد للقيام:

ـ أيها الغريب.. إنني لم أنهزم بعد ولا تزال لدي «روحي» أقامر بها.

وعادت المباراة. وخسر «دون لويس».

ونهض الرجل من مكانه مودعاً. وأفاق المقامر الشهير إلى نفسه حين رأى صاحبه يبرح المكان، فجثا أمامه هاتفاً:

ـ أيها السيد الغريب. أنا لا أملك أن أمنعك، ولا أملك أن أطالبك برد شيء مما ربحت. كل شيء أصبح ملكك: مالي، وسيفي، وحصاني.. ولكنني أتوسل إليك ان ترد لي روحي.. روحي فقط أيها السيد الغريب.

وجذب الغريب طرف ردائه، وهز رأسه قائلاً:

ـ إن «مركيز الشمس» لا يرد أبداً شيئاً أصبح من حقه. ومع ذلك فسوف أعيد لك روحك عندما تبلي هذا الحذاء.

ثم ألقى إلى الفتى بحذاءٍ غريب الشكل مصنوعٍ من الحديد، ثم اختفى فجأة كأنما ابتلعته الأرض.

قضى «دون لويس» أياماً، لم يذق خلالها طعم الراحة ولا الاستقرار. واضطربت حياته، واسودت الدنيا في عينيه. حتى غدا لا يدرك من أمر نفسه شيئاً. وكيف يحس طعم الحياة أو يدرك معناها؟، وهو يعيش على الأرض، شبحاً بلا ظل، وجسداً بلا روح.

إذن.. فالى هذا الحذاء الحديدي الملعون. ووضع «دون لويس» الحذاء في قدميه، وانطلق سائراً على غير هدى إلى حيث لا يدري، وكل همه أن يفني الحذاء ليصل إلى المكان الذي يجد فيه مركيز الشمس، فيسترد منه الروح التي سلبها بالرغم منه.

وظل الفتى سائراً على قدميه سيراً لم يسره أحد من قبل ـ من قرطبة إلى برشلونة، ومن مرسية إلى سنتياجو ـ والحذاء الحديدي لا يتأثر بطول السير، والمركيز المجهول لا يظهر له أثر. والأمل بين هذا وذاك ضائع منهار، لا يبدو منه إلا سراب خادع.

وبلغ الفتى ذات مساء، بلدة صغيرة مجهولة، ورأى أناساً مجتمعين في صخب وضجيج أمام فندق صغير. يكادون في ثورتهم، أن يحطموا كل شيء. واقترب الفتى من صاحب الفندق، يستفسره الأمر. فعلم منه أن أحد النزلاء قد مات فجأة وهو مدين له بأجر ثمانية أيام. ولو أن الأمر وقف عند هذا الحد لكان هينا. ولكن الرجل كان مديناً أيضاً لعدد كبير من التجار، وعندما علموا بموته، وفدوا إلى الفندق يطالبون صاحبه بديونهم، ويتهمونه بإخفاء متاع الميت، برغم أنه أخرج أمامهم كل ما خلفه الرجل من ملابس، لا تساوي أكثر من ثلاثة ريالات. ولا شيء آخر.

وأخذ صاحب الفندق يبكي ويصيح:

ـ أيها الناس.. لست غنياً حتى أدفع ما على الرجل من ديون، ولست مسؤولاً عن موته حتى أدفع نفقات دفنه. ماذا أفعل بجثته يا ربِ؟ هل أتركها للدائنين يمزقونها، ويأخذ كل منهم قطعة فتهيم روحه حائرة لا تستقر في مكان؟. ماذا أفعل. ما الذي أستطيع أن أفعله؟.

وأخرج «دون لويس» كيس نقوده في صمت، وقدمه لصاحب الفندق قائلاً:

ـ خذ.. سدد ديون الميت، وما يتبقى انفق منه على جنازته، حتى يرقد هانئاً مطمئناً، وتستقر روحه فلا تتشرد ولا تهيم.

ومد الرجل يده وتناول الكيس في لهفة، وتمتم بعبارات العرفان قائلاً:

ـ ليباركك الله يا سيدي. وكن على يقين أن الله لا يضيع أجر المحسنين، وسيجزيك على عملك خير الجزاء.

واستأنف «دون لويس» سيره من جديد، ولم تمض ساعة أو بعض ساعة حتى فوجئ بأن إحدى نعليه قد تآكلت. وارتاح لذلك راحة كبيرة، واندفع مواصلا سيره. فلما جن عليه الليل، سمع وقع حوافر جواد آت من خلفه، وملتف بعباءة طويلة سوداء. واقترب الفارس منه، وترجل عن جواده وحيّاه في صوت عميق كأنه آت من عالم آخر، وقال له:

ـ أنا أيها الفتى روح الميت الذي سددت عنه دينه ونفقات جنازته، وأطلقت بذلك روحه من عقال الأسر، وأصبح لزاماً علي أن أكافئك على الصنيع الذي قدمت فلتستمر في سيرك حتى تصل إلى النهر، وأجلس هناك ساكناً على الضفة تحت شجرة الصفصاف، فإن طيوراً ثلاثة ستهبط هناك، ثم تخلع ريشها وتتحول إلى ثلاث فتيات رائعات الجمال، ينزلن إلى النهر للاستحمام.. عندما يحدث هذا، أسرع بالاستيلاء على ريش أحداهن ولا ترده إليها إلا إذا منحتك ما تريد.

واختفى الفارس في غمرة الظلام، ومضى «دون لويس» إلى النهر لينفذ نصيحته، واستلقى تحت شجرة الصفصاف، وراح في سبات عميق.

واستيقظ من نومه على أشعة الشمس الذهبية تدغدغ عينيه، وتلفت حوله في سكون

فأبصر أمامه ثلاثة طيور بيض تخلع عنها ريشها وتنقلب إلى حسناوات، رائعات الجمال. رحن يتسابقن إلى الماء، ويرتمين بين أحضانه.

وتسلل الفتى في خفة، واختطف أقرب الأردية إليه، فانتبهت الفتيات، وأسرعن إلى الضفة، وارتدت اثنتان منهن ريشها، وتحولتا إلى طائرين رفرفا بأجنحتهما في فزع، وطارا بعيدا في الجو، وهما ينظران إلى شقيقتهما الصغرى التي حاولت أن تستتر من الغريب، وأخذت تتوسل إليه أن يرد لها ريشها، وهو يأبى. . ولم تنتظر الفتاتان فانطلقتا في السماء.

وأخذت الفتاة الصغيرة تستدر عطف الفتى، قائلة: أنها بدون هذا الرداء لا تستطيع العودة إلى قصر أبيها. ولكن «دون لويس» لم يعر توسلاتها اهتماماً، وقال لها:

ـ لن أعيد إليك الريش إلا إذا أخبرتني أين أجد «مركيز الشمس».

فشهقت الفتاة فزعاً، وقالت:

ـ لن تستطيع أن تجده. وأنا لا أستطيع أن أشي بمكانه لمخلوق.

فهز الفتى كتفيه وقال:

ـ إذن لن أعيد إليك الرداء.

وعادت الفتاة إلى توسلاتها، وانهمرت على خديها العبرات. إلا أن الفتى لم يلن قلبه، فقد كان حريصاً على ألا تضيع منه فرصة استرداد روحه الشاردة.

وقالت الفتاة بعد حين:

ـ إن «مركيز الشمس» أبي، وهو ساحر قوي يعرف كل شيء. وقد أقسمنا على ألا نخونه أو نشي بمكانه.

فقال «دون لويس»:

ـ لن تخنثي في يمينك يا صغيرتي. يكفي أن تطيري قريبة مني على مهل، في طريقك إلى قصره، دون أن تخبريني عن مكانه، وسأتبعك بمفردي. وهكذا أعرف أنا المكان، وتبرين أنت بقسمك!.

واقتنعت الفتاة، وقبلت رأي الفتى. ومد إليها الفتى يده بريشها فتناولته وارتدته، وحلقت في السماء، وراحت تطير في بطء وهو يتبعها سائراً على الأرض، وظلا على

هذه الحال يوماً كاملاً، إلى أن بلغا قصراً شاهقاً، يحوطه سور ضخم قائم على سفح جبل كبير. . ورفرف الطائر بجناحيه ليدله على مكان الباب، ثم اختفى. وظل الفتى سائراً حتى بلغ مدخل القصر. فولجه، واندفع إلى القاعة الكبرى التي تتوسط المكان، ووقف في وسطها حائراً لا يدري ماذا يفعل.

ودوى في سمع الفتى الذي تسمر في مكانه، صوت كالرعد يسأله في غضب:

ـ كيف بلغت هذا المكان أيها الدخيل؟.

واستدار الفتى في بطء ورهبة إلى مصدر الصوت، فرأى المركيز جالساً على عرش ضخم من ذهب. تأمله طويلاً، ثم أجاب:

ـ لقد سرت في طريقي مستعملاً الحذاء الحديدي الذي أعطيتني إياه. ولما تآكل وجدتني قد بلغت هذا المكان. فدخلته، وهكذا وجدتك. وإني أطلب إليك أن تفي بوعدك وترد لي روحي.

فأجابه الساحر: سأردها إليك غداً. أما اليوم، فاسترح من عناء السير الطويل.

وفي الصباح عاد «دون لويس» يطالب بروحه، فماطله المركيز قائلاً:

ـ لن أعطيك روحك قبل أن تهدم هذا الجبل الذي يحجب النور عن قصري.

وخرج الفتى من القصر، واطل أمامه إلى الجبل في يأس. إن ألف عملاق لا يمكنهم أن يهدموه في أقل من ألف عام!. ليس أمامه أذن إلا أن يعود من حيث جاء.

وارتمى الفتى على الأرض في يأس مرير. وفجأة أحس بلسعة نملة على ساقه. وعندما مد أصابعه ليسحقها، سمعها تقول:

ـ لا تقتلني يا «دون لويس». . إنني «بلانكفلور» ابنة مركيز الشمس التي قادتك إلى هذا المكان سأساعدك مرة أخرى فلا تيأس. وما عليك إلا أن تنام حتى الصباح.

واطمأن «دون لويس» فنام. ولما أصبح الصباح، واستيقظ من نومه. أطل أمامه فلم يجد للجبل أثراً. كان قد اختفى وكأنّه لم يكن!.

وانطلق الفتى إلى داخل القصر، حيث جلس المركيز. وقال له:

ـ ها أنت ترى أنني قد نفذت أوامرك، وأنزلت الجبل من مكانه. فنفذ الآن وعدك، وامنحني روحي.

ولكن المركيز قال له:

ـ لا أعرف كيف استطعت أن تقوم بهذا العمل، ولكني مع ذلك لن أعطيك روحك حتى تبذر الحبوب التي تملأ هذا الكيس كلها، وتأتيني بثمارها لآكلها ساعة الإفطار

فهتف الفتى بسخط:

ـ ولكنك قلت لي أنك سترد روحي إذا أزلت هذا الجبل. ولقد فعلت، فلماذا لا ترد لي روحي على الفور؟

وهز الساحر كتفيه كأنه لم يسمع شيئاً. وخرج الفتى يائساً مرة أخرى. وكان يحمل كيس البذور فوق كتفيه ويعجب: كيف يتسنى له أن يبذر تلك البذور كلها في الحقل، ويسقيها، ويجعلها تنبت، وتورق، وتثمر.. ثم يقطف ثمارها ويأتيه بها قبل موعد الإفطار؟.

وألقى الفتى بالكيس على الأرض، وارتمى فوقه يندب حظه السيّئ. وفجأة، سمع طائرا يغرد ويناديه باسمه:

ـ يا «دون لويس».. إنني «بلانكفلور» التي ساعدتك مرتين، سأمدُّ لك يد المساعدة للمرة الثالثة، وليس عليك إلا أن تهدأ وتنام.

وعندما استيقظ «دون لويس» قبيل موعد الإفطار، وجد نفسه غارقاً في حقل مليء بالأشجار المثمرة، تتدلى من فروعها جميع أنواع الفاكهة، من خوخ وبرتقال وعنب ورمان. وأخذ الفتى في فرح غامر يقطف الثمار، وانطلق بها إلى المركيز ووضعها بين يديه، وصاح:

ـ الآن.. أعطني روحي.

فتناول الساحر تفاحة قضمها في لذة، وقال:

ـ غداً.. بعد أن تحضر لي خاتمي الذهبي الذي سقط مني في قاع النهر!.

وانفجر «دون لويس» صائحاً صاخباً. ولكن المركيز أصرَّ على ألا يعطيه روحه إلا بعد أن ينفذ ما يريد واندفع الفتى إلى الخارج حتى بلغ ضفة النهر، واطل إلى قاعه العميق، ثم انكفأ باكياً منتحباً.

ولمح الفتى على وجه الماء سمكة فضية صغيرة تقترب منه، وسمعها تقول:

ـ لا تبك يا «دون لويس»... إن «بلانكفلور» لن تتركك. ولكنك لن تنام هذه المرة، بل عليك أن تلتقطني الآن، وتقطعني إرباً إرباً، وتلقي بدمي في النهر. فإذا ما أزبد الماء، مد يدك تجد الخاتم فوق الزبد، وليس عليك بعد ذلك إلا أن تبحث عن أجزائي الممزقة من جديد، وتلصق بعضها ببعض. واحذر أن تنسى مني قطعة واحدة ولو كانت صغيرة.

ونفذ الفتى ما طلبته «بلانكفلور» فمزقها أربعين قطعة، تدفق الدم منها إلى الماء فأرغى وأزبد. ومد الفتى يده إلى الزبد، فإذا الخاتم بين أصابعه. فأخذه ثم جمع أجزاء السمكة فأعادها إلى حالتها الأولى. وعندما انتهى من إلصاق آخر جزء، هتفت به آسفة:

ـ لقد نسيت جزءاً من خنصر يدي اليسرى، وسأعيش دائماً بخنصر قصير.

واندفعت السمكة، واختفت في الماء.

وانطلق الفتى إلى القصر، ووقف أمام مركيز الشمس وفي يده الخاتم، وقال له:

ـ لن أعطيك الخاتم قبل أن تسلمني روحي الآن.

فقال المركيز:

ـ سأردها لك الآن، وقد أعددت لك جواداً من أحسن جيادي ليحملك إلى بلدتك. اذهب إلى فناء القصر، تجده هناك مسرجاً على أتم الاستعداد.

وفرح «دون لويس» وسلمه الخاتم، وأسرع إلى الفناء ليشهد الجواد. وبينما هو في طريقه إليه، اقترب منه فأر أشهب، وهتف فيه:

ـ أن «بلانكفلور» تتوسل إليك ألا تصدقه.. إنه يريد أن يغدر بك. فالجواد ليس سوى المركيز نفسه، يريد أن يحملك حتى تطمئن إليه، ثم يلقي بك إلى الأرض، ويطأك بحوافره. ولكنك ستنتصر عليه إذا أخذت المهماز والسوط المعلقين على الحائط. وعليك أن تستعملهما في قسوة بالغة، حتى يصرخ طالباً منك الرحمة والغفران.

وشكر الفتى الفأر الأشهب الذي لم يكن سوى «بلانكفلور» نفسها. ومد يده إلى الحائط فانتزع المهماز والسوط، وأمسك بعنان الجواد، ووثب فوق ظهره. وانطلق الجواد في سرعة هائلة، وراح يقفز قفزات جبارة فيرتفع إلى السماء فجأة ثم يهبط إلى الأرض هبوطاً مروعاً. إلا أن «دون لويس» أمسك بالعنان جيداً، وراح يضرب الجواد بالسوط في قسوة، ويلكزه في جنبيه بغلاظة صرخ لها مستعطفا:

ـ كفى، كفى أيها الفتى. إنني «مركيز الشمس».

فهوى الشاب بالسوط على وجهه في قسوة وقال:

ـ ردّ لي روحي الآن أيها الخائن، وإلا قضيت عليك

فأجاب المركيز في ذلة وتوسل:

ـ ستكون روحك لك. أطلق سراحي.

وترجل الفتى، وانتفض الجواد فصار بشراً سوياً. هو مركيز الشمس نفسه. وأخذ بيد الفتى إلى غرفة مظلمة قد اكتظت بزجاجات احتفظ فيها الساحر بأرواح ضحاياه، وتناول زجاجة منها سلمها للفتى فارتدت إليه روحه.

وغمرت الفرحة قلب «دون لويس»، وبدا كمن يهفو إلى من يشاركه فرحته، وأخذ يجول في الحديقة باحثاً عن «بلانكفلور» التي صنعت له هذا النجاح كله.

ولما يئس من العثور عليها، استلقى إلى جوار شجرة ورد، وقطف منها وردة. وما كاد يفعل حتى سمعها تهمس إليه:

ـ عمن تبحث بين الأخوات الثلاث يا «دون لويس»؟.

إنني أبحث عمن مدت لي يد العون منذ أول يوم.

فقال له الوردة:

ـ أصغ إليَّ أذاً.. إن الغيرة تمزق قلبَيْ شقيقتي. فعليك أن تتجنب فتاتك، وتتحاشى إثارة الريبة في نفس المركيز بأن تختار واحدة منا دون أن ترانا.

فقال دون لويس:

ـ وكيف أستطيع اختيار من أحب؟.

فأجابته الوردة:

ـ تذكر أن «بلانكفلور» فقدت عقلة من خنصرها بسبب خطئك.

وانطلق الفتى في فوره إلى المركيز، وبادره بقوله:

ـ أنا عائد فوراً إلى بلدي، ولكني أشعر بحاجتي إلى رفيق في سفري. فهلا زوجتني إحدى بناتك، فتكون رفيقتي في العودة؟.

وارتاب المركيز، وأجابه في شك:

ـ أية واحدة منهن تريد؟.

قال الدون:

ـ أنا لا أعرفهن، ولا أستطيع أن أميز بينهن. ولا مانع لدي، تجنبا لإثارة الغيرة بينهن، أن تقف بناتك وراء ستار ويخرجن من فتحاته أيديهن، فأمسك أنا بيد من اختارها عروساً لي دون أن أرى وجه واحدة منهن.

ووجده الساحر حلاً موفقاً. فأمر بناته الثلاث بالوقوف من وراء ستار، وأن يخرجن أيديهن من فتحاته. وسرعان ما ميز «دون لويس» يد عروسه ذات الخنصر القصير.

وثارت الشقيقتان، وانطلقتا إلى أبيهما تقصان عليه كيف ساعدت «بلانكفلور» ذلك الفتى الذي سرق رداءها الريشي فوق الشاطئ، وكيف خرجت على طاعة أبيها وخانته.

وكانت «بلانكفلور» تقف غير بعيد، فسمعت وشاية أختيها، وعرفت انه لم يعد أمامها من سبيل إلا الهرب في سرعة مع الفتى الذي اختاره قلبها، وانطلقت الفتاة إلى «دون لويس» صائحة:

ـ أسرع الآن قبل أن ينزل بنا أبي عقابه ونقمته.. أذهب إلى الإسطبل، وامتط الحصان الأبيض المربوّط هناك وعندما تمر به من الباب مد يدك لتلتقطني فسأكون في انتظارك هناك.

وفي الإسطبل، وجد «دون لويس» الحصان الأبيض هزيلاً لا يكاد يقدر على العدو، فأشفق عليه، واختار جواداً آخر تبد عليه معالم القوة، وانطلق به إلى باب القصر. فعندما رأته بلانكفلور صرخت قائلة:

ـ لماذا اخترت هذا الجواد الأسود أيها التعس؟ ألم أنصحك بأن تختار الحصان الأبيض؟. إنه مسحور يجري أسرع من الضوء. ومع هذا ليس أمامنا مفر الآن، لأن الوقت قد فات. هيا بنا، فلا تزال أمامنا بضع ساعات لكي نهرب. لقد تركت أحد أرديتي المسحورة في حجرتي، وستتولّى الإجابة عني إذا ناداني أبي.

وامتطت «بلانكفلور» الجواد وراء «دون لويس» وقد أمسكت في يدها اليمنى صندوقاً مملوءاً ذهباً وجواهر، وباليد الأخرى رداءها الريشي الأبيض.

وسمع الساحر صَوت انطلاق الحصان، ولم يتبادر إلى ذهنه قط أن ابنته فرت مع الفتى. ولكي يقطع الشك باليقين، ذهب إلى حجرة ابنته ونادى عليها، فأجابته بأنها موجودة، فهدأ باله، وعاد إلى مكانه.

إلا أن غيرة الشقيقتين أثارت شكهما في الأمر، فأخذتا تناديان على أختهما بصوت مرتفع. وكان الرداء يجيب عليهما في كل مرة. إلا أنه عجز عن فتح الباب عندما طلبتا منه فتحه، وتأكد لهما أن أختهما غير موجودة. وذهبت إحداهما فأحضرت بعض المفاتيح عالجت بها الباب حتى انفتح.. فاندفعت الشقيقتان إلى الداخل فوجدتا الحجرة خالية إلا من الرداء الذي كان يجيب.

وجن جنون الساحر، وأسرع إلى الإسطبل، حيث امتطى الفرس الأبيض، وانطلق به خلف العاشقين الهاربين.

وانتبهت «بلانكفلور» إلى صوت الجواد الأبيض من خلفهما، وأطلت فإذا عاصفة من الغبار تظهر غير بعيدة فصرخت في خطيبها:

ـ أسرع يا «دون لويس». إن أبي يكاد يلحق بنا.

ولكز الفتى لكز الحصان بمهمازه. إلا أن الساحر كان قد أصبح على بعد خطوات منهما، ومدت «بلانكفلور» يدها إلى شعرها، فانتزعت مشطاً وألقته بسرعة وراءها قائلة: كن جبلاً!.

وصار المشط جبلاً عالياً يفصل بينهما وبين الساحر، واستمر العاشقان في اندفاعهما. ولكن الساحر كان قد اجتاز الجبل في لحظات، وأوشك أن يلحق بهما من جديد.

والتفتت الفتاة إلى الخلف وألقت بمنديلها وهي تقول:

ـ كن ضبابا، واسترنا عن عينَيْ أبي!.

وانتشرت غمامة كبيرة من السحب فصلت بين الساحر والعاشقين، ولكن الرياح سرعان ما بددتها، وانكشف الهاربان للساحر الذي استشاط غضبا وثورة، فاندفع بالجواد فكان منهما على بعد خطوات.

وتعثر الجواد الأسود بالهاربين، ووقع على الأرض، ولم يجدا من الوقت ما يكفيهما لإنهاضه على قوائمه المرتعشة المنهوكة، فتمتمت الفتاة ببضع كلمات، فإذا

الحصان قد تحول إلى شجرة جوز، وإذا بهما يتحولان إلى ثمرتين تتدليان إلى جوار باقي الثمر. ومر الساحر بالشجرة فلم يعرفها، وفوجئ باختفاء ابنته وصاحبها، ومضى يذرع المكان، ويتطلع في كل الأنحاء، إلى أن أدرك أنه فقد أثرهما تماماً. ولما يئس من العثور على أي أثر لهما، كرَّ عائداً أدراجه.

وتريث الفتى والفتاة حتى اطمأنا إلى ابتعاد الساحر تماماً، فدخلا في كوخ قائم بجانب الطريق ليأخذا قسطا من الراحة بعد هذا الجهد الشاق. وعندما استردا أنفاسهما قاما فاستأنفا رحلتهما الشاقة إلى قرطبة.

وانتبه الساحر العائد إلى وقع حوافر حصانه الأسود تظهر مرة ثانية، فاستدار بسرعة إلى الطريق الذي أقبل منه، واندفع متتبعاً صدى الصوت، وفي لحظات كان قد قطع المسافة الفاصلة بينهما، وأصبح منهما على بعد خطوات. وكان اقترابه منهما مفاجأة لم تتمكن الفتاة معها من استخدام سحرها. فبكت. وإذا بدموعها تتحول إلى نهر أخذ يتسع، ويرغى ويزبد، ففصل بينهما وبين الساحر، الذي ارتد إلى الخلف مذعوراً مسرعاً قبل أن يغرقه الطوفان!

وغضب الساحر عندما وجد ابنته تكاد تغرقه، فصرخ فيها:

ـ لقد أَفْلَتِّ مني يا لعينة. إلا أن القوة التي منحتك إياها ستصبح منذ الآن خواء، وستعودين منذ هذه اللحظة امرأة عادية كغيرك من النساء. أما الرجل الذي فضلته على أبيك، فسوف ينساك في أول عناق لأول شخص يلقاه!

وهتفت «بلانكفلور» في خطيبها «دون لويس»:

ـ دون لويس... دون لويس... هل ستنساني كما تنبأ أبي برغم أني تبعتك بعد أن تخليت عن أبي، وشقيقتي، وسحري، وقواي؟.

وكان جواب الفتى قبلة طويلة ساخنة على شفتيها أغنتها عن الكلام.

واستأنفا السير...

اقترب الحبيبان من قرطبة، وعجز الجواد عن مواصلة السير، فاضطر «دون لويس» أن يأخذ فتاته إلى حديقة زيتون صغيرة، وطلب منها أن تستريح ريثما يبحث عن حصان آخر يستبدله بالحصان المنهك الذي عجز عن مواصلة السير إلى قرطبة.

وانطلق الفتى في طريقه، وخلفه الحصان الأسود، حتى بلغ المدينة. ولم يكد يتجه إلى فندق صغير يؤجر الخيل، حتى فوجئ بعجوز تحتضنه وتعانقه، وهي تهتف في فرح

ـ «دون لويس». . . «دون لويس»

وكانت العجوز هي مربيته القديمة، وكان لابد أن يقبلها ويعانقها. وفي تلك اللحظة تحققت نبوءة الساحر، ففقد «دون لويس» ذاكرته، وانسدل عليها ستار كثيف من النسيان، فصل بين حاضره وماضيه، وقطع كل صلة تربط بينهما. فما عاد يذكر شيئاً على الإطلاق عن خطيبته وحبيبته «بلانكفلور».

واستقبلت المدينة من جديد «دون لويس». . أكبر مقامر في أسبانيا. وعاد هو إلى حياته السابقة بعد أن ورث ثروة ضخمة تركها له عمه خلال غيبته، وعاش كما كان يعيش من قبل. عيشة الشاب الثري المغامر، الغارق حتى أذنيه في القمار المجنون.

وذات يوم. . دخل «دون لويس» إسطبل الخيول في قصره الكبير، واصطدمت قدمه بصندوق صغير في إحدى زواياه، وتأمل الصندوق طويلاً، فإذا برأسه يدور.

لقد تذكر أنه كان قد ألقى بهذا الصندوق الصغير في زاوية الإسطبل يوم وصوله إلى قرطبة ومعه حصانه المتعب المنهوك. ولكن، ماذا يضم الصندوق؟. هذا ما لم يستطيع تذكره أبداً.

وانحنى «دون لويس»، والتقط الصندوق. وعندما فتحه، ارتفع في الجو نسيج رائع من الريش الأبيض. ريش خفيف ناعم مثل الحرير.

حاول أن يتذكر أين رأى هذا الريش، فأصيب بدوار شديد، وانتابته إغماءة، لم يكد ينهض منها حتى استعادت ذاكرته صورة «بلانكفلور»!

وكاد الأسى يقتله، وانطلق يصرخ في كل مكان، ويصيح مردداً اسمها في نشيج مؤلم:

ـ بلانكفلور. . . . بلانكفلور. . . أين أنت أيتها الحبيبة الغالية ؟ لتنصب على رأسي لعنات هذا العالم كله. . كيف نسيتك يا بلانكفلور ؟.

وهرعت إليه مربيته العجوز، ولكنها لم تستطع أن تفهم شيئاً. إنه يعدو هنا وهناك ويصيح في ثورة، ويبدو هائجاً كالمجنون.

وأقبل المساء، وهدأ «دون لويس» قليلا. واستطاعت العجوز أن تستدرجه حتى فهمت كل شيء، فهدأت من روعه قائلة:

ـ اهدأ يا «دون لويس» فستجد فتاتك الحلوة الطيبة. . لا تغضب لأنك عانقت عجوزاً مثلي، فإن هذه العجوز هي التي سترد إليك فتاتك!.

وسكت الفتى. واستطردت العجوز قائلة:

ـ أعطني الآن ريالين لأشتري بهما شموعاً للقديس أنطونيو، وأذهب أنت إلى القصر القديم القابع في طريق الملائكة، واسأل هناك عن الأم ماريبوزا. أنها امرأة من الغجر سكنت ذلك المكان منذ بضعة شهور، وقدمت حتى الآن ستا وثلاثين معجزة للأهالي. . فلعلها تفيدك، ولعلها ـ ببركة القديس انطونيو ـ تقدم لك المعجزة السابعة والثلاثين.

وعاود الأمل «دون لويس» فانطلق إلى طريق الملائكة، يسأل في لهفة عن الأم ماريبوزا. . وقادوه إلى حجرة صغيرة ضيقة ذات نافذة واحدة لم يكد يرى فيها شيئاً عندما ولج بابها الصغير.

وفوجئ «دون لويس» بصوت يسأله:

ـ عم تبحث أيها الشاب ؟

فأجاب وهو يفرك عينيه محاولاً أن يخترق حجب الظلمة:

ـ أبحث عن فتاة فقدتها

قال الصوت:

ـ هل ترغب كثيرا في رؤيتها؟!.

أجاب «دون لويس»:

ـ إننى أهب حياتي كلها من أجلها.

قال الصوت:

ـ ولماذا أذاً تخليت عنها؟!.

فأجاب «دون لويس»:

ـ إن لعنات أبيها حلت علينا فأفقدتني الذاكرة، فنسيتها.

وفوجئ «دون لويس» بالأم ماريبوزا تعانقه في لهفة ووجد. وكانت هي حبيبة «بلانكفلور» نفسها!.

وحمل الفتى خطيبته ـ ابنة مركيز الشمس ـ طوال الطريق إلى قصره. أما هي فما شعرت بالأسف قط على حياتها القديمة. وأما رداؤها الريشي الأبيض، فقد صار بعد ذلك غطاء لسرير أول أبنائها من دون لويس!.

الأساطير البابلية



جلجاميش

كان جلجاميش ـ حاكم أوروك ـ طاغية في الأرض، سعيداً بقامته الممتدة العملاقة، وجسمه الضخم، وجماله الباهر الذي يفتن الناس..

وكان ثلثاه إلها وثلثه الآخر آدميا. فهو من نسل شمس نيشتين، المخلوق الخالد الوحيد الذي نجا من الطوفان. ولم يكن أحد يشبهه بصورته، وإطلاعه على أسرار الغيب، ورؤيته جميع الأشياء ولو كانت في أطراف العالم المجهول.

وكان في قلبه شوق ظامئ إلى الحب. وبسبب مغامراته لإطفاء ظمأه الدؤوب، راح الآباء والأزواج يشكون كل يوم لربة الحب والجمال «إيشتار»، محاولة جلجاميش التعرّض للزوجات والعذارى، ويطلبون منها حمايتهم وحماية زوجاتهم وعذاراهم.

واستجابت ايشتار لتوسلات الخلق. وذهبت إلى الآلهة أرورو ـ عرابة جلجاميش ـ ترجوها أن تخلق ابناً آخر في قوة جلجاميش وجبروته، يكون قادراً على أن يشغله في نزاع طويل، حتى يستريح بال الأزواج والآباء في كل أنحاء أوروك.

وقبلت أرورو رجاء ايشتار، فعجنت قطعاً من الطين نفخت فيها ثم صورت «أنجيدو».

فجاء رجلاً له قوّة الخنزير، ولبدة الأسد وبأس الطير، يغطي جسده شعر كثيف وفوق كتفيه شعر طويل كامرأة.. ذهبي كشعر إله القمح.

ولم يكن أنجيدو منذ خلق ليعبأ بصحبة أبناء البشر، بل اعتزلهم وابتعد منهم.. ثم عاش مع حيوانات الغاب، يرعى العشب مع الظباء، ويلعب مع مخلوقات البحر، ويروي ظمأه مع وحوش الحقول..

وذات يوم أراد صياد يدعى تسايدو اقتناصه بالشباك، غير أنه عجز عن ذلك، وكرر الصياد محاولته يوماً آخر، ولكن أنجيدو كان بارعاً دائماً في الإفلات منه

وملأ الغيظ قلب الصياد. وانطلق إلى الحاكم جلجاميش يشرح له الأمر. ويقول له: إن أنجيدو لم يقع في الشباك المصنوعة قط. ولكن شباكاً أخرى تستطيع وحدها أن تقتنصه.. هي شباك النساء.

وأجاب جلجاميش:

ـ وما الذي تريد مني؟ المرأة أم الشباك ؟.

قال له الصياد:

ـ ان أنجيدو يدعي أنه أعظم منك قوة، وأنا أريد أن أحضره هنا أمامك لتثبت له أن قوته هي الضعف نفسه بجوار قوتك.. ولهذا فأنا أتوسل أليك أن تعيرني كاهنة حسناء تستطيع إيقاع انجيدو في شباك غرامها.. لتقوده إليك

وقال جلجاميش:

ـ إذهب اذن أيها الصياد وخذ معك الكاهنة «أخوتى». وعندما تحضر الوحوش ومعها أنجيدو إلى مورد الماء تستقي، فاجعلها تكشف عن وجهها وساقيها.. واختفِ أنت. وسيتم بعد ذلك كل ما تريد.

وانطلق الصياد والكاهنة «أخوتى» إلى حيث يستقي أنجيدو مع صحبه من الوحوش.

وعندما جاء الوحش الآدمي، مدت الكاهنة الحلوة يدها، وراحت تخلع أرديتها واحداً بعد آخر. ثم وقفت أمامه عارية، في جسدها رعشات ظامئات.

وأدار أنجيدو رأسه ناحية الحسناء وتوقف.. ثم بدأ يختلس إليها النظر في شوق ولهفة واشتعل في أعماقه لهيب النار..

وحث الصياد من مخبئه الكاهنة أخوتى على أن تقترب من أنجيدو، وتمنحه كل ما ينسيه نفسه.. وأصدقاءه وغابته.

وبقي أنجيدو مع الكاهنة ستة أيام وسبع ليال.. يعبّ فيها السعادة. حتى إذا جاءه الملل وانتبه إلى نفسه، أطل فإذا كل حيوانات الغابة من أصدقائه قد انفضوا من حوله وتركوه.

وملأ الحزن قلب أنجيدو. غير أن الكاهنة راحت تهزء وتقول:

ـ أنت يا من بلغت عظمة الآلهة. كيف يطيب لك العيش بين وحوش الغابة ونسائها. تعال معي ننطلق إلى مملكة أوروك حيث يعيش جلجاميش الذي لا يدانيه أحد في جبروته. تعال معي أقودك إلى القصر الرائع الذي يعيش فيه الإله أونو والإلهة إيشتار يمنحانك سر القوة وسر العنفوان.

ووجد أنجيدو العرض مغرياً. وبدأ يتوق إلى لقاء جلجاميش فأعلن موافقته على اتباع المرأة إلى مدينة أوروك. وقال لها:

ـ تعالي بنا إلى حيث أرى المكان الذي يعيش فيه جلجاميش. أقاتله وأهزمه وأظهر له قوتي وعنفواني.

وسار الثلاثة في طريقهم إلى أوروك. أخوتى وأنجيدو والصياد.

في ذلك الوقت كانت أوروك تحتفل بعيد «إيشتار» والناس يصخبون ويضجون ويشربون عندما بلغهم نبأ وصول أنجيدو، منافس جلجاميش.

وزاد رقص الناس، وابتهاج الآلهة. فقد سرَّهم أن ينهزم جلجاميش. سارق الزوجات والعذارى، وأن يهبط عن العرش الذي دنسه.

والحقُّ يُقال: كان لأنجيدو من القوة ما يستطيع أن يهزم بها جلجاميش. غير أن شيئاً آخر كان قد جد في الأمر. فقد كانت إيشتار قد رأت جلجاميش فأعجبها. وقررت أن تمنع الصراع الوحشي الذي كان عليه أن يخوضه. وبدت لأنجيدو في الحلم تهمس في أذنه أن جلجاميش أكثر منه قوة، وأن خيراً له أن يركن إلى الحكمة وأن يبتعد عن الصراع.

ومع جلجاميش حدث الشيء نفسه. بدا له كأن أمه قد جاءته في الحلم تحذره من منازلة أنجيدو وتطلب منه أن يكونا أصدقاء.

وهذا ما كان.. والتقى من أريد لهما أن يكونا عدوين، فإذا بهما يصبحان صديقين وفيين. وإذا بهما يسيران كل يوم جنبا إلى جنب يحميان أوروك من هجمات «عيلام» ويعودان معاً ظافرين بعد أن يقوما بأحسن الأعمال.

غير أن أنجيدو لم يطق حياة المدينة طويلاً. وبدأ يضيق بها ويتمنى الرجوع إلى الغابة حيث كان يعيش. وظهر له في الحلم طيف شمس نيشتين، وراح يحبب إليه البقاء في الأرض ويهديه إلى الأرباح التي تعود عليه من الحياة فيها. وقال له شمس:

ـ إن جلجاميش صديقك وأخوك.. وسيمنحك فراشاً ضخماً تنام فيه، ومقعداً كالعرش إلى جانبه الأيسر، وسيجعل كل ملوك الأرض يركعون تحت قدميك إعجاباً وتقديراً.

وهز الإغراء رأسه واقتنع بالبقاء إلى جوار جلجاميش. ولم يعد يشكو بعد وجوده في مملكة أوروك.

وحتى جلجاميش. سرّه وجود أنجيدو إلى جواره وأعلن أن السلام قد حل وخلع عدة الحرب ولبس الثياب القدسية البيضاء، وزين نفسه بالشارة الملكية، ولبس التاج.

وفي تلك اللحظة أطلت «إيشتار» فراعها جماله وجبروته. وراحت ترنو إليه بعينيها الكبيرتين وتقول له:

ـ تعال يا جلجاميش وكن لي زوجاً. تعال نتبادل كؤوس الهوى والحب، أضعك في عربة من لازورد وذهب. ذات جوانب مطعمة بالعقيق، تجرها سباع سبعة، وتدخل بيتنا وحولك البخور المنطلق من خشب السدر. تعال أمنحك السلطان.. وأجعل قدميك تحتضنان كل الأراضي المجاورة للبحر، وأحني رؤوس الملوك لهم سجداً لك يأتونك بثمرات الجبال والسهول جزية يؤدونها صاغرين.

غير أن جلجاميش كان يعرف إيشتار، وكان يعرف لها قصصاً عنيفة مخيفة. فهز رأسه وهو يقول:

ـ أنت خائنة يا إيشتار. ولن يطمئن رأسي فوق كتفي إذا أنا آمنت بحبك واستسلمت لفنون عشقك.

قالت إيشتار:

ـ وما الذي تعرف عن خياناتي يا فتى؟.

أجاب جلجاميش:

ـ أن الجميع هنا يتحدثون عما فعله عشقك الخائن بكل من وقع في شباك غرامك. أحببت النسر ثم قصصت أجنحته. وعشقت الحصان حتى نفق. وملأت كؤوس الحب للأسد حتى فقد لبدته.

وقاطعته إيشتار:

ـ ولكن هل سمعت عن تضحياتي في سبيل من أعشق وأحب.. هل سمعت عن قصتي مع حبيبي تموز؟.

وهز جلجاميش كتفيه. وراحت آلهة الحب والجمال تحكي له القصة.

كان تموز الفتى الراعي المملوء بالعنفوان من نسل الإله العظيم آى. ولقد شاهدته إيشتار ربة الحب والجمال وهو يرعى غنمه تحت شجرة «أربد» المقدسة التي تغطي بظلها الأرض، فشغفت به حباً واختارته زوجاً لها وهي بعد في إبان الشباب.

وعاش الحبيبان أمداً طويلاً في قصة حب ندية رائعة، لم تشهد مثلها السماء قط. حتى كان يوم خرج فيه تموز يرعى غنمه. وإذا بخنزير بري يهاجمه ويطعنه في مقتل. فهوى تموز كما يهوي الموتى إلى «أرالو» الجحيم المظلم في العالم السفلي.

وكانت الإلهة «أرشكجال» أخت إيشتار هي التي تحكم مملكة أرالو الممتدة في أعماق الأرض. إلا أنها كانت تغار من أختها وتمتلىء منها حسداً. فما كاد الفتى يهبط إلى مملكتها حتى أحكمت غلق الأبواب وأقسمت ألا يعود إلى الأرض حياً قط.

والحقّ أن إيشتار كانت قد قررت أن تهبط إلى آرالو في محاولة يائسة لاسترداد زوجها الحبيب.

وانطلقت إيشتار في رحلة طويلة قاسية، مرت خلالها بألوان مخيفة من الأخطار. حتى بلغت أبواب آرالو وطلبت الأذن لها بالدخول.

وسعت أرشكجال في طلب أختها إيشتار فأمرت خازن النار ألا يفتح لها الأبواب أبداً.

وصرخت إيشتار غاضبة. وراحت تدق أبواب أرالو تهدد وتتوعد وتقسم أن تحطمها وتسحق أقفالها وقضبانها إذا لم يسمح لها.

وامتلأ حارس الأبواب رعبا وفزعا. وأسرع إلى أرشكجال يتوسل إليها أن تنقذه بالسماح لأختها بالدخول.

وبرغم المرارة والحقد اللذين تكنهما أرشكجال لأختها. فقد اضطرها الأمر أن تخفي ما يعتمل في أعماقها أمام الحارس وسمحت له بفتح الأبواب. غير أنها عندما أذنت له قالت أن هذا الأذن لا يمنع أن تعامل أختها بما يقضي به قانون الآلهة الذي يحرم دخول أرالو إلا للعراة.

وسمح حارس النار لإيشتار بالدخول وراح يخلع عنها جزءاً من ثيابها وحليها عند كل باب تجتازه من أبواب مملكة الظلمات.

ولم تغضب إيشتار فقد كان حسبها الوصول إلى حيث وضع تموز، ولا شيء بعد ذلك.

وعند الباب الأول خلع الحارس عن إيشتار تاجها، وعند الباب الثاني خلع قرطيها. ثم عقدها، ثم حلية صدرها، ثم منطقتها ذات الجواهر القدسية، ثم رداءها المزركش البراق الذي يغطي يديها وقدميها.

وبرغم كل ذلك فما اكتفى الحارس. بل طلب منها قبل اجتياز الباب الأخير أن تخلع آخر الأثواب. وتمنعت إيشتار أول الأمر في رقة، ثم خضعت له واستسلمت.

وهبطت إيشتار عارية إلى أعماق أرالو.

وفتحت أرشكجال عينيها في غيظ وحقد. لقد كانت أختها فاتنة خلابة رائعة. أما هي فدميمة قبيحة عرجاء. من حقها أن تنزل بأختها غضبها ونقمتها.

وانتفضت أرشكجال وهي تصدر أمراً جديداً لرسولها «نمتار»:

ـ إذهب يا نمتار واسجنها في قصري. وسلط عليها ستين مرضاً. مرض العيون على عينيها، ومرض الجنب على جنبيها، ومرض الأقدام على قدميها، ومرض القلوب على قلبها، ومرض الرؤوس على رأسها. سلط كل ما تعرف من الأمراض على كل جزء من أجزاء جسمها البغيض.

ونفذ نمتار أمر مولاته..

ووجدت إيشتار نفسها داخل سجن أختها، وفي كل أعضائها مرض خبيث.

وأظلت الأرض حولها. فما وجدت فوق ظهرها أثراً لإيشتار ربة الحب والجمال والربيع، ولا شعرت أنها فقدت كل ما كان يوحيه وجود إيشتار. فنسيت جميع الفنون وطرق الحب، ولم تشعر الحيوانات بحرارة الرغبة قط. حتى سكان الأرض من رجال ونساء، انفصل كل منهم عن الآخر، وما عاد هناك من سبيل لإنجاب جيل جديد.

وأخذ البشر يتناقصون، وروع الآلهة حين رأوا نقص ما يرسله لهم البشر من قرابين. واستولى عليهم الذعر حين شهدوا عدداً كبيراً من الناس قد انصرفوا عن عبادتهم منذ اختفت إيشتار بين قضبان السجن المقيت..

وكان إله الشمس هو أكثر آلهة السماء حزنا على أهل الأرض، فذهب إلى إله الأرض آى يبكي، وهو يحمل إليه قصة الخراب والدمار التي حلت على كل المخلوقات. كما يشهدها كل يوم بين الشروق والغروب.

وحزن آى للمصائب التي حلت بأرضه. فخلق رسولاً سماه أشوشونامير انطلق يحمل رسالته إلى ارالو ويطلب من أرشكجال باسم كل الآلهة إطلاق سراح إيشتار.

وغضبت أرشكجال عندما وصلها الأمر المقدس باسم الآلهة على لسان أشوشونامير، فراحت تسبه وتلعنه. ثم أمرت به فألقي في جب مظلم في أعماق أرالو حتى يموت.

ومع ذلك فكانت أرشكجال تستطيع الوقوف في وجه كل الآلهة.. فلم يمض وقت حتى أمرت رسولها نمتار بأن يطلق سراح أختها الإلهة إيشتار.

وانطلق نمتار صاعداً بأمر مولاته، غير أنه فوجئ بإيشتار ترفض الخروج من السجن. وتقسم ألا تغادره وتعود إلى الأرض إلا إذا سمح لها بأن تأخذ معها زوجها تموز.

ورفضت أرشكجال، واستمرت الأرض قاحلة تبكي.

وغضب الآلهة، وأرسلوا أمرا آخر إلى أرشكجال بالإفراج عن تموز، إجابة لطلب إيشتار وبالرغم منها أرسلت ربة الجحيم رسولها نمتار ليصب ماء الحياة على جسد تموز، ويطلقه خارج أسوار أرالو ومعه إيشتار..

وهكذا انطلقت إيشتار تجتاز وهي ظافرة ومعها زوجها أبواب أرالو السبعة. وتتسلم عند كل باب ما خلعته من قبل. ملابس ما فوق الساقين. والمنطقة، وحلي الصدر. والقرطين. والتاج.

وأطلت الأرض فإذا إيشتار وتموز يعودان. فعاد معهما النبات ينمو والحيوانات تكاثرت، وانطلق كل امرئ يبغي الإكثار من نسله. وجلست إيشتار من جديد على عرش الحب والجمال والربيع.

كان جلجاميش يستمع بذهول إلى قصة إيشتار وتموز. غير أنه عندما انتهت من سرد قصتها، هز كتفيه وهو يذكرّ النهاية القاسية التي انتهى إليها تموز نفسه. فقد سمع أنه ظل يفقد كل يوم بعض أعصابه حتى انتهى الأمر به إلى الجنون ومات.

وأقسم جلجاميش أنه لن يستسلم قط لغرام إيشتار، وقال لها وهو يمضي عنها:

ـ إنك تحبينني الآن. ولكنك ستقضين عليّ بعد ما قضيت على كل هؤلاء.

وصرخت إيشتار وهي تضرب الأرض وتندفع نحو السماء. وانطلقت في غضبها الصاخب إلى أونو الإله الأعظم تطلب منه أن يخلق من الوحوش ثوراً مارداً يقتل جلجاميش. غير أن أونو رفض طلبها وهو يقول:

ـ ألا تستحين يا إيشتار وقد ذكرك جلجاميش بكل مخازيك وفضائحك وألوان غدرك؟.

وعادت إيشتار تصرخ وأنذرت بتعطيل كل ما في الكون من غرائز الحب والنسل حتى يهلك كل شيء.

وكانت ذكرى خراب الأرض لا تزال ماثلة في رأس أونو، فاضطر إلى الخضوع لإرادة إيشتار، وأرسل ثوراً ضخماً اسمه «آلو» لينازل جلجاميش..

والتقى آلو بجلجاميش..

خلال الصراع العنيف الذي نشب بينهما، كاد جلجاميش يسقط ميتاً، إلا أن صديقه أنجيدو سعى إليه وأنقذه من براثن الثور الوحشي واشترك الاثنان معاً في القضاء عليه.

وأطلت إيشتار من عليائها في غضب مجنون. فرأت الثور يحتضر وجلجاميش يقف من فوق جسده يضرب بالرمح كل أطرافه. وهتفت إيشتار:

ـ ملعون أنت يا جلجاميش. أثرت غضبي أنا التي لا أغضب. ويا من قتلت ثوري الذي أرسلته من السماء

وسمع أنجيدو لعنات إيشتار. فانقض على الوحش ومزق أحد أطرافه ثم ألقى به على وجه ربة الحب والجمال وهو يهتف:

ـ أغلقي فمك يا ماكرة، وإلا هاجمتك وحطمتك وفعلت بك مثل ما فعلنا برسولك.

وملأ العار رأس إيشتار، وأقسمت أن تنتقم.

ولم تمض أيام حتى كان أنجيدو قد سقط وهو في عنفوان مجده، ضحية داء عضال. صرعه بعد اثني عشر يوماً مقيتاً..

وكانت إيشتار هي التي أرسلت إليه داء الموت.

ملأ الحزن قلب جلجاميش، وبدت له صورة الموت بشعة مخيفة. وراح يفكر في وسيلة للفرار من المصير المحتوم.

وبلغ به التفكير إلى شخص واحد عزيز، لا يستطيع الموت أن يقرب منه. إنه جده الأكبر شمس نيشتين الخالد الذي يعرف سر الخلود.

وقرر جلجاميش أن ينطلق للبحث عن المكان الذي يقيم فيه شمس نيشتين. ولو اضطره البحث إلى التطواف حول الأرض.

وانطلق جلجاميش في طريقه للوصول إلى أول الأرض حيث تغرب الشمس.

وبعد أن قطع في الجبال والسهول مسيرة أيام، بلغ جبلاً ضخماً تقف دونه حيوانات ووحوش، لم تأذن له بالمرور إلا بعد أن سلط عليها الإله، سنَّ رب القمر قدرته فاستسلمت للنوم. واجتاز جلجاميش الجبل المهول ليقف عند جبل آخر أكثر منه هولاً وارتفاعاً، هو جبل الغروب حيث ينتهي الأفق الغربي بين الأرض والعالم السفلي.

وكان يحرس الجبل ماردان مهولان يلمس رأساهما قبة السماء، ويصل ثدياهما إلى أعماق الأرض.

واقترب منهما جلجاميش، وعلى وجهه تتمثل كل ألوان الرعب والخوف وأوقفه الماردان يسألانه عما يريد باقترابه من بداية العالم السفلي. وأجابهما جلجاميش بأنه يريد الوصول إلى حيث جده الأكبر، شمس نيشتين.

ونصحه الماردان بالعودة. فقد كانا يعلمان أن سر الخلود لا يمكن أن يصل إليه واحد من البشر. ولكن جلجاميش راح يتوسل إليهما وهو يبكي، ورقَّ له قلباهما، وسمحا له بالمرور.

وسار جلجاميش إثني عشر ميلاً داخل نفق غارق في الظلمة. وعندما وصل إلى نهايته كان النور قد بدأ يشرق، ووجد نفسه أمام شاطئ بحر عظيم، ينهض فوق مائه عرش سبتو العذراء، ربة البحار.

وناداها جلجاميش وهو يطلب منها أن تعينه على عبور الماء، فرفضت ربة البحر. وراح يبكي ويتوعد، وينذر الربة بأنه إذا لم يفلح في الوصول إلى جده شمس نيشتين

فيلقي بنفسه من فوق قمة الجبل ليموت. وأشفقت عليه سبتو، وسمحت له باجتياز البحر في قارب يقوده واحد من خدامها الأمناء.

وبدأ جلجاميش رحلة طويلة مرعبة، استغرقت من الأيام والليالي أربعين، وجد نفسه في نهايتها يقف أمام جزيرة صغيرة، هي التي يقيم فيها شمس نيشتين، المخلد أبد الدهر..

عجب شمس نيشتين عندما رأى جلجاميش يقترب من الجزيرة وكان البطل في ذلك الوقت قد سقط في القارب فريسة داء عضال. فراح يتوسل وهو في رقدته إلى جده الأكبر أن يمنحه سر الخلود الذي اجتاز من أجله كل هذه المخاطر والأهوال.

وهز شمس نيشتين رأسه، وراح يقول له:

ـ إن الموت هو نهاية كل بشري. وإنه لمحرم على إنسان أن يعرف سر الساعة التي تنتهي عندها حياته. ففي السماء تجلس آلهات القدر تغزل خيوط الحياة لكل إنسان وترسم نهايته. ولكن متى ينتهي الغزل الخاص بحياته؟. وفي أي ساعة؟ هذا ما لا يدريه أحد قط. حتى الغازلات أنفسهن..

وأجاب جلجاميش:

ـ أنا لا أريد تعدّياً على سلطان الآلهة. ولكني أعجب لماذا تخلد أنت وأموت أنا. على حين أن مظهري لا يختلف عن مظهرك؟. إنني أشبهك تماماً. ولست أكثر مني حكمة ولا أرجح عقلاً. ولي قلب مثل قلبك جريء قوي. فكيف تدخل أنت مجمع الآلهة ولا أدخله أنا.. كيف تجد سر الخلود ولا أجده أنا؟.

ولم يجد شمس نيشتين لكي يقنعه، سوى أن يقص عليه قصة الخلق والطوفان والخلود.

وعندما انتهى شمس من قصته. كان جلجاميش قد سقط من اليأس والإعياء في أعماق قاربه.

وتألم شمس نيشتين وأشفق على حفيده، ووعد أن يعيد إليه صحته ويشفيه.

ونام جلجاميش ستة أيام وسبع ليال. وخلال نومه العميق كانت زوجة شمس نيشتين تمتلئ عطفاً عليه ورحمة، وتطلب في النهاية من زوجها أن يرده سالما إلى ابنته.

واستجاب شمس نيشتين لرجاء زوجته. وطلب منها أن تحضر له مادة سحرية تحتوي على سبعة عناصر مقدسة، قَطَرها بين شفتي جلجاميش النائم في أعماق قاربه.

ومرت أيام ستة وفي اليوم السابع، عندما استيقظ جلجاميش عاد يطلب من جده الأكبر سر الخلود..

وأذن له شمس بالنزول إلى الشاطئ ثم أرسله إلى ينبوع ماء ليزيل عن نفسه مفاسد حياته الماضية. وتطهر جلجاميش بالماء المقدس، ثم عاد مرة أخرى إلى جده وقد أيقن أنه سيمنحه سر الخلود.

وهذا ما حدث. فإن شمس نيشتين أخذ بيد البطل إلى حيث يجد نبتة الخلود.

وكانت هذه النبتة القدسية التي تعيد الشباب وتمنح الخلود لمن يأكلها، نوعاً من حشائش زاحفة، ذات أشواك تدمي من يحاول جمعها.

وحصل جلجاميش على النبتة، وطلب من جده أن يسمح له بالعودة إلى اوروك.

وهكذا بدأت رحلة العودة، في القارب القدسي، الذي يقوده ملاح سبتو المخلص، ويحميه طوال الطريق.

وقطع جلجاميش من الطريق الأول ما مقداره ثلاثون قسمة. وعندما بلغ ذلك المكان وجد جزيرة صغيرة في وسطها بئر، قال له الملاح أن به ماء عذبا يغري بالاستحمام.

وخلع جلجاميش ملابسه.. وهبط في البئر يستحم.

ولم يكن جلجاميش يدري أن ثمة حية رقطاء كانت ترقد إلى جوار المكان الذي خلع فيه ملابسه، شمت رائحة النبتة القدسية فتقدمت منها، وانقضت عليها في لحظة، ثم اختفت.

وصرخ جلجاميش إذ وجد نبتة الخلود تضيع، وعاد يبكي كطفل، وجرت الدموع على خديه شقية مدرارة، ولكنه لم يكن يستطيع أن يفعل شيئاً.

واستأنف جلجاميش رحلته حزيناً نحو الأرض. وعندما بلغ أوروك راح يطوف بالهياكل، ويدعو الآلهة أن ترد الحياة لأنجيدو ولو للحظة واحدة يكلمه فيها.

وبرغم القرابين التي راح يقدمها للآلهة وسن ومردوك.. إلا أن أحداً منهم لم يستجب له.

وذهب جلجاميش آخر الأمر إلى الإله آى. فعطف عليه وأمر رسوله نرجيل أن يحضر له روح أنجيدو العزيز.

وانشقت حفرة في الأرض. وانطلقت من خلالها روح أنجيدو كنفحة الطيب. وراح جلجاميش يحدث صديقه:

ـ أخبرنى يا صديقي عما رأيته. فما عدت أستطيع الخلود على ظهر الأرض، وسأنطلق عاجلاً أو آجلاً حيث تقيم. فما الذي تراه هناك حتى أستعد له. ؟

وأجاب أنجيدو:

ـ لا أستطيع ان أخبرك بسر العالم السفلي.

وبكى جلجاميش. . وراح يلح على صديقه أن يجلس إليه ويحدثه. ورق له روح أنجيدو. فراح يحكي له قصة الأهوال في أرالو. وكيف تجري الأمور في العالم السفلي.

قص أنجيدو كيف ينام الشهيد الذي يقتل في المعركة. إنه يرقد على السرير، ويشرب الماء النقي، تحيط به أمه وأبوه وأبناؤه وزوجته. أما الرجل الذي يموت، وجثته ملقاة في الحقول لا تجد من يقيم على جسده مراسيم الدفن بعد الوفاة. . فليس له إلا اختيار طعامه من النفاية والأقذار التي يلقيها الآخرون.

وختم أنجيدو حديثه وهو يقول:

ـ لقد مت شهيداً. . فسعدت في العالم السفلي. أمامك الآن الخيار.

وفي لحظة انشقت الأرض من تحت أنجيدو فتلاشى. أما جلجاميش. فقد راح يطل حوله ذاهلاً. ثم خرَّ على الأرض. وقد ملأته الحيرة بين الرغبة في الموت والرغبة في الحياة.



الأساطير اليابانية



ابن السماء

ابن السماء.. هو الاسم الذي يطلقه اليابانيون على الميكادو، الجالس على عرش اليابان. ويعتقد سكان بلاد الشمس المشرقة أن نسب الميكادو يمتد بضعة آلاف من السنين إلى زمن لم يكن فيه شيء قط.. سوى آلهة تولد ذكرا وأنثى، ثم تموت.. حتى جاء يوم تعلم فيه إلهان شابان سر اتصال الذكر بالأنثى من الضفادع. فبدأت قصة الخلق وجاء ابن السماء.

على رأس قوس قزح.. ذلك الجسر الرائع الذي ينحدر من السماء إلى حيث مياه المحيط الواسع اللانهائي، وقف الإله الشاب ايزاناجي وفوق رأسه إكليل من النور، يطل في حيرة على رفيقته الإلهة ايزانامي، بجمالها الرائع وشعرها المسترسل على كتفيها كأسلاك الذهب.

وكانت الحيرة تملأ رأسي الإلهين الشابين، فقد كانا يدركان خطورة المهمة التي عهد بها إليهما مجتمع الآلهة، حين أصدروا إليهما أوامرهم بالهبوط من السماء ليخلقا أرضا يقيمان على سطحها الحياة.

ووقف الإلهان الشابان يحدقان في المياه الصاخبة التي تهدر عند نهاية الجسر. أيمكن أن يكون هناك شيء صلب وسط هذا المحيط المتلاطم الأمواج يتخذان منه مقراً للعالم الذي كلفا بأن يخلقا فوقه الحياة؟.

وبدأ لايزاناجي يتحسس برمحه الطويل المرصع بالجواهر صفحة الماء عله يجد الأرض، غير أن شيئاً صلباً لم يحتك بالرمح قط، ويئس الإله فرفع رمحه. ولم يكد يفعل حتى تساقطت من الرمح قطرات من الماء راحت تتجمع وتتكثف وتتصلّب وتمتد فوق صفحة المحيط، لتصبح أرضاً صلبة واسعة. كانت هي نفسها جزيرة أنوجورو.

وعلى سطح هذه الأرض هبط الإلهان وبدأت قصة الخلق.

لم تكد أقدام الإلهين تمس الأرض الجديدة حتى أحس كل منهما برعشة كبيرة وهو ينظر إلى عين الآخر. وشعرا كأن شيئاً غريباً حاراً يضطرب في صدريهما. وبدا لهما كأن كلا منهما يرى الآخر لأول مرة.

لقد كان هناك شيء جديد غريب يحدث للمرة الأولى على هذه الأرض.. شيء اسمه الحب.

وكما لم يحدث لهما في السماء من قبل، بدأ ايزاناجي يرى في ايزانامي أشياء أخرى جديدة رائعة، أحسها جيداً وهو يتأمل شعرها الطويل وعينيها السوداوين، وشفتيها الساخنتين وذراعيها الممتليئتين وقوامها الفارع الممشوق. ولم تكن ايزانامي هي الأخرى بأقل منه إعجاباً به. فقد وجدت أمامها شاباً رائعاً، في صدره قوة، وفي ذراعيه عنفوان وفي نظراته دعوات كمثل السحر.

وراحت الربة الحسناء تتأمله في إعجاب وهو يقيم نصباً ضخماً يبدآن منه دورتين يكتشفان خلالهما هذه الأرض الجديدة. ثم يعودان ليلتقيا عنده مرة أخرى.

وبدأ كل منهما دورته فأخذ ايزاناجي أحد الاتجاهين وسارت ايزانامي في الاتجاه المضاد.

وبينما كان كل منهما يأخذ طريقه على طول شاطئ الجزيرة، راحا يشهدان ما تصنعه الضفادع في الماء وفوق الرمال، وأخذ بهما العجب وهما يكتشفان سر اتصال الذكر بالانثى. وبدأت تملأ رأسيهما فكرة جديدة لم يعرفاها من قبل

وهكذا لم تكد ايزانامي تصل إلى النصب وتلتقي بايزاناجي، حتى بادرته وفي عينيها فرح كبير.

ـ ما أقواك يا ايزاناجي! وما أشوقني إلى أن أتزوجك كما تتزوج هذه الضفادع.

واضطرب ايزاناجي.. فقد كان يريد أن يبدأ هو بالكلام. وبدا على وجهه غضب كبير وهو يهتف فيها:

ـ كيف.. وأنت امرأة. تتكلمين أولا ؟ إنني أنا الرجل. وبهذا الحق كان يجب أن أبدأ أنا الكلام. إن هذا لفأل سيّئ.

وبكت ايزانامي، وطأطأت برأسها إلى الأرض. وبدأ الهدوء يعود إلى ايزاناجي، وهو يرى دموعها الإلهية لأول مرة. وقال لها:

ـ لنستأنف الدوران من جديد، واحذري أن تبدئي الكلام متى التقينا.

وعاد الإلهان يستأنفان الدوران حول الأرض. وفي هذه المرة عندما التقيا عند النصب الكبير بادرها ايزاناجي بالحديث وهو يقول:

ـ ايزانامي.. ما أبهجني إذ التقي بعروس حسناء مثلك. فهل تقبل الحسناء أن نكون زوجا وزوجة؟.

وأومأت ايزانامي برأسها..

وهكذا تزوج الإلهان.

ولم يكد يمضى من الوقت سوى القليل، حتى أنجبت ايزانامي أربعة آلاف ومائتين وأربعة وعشرين ابنا هم مجموع جزر اليابان، بكل ما فيها من جبال وصخور وأنهار. وبكل ما يعمرها من أناس وحيوان ونبات.

وجلس الزوجان ذات يوم يتحدثان. وقالت ايزانامي لزوجها ايزاناجي:

ـ لقد أنجبنا هذا العدد الكبير من الأبناء لنخلق الأرض ونملأها بالحياة.. فلم لا نخلق ابنا جديداً يكون سيداً لكل الأرض؟.

ولم يكن هناك ما يمنع التنفيذ.

وولدت ايزانامي أنثى هس أماتيراسو.. ربة الشمس التي بلغت من الروعة والجمال حدا جعل والديها يقرران إرسالها على الجسر الإلهي إلى السماء لتستقر هناك ولترسل أشعتها الذهبية البراقة لتنير الأرض.

وعاد الإلهان ينجبان من جديد.

وكان الابن الثاني هو تسوكي يومي، إله القمر الذي كان تألقه الفضي أقل روعة من تألق شقيقته. إلا أنه بدا جديراً بأن يكون رفيقا لها، فأرسله أبواه على قوس قزح ليستقر هو الآخر في السماء.

غير أن الأخوين ما أسرع ما تشاجرا واختلفا. وصرخت اماتيراسو في أخيها تسوكي يومي ذات يوم:

ـ إنك مُدَّعٍ محتال.. إنني أكرهك.. ولا أريد أن أرى وجهك بعد الآن..

وذهب تسوكي يومي إلى أبيه يشكو أخته. فلم يسع الأب إلا أن يبعد كلا منهما عن

الآخر. ومنح اماتيراسو مملكة النهار، كما منح أخوها تسوكي يومي مملكة الليل.

واستمر الأب والأم ينجبان.

وكان الوليد الجديد هو سوزانو، الذي لم يكد يهبط على الأرض، حتى أثار صخبا وضجيجا وزوابع جعلت منه رب العواصف. واضطر أبوه أن يسلمه مملكة البحار بأمواجها التي تبلغ ثمانمائة ألف موجة.

ولم تكن ايزانامي قد اكتفت بالأبناء بعد.

وكان الوليد الجديد الذي أنجبته هذه المرة هو كاجوتسوشي، رب النار، الذي لم يكد يولد حتى أصاب أمه بحمى قاسية شديدة أحرقتها.

وكان لا بد لايزانامي بعد ذلك أن تنحدر إلى العالم السفلي بعيداً عن الأرض التي خلقتها

اختفت ربة الأرض، وبقي زوجها وحيداً شقيا لا يحس لحياته معنى على الإطلاق. وكان ايزاناجي يعلم أن الأموات عندما ينتقلون إلى العالم السفلي لا يدركهم الفناء، بل يقضون هناك حياة أخرى جديدة. وكان يعلم أنه سيأتي يوم يذهب هو الآخر فيه إلى العالم السفلي حيث يلتقي بزوجته..

غير أن ايزاناجي، لطول ما حزن وتألم لفراق زوجته، لم يطق انتظار ذلك اليوم، وقرر أن يذهب بنفسه إلى ارض الجحيم ليراها وليحاول انتزاعها من هناك والعودة بها إلى الأرض.

وانطلق ايزاناجي إلى المنفذ الذي يفصل بين الأرض والعالم السفلي، وانحدر منه إلى مملكة الجحيم، حيث الظلمة تطغي على كل شيء، وراح يجوب الطرقات المظلمة محاولاً اختراق حجب الظلمة ببصره بحثا عن زوجته الحبيبة. ولكن دون جدوى.

وإذ ملأ اليأس قلب ايزاناجي من العثور عليها قرر العودة إلى سطح الأرض ليحبس نفسه حتى يَقضي عليه بالذهاب إلى عالم الظلمات.

وبينما هو يدير قدميه ليعود إدراجه، فوجئ بصوت رقيق يهمس في أذنه ويقول له:

ـ هذا أنت يا زوجي الحبيب. ألا ما أسعدني بلقياك. وما أعظم الشرف الذي أضفيته علي بمجيئك بحثاً عني في عالم الظلمات.

وتلفت ايزاناجي إلى حيث مصدر الصوت، وحاول أن يرى زوجته، ولكن الظلمة الحالكة لم تكن تبدي له شيئاً قط.

وقال يخاطب صوت ايزانامي:

ـ زوجتي الحبيبة.. تعالي إلي. اقتربي مني أنا الذي اخترقت من أجلك كل هذه الظلمات. عودي معي إلى عالم النور.. إلى الأرض التي لا تزال تنتظر منا الكثير.

وسمع ايزاناجي صوت ايزانامي يقول:

ـ أبدا يا زوجي الحبيب لقد مضى الوقت الذي كان يمكن أن أعود فيه إليك.. فقد جئت متأخراً جداً.. إذ أكلت منذ لحظات طعام الجحيم الذي لا يمكن لمن يتناوله إلا أن يستلقي ليستريح في عالم الظلمات. فاذهب أيها العزيز.. اذهب ولا تحاول الاقتراب مني أو النظر إليّ أو رؤية وجهي. فالقانون هنا صارم مخيف. لا يسمح فيه للأموات أن يراهم الأحياء قط.

وصرخ ايزاناجي.. أيمكن بعد كل تلك المتاعب التي لقيها خلال رحلته الشاقة عبر العالم السفلي، أن يعود دون أن يراها؟. أبداً.. إنه لن يستطيع العودة دون رؤية زوجته الحبيبة.

وبرغم الوعد الذي قطعه على نفسه بألا يحاول رؤيتها، فقد وجد نفسه آخر الأمر، مدفوعاً بفضوله وعاطفته معاً، إلى أن ينقض الوعد..

وببطء مد ايزاناجي يده إلى مشطه المغروز في شعره فانتزعه من مكانه، وكسر أحد أسنانه.. ثم أشعل فيه النار..

وكان المشهد الذي طلعت عليه عيناه مروعاً مخيفاً.

ففي نفس اللحظة التي استنار فيها الجحيم، سقطت ايزانامي في عنف، وتحول وجهها الجميل في سرعة ليصير بشعاً مخيفاً عفناً، وانطفأ البريق الرائع الذي كان ينبثق من عينيها فإذا بهما ثقبان غائران مخيفان، يسري فيهما الدود وينطلق منهما لينتشر على كل جزء من الجسد الذي ملأه العفن.

وانطلق صوت ايزانامي، وهي تتلوى مرعداً رهيباً:

ـ اخسأ أيها الشقي. ألا فلتنصبّ عليك كل لعنات السماء جزاء ما نقضت عهدك فألقيتني إلى العذاب ولوثتني بالعار.

وعادت جثة ايزانامي تتلوى بجنون. فقد انقضت عليها آلهة الرعد الثمانية منبثقة من رأسها وثدييها وبطنها وكفيها وقدميها، وهي ترعد بأصوات قوية بشعة صاخبة، يهتز لها الجحيم.

واندفع ايزاناجي يجري برعب مذعور.. على حين أن صرخات ايزانامي الغاضبة المعذبة تهتف داعية زبانية الجحيم المخيفات ليتبعن الرجل الذي خدعها وألقى بها إلى التهلكة.

واندفعت من أعماق الجحيم زبانية مخيفات بصورة نساء يمثلن القبح والدمامة والشراسة، وأسرعن خلفه. واستمر هو يجري أمامهن هارباً في منحنيات الجحيم.. حتى إذا وجدهن قد كدن يلحقن به أسرع فخلع الإكليل الذي يحيط برأسه وألقاه نحوهن. وبلحظة.. تحول الإكليل إلى عناقيد من العنب، لم تكد الزبانية البشعات ترينها حتى توقفن.. ثم انحنين فوقها يأكلن في شراهة وجوع.

وعادت ايزانامي تصرخ في مسوخ آخريات أن يتبعن الهارب.. واندفعت المسوخ خلفه بقوة حتى كدن يبلغنه، فمد يده يخلع مشطه وألقاه نحوهن. وفي الحال انقلبت أسنان المشط إلى عيدان طويلة من القصب سال لها لعاب المسوخ فتوقفن ورحن يلتهمنه بلذة وبأصوات كهزيم الرعد.

واستمرت ايزانامي تصرخ، وفي هذه المرة انطلق خلف الإله الهارب ألف وخمسمائة من جنود الجحيم فاخرج ايزاناجي سهامه وراح يلقي بها إلى الخلف على حين أنه يندفع إلى أمام، حتى وجد نفسه آخر الأمر يقترب من المنفذ الذي يقوده إلى خارج عالم الظلمات.

وفي ذلك الوقت كانت جثة ايزانامي هي التي تجرى بنفسها مندفعة خلفه. وكادت يداها المعقوفتان تمسكان به في الوقت الذي كان هو ينطلق من الثقب الذي يفصل بين العالمين ويمد يده إلى صخرة كبيرة هائلة يدفعها ليسد بها الثقب الملعون.

وسمع ايزانامي تصرخ من الناحية الأخرى:

ـ انتظرني يا زوجي العزيز.. لا تذهب.. لا تقل الوداع. عد إلي.. فإنك إذا هجرتني فسوف أهلك في كل يوم ألف رجل على الأرض.

وأجاب ايزاناجي وهو يثبت الصخرة على مدخل الجحيم:

ـ اصنعي ما تريدين فلن أعود.. وسوف أعمل على أن تستقبل الأرض ما لا يقل عن ألف وخمسمائة طفل جديد كل يوم بزيادة خمسمائة عن العدد الذي سوف تهلكينه.

وهكذا هرب ايزاناجي من الجحيم.. وقدر لسكان الأرض أن يموت منهم كل يوم ألف شخص، وأن يحل محلهم ألف وخمسمائة من المواليد.

وبينما كان كل ذلك يجري في أعماق الجحيم، كان سوزانو ـ رب العواصف ـ قد انتهز فرصة غياب والديه وراح يلعب دوراً آخر على الأرض.

والحق أن «سوزانو» كان ذا خلق عنيف ميال إلى الشر، وبرغم لحيته الطويلة البيضاء التي تبعث على الاحترام لا يدع وقتاً يمر إلا ويرسل فيه عويله الطويل ونحيبه الذي يثير التشاؤم في كل النفوس، ولا يعبأ خلال هذه بتحطيم كل ما يعترض سبيله بسيفه الطويل البتار.

وعندما عاد ايزاناجي ووجد ولده «سوزانو» ساردا في غيه، قرر أن ينفيه إلى أرض الجحيم.

ولم يكن سوزانو يستطيع الاعتراض. غير أنه أجاب أباه:

ـ أنا طوع أمرك يا أبتاه.. وسأهبط فوراً إلى العالم السفلي. ولكني أرجو قبل أن أذهب إلى عالم الظلمات أن يسمح لى بالصعود إلى السماء لأرى أختي العزيزة اماتيراسو قبل أن أختفي من هذا العالم إلى الأبد.

ووجد رب هذا العالم أن رغبة ولده ليس فيها ما يضر، فأذن له بالصعود إلى السماء..

وتحرك «سوزانو» في طريقه إلى السماء.. وفي صعوده عوت السماء والأرض والبحار والجبال بعواء رهيب مخيف..

وبلغت الأصوات الرهيبة إذن اماتراسو.. ربة الشمس.. ولما أطلت من عليائها فإذا أخوها الشرير يقترب من مملكتها ومن حوله رعود وبروق.

وارتعدت ربة الشمس وهي تحدث نفسها:

ـ لماذا يزحف أخي الشرير إلى مملكتي؟ لخير قدم أخي يا ترى أم لشر؟ ولكن أي خير يمكن أن يفكر فيه هذا الجحود؟ إنه ولا شك يهدف إلى أن ينحيني عن عرشي..

برغم أن أبوينا حددا لكل منا حدوده. . ليكن إذن ما يريد. . وسأعرف كيف أقاومه وأنزل به عقاباً صارماً لا ينساه مدى الحياة.

وأخذت اماتراسو أهبتها لمعركة عنيفة رهيبة. فجذبت شعرها الذهبي الطويل وجمعته في عقد كثيرة متألقة، وثبتت كل جواهرها ولآلئها في العقد الذهبية، ثم وضعت فوق ظهرها كنانتها وفيها ألف سهم، وأمسكت بإحدى يديها درعاً قوياً صلباً على حين أن اليد الأخرى تمسك بقوس عظيم رهيب. وانطلقت وهي في ذلك الاستعداد الضخم إلى حيث وقفت على ضفة نهر السماء وأزاحت طبقة من الثرى لتجعل لنفسها فيه خندقاً، وغاصت في الخندق حتى الركبتين. .

على أن كل ما فعلته كان عبثاً. فعندما وصل أخوها ووقف على الجانب الآخر من النهر لم يكن يبدو على وجهه شيء من نوايا الشر التي توقعتها. وتحدث إليها سوزانو في هدوء وراح يقول:

– ما هذا الذي أراه أيتها الأخت. . ولأي سبب تستقبلينني هذا الاستقبال العدائي على حين أني قادم إليك وكلي شوق لرؤيتك والاستماع إلى صوتك الحبيب

وأجابت اماتراسو:

– ولكن ما الذي جعلك تحضر إلى مملكتي بغير إذن مني؟

أجابها سوزانو:

– لقد قرر أبى نفيي إلى عالم الظلمات. ولم أطق الذهاب بدون أن أرى شقيقتى الكبرى الحبيبة. ولقد اجتزت على قدمي كل تلك السحب والغيوم من أجل أن أراها وصعدت كل هذا الارتفاع الشاهق بغير سلم استعين به. فكيف لا تملؤنى الدهشة عندما أجدك تستقبليننى هذا الاستقبال العدائى ؟

وتقبلت أماتراسو حديث أخيها بشيء من الشك، فما كانت قسوته أو خداعه ليخفيا عنها، وقررت أن تكرم وفادته على أن تكون على حذر حتى تتأكد من حسن نواياه.

والواقع أن الغطاء البراق الذي كان «سوزانو» يضعه على وجهه سرعان ما انكشف. وكانت اماتراسو قد زرعت بضعة حقول للأرز في السماء بعضها ضيق قصير وبعضها واسع طويل. وما كان أسعدها بهذه الحقول التي زرعتها بيديها. وعندما جاء وقت بذر

البذور في الربيع إذا بسوزانو يفاجئها يوما بتخريب كل القنوات التي صنعتها وإذا ثغرات الري قد سدت، وحواجز الحقول قد هدمت ودمرت تدميرا.

وثارت ربة الشمس، غير أنها كظمت غيظها وظلت تنتظر صابرة.

لكن الأخ الشرير الثقيل لم يكفه ما صنع، وإذا به يفاجئها ذات يوم على حين أنها جالسة في غرفة النسيج السماوية ترقب صناعة أردية الآلهة، فثقب سقف الغرفة وألقى عليها وعلى الغازلات جثة حصان مسلوخ يقطر من جراحه دم فاسد غزير.

وذعرت ربة الشمس، واضطربت حتى كادت تجرح نفسها بإبرة الغزل. وملأها غضب جبار، وتحول وجهها إلى لون أحمر فاقع كالدم. وأطبقت قبضتها من جديد تلوي كل خيوط شعرها الطويل، وأقسمت في صوت كالرعد إلا أن تترك عرشها احتجاجاً على الآلهة الذين يسمحون لمثل هذا الشقي الفظ بالبقاء في مملكتها.

وأسرعت ربة الشمس تتوارى خلف صخور السماء واندفعت إلى كهف ضيق فدخلته وأحكمت إغلاق بابه خلفها، وقبعت بداخله تبكي وتنتحب.

وغمر الظلام العالم، ولم يعد هناك ليل أو نهار، ولا نور أو ضياء.

وارتفعت صرخات سكان الأرض تستنجد بآلهة السماء. واجتمع الآلهة الذين يبلغ عددهم ثمانية ملايين إله على شاطئ نهر السماء. وراحوا يبحثون كيف يزيلون أسباب الهول الأعظم الذي حل على الأرض.

وكان لا بد للجميع أن يفكروا في وسيلة يمكن بها اقناع ربة الشمس بالعودة إلى عرشها العظيم. واستمرت المناقشات طويلة هادرة لم تستقر وتهدأ إلى حين خرج عليهم رب الحيلة بفكرة وجدها صالحة جديرة بالنجاح.

قال رب الحيلة وهو يعرض فكرته أن ربة الشمس أنثى، وكل النساء يمكن التأثير عليهن إذا شحذت غيرتهن وأثير فضولهن وأغرين بالزينة واللآلئ والجواهر البراقة. . وكل ذلك يمكن أن تقدمه لربة الشمس إذا أتيتموني بمرآة لماعة أضعها في مواجهة باب الكهف وزودتموني بعقود علوية من الجواهر واللآلئ.

وجمع بعض الآلهة نجوماً من السماء ضُمَّت إلى بعضها البعض لتؤلف مرآة لماعة رائعة. وانطلق آلهة آخرون يجمعون طيوراً صدّاحة من كل جوانب العالم الخالية، على

حين راح آخرون يبتدعون آلات موسيقية جديدة ترسل أنغاماً لا تصدر إلا من السماء.

وعندما تم إعداد كل شيء إنطلق الآلهة مجتمعين إلى الكهف الذي تختفي بداخله ربة الشمس، وتجمعوا أمامه في حفل صاخب عربيد. على حين كان رب الحيلة يغطي فروع شجرة السكاكي التي تواجه الكهف بعقود من أثمن المجوهرات وعناقيد من أروع اللآلئ. وفي وسط الشجرة فيما يواجه باب الكهف أقام رب الحيلة المرآة السماوية اللماعة.

ومن كل جانب انطلقت ألحان شجية صدحت بها طيور الخلود، وعلى أنغامها راحت ربة الرقص أوزوم في ردائها القدسي ترقص رقصاً هازلاً عربيداً انفجر له الآلهة جميعا ودوت ضحكاتهم صاخبة تهز أركان الكون.

ومن وراء باب الكهف كانت ربة الشمس تنصت إلى الصخب والضجيج في استغراب وعجب كبيرين. وعندما ازداد فضولها وثارت بها الرغبة في كشف سر ذلك السرور الذي يملأ المكان فتحت الباب قليلاً في هدوء.. وفي هذه اللحظة أشرق النور مرة أخرى على العالم الذي كانت الظلمة تغمره. وامتدت خيوط الذهب في الشعاعات المتألقة تفيض بالضياء الذي يبعث الحياة.

وشهدت ربة الشمس المجتمع الإلهي الذي كان يصخب بسرور وانطلاق. وراحت تتساءل عن سره.. فأجابتها ربة الرقص أوزوم:

ـ تسألينا عن سر صخبنا وفرحنا؟. إذن فاعلمي أننا قد وجدنا ربة أخرى تفوقك جمالاً وروعة.

وفتحت ربة الشمس عينيها في استغراب وقلق.

وبدأت تدور بعينيها في الجمع الحاشد علها تستطيع أن ترى منافستها. ومن أجل أن ترى المجموعة كلها كان لا بدَّ تفتح الباب كله وتطل أمامها. وعندئذ عكست المرآة اللماعة الصورة الرائعة لربة الشمس، تتألق حسناً وروعة وبهاء.

وملأ القلق الربة وهي ترى أمامها هذه الحسناء الرائعة التي تواجهها. وبدأت تغادر الكهف لتزداد قرباً من الربة الجديدة.. وهي لا تدري أنها إنما كانت تقترب من المرآة.

ومد أحد الأرباب ربة الشمس الخدعة. لم تغضب ولم تصمم على العودة. بل أبدت موافقتها على الصعود إلى عرشها بشرط أن يعاقب الآلهة رب العواصف.

وفي لحظة. كان الملايين الثمانية من آلهة السماء يهجمون على «سوزانو» ويلقون به على الأرض ويحلقون لحيته وينتزعون أظفار يديه وقدميه ثم يحملونه جميعاً ليلقوا به من السماء إلى الأرض.

ومنذ ذلك اليوم لم تغب ربة الشمس عن عرشها قط.

وعادت الحياة إلى الأرض وانقطعت عن الآلهة صرخات الاستنجاد التي كانت تنبعث من أهلها.

ومع ذلك فقد عاد الآلهة يجتمعون من جديد. ولم يكن سكان الأرض هذه المرة هم السبب. ولكن الضيق الذي أخذ الآلهة كان مبعثه ذلك الطنين المزعج المنبعث من كل ما على الأرض من جبال وصخور وسهول وأشجار. فقد كانت كل هذه الأشياء لا تزال تتكلم تماما كأبناء البشر. وكان الطنين الذي يحدثه كلامها وخاصة في سكون الليل، يؤرق آلهة السماء. فاجتمع شملهم للبحث عن وسيلة يقضون بها على هذا الضجيج. وينشدون الهدوء والسلام على الأرض.

وعندما ارتفعت أصوات الآلهة خلال مناقشاتهم، تقدمت ربة الشمس تعرض أن ترسل حفيدها نينيجي ليحكم هذا العالم المضطرب ويعيد إليه المجد والسلام. على أن يرسل الآلهة قبل ذلك رسولا يمهد له الطريق. وأعجب الآلهة بفكرة إرسال واحد من أبناء السماء ليكون سيدا على الأرض. واتفقت كلمة الجميع على أن يهبط إلى السماء ليكون سيدا على الأرض. كما اتفقوا على أن يهبط إلى الأرض الرسول امانوهو، ليمهد الطريق لأبناء السماء، لحفيد ربة الشمس.

ومضت سنوات ثلاث ولم يعد امانوهو. وأرسل الآلهة من بعده ولده يبحث عنه ويعيده. ولكن الابن أعجبته الحياة على الأرض فلم يصعد إلى السماء قط. وتتابع الرسل إلى الأرض وتتابعت خياناتهم للسماء. فلم يكن بدٌّ بعد ذلك، من أن يهبط حفيد ربة الشمس وابن السماء. نينيجي بنفسه ليضع حداً لكل تلك الخيانات.

وقربت اماتراسو حفيدها منها، ومنحته بركاتها ونصائحها، وزودته بهدايا قيمة ثمينة من بينها أحجار كريمة اقتطعت من سلم السماء، وكرات شفافات من قبتها، وسيف خالد وجد في قلب التنين. ولم تكتف ربة الشمس بهذه الهدايا، بل منحته أيضاً المرآة السماوية التي أهداها لها الآلهة من قبل يوم غضبتها الخالدة.

وودع نينيجي جدته، وأخذ طريقه إلى الأرض، يحيط به موكب من الآلهة، بينه
ربة الرقص أوزوم، تلك التي أثارت رقصاتها العربيدة ضحكات الثمانية ملايين إله.

وراح موكب الآلهة يخترق السحب حتى بلغوا مفرق الطرق الخالد حيث يتفر الطريق الرئيسي إلى ثمانية فروع. وهناك توقف الجميع فجأة، وبدأوا يتراجعون إل الخلف في ذعر.

عند المفرق الخالد كان يقف وحش هائل تبرق عيناه بلهب صاخب فحيح مخيف.

بدأت أقدام الآلهة وبينهم نينيجي تضطرب وتتراجع، عدا أوزوم التي وقفت في جرأة وتقدمت من الوحش تسأله عمن يكون وماذا يريد وكيف يجرؤ على اعتراض الموكب الإلهي. وأجاب الوحش:

ـ أنا رب حقول الأرض. وقد قدمت لأكون في استقبال ابن السماء «نينيجي» سيد الأرض كلها. ولأكون مرشده الأمين. عودي إلى سيدك، أي أوزوم، وارفعي إليه رسالتي.

وأبلغت أوزوم رسالة رب الحقول إلى ابن السماء. وعاد الموكب يستأنف طريقه عبر السحب حتى بلغ جسر السماء الذي تم عبوره وبلغ الموكب بعده أرض تكاشيهي.

ويبدأ رب الحقول يرشد ابن السماء في رحلة طويلة مرهقة حول الأرض التي كان عليه أن يحكمها ويهديها إلى السلام. وفي إحدى المناطق القدسية استقر رأيه على إقامة قصره.

ووجد ابن السماء أنَّ من واجبه أن يقدم شكره لمرشده الأمين. فمنحه زوجة رائعة. إلهية.. هي أوزوم ربة الرقص نفسها. وعندما شهد فرحة العروسين. أحس هو الآخر برغبة قوية في أن يفرح كما فرحا. وراح ينظر حوله باحثاً لنفسه عن عروس حتى شاهد حسناء رائعة الجمال تنتصب قائمة إلى جوار حدائق الزهور.

وتقدم ابن السماء إلى الحسناء يسألها من تكون. وأجابت الحسناء:

ـ أنا كونوهانا.. ابنة ملك الجبل المقدس.. ومهمتي أن أصنع الزهور التي تغطي الأشجار على هذه الأرض.

وسرعان ما وقع «نينيجي» في هوى كونوهانا، فانطلق إلى أبيها.. «أوهوياما» وطلب منه يد ابنته.

وكان لملك الجبل المقدس ابنة اسمها ايهاناجا، طويلة كعمود من الصخر، تكبر كونوهانا، ولكنها كانت بالغة الدمامة والقبح. ومع ذلك فقد أراد أوهوياما أن يكون لأبناء «نينيجي» أعمار طويلة خالدة كعمر الصخور. ومن أجل هذه الرغبة أبى إلا أن يقدم ابنتيه معاً زوجتين لابن السماء.

ولم يجد «نينيجى» بدا من الزواج بالأختين. غير أن كل حبه كان يتجه إلى الزوجة الحسناء. بينما بدا منه إهمال كبير لشقيقتها المشوهة.

وملأ الغضب قلب ايهاناجا.. ووجدت نفسها تصرخ ذات يوم في نينيجي:

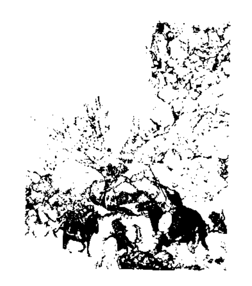
ـ لو أنك اخترتني وأحببتني.. لجعلت عمر أبنائك خالداً مثل عمر الصخور. أما وقد فضلت على أختي الصغرى. فإنكما وأبناءكما ستذوون سريعاً كما تذوي الزهور.

وقد كان..

وعاش «نينيجي» ابن السماء سعيداً مع زوجته الحبيبة كونوهانا. غير أن هذه السعادة لم تدم طويلاً، فقد أعمت الغيرة قلب نينيجي ذات يوم.. وملأت رأسه بالجنون. ولم يكن هناك من سبب لهذه الغيرة المجنونة التي شقيت بها كونوهانا. فما كان هناك من يغار منه زوجها. فانطلقت إلى كوخ أغلقته على نفسها. ثم أشعلت فيه النار..

ومن بين ألسنة اللهب خرج ثلاثة أطفال، من بينهم كان «هورى». الذي نسلت منه سلسلة متصلة مقدسة الحلقات من «الميكادو». هم الذين جلسوا على عرش اليابان منذ ذلك التاريخ حتى اليوم.

الأساطير الصينية



المقص المسحور والسمكة الناطقة

في مكان بعيد جداً عن العالم لا يخطر على البال في قطعة من الأرض تقع بين جبال عالية وبحيرة شديدة الزرقة، كان يعيش صبي صيني اسمه ليونتشو، كان الولد يعيش مع أمه وأبيه في كوخ صغير صنع من الغاب. وكان سعيداً في حياته يقضي يومه بين اللعب في الرمال والجلوس في الشمس يراقب الطيور والأزهار أو يهتم باستذكار الدروس التي كان يتعلمها على أبيه من آن لآخر.

فإذا أحس الجوع قدمت إليه أمه سلطانية مملوءة بالأرز فأكلها بشهية وسرور دون أن يهمه أن يراه أحد وهو يأكل بيديه. وفي أحد الأيام قالت له أمه:

اسمع يا ليونتشو ليس لدينا اليوم أرُزٌ ليكفينا، فاذهب إلى البحر واحضر لنا بعض السمك لنأكله عند الغذاء.

وكان ليونتشو ولداً طيباً يطيع أمه، فدخل الكوخ وأخذ شبكة الصيد ثم ذهب إلى البحر. وكان اليوم حاراً والبحيرة بعيدة عن الكوخ. ولكن ليونتشو لم يهتم لأنه تعود الجلوس تحت أشعة الشمس وسار يصفر في الطريق حتى وصل إلى البحيرة ورمى بالصنّارة في الماء ثم جذبها، فإذا بها تحمل سمكة جميلة ذات ألوان حمراء وزرقاء ولكن السمكة الحمراء الزرقاء قالت له: يا صديقي أرجوك أن تدعني أعود إلى الماء وأنا أعطيك مقصاً سحرياً كلما قصصت به شيئاً أصبح حقيقة، فرقَّ الولد لرجائها وتركها تعود إلى الماء، وإذا به يجد نفسه يمسك بمقص جميل بدلاً السمكة.

وسرَّ ليونتشو كثيراً ونظر حوله فوجد قطعة من الورق الذهبي فقص منها جزءاً، ولم يكد يفرغ من صنعه حتى وجده يكبر ويكبر. وكم كانت دهشته عندما رآه يتحول فعلاً إلى قصر حقيقي مصنوع من الذهب، ولكن القصر كان خالياً مما يبعث على الرد، فيجب أن يحاط بحديقة. وهنا أمسك بالمقص وقطع الورق وجعل يقص شجرة بعد أخرى. وزهرة

بعد أخرى وكلما فرغ من واحدة وجدها تتحول إلى شيء حقيقي، وقص ليونتشو طيوراً صغيرة لم تلبث أن دبت فيها الحياة وجعلت تملأ الجو بموسيقاها الجميلة وغنائها اللطيف.

وأخيراً جرى ليونتشو إلى الكوخ ليحضر أبويه ولكنه وجد ملابسهما قديمة بالية فقرر أن يقص لهما ملابس جديدة أولاً، وفي الحال صنع لأبويه ملابس فخمة من الأطلس والحرير لبساها ثم قادهما إلى ما قصه، فامتلأ قلباهما بالدهشة والعجب. ثم قادهما إلى الداخل ليريهما ما فيه، ولما عاد إلى الحديقة وجده سفيراً بالوحشة فأخذ يصنع أطفالاً صغار يؤنسون وحدته ويلعبون معه بعرائس من الورق ولكنها كانت تتحول شيئاً فشيئاً إلى أولاد وبنات راحوا يرقصون ويغنون.

وظل ليونتشو يصنع كل شيء يدخل على نفسه السرور وأصبح القصر منزله الجديد وكانت غرف القصر كثيرة واسعة فيها أثاث ضخم ليس في أي قصر آخر في العالم.

وكان يملك لعباً كثيرة وكتباً جميلة، ولكنه مع ذلك كلما زادت ممتلكاته أحس أنه أقل سعادة من قبل لأن كل الأشياء التي كانت تجلب له السعادة من قبل كان يفقدها الواحدة بعد الأخرى، فإذا أراد أن يأكل بيديه كما كان يفعل أولاً، كان أبوه ينهره قائلاً: كل بالمعلقة ولا تأكل بيديك أيها الولد العنيد.

وإذا لعب في الرمال أنّبته أمه بقولها، يا عزيزي ليونتشو فكّر في ملابسك الجميلة يجب أن تحافظ عليها.

وأكثر ما كان يضايقه أنه لم يعد لديه وقت للقص بل يقضي وقته ويومه في الصباح حتى المساء في مذاكرة دروسه، وقد احضر أبوه المدرسين ليعلموه الحساب والجغرافيا والتاريخ وكثيراً من المواد الأخرى الكثيرة المتعبة. وكان ليونتشو يشعر أنه لن يتذكر شيئاً مما يتعلمه أو يسند له بينما تصل إليه أصوات الأولاد والبنات وهم يلعبون ويضحكون فيتحسر ويفكر في الأيام السابقة، عندما كان يجلس في الشمس يلعب كما يلعبون ويضحك كما يضحكون، ويراقب الطيور والزهور، وهكذا شعر ليونتشو بأن سعادته تقل شيئاً فشيئاً كلما مرّت به الأيام.

وفي إحدى الليالي لم يستطع النوم وظل يتقلب على جنبيه، وأخيراً قفز من على السرير وخرج من حجرة النوم على أطراف أصابعه ومر بغرف القصر والكل نيام. ثم نزل إلى الحديقة الساكنة ومنها إلى الباب.

وكان القمر يلمع في السماء يجعل للدنيا منظراً ساحراً، وأحس ليونتشو ببرودة الليل ولكنه تشجع واستمر في سيره حتى وصل إلى البحيرة وهناك ظل يبحث عن صديقته السمكة صائحاً: أيتها السمكة الحمراء الزرقاء الفضية ثم ناداها وهو يبكي: أنا ليونتشو جنت أخبرك أني لم أعد أحس بالسعادة، وأسألك هل في استطاعتك أن تساعديني. وأطلت السمكة من الماء وقالت: يا صديقي الصغير لقد صرت على درجة كبيرة من الثراء والحياة، إن الثروة حقا لا تجلب السعادة دائماً. خذ مقصك وعند شروق الشمس صفر ثلاث مرات ثم ألقي به في البحيرة فسوف تجد أنك لم تعد غنياً وربما رجعت إليك سعادتك.

ثم سكتت السمكة وجلس ليونتشو عند شاطئ البحيرة ينتظر شروق الشمس. فلما بدا الفجر يقترب تدريجياً من وراء الجبل وأخذ العالم يمتلئ بالنور والحرارة أمسك ليونتشو بالمقص وألقى به في الماء، بعد أن صفر ثلاث مرّات.

ثم عاد إلى بيته يبتسم قلبه بالأمل وعند عودته ظهر له كوخه المصنوع من الغاب في مكانه الأول، ووجد أمه في ملابسها القديمة تنتظره وفي يديها سلطانية الأرز وعلى وجهها ابتسامه الرضى. ولما جلس ليونتشو على الرمل الأصفر الدافئ ليأكل أرزه أحس مرة أخرى أنه أسعد ولد في العالم.

السوط (الكرباج) السحري

كانت حياة البشر في قديم الزمان صعبة وقاسية. كانوا يتسلقون الجبال، ويمخرون عُباب المياه، غير عابئين بالشمس اللاهبة في الصيف ولا بزمهرير الشتاء. ويقومون باصطياد الطيور والحيوانات ،ويجمعون الثمار البرية، مخاطرين بأرواحهم من أجل سد الرمق وتهدئة الجوع. لم يكن البشر حينذاك يعرفون الآلام الناجمة عن الأمراض، ذلك أنهم لم يكونوا يصابون بالأمراض إطلاقاً.

فلماذا إذاً أخذ البشر يعانون أشد المعاناة من عذاب المحن الناجمة عن الأمراض والأوبئة في وقت لاحق؟. ثمة أسباب كثيرة تلخصها الحكاية التالية:

في الغرب البعيد جبل كونلون، قامت عليه بلدة «شيتو» تحكمها إلهة تدعى «شي وانغ مو» وتسكن في مركز البلدة، الواقع على جبل البشم الشاهق الذرى. وكان في جبل اليشم ينبوع، يتدفق منه ماء عذب، وتتكوّن منه بحيرة «ياوتشي» التي ذاع صيتها في الآفاق. أما المناخ هناك فربيعي معتدل طوال العام، والمناظر طبيعية خلابة فاتنة. وقد نمت في الجبل وقرب البحيرة أزهار وأعشاب عجيبة في أشكالها، متنوعة في ألوانها. وعاشت هناك طيور وحيوانات نفيسة مختلفة. وقيل إن الدواء الخاص بإطالة عمر الإنسان قد جاء من هذا المكان. وهذا «الدواء الخاص بإطالة العمر» ما هو إلا ثمرة لشجرة الخوخ التي نمت من مسحوق اليشم المأخوذ من جبل اليشم، والممزوج بماء بحيرة ياوتشي. والجدير بالذكر أن أشجار الخوخ هذه تزهر وتثمر مرة كل ثلاثة آلاف سنة. وإذا ما تناول الإنسان خوخة واحدة من هذا النوع طال عمره. والمعروف أن الإله الكبير هويى كان قد طلب مثل هذا الدواء السحري من شي وانغ مو، حاكمة بلدة شيتو، واجتاز في سبيل ذلك طريقاً شاقة وعرة.

كان على قمة جبل اليشم المتلألئ قصر فخم عاشت فيه الحاكمة شي وانغ مو،

حيث تحضر لها طعامها يومياً ثلاثة طيور كبيرة، كل منها ذو رأس أحمر وعينين سوداوين وريش أخضر. وكان أحدهما يدعى دالي، والآخر شاو لي، والثالث تشينغ نياو. فالطائر دالي يحضر كل يوم الفواكه اللذيذة لتتناولها الحاكمة شي وانغ مو، والطائر شاو لي يحضر بكوب يشمى ماءً من بحيرة ياوتشى لتشربه، أما الطائر تشينغ نياو فكان ينقل لها الرسائل. وإضافة إلى ذلك كان ثمة طائر عجيب حاد البصر حديدي المخالب، له ثلاث أرجل، يحوم ليل نهار حول مسكن الحاكمة ويقوم بالحراسة عند بوابة المسكن.

كلف الإمبراطور السماوي الحاكمة شي وانغ مو بأن تعتني بالدواء السحري وحراسة ثلاثة كهوف كبيرة في جبل كونلون. فقد احتجزت في هذه الكهوف الثلاثة المغلقة أنواع مختلفة من الحشرات السامة والحيوانات الوبائية التي تنقل الأوبئة إلى البشر وتلحق بهم الأذى إذا اقتربت منهم. وقد اقفل كل من الكهوف الثلاثة بقفل حجري كبير، وسُدَّت الفتحات الضيقة بين أبواب الكهوف وإطاراتها وعيون الإقفال بالطحلب الكثيف والصدأ الحجري الأصفر. وظلت هذه الأبواب موصدة آلاف السنين.

وفجأة وقعت الحادثة.

ذات يوم مر الطائر المسؤول عن الحراسة بباب أحد الكهوف، فسمع أصواتاً حزينة تطلقها الحشرات السامة والحيوانات الوبائية داخل الكهف. استغرب ذلك، ونظر إلى الداخل عبر فتحة ضيقة بين باب الكهف وإطاره. وحين أحست هذه الحشرات والحيوانات الضارة به عند باب الكهف، طلبت منه أن يفتح القفل الحجرى، ويطلق سراحها.

فأجاب الطائر:

ـ لا، فسوف تؤذين البشر إذا خرجتن من الكهف. إن الإمبراطور السماوي هو الذي أصدر أمراً بحبسكن. ومفتاح القفل عند الحاكمة شي وانغ مو، فلست قادراً على فتح القفل.

قالت الحشرات والحيوانات:

ـ إذن افتح الباب قليلاً لنتنفس فنحن في ضيق شديد. إنك معروف بفعل الخير.

رد الطائر قائلاً:

ـ كلا! لسوف تغتنمن هذه الفرصة وتهربن.

فقلن بصوت حزين:

ـ لا يمكن ذلك. كن مطمئناً، لن نخدعك أبداً، لا نبغي إلا التنفس.

ولكن هذا الطائر صدّق قولهن، فطار إلى غرفة نوم الحاكمة شي وانغ مو للحصول على المفتاح.

وألفى الحاكمة شي وانغ مو نائمة، فدخل خلسة، وفتح علبة حجرية كبيرة، ثم أخرج منها مفتاحاً حجرياً كبيراً يزن عشرات الكيلوغرامات. وعاد إلى باب الكهف الأول، وحاول فتح قفله. ولم يكد يفتح الباب قليلاً حتى تدفقت إلى خارج الكهف جموع من الحشرات والحيوانات الضارة. وحاول إغلاق باب الكهف، ولكن الأوان قد فات. فقد اندفعت تلك الحشرات والحيوانات بسرعة، وفرت هاربة في كل اتجاه، ولم يبق في الكهف ولو حشرة واحدة أو حيوان واحد.

صدمت الحاكمة شي وانغ مو صدمة كبيرة حين علمت بالأمر، وغضبت أشد الغضب. وسرعان ما سجنت ذلك الطائر، وأرسلت اثني عشر مسؤولاً، من بينهم تشيونغ تشي وتنغ قن اللذَيْن يجيدان الطيران، لمطاردة تلك الحشرات والحيوانات، ولكن الوقت لم يسعفهما، فقد سبقتهما الحشرات والحيوانات إلى الانتشار بين صفوف البشر واختفت تماماً.

ومنذ ذلك الوقت نشأت الأوبئة، وبدأت تتفشى بين الناس تفشياً واسعاً. ومن حسن الحظ أنه لم يفتح إلا باب كهف واحد من الكهوف الثلاثة، ولو فتح أكثر من باب لما استطاع البشر إحصاء الأمراض التي يصابون بها.

إن الأوبئة تضر بصحة الناس وتهدد حياتهم. إنها لمأساة كبيرة للبشرية.

في ذلك الوقت كان شن نونغ شي، معروفاً بذكائه واجتهاده وعمله من أجل مصلحة الجماهير. وقيل إنه ابتكر فن الزراعة. فالناس في العصور القديمة كانوا يعتمدون على الصيد لتحصيل لقمة العيش. وعند تزايد أعداد السكان فيما بعد، قلت أعداد الحيوانات. فاضطر الناس إلى ملء بطونهم بالأعشاب والحبوب البرية. ولكن طريقة عيشهم هذه لم تكن مضمونة أيضاً، مما دفع شن نونغ شي إلى تجربة حراثة الأرض وزراعة المحاصيل، فحقق النجاح في ذلك، إذ شهدت المحاصيل نمواً جيداً، وتم إحراز حصاد وافر، وحفظت الغلال في الأهواء. وبهذه الطريقة تم التوصل إلى ضمان سد حاجات الناس طوال السنة. لذلك خصه الناس باحترام فائق.

قلق شن نونغ شي لرؤية الناس يعانون من آلام الأمراض التي أصيبوا بها. فما العمل؟ يا له من عمل جميل لو اكتشف بعض الأعشاب الخاصة وابتكر منها دواءً يخفف به من آلام المرضى. ولكن في الأرض مئات الآلاف من الأعشاب والأشجار. فأي نوع منها يصلح لأن يتخذ دواء لمعالجة المرض ؟ لا أحد يدري. فشحذ شن نونغ شي عزمه على تذوق مئات الأعشاب وابتكار الأدوية لإنقاذ البشر.

بدأ يتجول في الجبال والحقول طوال السنة يجمع عينات من الأعشاب والأشجار. ثم راح يتأملها، ويتذوق طعمها مختبراً طبيعتها الطبية، فوجدها متنوعة المذاق ما بين حامضة وحلوة ومرة ولاذعة ومالحة، وبعضها يزيد من حرارة جسم الإنسان وبعضها يخففها، وبعضها ينعش، وبعضها يخفف الورم ويسكن الألم. ولكن بعض هذه الأعشاب والأشجار كان يحمل سموماً حادة. إذا تذوقها الناس تسمموا فوراً، وغابوا عن الوعي. وكاد شن نونغ شي أن يصاب بالتسمم سبعين مرة في اليوم خلال تذوقه الأعشاب، ولكنه استطاع أن يستيقظ من الإغماء في كل مرة. والسبب في ذلك يرجع إلى أنه كان يتذوق قدرا ضئيلاً من الأعشاب. لذلك تأثر الناس تأثراً شديداً بروح الأيثار التي اتصف بها.

كما تأثر الإمبراطور السماوي أيضاً حين علم بهذا الأمر. فأرسل رسولاً ينقل «سوطاً سحرياً» إلى شن نونغ شي. وقد أطلق على هذا السوط السحري لقب «سوط الحمرة» لأن لون السوط أحمر. وقد عاد عليه هذا السوط بفوائد سحرية حيث أمكنه الوقوف على الفوائد الطبية الخاصة بالأعشاب عن طريق تمييز لون السوط المتغير بفعل ضرب الأعشاب به. فمثلاً إذا ضرب بهذا السوط عشباً، واظهر السوط لوناً أحمر، فهذا يعني أن العشب يمتاز بالحدة. وإذا ضرب به عشبا، وأظهر السوط لونا أبيض، دل ذلك على أن هذا العشب ذو طبيعة باردة. وإذا ضرب به عشبا ولم يتغير لونه الأحمر، فمعنى ذلك أن هذا العشب ليس مفيداً، ولا يعالج الأمراض، وإذا تغير لون السوط فجأة إلى لون أسود، تبين أنّ هذا هو النوع من العشب المطلوب.

ملك الرياح

كان حوض النهر الأصفر في قديم الزمان فائق الجمال، ومهداً لأمتنا الصينية.

ومياه النهر الأصفر المتعرج المتموج وروافده التي لا تعد ولا تحصى تروي الأراضي على جانبيه، حيث السهول مترامية الأطراف، خصبة صالحة للزراعة، والأحراش البدائية الكثيفة لا تغيب عن البصر. والجداول تنتشر حولها المراعي. وكان المناخ في ذلك المكان أكثر دفئاً بالقياس إلى أيامنا هذه. كما كثرت هناك الحيوانات وتنوعت، وما نزال نراها حتى الوقت الحاضر. وعلاوة على ذلك أخذت الأفيال تظهر في الغابات من حين إلى آخر.

لقد زاول الصينيون القدامى رعاية المواشي وزراعة الحبوب، وتحلوا بالنشاط والشجاعة، وعاشوا عيشة هانئة سادها الاستقرار.

وظهر زعيم يدعى «هوانغ دى»، تولى الإشراف على شؤون الناس في هذه الأرض. ويعتبر هوانغ دى أول سلف للأمة الصينية.

كما كان يعتبر في الواقع كائناً سماوياً، يتسم بالذكاء والفطنة والشجاعة.

وباعتبار هوانغ دى كائناً سماوياً فقد أقام في السماء، له قصر سماوي على الأرض، يقع في جبل كونلون غربا. وهذا القصر مهيب فخم، تحيط به حديقة جميلة، هي «الحديقة المعلقة». وكان هوانغ دى يتناول الأرز الذي ينمو من شجرة خاصة. ويشرب الماء العذب السلسبيل من بحيرة ياوتشي.

أما ملامحه فكانت عجيبة إذ له أربعة وجوه. وهذا معناه أنه يستطيع أن يرى في الجهات الأربع في آن واحد، الشرق والغرب والشمال والجنوب. وعلى هذا النحو

استطاع أن يراقب الجهات الأربع مراقبة دائمة، مما جعله يدير شؤون الدنيا بسهولة ويسر.

كان هوانغ دى يقيم في الأوقات العادية في السماء أو في قصره الغربي، وينزل أحياناً إلى الدنيا يقدم لأبناء شعبه المساعدة حين يشتد شوقه إليهم.

في ذلك الحين لم يكن الناس قد اخترعوا السفن ولا العربات، لذلك عجزوا عن عبور الأنهار والبحيرات التي تعترض سبيلهم، وعاشوا في عزلة على ضفاف الأنهار. وكانت أقدامهم هي وسيلتهم الوحيدة في التنقل، فلم يتمكنوا من الارتحال بعيداً. فما كان من هونغ دى إلا أن بدأ يعلمهم كيف يقطعون الأشجار، ثم يجوفونها ليجعلوا منها قوارب، وكيف يصنعون هياكل العربات بالأخشاب المستقيمة، وعجلاتها بالأخشاب الملتوية. وبفضله نجحوا في صنع عربة ذات عجلتين، مما يسر عليهم المواصلات.

وكانت معرفة الناس مقتصرة على ما يلمسونه من تغير الجو من بارد إلى حار ومن حار إلى بارد، وهكذا دواليك، كما هم على علم أن الإنسان ينمو ويشب ويشيخ، وتنبت له لحية ويبيض شعره. أما طريقة حساب السنينَ فلا يعرفون عنها شيئاً. لذلك لم يعرفوا على وجه اليقين كم من الأزمان مضت عليهم، أو كم أصبحت أعمارهم. غير أن هوانغ دى توصل إلى طريقة خاصة لحساب السنين فسمَّى الناس السيقان السماوية والأغصان الأرضية باسمها المختصر وهو «قانتشى». للسيقان عشرة رموز تشبه ألفاظها حروف ا، ب، ج، د، هـ، و، ز، ح، ط، ى، وللأغصان إثنا عشر رمزاً ألفاظها شبيهة بحروف ك، ل، م، ن، س، ع، ف، ص، ق، ر، ش، ت. وهذه الرموز تستعمل في ترتيب الأعوام والشهور والأيام. ولحساب ذلك يجمع رمز من السيقان ورمز من الأغصان لتكوين رمز ثنائي يمثل سنة معينة. ومن جمع هاتيك الرموز يكون هناك ستون من الثنائيات، تمثل ستين سنة. وهكذا أصبح لدى الناس «تقويم» أولي استفادوا منه كثيراً في الحياة والإنتاج.

إلى جانب ذلك طلب هوانغ دى من أحد مساعديه، واسمه تسانغ جيه، إن يصوغ بعض الكلمات. كما طلب من آخر، ويدعى لينغ لون، أن يضع أنظمة موسيقية. وتعاون هو نفسه مع تشى بوه يوضع كتاب عن الطب بعنوان «هوانغ دي ني جينغ» (كتاب الإمبراطور الأصفر للطب الداخلي). واكتشف علاوة على ذلك فن بناء المساكن وصناعة

القدور، وعلم الناس كيف يستعملونها. كان هوانغ دي يمتلك الحكمة، ويفعل الخير، ويحب مساعدة الناس.

ولقد تعرض هوانغ دى للخير والشر، تماماً كما يتعرض لهما الناس في حياتهم. وفي إحدى السنين ظهر فجأة في الجنوب شيطان يدعى تشى يو، سبق له أن كان «ملكاً» يحكم الجنوب. وكانت ملامحه مريعة ومخيفة. فنصف جسده شبيه بجسد الإنسان، ونصفه الآخر شبيه بجسد الحيوان. وله رأس إنسان بأربع عيون وستة أذرع. وقدمه شبيهة بظلف البقرة. وكان يعمد إلى قتل الناس واغتصاب ثرواتهم والانغماس في ارتكاب مختلف أنواع الجرائم. وإلى جانب ذلك كان واحد وثمانون أخا وجماعة من الخدم من أنصاره. فباشر هؤلاء الأشرار بارتكاب أعمال وحشية في غاية القسوة. وفي البداية قاد تشى يو شركاءه وأتباعه في انتزاع الأراضي في الجنوب، كما باشروا السيطرة على الناس هناك واضطهادهم. ثم اشتدت مطامعهم فغزوا الشمال، ومارسوا الفتك والدمار أينما حلوا. فقتلوا الرجال والنساء والشيوخ والأطفال، وانتزعوا منهم المواشي، وحرقوا بيوتهم ومزروعاتهم. فما أكثر الناس الذين هلكوا وما أشد سوء الوضع الذي أصبحوا عليه.

لم يحتمل هوانغ دى هذا الأمر، وقرر مقاومة تشى يو، لذلك شب بينهما قتال عنيف.

وذات يوم قاد الشيطان تشى يو أتباعه الذين ارتكبوا أبشع الجرائم، وتسللوا إلى الضفة الشمالية للنهر الأصفر، واستولوا على ساحة تشوهلو. فهرول هوانغ دى مع أتباعه لصد هجماتهم. كان لدى هوانغ دى عدد كبير من القوات الجيدة والقادة الشجعان، من بينهم تشاو ينغ الملاك الذي يشرف على حراسة حديقة هوانغ دى. وكان تشاو ينغ بوجه إنسان وجسد فرس. وقد خطط جسده فبدأ كجسد النمر، وبوسعه أن يحلق بجناحيه الكبيرين مثل الطائر ليظهر بسالته. وكان بين صفوفهم أيضاً لى تشو الذي يقوم بحراسة شجرة لانغقان ـ شجرة نفيسة تثمر ثمارا تشبه الأحجار الكريمة، وهو بجسد واحد وثلاثة رؤوس، ويستطيع أن يرى ببصره الحاد كل شيء، كما يستطيع أن ينام بكل من رؤوسه الثلاثة بالتناوب. وعلى هذا النحو تمكن من مواصلة الحراسة ليل نهار. فما جرؤ شخص على الاقتراب من تلك الشجرة النفيسة التي عهد إليه بحراستها.

وكان مع هوانغ دى أيضاً قادة مشاهير مثل تشى قو وشيانغ وانغ وشن تو ويو لى،

بالإضافة إلى مياو لونغ ابن هوانغ دى وشو جون حفيده، ولكل منهما براعة خاصة. أرسل هوانغ دى قطيعا كبيرا من الدببة والأسود والنمور خصيصاً لخوض القتال بغية مواجهة تشى يو والعدد الهائل من أتباعه.

ولكن قوة الشيطان تشى يو لا يستهان بها أيضا. فتعارك الفريقان، واشتد القتال وأخذت كتل الدخان والغبار تندفع في سماء ساحة تشوهلو حيث دوّى الصياح والزئير. فالنمور تنقض والأسود تثب. وقد أدى هذا القتال إلى اهتزاز الأرض والجبال والشمس وسقوط النجوم. وقامت قوات هوانغ دى بحملات شرسة، وأخذت تتقدّم بثبات، بينما واصلت جماعة تشى يو تقهقرها وبدا عجزها واضحاً عن القتال. فانبرى تشى يو يرفع رأسه من الحصار الخانق، ويفتح فمه، ويلفظ كتلا من الضباب. فأصبحت السماء بعد برهة قصيرة مفعمة بالضباب الكثيف الذي خيم على الأرض، واشتد الظلام في السماء. وهنا فقدت قوات هوانغ دى الاتصالات بعضها ببعض، وضلت اتجاهها.

عندما رأى هوانغ دى ذلك، أسرع في استدعاء ملك الرياح. وعند وصوله، فتح كيساً كبيراً، انطلقت منه رياح شديدة. ولكن لتشى يو براعته الخاصة، ذلك أن الضباب الذي لفظه كان كثيفا كثافة لا توصف، فتعذر على الرياح الشديدة التي أثارها ملك الرياح تبديد الضباب. وظلت قوات هوانغ دى محاصرة في ظل الضباب، فلم تستطع أن تميز الاتجاه، مما أحدث الفوضى والاضطراب، وأصبح الوضع متوتراً لا يطاق.

ومن حسن الحظ أن تذكر هوانغ دى الذكي من خلال مزاولته المراقبة الفلكية في الماضي أن النجم الساطع ثابت في جهة محددة. فابتكر على الفور عربة مجهزة بتمثال خشبي موجه دائماً نحو الجهة الجنوبية. وهذه العربة بدولابين، يقف عليها «ملك» يمد ذراعه إلى الأمام، فذراعه متجهة دائماً نحو الجنوب بغض النظر عن الاتجاه الذي تسير فيه العربة وبالاعتماد على ذلك عرف أفراد قوات هوانغ دى الجهات، فتخلصوا من الحصارات الشديدة

ذهل تشى يو حين رأى أفراد قوات هوانغ دى يتخلصون من الضباب الكثيف، فحاول أن يغتنم فرصة عدم ثبات أقدامهم ليشن هجوماً مباغتاً عليهم. فدعا قطيعاً من وحوش الغابات لتطوق هوانغ دى تطويقاً محكماً. كان لبعض الوحوش وجه إنسان وجسد حيوان وصوت مرعب. وقسم آخر قصير القامة كبير الأذنين أحمر العينين طويل الشعر أسود الجلد مع ميل إلى الاحمرار. وكان الإنسان يُخدع إذا ما التقاها، ولا يستطيع

التخلص منها. ومن حسن الحظ أن هوانغ دي أدرك أن هذه الوحوش مهما كانت شرسة، تخاف من صوت التنين. فسرعان ما قاد أفراد قواته لينفخوا في الأبواق مطلقين أصواتا شبيهة بصوت التنين. فارتعشت تلك الوحوش فعلاً حين سمعت تلك الأصوات، ولم تجرؤ على التقدم.

ولكن كيف يمكن التغلب على تشى يو؟ حاول هوانغ دى أن يصنع طبلاً كبيراً لتشجيع جنوده ورفع معنوياتهم. وتذكر أن عند البحر الشرقي جبلاً يدعى ليوبوه، حيث يعيش حيوان يدعى «كوى» ولهذا الحيوان جسم ضخم بني اللون، وملامحه شبيهة بملامح البقر من دون قرون، وله رجل واحدة فقط، لذلك يمشي قافزا ويستطيع ان يلقى بنفسه في البحر ويخرج منه بصحبة الرياح الشديدة والمطر الغزير. أما صوته فيشبه هزيم الرعد، وعيناه تطلقان أشعة قوية. فلو تم صنع وجه الطبل من جلد هذا الحيوان، وضرب عليه بمقرعة من عظم حيوان الرعد، أطلق الطبل صوتاً مدوياً يهز أركان الأرض، وتتردد أصداء صوته على بعد مائتي وخمسين كيلومترا. فحاول هوانغ دى أن يصنع طبلاً من هذا النوع.

واندلعت المعركة بين هوانغ دى وخصمه تشى يو مرة أخرى. وحين ضرب الطبل زلزل صوته الأرض فعلاً، مما رفع معنويات جنود هوانغ دى، فشنوا هجوماً عنيفاً ضد تشى يو، فيما ذُهِل أفراد جيش تشى يو خوفاً وهلعاً من هوانغ دى، ولم يجرؤوا على خوض القتال.

كان لتشي يو ستّة أذرع وأربع عيون، فحمل حينذاك خنجراً بيديه وقوساً بيديه الأخرين وسيفاً بيديه الثالثتين، كما استعمل القوس والنشاب والرمح برجله. ولشدة شراسته لم تستطع قوات هوانغ دى الاقتراب منه ولا التغلب عليه.

وتعددت بينهما الجولات في ميدان القتال. ولم يستطع هوانغ دى أن يهزم تشى يو ويقضي عليه. فقرر أن يَدْعُ ينغ لونغ للاشتراك في القتال معه ضد تشى يو. كان ينغ لونغ حيوانا ذا مقدرة وكفاءة كبيرة، يستطيع أن يطلق من فمه أعمدة من الماء ويجتاح بذيله جيشاً جراراً. وصل ينغ لونغ، وفتح فمه الكبير، فتدفقت المياه من فمه كالأمواج المتدفقة. ولم يستطع أفراد جيش تشى يو تثبيت أقدامهم. وحالما تهيأ هوانغ دى للقتال لم يتوقع ان تكون لتشى يو مقدرة على إثارة الرياح والعواصف فقد قفز إلى الأعلى صائحاً صيحة مدوية، فهبت على الفور الرياح والعواصف الشديدة، ونزل المطر بغزارة، ففاضت

المياه على الأرض متحولة إلى بحر هائج، مما جعل جنود هوانغ دى في حصار من الفيضانات، كادوا يواجهون بسببه الهلاك. فاضطر هوانغ دى إلى دعوة ابنته نيوابا التي كانت تسكن في جبل شيكون لتساعده في القتال ضد تشي يو. كان نيوابا ملكة للجفاف، تستطيع تبديد السحب وإيقاف المطر، تمتلك قدراً كبيراً جداً من الحرارة في جسمها، وتستطيع إخراج الشمس اللاهبة ونشر أرض قاحلة تغطي مساحة خمسمائة كيلو متراً مربعاً. ولهذا تركها هوانغ دى تسكن في جبل شيكون في الشمال ولم يسمح لها بالخروج كما يحلو لها. في هذه المرة أظهرت نيوابا مقدرتها وكفاءتها، بينما فقد أسلوب تشي يو الخاص في إثارة الرياح والمطر فاعليته. واقتحمت نيوابا ميدان القتال حيث قوات تشي يو، فكادت الموجات الحرارية التي أحدثها جسمها تحرق جنوده. وذهل تشي يو، وسرعان ما تراجع. فاغتنم هوانغ دى هذه الفرصة وانطلق في اثرهم، ثم قطع بسيفه رأس تشي يو.

وهكذا انتهت المعركة الطاحنة. وأحرز هوانغ دى الانتصار النهائي، ولكن جثة تشي يو اختفت بعد فصل رأسه عن جسمه. وكان ذا جناحين ضخمين من اللحم و رأس ضخم، في مقدمته فم كبير يعادل حجمه الكهف العادي. فأدرك هوانغ دى بمعرفته الواسعة أن هذا الوحش هو تاو تيه، ومعناها الطماع. فلا شك في أن جماعة تشي يو قد مارسوا أعمالاً شرسة وارتكبوا مختلف أنواع الجرائم.

وتحسنت الأوضاع عن ذى قبل. فقد قتل تشي يو العدو اللدود للشعب، واستطاع الشعب استئناف العيش في سلام واستقرار. وعند الاحتفال بالانتصار على تشي يو أعد هوانغ دى إناء طبخ نحاسيا يبلغ ارتفاعه أربعة أمتار، على كل من جانبيه عروة، وله ثلاث أرجل. وقد نحتت على هذا الإناء مشاهد مختلفة من تلك المعركة، وخاصة صورة رأس تشي يو القبيح المقطوع، وذلك لإنذار الأشرار من الأجيال اللاحقة بمصيرهم المحتوم وعلاوة على ذلك صاغ ألحانا أطلق عليها اسم «ألحان طبل قانغ» تضم عشرة فصول، منها «فصل غضب الرعد الهادر» و «فصل زئير الملاك المحلى كوى». . ونطق الطبل بهذه الألحان التي بدت في غاية المهابة.

أما نيوابا فأصابها الغرور بعد أن تغلبت على تشي يو، ولم تعد تعمل بناء على توجيهات هوانغ دى. فأخذت تتجول مبتهجة في كل مكان. وأينما حلت. ذبلت المزروعات والأعشاب. وأصبحت الأرض قاحلة، ذلك لأنها كانت ملكة الجفاف. فتقدم شو جون أحد أتباع هوانغ دى بشكوى إليه. فغضب هوانغ دى غضباً شديداً،

وأصدر أمرا بطرد نيوابا إلى شمال نهر تشى. ولكن نيوابا العنيدة كانت تخرج في الخفاء أحياناً لتحدث الجفاف في العالم. أمّا البشر الأذكياء فقد أوجدوا سبلاً للتغلب على كوارث الجفاف، فحفروا المجاري والأخاديد وشقوا القنوات قبل وصول نيوابا. وبهذا لم تعد نيوابا تظهر براعتها الخاصة، عندما عرفت أن البشر قد اتخذوا الإجراءات والتدابير للوقاية من الجفاف.

صائد الشموس

يحكى أنه حصل في عصر الإمبراطور ياو جفاف بالغ الخطورة بسبب ظهور عشر شموس في آن واحد في الفضاء

فماذا حدث ؟ حدث أن انجبت أم الشمس شى خه عشرة أبناء، أقاموا في الشرق وراء البحار، في البحيرة الكبيرة تانغقو، حيث راحت تستحم وتلعب كل يوم، لذلك أصبح ماء هذه البحيرة يغلي على مدار العام. ونمت في قلب هذه البحيرة شجرة كبيرة، أطلق عليها اسم «فوسانغ» وارتفعت هذه الشجرة إلى عنان السماء، وبلغ محيط جذعها أكثر من ثلاثة آلاف متر. وكانت لهذه الشجرة عشرة فروع، تستريح على كل منها شمس من الشموس العشر. والواقع أن هذه الشموس لم تكن تلهو جميعها في يوم واحد، بل كانت تنزل واحدة منها كل يوم بالتناوب إلى الدنيا للعمل. فتطلع من الشرق صباحاً، ثم تتجول في الفضاء الواسع خلال النهار، وتغيب في الغرب مساء. كل هذا لكي تقدم للدنيا نورا وحرارة. وعلى هذا المنوال كانت كل منها تعمل مرة واحدة كل عشرة أيام.

ما أجمل الدنيا فيها: الجبال الشاهقة والأنهار المائجة والأحراش الكثيفة والأزهار الزاهية، على جانب الحقول التي يحرثها البشر بكل أوتوا من قوة.

هذه الشموس كانت بطبيعتها تحب اللهو. وفي أحد الأيام، وفيما الشموس تتبادل أطراف الحديث، قالت إحداها: إن بحيرة تانغقو هذه مملة، لا نشاط فيها. وكل منا تقضي تسعة أيام من الأيام العشرة دون عمل، إنه ليصعب البقاء هنا.

فقالت أخرى:

ـ صدقت. لا يسمح لنا أن نذهب إلى مكان بهيج، فنحن تحت سيطرة صارمة. إني لست مقتنعة بهذا.

وقالت الثالثة:

ـ ربما هذا القانون صحيح. فمن الصعب أن تبقى الدنيا على حالها إذا نزلنا جميعا إليها كل يوم.

غضبت الشمس الأولى وقالت:

ـ القانون! القانون! إن قضاء الأوقات في فرح وسرور هو قانوننا ليس غير. هل يمكننا أن نبقى دائماً حبيسات البيت ؟ اقترح أن نخرج من الغد ونلعب كما نشاء.

وبتحريض هذه الشمس وافقت الشموس الأخرى قائلة

ـ حسنا، لنذهب ونلعب قدر إمكاننا!

وفي اليوم التالي، غادرت الشموس العشر بحيرة تانغقو متوجهات إلى الدنيا دون اكتراث بأمر الإمبراطور السماوي.

وحين ظهرت شمس واحدة منها في الفضاء استقبلت الأرض نوراً ودفئاً لا حد لهما. ولكن عندما ظهرت الشموس العشر في الفضاء تغير الوضع كل التغيير. فشوهدت في الأرض ظاهرة مخيفة للغاية.

لقد ألقت الشموس ضوءاً شديداً على الأرض التي أصبحت براقة. ولم يبق فيها أي ظلام لأن كل شمس ألقت ضوءها على الأرض من زاوية مختلفة. وازدادت درجة الحرارة بسرعة فائقة، فاحترقت الأشجار والأعشاب. وذبلت المزروعات، وجفت الأنهار، وأخذ الناس يلهثون من شدة الحرارة، فدخلوا الكهوف، ولم يجرؤوا على الخروج منها.

غير أن الشموس العشر ظلت تلعب غير عابئة بشيء، بل سرَّت أيما سرور بما فعلته من أعمال شنيعة.

وفي ذلك الوقت كان زعيم الشعب، الإمبراطور ياو يسكن في كوخ بسيط، ويتناول كل يوم الأرز الخشن، ويشرب حساء الأعشاب البرية. كان إمبراطور جليلاً يعتني بالشعب كل العناية. فخرج وطلب من الشموس ان تغادر الدنيا فوراً وإلا فلا يمكن للناس أن يبقوا أحياء. ولكن الشموس تجاهلت هذا المطلب العادل واستمرت في اللعب هناك، رافضة العودة إلى بيتها.

فلم يسع الإمبراطور ياو إلا أن يطلب المساعدة من الإمبراطور السماوي، الذي ما إن سمع أن الشموس قد خالفت أوامره، ونزلت معا إلى الدنيا تعيث فساداً وتلحق بها

الخراب، حتى انتابه غضب شديد. فاستدعى المحارب هو يي على الفور. وقال له:

ـ لقد خالفت بنات شي خه أوامري، أنهن يعثن فساداً في الدنيا، مما جعل الناس هناك يعانون من عذاب الجفاف ويفقدون وسائل عيشهم. إني أهديك قوسا وعشرة سهام بيضاء لتنزل بهن العقاب.

نزل هو يي إلى الدنيا حاملاً القوس والسهام منصاعا لأوامر الإمبراطور السماوي.

تألم كثيراً لرؤية ما أصاب الناس من الآلام الناجمة عن قيظ الشمس اللاهبة. فرفع رأسه بنظرة غاضبة إلى الشموس المستهترة الغارقة في اللعب، ووضع سهماً حاداً في القوس، وأطلقه نحو واحدة من الشموس العشر فتناهى إلى المسامع صوت مدوى، وسقطت كرة نارية. اما الشموس التسع الأخرى فوجدت أن الوضع لم يعد في صالحها. فحاولت الهرب. غير أن السهام التي أطلقها هو يي أصابتها الواحدة بعد الأخرى، ولم تبق إلا واحدة.

ولما أخرج هو يي آخر سهم من الكنانة، هرول الإمبراطور ياو إليه قائلاً:

ـ أوقف الرماية من فضلك! إن الشمس مفيدة جدا بالنسبة للبشر. إلا أن عددها الفائض عن الحاجة يجلب النكبات. لم يبق لنا الآن إلا شمس واحدة، فلا تسقطها.

إنصاع هو يي للأمر فجمع قوسه وسهمه. أما الشمس الأخيرة فامتقع وجهها. وعادت الحرارة الطبيعية إلى الدنيا فور سقوط الشموس التسع. وخرج الناس من الكهوف. وأصبحوا في غاية السرور، حيث استأنفوا حياتهم الطبيعية بعد القضاء على الجفاف، فاستطاعوا زراعة الأرض وقطع الأشجار واصطياد الحيوانات وبناء وترميم المساكن.

أراد البطل هو يي أن يرجع إلى السماء بعد القضاء على الشموس التسع الشريرة، غير أن الأهالي ألحوا عليه بأن يبقى عندهم. لقد شكروه على إنجازه المهمة العظيمة، وتمنوا أن يقضي معهم أوقاتاً سارة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا بحاجة دائمة إليه، فقد ظلت النكبات قائمة في الدنيا، وظلوا بحاجة إلى مساعدته للتغلب عليها. فوافق هو يي على أن يبقى مؤقتاً.

بعد أن لقيت الشموس التسع مصرعها لم يعد من الممكن أن يحدث الجفاف مرة أخرى. ولكن ملك الماء أطلق العنان لملك النهر، فأصبح النهر يحول نفسه دائماً إلى

تنين أبيض يمتطي السيول ليتجول في كل مكان. ففاضت السيول حيثما وصل ملك النهر، وأغرقت المزروعات والبشر والحيوانات، ودمرت المساكن محدثة نكبات عظيمة للبشر.

اشتكى الناس إلى الإمبراطور ياو. فانتابه القلق والحزن وطلب من هو يى أن يساعده في القضاء على تلك المصيبة. فما كان من هو يى إلا أن نزل من غربته، ووصل خفية إلى ضفة نهر، واختبأ وراء شجرة كبيرة منتظراً وصول ملك النهر. بعد برهة قصيرة وصل التنين الأبيض مع الأمواج الهائجة في النهر. ففاض النهر في الحال. وكان هو يى على أهبة الاستعداد فأطلق سهماً نحو عينه اليسرى قبل وصوله إليه، فهدر التنين الأبيض بصوت عال، وألقى بنفسه في عمق النهر.

قدم ملك النهر شكوى إلى الإمبراطور السماوي بسبب الجرح الذي أصابه، وقال:

– إن هو يى غير عادل. إني أعيش في النهر ولا اعترض طريقه أبداً. ولكنه جرحني في عيني بسهمه. إني أتوسل إلى الإمبراطور السماوي أن ينتقم لي ويقتل هو يى فوراً. وإلا فما فائدة القوانين واللوائح السماوية؟

ولكن الإمبراطور السماوي علم بحقيقة الأمر، فقال مستنكراً:

– أنت ملك الماء.. عليك أن تأتي للبشر بالسعادة، ولكنك أصبحت تنينا أبيض يتجول، ويثير الرياح والأمواج، وينزل بالبشر نكبات شديدة. أليس إنزال العقاب بك أمراً لازماً؟

صمت ملك النهر، وعاد إلى قاع النهر يعالج جراحه، ولم يعد يسعى لنشر الخراب.

وعاش هو يى في الدنيا عيشة سعيدة، يحترمه الناس ويحترمهم. وقضى على المصائب كلها مخاطراً بنفسه. وكان قد أحب صيد الحيوانات. فراح يخرج دائماً إلى الغابات لصيد الحيوانات. وفي ذلك الحين كانت هناك حيوانات كثيرة جداً تسيء إلى البشر وتلك إحدى النكبات الكبرى، وخاصة الوحوش الضارة التي عجزوا عن مجابهتها. فاخذ هو يى على عاتقه مسؤولية القضاء عليها.

وكان في منطقة تشونغيوان حيوان من أشد الحيوانات وحشية، يدعى يا يوى. قيل أن

شكله شبيه بالبقرة، ويغطي جسمه شعر أحمر طويل، بوجه إنسان وحافر فرس. أما صوته فمثل صياح المولود، كئيب ومخيف. ولهذا الوحش الشرس قوة جبارة وسرعة فائقة. إذا التقاه إنسان فمن الصعب أن يتخلص منه. كان يتسلل أحياناً إلى القبائل في منتصف الليل، فيدمر المساكن، ويأكل البشر. فأصبح عدد الضحايا لا يعد ولا يحصى.

فعزم هو يى الذي أحب الشعب وامتلك البراعة الحربية على القضاء على هذا الوحش. وذات يوم صعد، بناء على المعلومات التي قدمها إليه الأهالي، جبلاً للبحث عن أثر الوحش يا يوى. وعندما وصل إلى واد من وديان الجبل اكتشف فجأة أن منحدرات الجبل وسفوح الوادى ملأى بجماجم البشر وعظامهم. وألقى بنظره أمامه، فوجد ذلك الوحش يجثم على صخرة كبيرة يلتهم جسم إنسان كان قد أتى به. فانتابه الغضب عندما رأى هذا المشهد، وأطلق سهما إلى جبين الوحش الذي عوى أثر ذلك عواء كئيباً، ثم سقط متدحرجا إلى قاع الوادي. ومنذ ذلك الوقت زال الذعر من نفوس الأهالي.

في تشوهوا بالجنوب وحش آخر يدعى «تساو تشى»، في فمه أسنان حادة منقطعة النظير، الواحدة منها كالإزميل، ويبلغ طولها حوالي مترين. ويلازم هذا الوحش في الأوقات العادية الماء أو شاطئ البحيرة، وإذا مر به إنسان انقض عليه وراح يمضغه ويبتلعه. وقد صعب على الناس أن يجابهوه، لأن جلده البالغ من السماكة عدة سنتيمترات قوي مثل الدرع، هذا بالإضافة إلى أسنانه الحادة. لذلك استطاع هذا الوحش بجلده السميك أن يصمد لضربات السيف القاطع وطعنات الرمح، كما صمد للسهام وضربات الفأس الحجرية، ومن حسن الحظ أن هو يى يمتلك براعة خاصة في الرماية. فحين فتح الوحش فمه الكبير لينقض على هو يى أطلق سهماً إلى حنجرته، فسقط الوحش على الأرض لافظاً أنفاسه في الحال.

وكان في الجنوب نهر أطلق الناس عليه اسم «شيونغشوى». لكنّ ثمة وحش يدعى «جيوينغ» يسيطر على هذا النهر. وقد دأب هذا الوحش على القضاء على الناس الذين يصلون إلى ذلك النهر. وحش ذات تسعة رؤوس، يطلق ألسنة من النار، ويتدفق الماء من فمه. ولشدة وحشيته لم يتمكن أحد من مجابهته. ولو قطع أي رأس من رؤوسه التسعة فإنه لا يموت، بل يزداد شراسة ووحشية. فأطلق هو يى عليه تسعة سهام في آنٍ معاً، فأصاب كل منها رأساً من رؤوسه التسعة إصابة قاتلة.

وكان على شاطئ بحيرة دونغتينغ قرب نهر شيونغشوى ثعبان مريع، يدعى «الثعبان با». له جسم غليظ وطويل منقطع النظير، يمكنه أن يبتلع فيلاً، ثم يهضمه رويداً رويداً داخل معدته، ويلفظ عظامه بعد ثلاث سنوات من ابتلاعه. وقيل أن هذه العظام تصبح دواء فعالاً لمعالجة أمراض الأعضاء الحيوية في جسم الإنسان. ولكن هذا الثعبان كان فظيعاً شرساً جداً، إذا مر بمكان أخلاه من البشر. فقتل هو يى هذا الثعبان بعد معركة ضارية بينهما، وتكدست عظامه مثل جبل، وأطلق على هذا الجبل المكون من عظام الثعبان اسم تل با.

عاد هو يى إلى الشمال بعد أن قضى على تلك الوحوش في الجنوب. وعندما مر ببحيرة «تشينغتشيو» أخبره الأهالي إن في هذا المكان طائراً مفترساً ضخماً، يزاول أعمال العنف. اسم هذا الطائر «دافنغ». إذا طار ستر جناحاه نصف أركان السماء، وإن حرك جناحيه أثار عواصف تستأصل الكثير من الأشجار الكبيرة، وتدمر مئات المساكن. كان يلحق أضراراً جسيمة بالبشر والمواشي أيضاً. أدرك هو يى أن هذا الطائر يمتلك قوة جبارة ويجيد الطيران. فإذا لم يتمكن من إبادته بسهم واحد وفرَّ جريحاً، صعب القضاء عليه فيما بعد. فخطرت له فكرة ربط مؤخر السهم بحبل، فإذا أصيب الطائر بهذا السهم، لم يستطع التخلص. ونجح هو يى في ذلك فعلاً، وقضى على الطائر «دافنغ» المفترس. وقد أطلق القدماء على هذا الأسلوب الخاص من الرماية اسم «القبض بالقوس» وراحوا يستخدمونه في صيد الحيوانات الكبيرة نوعاً ما. والفضل في تعلمهم هذا الأسلوب يرجع إلى هو يى.

كما ذهب هو يى إلى سانغتسون في الغرب، حيث قضى على كثير من الوحوش.

لقد قضى البطل هو يى على هذه الوحوش الفتاكة خدمة للبشر، فشاد بذلك مآثر عظيمة. فلو لم يسقط الشموس التسع التي ألحقت بالأرض تخريباً شديداً لاحترقت الأرض من شدة الحرارة وأصبحت غير مأهولة بالسكان. ولو لم يقض على الوحوش لظلت خطراً بالغاً يتهدد البشر. لذلك ظلت الأجيال البشرية على التوالى تعرب عن بالغ احترامها وامتنانها كلما ذكر البطل هو يى.

تشانغ تطير إلى القمر

في ليلة النصف من كل شهر قمري يتألق في السماء بدراً منيراً، كأنه امرأة فاتنة تطل برفق على الأرض، ثم يغمر الكون بنوره الهادئ. ويحكى أن هذا البدر الجميل تسكنه الإلهة تشانغ ـ زوجة البطل هو يى الذي أسقط الشموس بالسهام. فلماذا تعيش معزولة وحيدة في قصر القمر؟ أحاديث كثيرة دارت حول هذه المسألة تلخصها الحكاية المؤلمة التالية:

لقد أسقط البطل هو يى بناء على أوامر الإمبراطور السماوي تسع شموس ثم أنزل العقاب بملك النهر بالإضافة إلى قضائه على كثير من الوحوش الضارية في مختلف أنحاء البلاد، فلقي بذلك تقدير شعوب العالم واحترامهم الشديد. وأصبحت العلاقة حميمة بين هو يى والشعب. وراح يتجول في الجبال والأنهار. وعاش في سعادة وهناء.

وذات يوم عاد هو يى من الصيد في الغابة. وعندما مر بنهر صغير رأى على ضفته فتاة تجلب الماء بأنبوبة من الخيزران. وكان قد أصابه الظمأ بعد أن سار مسافة طويلة. فاتجه إلى الفتاة طالباً منها شيئاً من الماء. عندما رأت الفتاة أمامها بطلاً جميلاً مفعماً بالقوة والنشاط، يحمل قوساً أحمر وسهاماً بيضاء، عرفت أنه البطل هو يى عينه الذي قضى على الوحوش لخدمة البشر. فاستقبلته بالبشاشة والسرور، وقدمت له باقة من الأزهار التي جمعتها من ضفة النهر، تعبيراً عن احترامها لهذا البطل. كما اختار هو يى من غنائمه جلد ثعلب فضي نفيس، وقدمه هدية لها. وأثناء الكلام عرف هو يى أن هذه الفتاة الجميلة تدعى تشانغ، وأن والديها قد توفيا بسبب إساءة الوحوش إليهما. كما عرف أنها تعيش وحيدة في عزلة، وتلبس الملابس البيضاء تعبيراً عن حدادها.

أحس هو يى بالعطف حيالها، فقال لها كلمات تواسيها وتخفّف عنها. كانت تشانغ

قد شعرت بحب إزاء هذا البطل، وحين لمست منه هذا العطف والاهتمام هامت به حباً. ولم يمض إلا وقت قصير حتى تزوجا، وأصبحا زوجين متحابين.

ومنذ ذلك الوقت أصبح هو يى يصطحب تشانغ كل يوم عند خروجه للصيد، وعاشا عيشة سعيدة. وأصبحت عودة هو يى إلى السماء في زاوية النسيان.

مرت الأيام بسرعة، فقد مضى على هو يى ثلاث سنوات على الأرض. وأصدر الإمبراطور السماوي أمراً يحث هو يى على العودة إلى السماء. فتألمت تشانغ لسماعها هذا النبأ، وراحت تذرف الدموع. أما هو يى فقد عز عليه فراق زوجته كذلك.

وحين علم الإمبراطور السماوي إن هو يى قد تزوج على الأرض، ولا يرغب في العودة، انتابه الغضب، وعزله عن منصبه، وحرمه من العودة إلى السماء إلى الأبد. لم يندم هو يى على ما أنزله به الإمبراطور السماوي من عقاب، بل شعر بأنه أسعد بكثير على الأرض مما كان في السماء. لقد أحب هو يى الجبال والأنهار والأشجار، كما أحب الناس البسطاء، وهام حباً بزوجته الجميلة الوفية، لذلك واصل بقاءه على الأرض مسروراً غاية السرور.

ولكن حياة الإنسان محدودة في الدنيا. فمهما امتدت أعمار الناس، وبلغوا السبعين او الثمانين، أو حتى تجاوزوا المائة. لا بد أن يدركهم الموت في النهاية

وذات يوم قال هو يى لزوجته تشانغ:

ـ عندما كنت في السماء سمعت أن شى وانغ مو التي تعيش في جبل كونلون في الغرب لديها دواء يطيل عمر الانسان، فلماذا لا نطلب منها شيئاً من هذا الدواء ؟.

انتاب تشانغ السرور الغامر وهي تسمع كلام زوجها هذا. فأسرعت في تحضير أمتعته وأوصته بأن يعتني بنفسه في السفر، وأن يرجع بأسرع وقت ممكن. وكانت هذه أول مرة يبتعد فيها الزوج عن زوجته بعد زواجهما. وعلى الرغم من أن الفراق أحزنهما، إلا أنهما فكرا في أنه إذا تم الحصول على ذلك الدواء الخاص بإطالة العمر وتناولاه، فسيخلدان إلى أبد الآبدين، حتى إن إله الموت الفظيع لا يستطيع أن يهدد حياتهما. ثم ودعت تشانغ زوجها بحزم وعزم. وركب هو يى جواده، وحمل قوسه وسهامه وانطلق متوجها إلى الغرب.

لم يكن من السهل الوصول إلى شى وانغ مو. فذلك يتطلب اجتياز جبال شاهقة

واحراج كثيرة لا حصر لها، بالإضافة الى صحراء شاسعة مقفرة جوّها شديد التقلب. وفوق ذلك ينتصب قرب جبل كونلون حاجزان يصعب عبورهما. أحدهما نهر روشوى، والآخر جبل اللهيب. فلا يستطع حتى الأوز أن يطفو على مياه هذا النهر. أما جبل اللهيب فكان يطلق لهيباً مستطيراً، لا يمكن للإنسان أن يقترب منه بسبب ألسنة النار التي تتصاعد منه مع أعمدة من الدخان، يبلغ ارتفاعها عشرات الأمتار. وهذه سرعان ما تحرق جلد الانسان إذا اقترب منها ولو قليلاً

اجتاز هو يى الجبال والتلال قاطعاً مسافات طويلة. وأخيراً وصل إلى ضفة نهر روشوى.. فما العمل حيال هذا النهر الواسع؟. الواقع أنه ليس في الدنيا شيء مهما كان قوياً وشديداً إلا وهناك ما يسيطر عليه ويقهره. فمن الواجب أن يبذل الإنسان الجهود في تلمس واكتشاف السبل لتذليل العقبات.

تذكر هو يى فجأة انه قد وجد «خشبا لا يغرق» خلال صيده الحيوانات في الجنوب سابقاً. وهذا النوع من الخشب من أشجار نادرة في الجبل. إنه خشب صلب خفيف الوزن. وكان في ذلك الحين قد قطع بيده بعض أغصانها ورمى بها في بحيرة قريبة، فوجد الأغصان تطفو على سطح الماء كأنما الهواء يحملها ويجعلها لا تلمس سطح الماء، بل تدفعها الرياح فوق سطح الماء عدة سنتيمترات.

اعتقد هو يى انه إذا استخدم هذا الخشب الذي لا يغرق، فقد يتغلب على الصعوبات التي تواجهه في عبور نهر روشوى.

ركب جواده ووصل إلى الجنوب، فعثر على هذا النوع من الخشب. فقطع جذع شجرة وجوفه، وصنع منه قارباً، ثم نقله إلى ضفة نهر روشوى. وعندما دفع هذا القارب إلى داخل النهر لم يلمس القارب سطح الماء، بل ارتفع قليلا فوقه. فسر غاية السرور وركب القارب مع جواده، وراح يجدف بأقصى سرعة نحو الضفة الأخرى. وعلى الرغم من أن هذا النهر شديد الاتساع، إلا أن هو يى اجتازه إلى الضفة الأخرى بأمن قاطعاً مئات الكيلومترات، مستغرقاً وقت وجبة واحدة ليس إلا.

بعد أمد قصير من عبور نهر روشوى وصل هو يى إلى جبل اللهيب. كان الأمر محسوبٌ في ذهن هو يى بخصوص مجابهة هذا الجبل، اذ سبق له أن قضى على الحيوان «جيوينغ» الذي يقذف النار، ويدفق الماء من فمه في نهر شيونغشوى. وعرف أن الجلد السميك الصلب لهذا الحيوان يقاوم الماء والنار. فحين غادر هو يى البيت حمل معه هذا

الجلد. وها هو ذا الآن يخرجه ويصنع منه لنفسه درعاً محكماً، كما صنع منه غطاء خاصاً لجواده.

ركب هو يى جواده وحثه بالسوط، فاندفع الجواد نحو جبل اللهيب مباشرة. وصعب على هو يى أن يتنفس في ظل الدخان الكثيف واللهيب المتأجج. ومن حسن الحظ أن الجواد الذي ركبه هو يى كان جواداً سحرياً يمكنه أن يقطع خمسمائة كيلومتراً في اليوم. فاجتاز خلال برهة قصيرة جبل اللهيب الذي كان يغطى مساحة تقدر بعشرات الكيلومترات المربعة. ترجل هو يى عن جواده، وأخذ يتفحص نفسه وجواده، فوجد انه لم يحترق الا جزء صغير من ذيل الجواد

وهكذا تغلب هو يى بفضل ذكائه وشجاعته على أشد الصعوبات التي واجهته في طريقه إلى الغرب للحصول على الدواء السحرى. وأخيراً وصل إلى موطن شى وانغ مو على سفح جبل كونلون.

كانت شى وانغ مو تقيم في جبل يشمى ناصع متلألئ يقع في مركز جبل كونلون. ولم يكد هو يى يصل إلى هذا الجبل اليشمى، حتى انطلق الطائر تشينغ نياو المسؤول عن نقل الرسائل ليبلغ شى وانغ مو بقدوم هو يى. وعندما عرفت أن البطل هو يى كان إلها كبيراً في السماء، وأنه أرسل إلى الدنيا لإسقاط الشموس والقضاء على الوحوش لخدمة الشعب، استقبلته بكل احترام.

وعندما أطلعها على سر قدومه إليها وافقت على مطالبه. فأمرت الطائر ذا الثلاث أرجل المسؤول عن حراسة الدواء السحرى بأن يحضر قرعة جميلة، فيها ثمار خاصة من «الشجرة التي لا تموت». فالدواء الذي يطيل عمر الإنسان مستخرج من الخوخ السحري الجاف الذي ينمو على «الشجرة التي لا تموت» والتي تتفتح أزهارها كل ثلاثة آلاف سنة، وتثمر كل ثلاثة آلاف سنة أيضاً. فما أصعب استخراج هذا الدواء السحري!

ناولته شى وانغ مو هذه القرعة قائلة:

ـ خذها من فضلك، فلم يبق من هذا الدواء إلا ما بداخل هذه القرعة. ولكنه على أية حال يكفيكما أنت وزوجتك. إذا تناول كل منكما النصف، طال عمره وإذا تناول أحدكما هذا الدواء كله، صعد إلى السماء، وأصبح إلها.

فرد عليها هو يى:

ـ إنما جئت الى هنا للحصول على الدواء الذي يطيل عمرينا معا أنا وزوجتي تشانغ. أما الجنسية السماوية فلا تهمني إطلاقاً.

تسلم هو يى من شي وانغ مو هذا الدواء السحري، وشكرها واستعد للعودة. قبل رحيل هو يى دعت شى وانغ مو الطائر ذا الثلاث أرجل للذهاب إلى بحيرة ياوتشى ليحضر عشبة ياو التي تحمل قطرات ندى هدية من شى وانغ مو الى تشانغ. أن عشبة ياو هذه عشبة سحريه ثمينة جداً تحولت إليها ياو جى الابنة الكبرى للإمبراطور يان اله الشمس. عندما كانت الفتاة الفاتنة ياو جى في الثامنة عشرة من عمرها، أحبت تشى سونغ تسى إله المطر التابع لشن نونغ شى. كانا في البداية صديقين حميمين، ولكن تشى سونغ تسى في الواقع لم يكن مخلصا لياو جى. ولم يمض إلا وقت وجيز حتى تخلى تشى سونغ تسرى عن ياو جى، وذهب إلى مكان آخر. ولكن ياو جى كانت تتمنى بشغف أن تلتقيه ليل نهار. فصارت تتجول في كل مكان تبحث عنه وعندما وصلت إلى جبل كونلون في الغرب عرفت أن تشى سونغ تسى قد أحب إلهة أخرى وأصبح يتجول معها في أماكن أخرى، فانتابها الحقد والغضب، وماتت بعد برهة قصيرة.

وبعد وفاة ياو جى، هذه الفتاة الجميلة الجديرة بالشفقة، تحولت إلى عشبة من الأعشاب تنمو على ضفة بحيرة ياوتشى بجبل كونلون، وأصبحت تتفتح وتثمر باطراد. ولم يكد يمضي وقت طويل حتى اصبحت منحدرات الجبل وضفة البحيرة ملأى بهذا النوع من الأعشاب. اخذ هذا العشب في البداية ينمو على ضفة بحيرة ياوتشى، وأطلق عليه اسم «عشبة ياو». وقيل أن هذه العشبة تتجمع على أوراقها وأزهارها قطرات ندى باردة في الصباح أو في المساء طول السنة. وقطرات الندى هذه هي الدموع التي تذرفها الفتاة الحزينة بلا انقطاع... وعشبة ياو ذات طبيعة سحرية أيضا. فأي امرأة تشمها تصبح لطيفة الطبع جميلة الوجه أنيقة المظهر. ولذلك أطلق عليها اسم آخر هو «عشبة الفتنة».

حصل هو يى على الدواء السحرى من شى وانغ مو، وأسرع في العودة إلى موطنه. لقد مضى أكثر من نصف السنة على فراقه زوجته، فيا له من لقاء سعيد بالنسبة للزوجين! وحين وصل البيت ناولها هذا الدواء السحري، وهو يحدثها عما لقيه في طريقه للحصول عليه. ثم قال:

ـ هذا هو الدواء السحري الذي حصلت عليه بعد التغلب على جميع الصعوبات والمشقات. إذا تناول كل منا نصفه، طال عمره. وإذا تناول واحد منا هذا الدواء كله

صعد إلى السماء حسبما قالت شي وانغ مو. ولقد قررت أن نتناول أنا وأنت هذا الدواء سويا. فما دمنا نعيش سوياً إلى الأبد، فلن نكترث لمعيشة السماء!. تعالي وضعيه في مكان ما، واختاري يوما سعيدا لنتناوله فيه.

وضعت تشانغ هذا الدواء السحرى إلى جانبها بسرور. وبعد ذلك ناول هو يى زوجته تشانغ عشبة ياو قائلاً:

ـ انظري، هذه العشبة السحرية قدمتها شي وانغ مو خصيصاً لك.

سرت تشانغ غاية السرور ودققت نظرها إلى عشبة ياو هذه قائلة:

ـ يا لها من عشبة سحرية لطيفة لم أرها من قبل إطلاقاً.

ولم تكد تشم هذه العشبة حتى أصبحت آية في الفتنة والجمال.

واصل هو يى عيشه في الدنيا مدة طويلة وكان يأتيه دائماً كثير من الشباب، يتعلمون منه فن الرماية بالسهام. فعلمهم بجد واجتهاد، وأصبح عدد غير قليل من تلاميذه رماة بارعين.

وكان ابرع تلاميذه في الرماية شخص يدعى فنغ منغ، ولكن أخلاقه كانت سيئة جداً. فأصابه الغرور والحسد، واصبح يتمنى كل يوم أن يمرت معلمه هو يى بأسرع وقت ممكن، ليبقى أفضل رام في العالم.

وكان الدواء السحرى الذي حصل عليه هو يى من شى وانغ مو صدمة شديدة لمطامعه هذه، فدبر مكيدة خسيسة ليسيء بها إلى هو يى.

وذات يوم اغتنم فنغ منغ فرصة خروج معلمه هو يى للصيد، وتسلل إلى بيته ووجه السهم الى تشانغ قائلاً:

ـ سلميني بسرعة الدواء الذي حصل عليه زوجك من شى وانغ مو، وإلا اخترق سهمي هذا حنجرتك على الفور.

أخذت تشانغ على حين غرة، وقالت في ذهول:

ـ ألست تلميذ زوجى فنغ منغ؟ ما بك؟

فقال فنغ منغ بخبث وسخرية:

ـ منذ أمد طويل وأنا لا اعترف بأن هو يى معلمي. كيف يتوقع أذاً أن أكون رامياً من الدرجة الثانية طوال حياتي؟ لكم أتمنى أن يموت في الحال.

وقفت تشانغ صامتة لا تحير جواباً من شدة غيظها. بينما شد فنغ منغ قوسه بقوة احدث صوتاً، وصاح بصوت عال قائلاً:

ـ بسرعة، ناوليني الدواء!

وفكرت تشانغ: هل يصبح الدواء الذي حصل عليه زوجها بعد التغلب على جميع الصعوبات والمشقات في يد هذا الخبيث فنغ منغ بكل بساطة؟ كلا!. واخرجت تشانغ الدواء خلسة من جانبها. وما أن مد فنغ منغ يده لينتزع الدواء منها حتى أدخلته في فمها بسرعة، وابتلعته، ثم اندفعت خارج الغرفة.

وحين خرجت تشانغ من الغرفة شعرت على الفور أنها تتهادى كأن سحابة بيضاء رقيقة تحملها، وتصعد بها وتصعد. إلى أين تصعد أذن؟ قررت تشانغ التي تشتاق إلى زوجها أن تصعد مؤقتا إلى القمر الأقرب إلى الأرض. وحين ظهرت مثل هذه الحسناء في قصر القمر، أصبح نور القمر أكثر بهاء وجمالاً.

أما هو يى فأصابه ألم شديد عندما علم بالأمر بعد عودته من الصيد، فرفع نظره إلى القمر فاقداً رشده، وقد أمضه الشوق إلى زوجته التي لم يعد باستطاعته أن يلتقيها مرة أخرى، وأخذت الدموع تنهمر من عينيه.

وحين تنبه هو يى للخبيث الخائن فنغ منغ تملكه غضب لا تحده حدود. فحمل قوسه وسهامه، ثم خرج من البيت على عجل. ولم يتوقع أن يكون هذا الخبيث المكار قد ترصد له في الغابة القريبة من البيت. فحين مر هو يى في هذه الغابة مسرعا انبرى فنغ منغ كالشبح، واهوى على مؤخر رأسه بفرع غليظ من شجرة خوخ، فسقط هو يى على الأرض ميتاً.

لقد ذهب هو يى ضحية دسائس ومكائد فنع منغ، ومات ميتة مأساوية. إنها لفاجعة حقا!.

اكتشف الناس هذه الجريمة التي ارتكبها فنغ منغ، فقبض عليه تلاميذ هو يى، وربطوه بشجرة كبيرة، ثم اطلقوا عليه السهام، فمات على الفور. ولم ينجح فنغ منغ في أن يكون رامياً من الدرجة الأولى. إن كل طماع مكار لا يمكن أن يرجو مصيراً حميداً.

بعد وفاة هو يى علقت كل أسرة صورته في البيت تخليداً لذكرى مآثره العظيمة، واعتبروه الناس اله «تشونغ بو». وكلمة «تشونغ بو» تعنى إدارة شؤون الجهات الأربع وفعل الخير. يحكى أن هو يى قضى على الوحوش خدمة لمصالح الشعب قبل وفاته، كما أن روحه ظلت تعتني بالشعب بعد وفاته. فكلما واجه الشعب كوارث الفيضانات أو الجفاف انبرى هو يى يعارك وحوش الماء والجفاف، فظل بذلك إلهاً خاصاً يقوم بحماية مصالح الشعب، وظل خالداً مع الشعب. أما تشانغ فأقامت بعد وقوع هذه الحادثة في قصر القمر منعزلة متوحدة. وعلى الرغم من أن قصر القمر قصر منيف، تقيم فيه تشانغ كبقية الإلهات اللاتي يعشن عمراً مديداً، الا أنها انعزلت عن الأرض، وفقدت قرينها، مما جعلها تشعر بألم وحزن مريرين وعزلة لا حد لها.

كان يقيم مع تشانغ في قصر القمر أرنب يشمى يعد العقاقير الطبية. كان قد طرده الإمبراطور السماوي بسبب تناوله عشبة سحرية سراً، وأنزل به هذا العقاب. وفي وقت لاحق جاء إلى قصر القمر شخص آخر يدعى وو قانغ، طرده الإمبراطور السماوي إلى القمر وعاقبه بقطع شجرة الغار، ذلك لأنه ارتكب الأخطاء خلال تعلم الإلوهية. وقد أصدر الإمبراطور السماوي أمراً بأن يعود بعد أن ينجح في قطع تلك الشجرة، غير أن شجرة الغار هذه الموجودة في قصر القمر لا يمكن قطعها إطلاقاً. فحين يهوى وو قانغ على هذه الشجرة بالفأس تنشق ويظهر فيها شق. ولكن عندما يخرج فأسه منها ليهوى عليها بضربة أخرى يلتحم الشق ثانية، وتعود إلى حالتها الطبيعية. وعلى الرغم من ذلك يواصل وو قانغ المسكين في ضرباته دون انقطاع، متمنياً أن ينجح في قطع هذه الشجرة يوماً ما، فيصفح عن ذنبه، ويغادر قصر القمر الهادئ. ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك!.

إن الأرنب وو قانغ يعيشان في قصر القمر عيشة تكفير عن الذنوب ولهذا السبب أيضاً جرى اعتقاد أن تشانغ تقيم في هذا القصر لتناولها الدواء السحرى سراً، حسبما جاء في حكايات لاحقة. فعلى سبيل المثال نظم الشاعر المشهور لي شانغ ين من أسرة تانغ قصيدة جاء فيها أن الإلهة تشانغ تعيش داخل القمر في السماء الزرقاء عيشة ندم لأنها تناولت سراً الدواء السحري الذي من شأنه إطالة العمر. ولكن الحقيقة غير ذلك. فالواقع أن المصير المؤسف لكل من البطل هو يى والحسناء تشانغ جدير بالعطف والشفقة.

الإمبراطور السماوي

يحكى أنه كان للإمبواطور السماوي سبع بنات ذكيات وبارعات. وكانت الصغرى أجملهن وأكثرهن حباً للخير والاجتهاد، وكانت ماهرة كذلك في الغزل والنسيج، لهذا لقبت «النساجة».

كانت النساجة دائمة الانشغال في العمل، تجلس عند منسجها، ترمى بيديها المكوك جيئة وذهاباً. أما الأقمشة التي تنسجها غير عادية، فهى عبارة عن سحب في السماء. ألم تر أنه كلما أوشكت الشمس على البزوغ انبسطت في الأفق الشرقي سحب مشرقة زاهية الألوان. هذه السحب هي من إبداع فتاتنا النساجة. ولا يستطيع أي فنان ماهر في الدنيا أن يضاهيها في إبداع مثل هذه السحب الزاهية الألوان. وفي الصيف والخريف من كل عام تظهر في السماء الزرقاء سحب جميلة متفاوتة الأشكال، فتصبح السماء أكثر روعة وجمالا. والفضل في هذا يرجع إلى هذه النساجة أيضاً. كانت تلازم منسجها طوال السنة بلا انقطاع. فقد نسجت «ملابس سماوية» مختلفة الألوان والأشكال حسب الفصول المتفاوتة. ولولا جهودها لكانت مظاهر السماء الشاسعة رتيبة إلى حد كبير إذا ما قورنت بمظاهرها في الوقت الراهن.

شعرت النساجة بعزلة شديدة بعد أن عاشت في السماء مدة طويلة. ولقد أعجبتها المظاهر الطبيعية الجميلة على الأرض وعمل البشر كذلك ومعيشتهم. وذات مرة شعرت بتعب من النسج، فدعت أخواتها إلى النزول إلى الدنيا ليستحممن في نهر صافى المياه.

بالقرب من هذا النهر أقام شاب توفي والداه منذ طفولته، فعاش مع أخيه وزوجته يرعى بقرة طول اليوم. فلقبه الأهالي «راعي البقر». بلغ هذا الفتى العشرين من عمره ولم يتزوج بعد. كان يزرع الأرض كل يوم وكلما شعر بضيق تجاذب الحديث مع البقرة، التي

كانت تفهم كلام الفتى، ويفهم هو كلامها فأصبحا صديقين، يعتني أحدهما بالآخر، ويتشاركان في السراء والضراء، وصار مصيرهما مشتركاً.

وفي يوم من الأيام، بعد أن انتهى راعي البقر هذا من زرع قطعة من الأرض، جـ البقرة الى النهر لتشرب، فوجد فجأة سبع حوريات يسبحن في النهر ويطاردن بعضهن بعضاً. وكن فاتنات الجمال، وخاصة الصغرى بينهن، فهي اجملهن. لها وجه رقيق أبيض وضّاء مشوب بالحمرة، فكأنه زهرة اللوتس تتألق على صفحة الماء. حدق راعي البقر إليها مأخوذاً، وراح يتأملها مفتوناً بسحرها. حينئذ أدركت البقرة ما يجول في ذهن هذا الفتى فقالت له:

ـ يا صديقي العزيز،انقل بسرعة تلك الملابس الموجودة عند شجرة الصفصاف، ومن ثم تصبح هذه الفتاة زوجة لك.

تقدم راعي البقر بضع خطوات، ثم توقف خجلاً من فعل ذلك.

فقالت البقرة:

ـ بسرعة، أيها الأحمق. أنتما خير زوجين!.

جرى راعي البقر بسرعة، فأخذ الملابس من تحت شجرة الصفصاف، ورجع بها. اكتشفت الحوريات وجود فتى غريب فأسرعن إلى ارتداء ملابسهن. ثم طرن إلى السماء فلم تبق في النهر إلا النساجة التي لم تجد ملابسها. فكيف تصعد إلى ضفة النهر؟. أحمر وجهها خجلاً وانزعاجاً، ثم صاحت:

ـ يا راعي البقر أعطني ملابسي بسرعة!

توقف راعي البقر عن السير،ونظر إلى تلك النساجة، فانتابته مشاعر عميقة وقال بصراحة:

ـ أريدك زوجة لي.

مع أن النساجة استطارت غضباً من هذا الفتى الطائش، إلا أنه خلب لبها. فقد شعرت أنه يغلب عليه الإخلاص والبساطة، وأحست من نظراته أنه يكُنُّ لها حباً عميقاً. الواقع أن هذه النساجة لم تكن مقتنعة بالإدارة الصارمة للإمبراطور السماوي وبحياتها الرتيبة التي تعاني فيها من العزلة والوحدة في السماء مع أنها حورية. لقد كانت تطمح إلى حياة سعيدة في المستقبل مثل فتيات الدنيا. فأومأت برأسها موافقة عندما نظر راعي البقر إليها.

وهكذا أصبح راعي البقر والنساجة زوجين. وبينما انهمك الزوج في زراعة الأرض انهمكت الزوجة في الغزل والنسيج. ثم قامت إضافة إلى ذلك بتعليم الفتيات في القرى المجاورة فنون الغزل والنسيج. وعلى هذا النحو استوعب الناس فنون نسج جميع أنواع الأقمشة. وقامت كل فتاة بتعليم عشر فتيات، والفتيات العشر علمن مئات غيرهن. وهكذا انتشرت هذه الفنون بين أهل الأرض.

دارت عجلة الزمن بسرعة. وبعد عدة سنوات أصبح لراعي البقر والنساجة ابن وابنة. وعندما عرف الإمبراطور السماوي أن ابنته النساجة قد نزلت إلى الدنيا، أرعد وأبرق، وأرسل على الفور حراساً لسجن هذه النساجة على مخالفتها «القوانين السماوية». فاضطرت إلى توديع زوجها وولديها. يا له من أمر مؤلم!.

وعادت النساجة تحت الحراسة إلى السماء. واشتاق راعي البقر إلى زوجته، كما اشتاق الولدان إلى أمهما العزيزة. فحمل راعي البقر ولديه وانطلق في أثر زوجته. وقد أوشك على اللحاق بها، ولكن زوجة الإمبراطور السماوي العمة وانغ مو، أم هذه النساجة، أسرعت إلى الحيلولة دون لقائهما. فلوحت بيدها، فظهر بين راعي البقر وابنتها نهر هائج عريض وعميق ـ (المجرة). وقف كل من راعي البقر والنساجة على ضفتي النهر مقابل بعضهما بعضاً، عاجزين عن الاجتماع معاً.

وظل الراعي على الضفة حزيناً غاضباً، لا يرغب في الانصراف، وراحت النساجة تنظر إلى النهر الهائج والدموع تسيل من عينيها. إنها لم تعد تهتم بنسج السحب على الرغم من أوامر الإمبراطور السماوي، وهذا تمرد عليه. لذلك لم يجد بداً من مصالحتها، ووافق على أن يجتمعا مرة واحدة كل سنة. فكلما حلت ليلة اليوم السابع من الشهر القمري، تبني طيور العقعق جسراً مؤقتاً ليلتقي عليه راعي البقر وولداه بالنساجة. وقد شعر الزوجان بسرور ممزوج بالألم في هذا اللقاء النادر. وقيل إنَّ السماء في فجر ذلك اليوم تمطر دائماً رذاذاً هو الدموع التي تذرفها عينا النساجة لافتقادها زوجها وولديها.

وتأثر الناس أيضاً لحياة هذين الزوجين تأثراً شديداً. فكان الكثير منهم في قديم الزمان لا يأوون إلى الفراش ليلة اليوم السابع من الشهر القمري، بل يطيلون النظر إلى السماء حيث يرون نجمين كبيرين على ضفتي المجرة (النسر الطائر والنسر الجاثم) ينتظران فرصة اللقاء بشغف تلك الليلة. وعلى جانبي النسر الطائر نجمان صغيران، هما ولداه. ما أشد سرورهما بلقاء أمهما!

وفى ليلة اليوم السابع من الشهر القمري يسح سير س الناس في أفنية دورهم أزهاراً وفواكه هدية للنساجة، تعبيرا عن شكرهم لها على تعليمها إياهم فنون الغزل والنسيج، وتعبيرا كذلك عن رغبتهم في أن تواصل تعليم فتيات الدنيا هذه الفنون الرائعة.

وفي تلك الليلة يقوم عدد من الفتيات اللعوبات بإخفاء أنفسهن تحت تعاريش العنب ينظرن خلسة، ويسترقن السمع إلى ما يدور بين راعي البقر والنساجة من همس الحب والعواطف المتأججة.

وعلى العموم، فإن الناس قد عبروا منذ سنوات عديدة عن تأثرهم العميق لحياة راعي البقر والنساجة، وعن بغضهم الشديد للإمبراطور السماوي الذي فرق بين هذين الزوجين السعيدين دونما سبب.

البلدان الأجنبية البعيدة

جاء في حكاية «دا يوى يروض الفيضان» إن دا يوى واجهته صعوبات، وصادفته مشقات كثيرة من أجل ترويض الفيضان. وقد امضى نصف حياته متنقلاً من مكان إلى آخر في بطون الجبال وأعماق الغابات والساحات، إضافة إلى أنه وصل إلى جميع الأماكن داخل الصين وخارجها، حيث عرف حكايات عن كثير من الغرباء والأشياء الغريبة، لم يعرفها غيره. وقص دا يوى بعد إكمال ترويض الفيضان على مساعده بوه يى معارفه وخبراته هذه ليطلع عليها الآخرون ويستفيدوا منها. كما طلب منه أن يسجل ما يقصه عليه. وقيل أن «الكتاب المقدس عن الجبال والبحار» الذي جرى وضعه في وقت لاحق قد ضم حكايات ذا يوى هذه.

وفيما يلي حكايات البلدان الأجنبية البعيدة التي جاءت في «الكتاب المقدس عن الجبال والبحار».

1 ـ بلد العمالقة

ذات مرة وصل دا يوى إلى مكان يدعى جبل بوقر شرق بحر بوهاي آملاً العثور على مكان خاص لتصريف الفيضانات إليه. كان هذا المكان جزيرة كبيرة في بحر الصين الشرقي قريبة من مكان طلوع الشمس والقمر. نزل دا يوى من الزورق الشجري إلى الشاطئ فرأى جبلاً صغيراً من بعيد. وتقدم أكثر من خمسة كيلومترات، فوجد أن ذلك ليس بجبل صغير بل هو قصر كبير بلون الجير، علقت فوق بوابته لوحة كتبت عليها أربعة مقاطع معناها «قاعة العمالقة»، وكان في مركز القاعة عملاق ضخم يحرك ذراعيه ويتكلم، يحيط به نحو من خمسة عمالقة. وعلى الرغم من جلوسهم القرفصاء، إلا أن الواحد منهم تراوح ارتفاعه من ثلاثة إلى ستة أمتار. وكان قد سبق لدا يوى أن سمع أن في جبل بوقر بلدا للعمالقة من أبناء وأحفاد التنين، قد أطلق عليه أسم «بلد الملك التنين» وقامة الإنسان

في هذا البلد تتراوح عادة من ثلاثة وعشرين إلى ثلاثة وثلاثين متراً. وقد وضعتهم أمهاتهم بعد أن حملتهم مدة ست وثلاثين سنة. وولدوا بشعر أشيب وأجسام عملاقة على الرغم من أنهم كانوا حديثي العهد بالولادة.

كانت «قاعة العمالقة» التي وصلها دا يوى مكانا لمشاوراتهم في الشؤون الرسمية. وصوتهم أثناء الحديث يرتفع مدوياً كقرع الطبل. ولم يستطع دا يوى أن يتحمل ذلك الصوت الهادر، فرجع مسرعاً إلى الشاطئ.

وهناك رأى عملاقاً في قارب صغير يصطاد السمك، ويشبه هذا القارب الصغير السفينة الحربية التي استخدمها أجدادنا. كما رأى عدداً من العمالقة يصطادون السمك في مكان ضحل من البحر، لا ترتفع المياه فيه إلى أكثر من خصورهم. وفجأة، صرخ عملاقان بفرح، ورميا بسمكة كبيرة إلى الشاطئ. فانكشف دا يوى أن هذه السمكة ليست إلا حوتاً مزعنفاً متوسط الحجم. يا له من حصاد وافر: غير أن هذا الحوت يكفي العمالقة وجبة عشاء فقط.

كان دا يوى مأخوذا بالنظر إليه. وفجأة تناهى إلى مسامعه صوت مدو، فرفع رأسه ينظر، فإذا عملاق يقترب من ورائه. وأوشك أن يطأه بقدمه التي تعادل في حجمها القارب. فقام دا يوى بحركة مفاجئة متجنبا قدمه وهو يصيح

ـ انتبه يا هذا!

بدا الذهول على العملاق، وانحنى ليرى مصدر هذا الصوت. صحيح أن دا يوى قد صاح بصوت عال، إلا أن هذا الصوت كان ضعيفا للغاية بالنسبة للعملاق. لقد وصلت قامة دا يوى الذي يعتبر ضخماً بالمقارنة مع الناس إلى كاحل العملاق.

بدا العملاق مندهشاً، ولكنه سأل بلطف:

ـ أنت! من أين جئت؟.

أومأ دا يوى بيده إلى الغرب وقال:

ـ من بعيد.. كنت أبحث عن مكان خاص لتصريف الفيضانات، فوصلت إلى بلدكم.

لفت صوت حديثهما عمالقة آخرين قرب الشاطئ، فجاءوا وأحاطوا بهما. وبدأوا يتحدثون مع دا يوى، وبعضهم يجلس القرفصاء، وبعضهم الآخر يجلس على الشاطئ

الرملي فأخبروه أن في البحر القريب من جزيرة العمالقة مكانا يدعى «قويشيوى» وهو واد من دون قاع لا يمكن ملؤه بالماء، إن تحقيق النجاح في ذلك ممكن ما دام تصريف الفيضانات إلى مجاري الأنهار ثم إلى البحر، لأن البحر لا يغيض أبداً.

فقال دا يوى:

ـ ولكن هناك مصب مسدود يحتاج تنظيفه إلى جهد جهيد.

فقال العمالقة بصوت واحد حماسي:

ـ يمكننا أن نساعدك!

ولم يمض إلا وقت قصير حتى وصل دا يوى مع العمالقة إلى مصب النهر الأصفر. فوقفوا في الماء، وأخرجوا بأذرعهم الغليظة وأيديهم الكبيرة الغرين الذي ملأ المصب، ثم ألقوا به في البحر البعيد. ولم يكد يمضي نصف يوم حتى تدفقت المياه الجارية من المجرى الأعلى للنهر الأصفر. سُرَّ دا يوى بمساعدتهم غاية السرور، لكنه لم يجرؤ على دعوتهم لزيارة بلده، فقد خشي من أن يدمر هؤلاء العمالقة المساكن ويسيئوا إلى الناس حين يدخلون بلده.

2 ـ بلد الأقزام

كان وراء البحار بالجنوب بلد خاص بالأقزام يدعى جياوياو. مر دا يوى بهذا المكان، وقد هدّته متاعب الرحلة، فرقد على الشاطئ الرملي يستريح، فغلبه النوم. وعندما استيقظ أحس بأشياء كثيرة تتحرك من حوله. ولما أمعن النظر، وجد أقزاماً، لا تزيد قامة أطولهم عن تسعة سنتيمترات، يتسلقون الجبال. كانت مظاهرهم تختلف عن مظاهر الناس وقاماتهم في غاية القصر.

دهش دا يوى بذلك، وراح يراقبهم دون حراك. تسلق هؤلاء الأقزام على ذراعيه ورجليه جماعة أثر جماعة، وبعضهم يمتطون خيولا، ويجرون كلاب صيد. أما خيلهم فبحجم الضفادع، وأما كلابهم فبحجم الجداجد.

استولى على دا يوى الذهول بادئ الأمر. وفجأة ركض قزم يلوح بعلم صغير نحو طرف أنفه الذي يعتبر أعلى نقطة بالنسبة له لأنه كان راقداً. كان هذا القزم الذي تسلق أنف دا يوى كمناضل باسل، يركب حصاناً قزماً، ويرفع بيده العلم. ويمسك بالأخرى قوساً ويصيح. ولكن صوته كان ضعيفاً جداً، فلم يستطع دا يوى سماعه بوضوح. وعندما

وصل إلى طرف أنفه، حاول أن ينصب العلم في منخره ليبين أنه أول من وصل إلى أعلى القمة. شعر دا يوى حينذاك بتنمل شديد، فعطس ثم اعتدل في جلسته، فوقعت كارثة غير متوقعة لكثير من الأقزام الذين تسلقوا وهم يصولون ويجولون بخيولهم، إذ سقطوا على الأرض.

وعندها تذكر دا يوى أن وراء البحار جنوبا بلدا للأقزام ـ بلد جياوياو، ويدعى كذلك تشوراو. وعلى الرغم من أن المواطنين في هذا البلد قصار القامة، إلا أنهم أذكياء مهرة، يستطيعون صنع آلات مختلفة، ويديرون شؤون بلدهم بانتظام. وقد بعثوا إلى الإمبراطور ياو رسولاً بهدية «سهام بغير ريش» والمعروف أن السهام في العصور القديمة سهام ذات ريش، أي كل سهم يحمل في مؤخره ريشاً ليزيد من بعد اندفاعه وليحافظ على توازنه، مما يضمن إصابة الهدف بدقة. ولكن لم يكن أحد يعرف كيف تصنع السهام بغير ريش. لا شك أنه ابتكار جديد، لذلك حظيت هذه السهام بإعجاب الإمبراطور ياو.

وكان طائر الكراكي الأبيض ألد أعداء الأقزام. فكلما نضجت مزروعاتهم. وفدت أسراب الكراكي البيضاء من الجزر الأخرى واتت على هذه المزروعات، بل التهمت الأقزام أنفسهم كذلك. وعندما علم الإمبراطور ياو بذلك، أمر مواطني داتشين المجاورة له بمساعدتهم. وداتشين بلد العمالقة. فقامة المواطن في هذا البلد تبلغ ثلاثة وثلاثين متراً. أصبح هؤلاء العمالقة، كلما نضجت المزروعات يقومون بحراستها، ويطردون الكراكي البيضاء الفتاكة، مما يضمن أمن الأقزام وسلامتهم. لذلك أعربوا للإمبراطور ياو عن عرفانهم بالجميل.

ويحكى أن في البلدان الأجنبية فيما وراء البحار بلاداً أخرى للأقزام خلاف جياوياو. فوراء البحر الغربي، مثلاً، بلد يدعى «التم»، لا تزيد قامة أطول الرجال أو النساء فيه عن عشرين سنتيمتراً. وأهالي هذا البلد أناس متحضّرون، يعاملون الناس بأدب واحترام. وجميعهم متعلمون، وينحنون احتراماً للملك وكبار السن كما كان يفعل القدماء. وعلى الرغم من أنهم أقزام، إلا أن لديهم مقدرة سحرية تجعلهم ينطلقون بسرعة خاطفة. فهم يقطعون مسافة خمسمائة كيلومتراً في اليوم الواحد. وعلاوة على ذلك هم معمرون، يعيش بعضهم قرابة ثلاثمائة سنة. ويحكى انه لم يكن يسيء إليهم إلا طائر التم، ذلك الطائر الضخم المفترس ذو العينين الثاقبتين والجناحين الكبيرين. فإذا ما هاجمتهم هذه الطيور، أمعنت في مطاردتهم واقتناصهم. ولكن من العجب أنهم يظلون

أحياء في بطونها. فيحكى أن القدماء اصطادوا مرة طائر تم، وفتحوا بطنه، فوجدوا فيه أقزاماً أحياء. ولهذا أطلق على هؤلاء الأقزام لقب «رجال التم» وعلى بلدهم «بلد التم»، ذلك لأنهم اكتشفوا في بطن الطائر.

3 ـ بلد الشيوخ المعمرين

وصل دا يوى عبر البحار والمحيطات إلى كثير من البلدان المثيرة للإعجاب وهي بلدان الشيوخ المعمرين أو الشيوخ الخالدين.

يحكى أن وراء البحار شمالاً بلداً يدعى «ووجيقوه» حيث يخلّد المواطنون دون تكاثر. كان هؤلاء المواطنون يسكنون في كهوف الجبل الواقع في جزيرة بحرية، يتغذون على سمك «تشى يوى» الذي لا يعرف أحد الفصيلة التي ينتمي إليها. فقد كان سمكاً غريباً نوعاً ما. ولم يكن لدى مواطني ووجيقوه فوارق تميز الذكر من الأنثى، أي لم يكن هناك أزواج وزوجات ولا أسر. وقد ماتوا أيضاً بعد أن عاشوا سنوات طويلة، إلا أن موتهم كان مؤقتاً. فكانوا إذا دفنوا لا تتوقف حركة قلوبهم، ولا تتعفن جثثهم. وبعد حوالي مائة وعشرين سنة يعود هؤلاء الموتى إلى الحياة، ويستأنفون حياتهم كالمعتاد يحيون ويموتون، ثم يحيون من جديد وهكذا دواليك. فالموت إذاً كان نوما بالنسبة لهم. لم يقل عدد سكان هذا البلد أبداً ولم يزدد كذلك. وكان بلدهم مزدهراً متطوراً، مما جعله ممتعاً شيّقاً.

وكان وراء البحار بالجنوب أيضاً بلد للشيوخ المعمرين من هذا النوع يدعى «آشينغقوه» أي أن هذا البلد كأسرة واحدة، فكل مواطن هناك ينسب لأسرة «آ». وقد تميز كل مواطن في هذا البلد بالقوة وضخامة الجسم وسواد البشرة وعاش حياة خالدة. ومرد ذلك إلى أن في بلدهم جبلا يدعى يوانتشيوشان، ينمو فيه شجر يدعى «قانمو» واسمه الآخر «الشجر الخالد»، وثماره لذيذة جداً. ويروى بمياه ينبوع تشى في هذا الجبل. فحين أكل المواطنون هناك من ثمار هذا الشجر، وشربوا من مياه هذا الينبوع، أصبحوا خالدين. وليست أعمار الناس وحدها هي التي طالت، بل طالت أعمار الحيوانات أيضاً. فأصبح من الممكن أن يرى هناك في كل وقت خفاش يعيش ألف سنة وعلجوم تجاوز عدة آلاف من السنين. فلعل الحيوانات هي الأخرى تأثرت بثمار قانمو ومياه ينبوع تشى.

وكان وراء البحار غرباً بلد آخر لشيوخ المعمرين يدعى «شيوانيوان تشيتشيو»

بالقرب من جبل أجرد. ومظاهر الأهالي هناك غريبة، فكل واحد منهم برأس إنسان وجسد أفعى. وقد ساعدهم هوانغ دى على طرد تشى يو في أثناء القتال الذي اندلع بينهما في شيوانيوان، وقد شادوا مآثر عظيمة في هذا القتال. عندما تغلب هوانغ دى على تشى يو، بنى في بلدهم منصة «شيوانيوان تشيتشيو» التي ترمز إلى أن مواطني هذا البلد وهوانغ دى هم المنتصرون. لقد عاش مواطنو هذا البلد مدة ثمانمائة سنة على الأقل. وكثير منهم عاشوا ألفاً أو ألفي سنة. لذلك استحق بلدهم لقب بلد الشيوخ المعمرين.

وعلاوة على ذلك كان بالغرب أيضاً بلد يدعى «بايمينقوه». وكان كل مواطن في هذا البلد ذا بشرة بيضاء وشعر أشيب، ويعيش مدة طويلة جداً. ذلك لأن في بلدهم حيواناً سحرياً يدعى «تشنغ هوانغ»، له شعر ذهبي وذيل كبير مكسو بالشعر. يشبه الثعلب في مظهره، ولكن على ظهره قرنان، ويستطيع الجوي بسرعة خاطفة. لذلك أطلق عليه اسم آخر إلا وهو «هوانغ الطائر» إذا ما ركبه شخص عمَّر ألف سنة على الأقل، وأحرز في عمله تقدماً ونجاحاً ملحوظين.

4 ـ بلد ذوي الذراع الوحيدة

كان في القطب الغربي البعيد بلد ليس للمرء فيه إلا ذراع وحيدة وطويلة جدا. فإذا قام مرخياً ذراعه على نحو طبيعي، استطاع أن يلمس بيده مشط قدمه. كما كان بثلاث عيون، لكل واحدة منها فائدة خاصة. فبعينه اليسرى يرى نهاراً. وبعينه اليمنى يرى ليلاً. وبوسعه رؤية كل شيء بوضوح وسن غير نور. أما عينه الثالثة فكانت شبيهة بـ «المنظار» يرى بها الأشياء البعيدة جداً، لا تحجبها عن بصره حتى السحب أو الضباب الكثيف إنه لأمر عجيب حقاً. وكان المواطنون في هذا البلد لا ينامون طوال السنة لأن كلا منهم كان له ثلاث عيون، يمكنه أن يستريح في النهار فاتحاً عينه اليسرى ومغمضا اليمنى، كما يمكنه أن يستريح في الليل فاتحاً عينه اليمنى ومغمضاً اليسرى. وكذلك يمكنه أن يستريح مغمضاً عينه الثالثة إذا لم يكن بحاجة إلى النظر بعيداً. ولهذا كان كل منهم مفعماً بالحيوية والنشاط على نحو دائم، يستطيع أن يعمل ليل نهار.

وكانوا أذكياء مهرة. وعلى الرغم من أنهم بذراع واحد، إلا أنهم ابتكروا وصنعوا أنواعاً مختلفة من الآلات والأجهزة. فقد استطاعوا إطلاق كريات لصيد الطيور، لم تفلت منها حتى النسور السريعة الطيران. كما استطاعوا إطلاق مائة سهم متتالية دفعة واحدة

لاصطياد النمور والفهود الأكثر شراسة. لذلك لم يعانوا أبداً من نقص في لحوم الطرائد على موائدهم.

وأروع الآلات التي ابتكروها في هذا البلد «العربة الطائرة» ولكن لم تدون طريقة صنعها في السجلات التاريخية بالتفصيل. فقيل أنهم قد صمموا هذه العربة الطائرة بعد أن استلهموا ذلك من «الطائر ذي الرأسين» والجواد المجنح «جي ليانغ».

كان للطائر ذي الرأسين ريش أصفر ضارب إلى الحمرة وجناحان كبيران، وفي مقدم جسده رأس وفي مؤخره رأس آخر. لذلك استطاع أن يطير بسرعة ومرونة إلى أية جهة دون أن يستدير. أما الجواد ليانغ فكان ذا جسد مخطط مكسو بشعر أحمر وعينين براقتين كبريق الذهب، إذا ما اندفع حلق في الجو. وطار بسرعة خاطفة كأنه البرق. وعلى هذا الأساس استخدم المواطنون في هذا البلد الهياكل الخشبية والريش، وربما أشياء أخرى، في صنع هذه العربة الطائرة التي استطاعت أن تجري على الأرض وتحلق في الجو، فلا تعترض طريقها انهار ولا جبال. إنها لعربة عجيبة حقاً.

ولما وصل دا يوى إلى هذا البلد، طلب إليه الأهالي هناك أن يركب هذه العربة الطائرة ليتجول في القطب الغربي كله. وأخيرا أرسلوه بهذه العربة الطائرة، عائداً إلى «ميدان ولاية خنان» البعيد عن ذلك البلد مئات الآلاف من الكيلومترات، فلم يستغرق في رحلته هذه أكثر من وقت وجبة واحدة. يا لها من أداة طيران سريعة غريبة.

5 ـ بلد ذوي الأذرع الطويلة

كان في جنوب بلد ذوي الذراع الوحيدة بلد لذوي الأذرع الطويلة. فعلى الرغم من أن قامة كل مواطن في هذا البلد تعادل قامة الشخص العادي، إلا أن طول ذراعيه قد تجاوز تسعة أمتار. فإذا نام، لم يجد مكاناً يضع فيه ذراعيه. فيضطر إلى الجلوس مستنداً على شجرة وذراعاه معلقتان على أغصانها. ولذلك بدا في مظهره شبيها بالقرد إلى حد ما.

اعتمد ذوو الأذرع الطويلة في معيشتهم على جني الثمار وصيد الأسماك. وبهذا استفادوا كثيراً من أذرعهم الطويلة. فمهما كانت الأشجار مرتفعة. رفعوا أذرعهم وجنوا ثمارها بمنتهى السهولة. أما صيد السمك، فكان سهلا أيضاً. فإذا جلسوا على شاطئ البحر، مدوا أذرعهم إليه. وبعد وقت قصير يصبح في حوزتهم كثير من الأسماك

والجمبري. ولكن لا تكثر الأسماك الكبيرة في الأماكن الضحلة أو قرب الشاطئ. فلصيد الأسماك الكبيرة لابد لهم من التعاون مع مواطني بلد آخر.

وكان في مكان غير بعيد عن هذا البلد بلد لذوي الأرجل الطويلة. لا تختلف قاماتهم هناك عن قامات الأشخاص العاديين، إلا أن أرجلهم طويلة ورفيعة. فإذا قام أحدهم بدا شبيها بالفرجار المستخدم في الرسم. وكلما أراد ذوو الأذرع الطويلة اصطياد الأسماك في البحر العميق نوعاً ما، طلبوا من ذوي الأرجل الطويلة أن يحملوهم على ظهورهم إلى هناك. فلا تصل مياه البحر عادة إلى أعلى من ركبهم. وهناك يمد ذوو الأذرع الطويلة أذرعهم إلى الماء، ويصطادون الأسماك الكبيرة بسهولة. ولو نظرت إلى أشكالهم حينذاك لحسبتهم روافع تعمل في البحر.

وبهذا يتبين أن مواطني هذين البلدين كانوا أذكياء جدا لأنهم عرفوا كيف يستفيدون من نقاط القوة لديهم، إضافة إلى أنهم أحسنوا التعاون الوثيق فيما بينهم.

6 ـ بلد ذوي الأجنحة.

في الجنوب الشرقي بلد ظريف يواجه بحر الصين الجنوبي. وفيه سلاسل متصلة من الجبال وأحراش كثيفة وكثير من الطيور الجميلة الثمينة. وكان أثمن طائر من بين تلك الطيور عنقاء ذات ذيل كبير ملون، تشدو بصوت أعذب من العزف على آلة موسيقية. ويحكى أن العنقاء طائر مقدس لا نظير لها، لا تأكل إلا الخيزران، ولا تشرب إلا ماء النبع. ولا تحط إلا على شجر البارسول. وفي الأوقات العادية نادراً ما يراها الناس، ولذلك كانوا إذا رأوها، اعتبروا ذلك بشير فأل يرمز إلى السلام في الدنيا. وبالفعل كان في هذا البلد كثير من طيور العنقاء، كما كان فيه أيضاً طائر آخر بجناح واحد وعين واحدة، لا يحلق منفرداً. بل مع طائر آخر. ولذا درج القدماء على جعل العلاقة الوثيقة بين هذه الطيور مثالاً للحب العميق بين الزوج والزوجة وتوثق الرابطة الزوجية بينهما. ولم يخل هذا البلد كذلك من طيور ظريفة أخرى نادراً ما تظهر.

لقد وصل دا يوى عبر الغابات إلى هذا البلد، وقد أنهكه التعب، فجلس يستريح تحت ظلال شجرة كبيرة. وهناك تناهى إلى سمعه فجأة صوت حديث. نظر دا يوى فوقه فرأى رجلاً وامرأة يتجاذبان أطراف الحديث بمحبة. ولكنهما لم ينتبها لدا يوى في أن يعرف منهما أحوال التضاريس والطرق، فصاح بصوت عال يحييهما. ولم يتوقع أبدا أن يطيرا محلقين حول الشجرة ثم يهبطا على الأرض أمامه بهدوء. لقد أدهشه أن كلا منهما

بجناحين. وإذا ما هبط الطائر من هذا النوع، وقف وأسدل جناحيه خلف جسمه.

وكان في هذا البلد أشخاص ذوو أجنحة مثل الطيور، يستطيعون المشي على أقدامهم كما يستطيعون الطيران أيضاً. وهذا أسهل بكثير من أمر ذوي الذراع الوحيدة الذين يقودون عرباتهم الطائرة. ولكل منهم إلى جانب ذلك، فم بارز كمنقار الطائر، وقيل أنهم يبيضون كالطيور أيضاً.

لقد عاش مواطنو هذا البلد على صيد الأسماك، فكانوا يحلقون فوق سطح البحر جماعات جماعات. وكانوا أكثر مرونة بالمقارنة إلى طيور النورس، يستطيعون صيد كثير من الأسماك في وقت قصير. وكلما اصطادوا كمية منها، حملوها إلى الشاطئ، ثم شووها بالنار، وتحلقوا حولها يأكلون.

وقد أحب مواطنو هذا البلد الرقص حباً جماً. فكلما حل الربيع، أقاموا حفلة رقص على المروج بين الأحراش ودعوا طيور العنقاء لتغني لهم. ثم يبدأ المواطنون، رجالاً ونساء، شيوخاً وأطفالاً، يرقصون على نغمات الغناء الذي تشدو به طيور العنقاء حتى أنها تشاركهم رقصهم ومرحهم في جو حماسي مثير للمشاعر.

7 ـ أشخاص غرباء وحيوانات غريبة.

وصل دا يوى إلى كل مكان داخل الصين وخارجها من أجل ترويض الفيضان. ولكن، لم تكن جميع الأماكن التي وصل إليها ظريفة، بل كان في كثير منها أشخاص غرباء وحيوانات غريبة مرعبة للغاية.

كان وراء بحر الصين الجنوبي بلد يدعى «بلد النار البغيضة»، كل مواطن فيه بوجه إنسان وجسد حيوان مكسو بشعر طويل، يطلق من فمه لهباً ممزوجاً بدخان كثيف. لذلك خافت منه جميع الحيوانات. ويسكن مواطنو هذا البلد داخل الأحراج الكثيفة. يغضبون أحياناً من غير سبب، فيطلقون حولهم لهباً يشعل الغابات ويحرق الأرض. وهذا ما يجعل الطيور والحيوانات في الغابات تهرب في كل اتجاه. ولم يسلم البشر من أذاهم إذا ما التقوا بهم. لأنهم مخلوقات غريبة مخيفة.

وعلى شاطئ بحر الصين الجنوبي بلد يدعى «شياويانغقوه». كل مواطن فيه بوجه إنسان وفم تمساح. أما جسده فيكسوه شعر أسود كثيف. وقدماه تتجهان إلى الخلف. كلما التقى إنساناً ضحك ضحكة رهيبة مفزعة، ثم انقض عليه على حين غرة وابتلعه.

وكان هؤلاء المواطنون يحملون معهم دائماً قصبات، ينفخون فيها خلال سيرهم مطلقين أصواتاً حزينة جداً.

ومن البلدان التي مر بها دا يوى بلد لذوي العين الوحيدة، تقع في وسط الوجه. وبلد لذوي الصدور، في كل صدر فتحة مستديرة كبيرة. وبلد لذوي العيون المقعرة، تبدو رؤوس أبنائه كجماجم الموتى. وبلد لكل مواطن فيه ثلاثة رؤوس، يواجه كل منها جهة خاصة. ويستطيع أن يصيح بثلاثة أنواع من الأصوات في آن واحد. وعلى الرغم من أن المواطنين في كل من تلك البلدان المذكورة آنفا يمتلكون كفاءة خاصة، إلا أن مظاهرهم كانت رهيبة رهبة لا توصف.

أما الحيوانات الغريبة في مختلف البلدان فكانت كثيرة أيضاً فهناك على سبيل المثال حيوان مفترس يدعى «تشيونغ تشى»، يشبه في مظهره النمر، ولكنه بجناحين. إذا لقيه إنسان، صعب عليه التخلص منه. فهو حيوان طماع شرس، وإذا ما انقض على الإنسان التهمه من رأسه أو من قدميه.

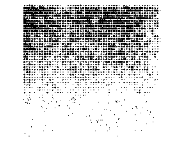
وكان هناك ثعلب ذو تسعة ذيول. يبدو من حيث شكله ظريفاً وجميلاً، ففروه ذهبي وذيوله طويلة ناعمة. إلا أنه مكار، بوسعه التحول إلى أشكال مختلفة كحسناء مثلاً تغري الإنسان، ثم ينقض عليه ويلتهمه.

وبالإضافة إلى ذلك في غابة الجبال شمالاً فراشة طائرة تدعى «الفراشة الحمراء»، يعادل حجمها حجم الفيل. تصطاد الحيوانات، وتمتص دماءها، لذلك أصبحت ذات لون أحمر. وطنينها يصل إلى بُعْدِ عدة كيلومترات ولا نجاة للإنسان من الموت إذا ما مني بلسعة منها.

كما كان بجانب أحد الجداول في الجنوب حشرة تدعى «يوى»، تعتبر حيواناً ضاراً، يبلغ طولها عشرة سنتيمترات. وقد لفت نفسها بغطاء شبيه بالصدفة، تخفي نفسها في الأوقات العادية في الظلام. وكلما مر بها إنسان، أطلقت عليه هواء ساماً مثل السهم. يصيبه حتى في خياله، كما يصاب بقرحة لا علاج لها فيموت. ومن حسن الحظ أن بقرب الغابة بلدا يجيد مواطنوه الرمي بالسهام. وقد أحبوا اصطياد هذه الحشرات ليأكلوها بالإضافة إلى الحبوب. ولولا ذلك لكثرت تلك الحشرات، وانتشرت في كل مكان، وأصبحت وبالا على البشر.

ويحكى أن الناس قد طلبوا من دا يوى أن يصبح حاكماً عليهم بعد أن نجح في

ترويض الفيضان. لقد تنقل دا يوى من مكان إلى آخر ممضيا نصف حياته في البلدان الأجنبية. ورأى كثيرا من الحشرات السامة والحيوانات المفترسة. ولتجنيب الناس أضرار تلك الحشرات والحيوانات خطر بباله أن يطلب من حكام الولايات التسع إتاوات الحديد والنحاس. ثم صنع منهما تسعة آنية كبيرة، ونحت عليها الأماكن المشتملة على أي نوع من أنواع الحشرات والحيوانات الضارة بالإضافة إلى الوحوش والشياطين على اختلاف أنواعها، كي يتخذ الناس الإجراءات والتدابير الوقائية قبل التجول في تلك الجهات. فيا لهذا الاهتمام الذي أبداه دا يوى تجاه الشعب!



الأساطير الفارسية



ربما كان أول من تكلم بالتفصيل عن عجائب إيران وآسيا الوسطى أبو دلف مسعر ابن مهلهل الخزرجي، وكان ـ كما قدمنا ـ قد رحل من بخارى إلى الصين ثم رجع من الهند، وذكر بعض أعاجيب رآها في رحلته نقلنا أطرافاً منها في ما مر من حديثنا عن بلاد الهند والصين، وقد تغلغل في التركستان وإيران، وسجل في رسائل مختلفة مشاهداته الغريبة، ونقلتها عنه كتب الجغرافيا وكتب العجائب. وقد طبعت وزارة التربية والتعليم احدى رسائله، وفيها يصف الكثير من مدن إيران وآسيا الوسطى، متحريا ذكر المعادن والنباتات والحيوانات والمنتجات المختلفة. وأول مدينة تحدث عنها في هذه الرسالة مدينة شيز في شرقي إيران، وقد ذكر أن بها بيت نار لعبادة المجوس، على رأس قبته هلال فضة هو طلسمه، يقول إنه يوقد منذ سبعمائة سنة لا يوجد فيه رماد، ولا ينقطع عنه الوقود ساعة من الزمان. وفي وسط هذه المدينة بحيرة لا يدرك لها غور، وإذا قصدها عدو ونصب منجنيقه على سورها، فكلّ الحجارة التي يقذفها تقع في البحيرة.

والواضح من هذين الخبرين عن البحيرة وبيت النار مدى ما يدخله أبو دلف على وصفه من مبالغات، إذ كان خياله واسعاً يستطيع أن يقلب به الحقيقة إلى عجيبة غريبة، وهو أول من خط هذا الاتجاه ووسع فيه، وتحول فيما بعد إلى كتب العجائب التي نوهنا بها في القسم الأول من هذا الكتاب. وكان يكثر من ذكر الطلاسم التي تمتاز بها المدن، فكل تمثال وكل هيئة غريبة طلسم، كما تحدث عن تاريخ البلدان ومنشئيها من ملوك الفرس أو من غيرهم، وهو كمدينة شيز وهرمز ملك الفرس.

وألم أبو دلف بمدينة قرميسين وبجل بيستون القريب منها، والمعروف أنه نحتت بها صور وتماثيل هي من عجائب الدنيا من بينها تمثال عظيم لدارا الأكبر، يشير إلى انتصاراته على ملوك ماثلين بين يديه. وبالقرب من ذلك طاق بستان وبه تمثال لكسرى الثاني أبرويز

على فرسه شبديز وصورة شيرين زوجته لتمثال دارا والملوك القائمين بين يديه فقال إن هذه الصورة تمثل دارا أستاذاً، ومَنْ بين يديه من الملوك تلاميذه، وزعم أن الانحناء البادي فيه هو انحناءة الأستاذ في يده سوط.

ويمضي أبو دلف فيمر بهمذان ويذكر أنها كانت مدينة دارا الأصغر الذي هزمه الإسكندر، ولا تزال هذه المدينة في وسطها، ويقول في وصفها: «مدينة كبيرة مبنية على دكة (طوار فسيح) يكون ارتفاعها ثلاثين ذراعاً، ولها أربعة أبواب وطاقات عالية». ووصف أبي دلف للمدينة أو لقصر دارا غير دقيق، والمعروف أن ملوك الفرس في هذا التاريخ، كانوا يتخذون لقصورهم درجاً خارجياً يرقاه القادم إلى الطوار الواسع الذي شيد عليه القصر ببهوه الفسيح، وغرفه ومقصوراته الكثيرة، ويتراوح ارتفاع الدرج بين عشرين وخمسين قدما، ويستطرد أبو دلف فيذكر هذه الأسطورة التاريخية:

«قيل إن دارا لما زحف إليه الإسكندر شاور وزراءه في مدينة حصينة يحرز فيها أهله وكنوزه، فقال له بعضهم: أعرف مدينة خربة بين جبال شامخة وطرق وعرة، إن بناها الملك وأحرز فيها ذخائره ووكل بحفظها أربعة آلاف من ثقاته امتنعت على كل من رامها، ووصفها له، فسار إليها دارا حتى رآها وعلم أنها تمتنع على من أرادها، فبناها وجعل فيها خزائن جامعة لأمواله وكنوزه، وجمع فيها أهله ووكل بها ثقاته. فلما كان من أمر الاسكندر مع دارا ما كان، أنفذ إليها جيشاً عظيماً، فأقام عليها مدة لا يقدر على فتحها، فهم رئيس الجيش بالانصراف، فقال له نصحاؤه: وكتب الإسكندر إلى مؤدبه أرسطاليس يعرفه أمرها، فأجابه: صورها لي بطرقها وجبالها وأنهارها. ففعل ذلك، وأنفذ الصورة إليه. فكتب يأمره بسد نهرها على نحو فرسخ منها سنة بطولها، ويوثق سده، فإذا كان بعد سنة فتح ماءه وقرن البقر والجواميس والبغال والدواب بعضها مع بعض وأرسلها في الماء فإنها تفتح السد، وإذا فتحته حمل الماء على المدينة فهدم سورها وتهيأ له دخولها. ففعل ذلك، فاقتلع الماء بحدته لما انفتح السد سور المدينة وحمل معه صخوراً كبارا لا تزال في شوارعها، ودخل أصحاب الإسكندر المدينة واستولوا عليها».

ويصل أبو دلف إلى جبل دنباوند في شمالي إيران، وهو أعلى جبالها، إذ يبلغ ارتفاعه نحو 21 ألف قدم، ولا يفارق الثلج قمته صيفا ولا شتاء، وهو يُرى على مسيرة عدة أيام، ويبعد من طهران إلى الشمال الشرقي نحو خمسين ميلاً. هو جبل بركاني كان لا يزال يرمل حممه في العصور الوسطى، وقد وصفه جغرافيو العرب بأنه ينفث الدخان نهاراً والنار ليلاً، وسيوله غنية بالمواد المعدنية، وخاصة الكبريت، وبه عيون كثيرة.

وللفرس أساطير كثيرة، حول الجبل تتصل بملوكهم الأسطوريين، أمثال أفريدون، ويقال إنه سجن فيه الملك الظالم بيوراسب (الضحاك) بإحدى قممه وانه لا يزال حيا به على الدهر لا يموت. كما ويظنون أن الأصوات الكئيبة التي تسمع من البركان هي أنينه وتأوهاته، وأن الدخان الذي يتصاعد من شقوق الجبل والعيون التي عليه هي أنفاسه. وهناك أسطورة تزعم أن سليمان حبس به ماردا، وأخرى تزعم انه الجبل الذي رست عليه سفينة نوح. ولنترك أبا دلف يحدثنا عنه:

«بدنباوند جبل عال مشرف شاهق شامخ، لا يفارق أعلاه الثلج شتاء ولا صيفا، لا يقدر أحد من الناس أن يعلو ذروته ولا يقاربها، يعرف بجبل بيوراسب. وتزعم العامة أن سليمان بن داود عليهما السلام حبس فيه مارداً من مردة الشياطين يقال له صخر المارد. ويزعم آخرون أن أفريدون الملك حبس فيه بيوراسب، وان دخانا يخرج من كهف في الجبل تقول العامة أنه أنفاسه. ويرون ناراً في بعض كهوفه فيقولون أنها عيناه، وأن همهمته تسمع هناك. فاعتبرت ذلك ورصدته، ولزمت المكان وصعدت في الجبل حتى وصلت إلى نصفه بمشقة شديدة ومخاطرة بالنفس. وما أظن أحدا تجاوز الموضع الذي بلغت إليه، بل لم يصل إليه إنسان فيما أظن. فتأملت الجبال، فرأيت عينا كبيرة نقية وحولها كبريت متحجّر، فإذا طلعت عليه الشمس والتهب ظهرت فيه نار، وإلى جانبه ماء (سيول) يمر تحت الجبل، تخترقه رياح مختلفة، فتحدث أصواتاً متضادة على إيقاعات متناسبة، فمرة مثل صهيل الخيل ومرة مثل نهيق الحمار ومرة مثل كلام الناس. وهي مثل الكلام الجهوري دون المفهوم وفوق المجهول، يخيل للسامع انه كلام يدوى ولغة انسى، وذلك الدخان الذي يزعمونه بخار تلك العين الكبريتية. وهذا الحال يحتمل على ظاهر هذه الصورة ما تدعيه العامة. وما رأى أحد رأس هذا الجبل في وقت من الأوقات منحسرا عنه الثلج، إلا وقعت الفتنة وأريقت الدماء من الجهة التي يرون الثلج منحسرا عنها»

وقلما يذكر أبو دلف بلدا ألا يعود ببنائها إلى ملوك ايران أو بعض التابعة اليمنية أو جن سليمان. وتكثر هذه النسبة الأسطورية في كتب العجائب، كما تكثر معها الخرافات.

ولنستعرض بعض ما جاء في كتابات القزويني، يقول عن «أبهر» إحدى مدن إيران أن سابور هو الذي بناها، وكانت كلها عيونا، فسدها بالصوف والجلود وبنى المدينة عليها. أما أصبهان فقد بناها الإسكندر المقدوني وعمَّرها بختنصر بأسراه من بيت المقدس. وقد نزل في قديم الزمان عسكر في «بروجرد» فمسخ حجارة صلدة. وبقرب

نهاوند جبل عليه طلسمان: صورة ثور وسمكة، وجبل آخر عليه إيوان كبير يسع ألف نفس، وفي آخره أربعة أحجار تشبه أثداء النساء، يتقاطر من ثلاثة منها الماء. وبالقرب من قزوين جبل عليه صور حيوانات وأناس مسخت أحجارا، منها راع متكئ على عصاه يرعى غنمه، وامرأة تحلب بقرة. وبجرجان عين بقربها دودة، شَرِب أحدهم من العين ومست رجله تلك الدودة فأصبح الماء مرا لا يمكن شربه. ومن عجائب جيلان أن المطر يسقط بها مدرارا، فإذا سمعوا بالليل صوت ابن آوى وأعقبه نباح كلب، بشر بعضهم بعضها بصحو الغد. وبالقرب من طبرستان حصن الطاق، وكان في قديم الزمان خزانة ملوك الفرس، وأول من اتخذه منهم منوجهر، وهو نقب في موضع عال في جبل صعب المسلك، والنقب يشبه بابا صغيرا، فإذا دخله الإنسان مشى نحو ميل في ظلمة شديدة ثم خرج إلى موضع واسع أشبه بمدينة قد أحاطت به الجبال من جميع الجوانب، وهي جبال لا يمكن صعودها لارتفاعها. وكان يحفظ هذا النقب في أيام الفرس رجلان معهما سلم يدلآنه من الموضع الذي هما فيه إن أراد أحدهما النزول، فلا يصل إلى الأرض إلا خلال دهر طويل!

وفي طبرستان على بحر الخزر شجرة إذا ألقيت شيئا من عيدانها في الماء يموت ما فيه من السمك، ويطفو على وجهه، وجبل به مغارة فيها دكة إذا لطخت بشيء انفتحت السماء وأمطرت مطرا شديدا. وفيها حشيش مَنْ قطعه ضاحكا وأكله، غلب عليه الضحك، ومن قطعة باكيا وأكله غلب عليه البكاء، وكذلك من قطعه راقصا، فكل من قطعه وهو على حال غلبت عليه. ويقولون أن بها طائرا يسمى ككو، ذيله يشبه ذيل الببغاء، يظهر أيام الربيع، فإذا ظهر تبعه صنف من العصافير موشاة الريش، يخدمه طول نهاره، ويأتي له بالغذاء حتى إذا أمسى المساء أكل ما حوله من تلك العصافير، وإذا أصبح صاح فجاءته عصافير أخرى، تقوم على خدمته حتى إذا جاء المساء أكلها، وما يزال هذا شأنه طوال الربيع، فإذا زال الربيع فُقِدَ ذلك النوع إلى الربيع القادم.

ومن بلاد التركستان طمغاج وأهلها يتخذون من الذهب أوانيهم، وهم زعر لا شعر على جسدهم، رجالهم ونساؤهم. وفي مدينة تسمى الغور عين يذهب إليها الناس في يوم معين من السنة، فيرمون فيها سهامهم، فإذا أصبحوا وجدوا السهام خارج العين، وعلى نصل بعضها رؤوس الحيوانات من الذهب، أما رأس طير أو سمك أو أوز أو حيوان آخر، وبعض السهام تخرج وليس على رأسها شيء. وبها السمندل وهو حيوان كالفأر

يدخل النار ولا يحترق، ويخرج والنار قد أزالت وسخه وصفت لونه وزادته بريقا، ويُتخذ من جلده مناديل ثمينة، وإذا اتسخت ألقيت في النار فزال وسخها. وفي التركستان ثلج وبرد كثير، وحصى إذا حركوه سقطت عليهم الأمطار الغزيرة.

ويروي القزويني إن في قزوين مقبرة، يأتيها الناس ليلة الجمعة، فيرون بها أنوارا غريبة تصعد من القبور وتنزل فيها، يقول: ولقد رأيت في بعض الليالى عجبا، وذلك أنه قد طلع من بعض قبورها كرة قدر إبريق، وصعدت نحو الهواء أكثر من عشرين ذراعا، وأضاءت الجوانب بنورها ورآها غيري خلق كُثُر، ولم تكن على لون النار، بل كانت على لون القمر ضاربة إلى الخضرة، ثم عادت إلى مكانها. وبسمرقند جبل به غار يتقاطر منه ماء بارد صيفا وحار شتاء، وفي طشقند جبل حجارته سود تحترق مثل الفحم، وإذا احترقت اشتد بياض رمادها، فيستعمل في تبييض الثياب، ولا يعرف شيء مثله من البلاد. وفي فرغانة نبات على صوره الآدميين، منه ما يكون على صورة الرجال، ومنه ما يكون على صورة النساء. وقد مرت بنا أسطورة جبل دنباوند عند أبي دلف مسعر بن مهلهل، وانتهت عند القزويني وسط هذه الخرافات والتهويلات إلى هذه الصورة:

«ذكر محمد بن ابراهيم أنه شخص إلى دنباوند ليقف على المحبوس به، فوافى القرية التي في حضيض الجبل، ومعه بعض عساكر الخليفة المأمون، فظلوا أياما يرومون الوصول إلى بيوراسب ولا يهتدون إليه، حتى أتاهم شيخ كبير عمره نيف وتسعون سنة، فأعلموه مرادهم، فقال لهم: أما الوصول إلى هذا الملتمس فلا سبيل إليه، لكن أن أحببتم الوقوف على صحة ذلك أريتكم برهانه. فاستحسن محمد بن إبراهيم رأيه وصعد الشيخ، قال محمد بن إبراهيم: وصعدنا خلفه إلى الجبل، وأوقفنا عند موضع، وقال: بالغوا في حفره، فحفرنا حتى انفتح لنا عن بيت منقور من الحجارة وفيه تمثال على صورة عجيبة، وهو يضربه على أغلاله وقيوده ساعة بعد ساعة من غير فتور. فسألنا الشيخ عن شأنه، فقال: هذا طلسم على بيوراسب المحبوس ههنا، لئلا ينحل من وثاقه، فإنه لا يزال يشد في أغلاله حتى ترق وتلين، فإذا ضربتها بمطرقتي عادت أغلاله كما كانت في غلظها وثخانتها. ثم أمرنا ألا نتعرض للطلسم وأن نرده إلى ما كان عليه، ففعلنا كما قال، ثم انتهينا إلى سلالم أطول ما تكون، فأمر الشيخ بشد بعضها إلى بعض، حتى بلغت قريبا من مائة ذراع، ثم أمرنا برفعها وبنقب موضع في الجبل، فظهر باب عليه مسامير حديد مذهبة وفوقه كتابة بالذهب تنطق بأن في قمة الجبل سبعة أبواب من حديد، وأن من فتح أحدها هجمت على الإقليم آفة لا تندفع، وحادثة لا تمتنع. قال محمد بن ابراهيم، لمن معه: لا

تتعرضوا لشيء حتى نستأذن الخليفة. وكتب إلى المأمون بما شاهد هو ومن معه من العسكر، فكتب إليه المأمون: لا تتعرض لشيء من ذلك وأتركه على حاله».

واكبر كتاب يعرض لهذا التاريخ الأسطوري لايران وللفرس هو كتاب «غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم» لابي منصور الحسين بن محمد المرغني الثعالبي، وهو غير الثعالبي مؤلف كتاب التيميّة المشهور، وكان يعاصره كما كان يعاصر الفردوسي الذي نظم قصيدة قصصية طويلة تربو على أربعين ألف بيت من الشعر في تاريخ الفرس من أول نشأتهم وقد ضمنها كثيرا من الأساطير.

وكتاب الثعالبي المذكور يعرض كذلك تاريخ الفرس منذ نشأتهم الأسطورية وما اقترن بها من ملوك خرافيين، وهو يعرض هذا التاريخ عرضا بديعا، تسوده القصة والخرافة في كثير من جوانبه، وقد عرض في أوائل كتابه للملك الأسطوري بيوراسب الذي يسميه العرب باسم الضحاك، وكان ظالما سفاكا للدماء، بدأ حياته بقتل أبيه. وكان إبليس كثيرا ما يتصور له، وقد قبَّل منكبيه يوما ونفخ فيهما من خبثه وسحره، فخرجت بهما حَيَّتان، كلما قطعتا عادتا كما كانتا وآلمتاه جداً. وتصور له إبليس في صورة طبيب، وقال له إن هاتين الحيتين لا تهدآن إلا إذا أُطْعِمَتا برؤوس الآدميين، فكان يقتل كل يوم شابين ليطعم الحيَّتين، وما زال يفعل ذلك بشباب فارس عشرات السنين، حتى ثارت عليه الرعية وعلى رأسها أفريدون، فقتله واستولى على الملك من بعده. يقول الثعالبي، و«يزعم الفرس إنه حمله إلى جبل دنباوند وحبسه في بئر هناك».. ومن أكاذيبهم أنه لا يزال يعد من الأحياء بهذا الجبل وأنه من المنظرين كإبليس إلى يوم القيامة.

ويمضي الثعالبي على هذا النحو في كتابه يقص أخبار ملوك الفرس قصًّا أسطوريا خرافيا حينا، وقصًّا واقعيا حينا آخر، ومن أساطيره التي لا يقبلها العقل أسطورة اسفنديار الذي اخترق مدينة الصفرية بطريق لم يسلكه أحد، به ذئبان كالفيلين وأسدان كجبلين وثعبان يهجم من السحاب (التنين)، وساحرة تسحر من يمر بها وعنقاء (الرخ) قاتلة، ويقتحم اسفنديار الطريق ويقتل كل هذه الدواهي، فيدخل مدينة الصفرية ويتغلب على ملكها أرجاسف.

من كتاب
غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم

اسفنديار يقتل تنينا

لما شارف الأمير الفارسي اسفنديار المرحلة الثالثة في طريقه المخيف إلى بلاد الترك تقدم الجيش وأسرع بالسير حتى انتهى إلى موضع تنين، فلبس اسفنديار السلاح وأمر بتحول العجلة والصندوق إلى فرسين آخرين أقوى من الأولين، وركب في الصندوق وفتح الباب الأمامي وصاح بالفرسين فجريا وجرا العجلة بما عليها، وكأنهما اتخذا الرياح الأربع نعالا لهما. وحين اقتربا من التنين سار إليهما كأنه سحاب أسود فجذبهما بأنفاسه، وأراد أن يبتلعهما فغص بالصندوق ونشبت النصول في حنكه، فلم يقدر على البلع ولا على التخلص من الصندوق وفتح اسفنديار بابه المتأخر ووثب منه، وطفق يضرب التنين بسيفه، حتى قطعه، غير أنه سقط صعقا من هول الرائحة المنتنة التي وجدها في جسمه. ولحق به جيشه، ورآه القواد كاشف الوجه فظنوا أن التنين قد عمل عمله، وأنه مات، وأمر بعضهم برش الماء البارد على وجهه وصدره، فأفاق، وقال: لا تهتموا فأني سالم ولم يمسسني سوء، وإنما ساءتني الرائحة المنتنة للتنين. واجتمع الجيش ينظر إلى الثعبان المهول وهو لا يزال يتحرك، فتعجبوا من كبر جسمه وهول منظره وكثرة دمائه، وأثنوا على اسفنديار ودعوا له.

اسفنديار يقتل ساحرة

أمر اسفنديار بالرحيل بعد قتله للتنين، وحين ارتفع الحجاب عن حاجب الشمس شارف المرحلة الرابعة، فتقدم الجيش كعادته، وأخذ معه بعض الطعام والشراب وعودا لطيفا، وسار مسرعا حتى انتهى إلى منزل ساحرة كان سمع أنها تعيش في هذا الطريق

وتفتك بمن يمر فيه. ولما انتهى إلى منزلها رأى روضا غديرا وأشجارا كأن الحور أعارتها قدودها وكستها برودها، فنزل في ظل شجرة ملتفة الأغصان على غدير صاف، وقيد فرسه، وتناول بعض طعامه، ثم أخذ العود، فنقره واستنطق وتره، وغنى غناء معناه: إلى متى تترامى المغاور والجبال بي، وتنبو الأوطان والأوطار عني؟ حتّام خوض الحروب ومعاناة الخطوب؟ وأين السرور بوجوه الحسان وغازلة الغزلان؟ إن الذي أنزلني هذا المكان الذي يحكي الجنان، قادر على أن يقر عيني بجارية وسيمة، تسرني بطلعتها وتؤنسني بمساعدتها». وكل ذلك على مرأى ومسمع الساحرة، فقالت في نفسها: قد وقع الأسد في الحبالة، وجاءتني الغنيمة، ولم تلبث أن برزت في صورة جارية كأنها فلقة قمر على برج فضة، وعليها من الحلي والحلل ما يروق ويشوق. وأقبلت فجلست بجواره، فرفع يده وقال: سبحانك ما أعظم شأنك وأتم سلطانك وإنعامك إذ رزقتني في مثل هذه البقعة مثل هذه الصورة المقصورة على الجمال والكمال. وصب عصيراً كان معه كوباً، وشربه على وجهها، وملأ الكوب فناوله إياها، فشربته، وأخذا يتنادمان. وكانت مع اسفنديار سلسلة لا يعمل فيها السحر، فأخرجها في خفية منها، وأعدها، حتى إذا عطست الساحرة ألقاها في عنقها، وأوثقها بها، فتحولت إلى صورة أسد، تخرج النار من فمه، وجعلت تجذب نفسها من يده، فقال لها: أني أنا اسفنديار، وهذه سلسلة لا يعمل فيها السحر، ولن تفلتي من يدي، فأظهري نفسك كما أنت لي. فظهرت عجوزاً شوهاء أقبح من زوال النعمة، وأوحش من موت الفجاءة، وقالت له: يا اسفنديار لا تكن ضيف سوء، ولا تنس حرمة المنادمة، وأطلقني أنفعك، فضربها بسيفه ضربة فرقت بين رأسها وجسدها، فثارت غبرة شديدة وانتشرت ظلمة أعادت النهار ليلاً، وتجلت عما قليل. ونصب رأس الساحرة على خشبة وركزها في تل حتى أقبل العسكر فنظروا إلى رأس كهول طلوع الروح، ووجه كقضاء السوء وشكروا الله على جميل صنعه.

اسفنديار يصيد العنقاء

ورحل اسفنديار بجيشه حتى قارب منزل العنقاء (أنثى الرخ) في المرحلة الخامسة من طريقه، فأمر بإعداد العجلة التي يركبها وتركيب السيوف الحداد والأسنة الشداد في الصندوق الذي عليها وأحكامها من الخارج، ثم حملها على فرسين مستوفيين شرائط العتق وجودة الجري، وقعد في الصندوق وصاح بهما، فجريا كالهواء العاصف، وانتهيا إلى شجرة باسقة، فوقفا في ظلها. وأقبلت العنقاء من الهواء كالسحابة المرعدة لعظم

جسمها وحفيف أجنحتها، وانقضت على العجلة تريد أن تخطفها هي و الفرسين، فلما أهوت إليها وضربت نفسها بها نفذت فيها السيوف والأسنة المركبة في الصندوق، وكلما زادت ضربا بأجنحتها ازدادت النصول نشوباً في جسمها وأجزائه. ووثب اسفنديار من تلك العجلة، فرشقها بالسهام المسمومة حتى ضعفت، ثم واصل ضربها بسيفه حتى سقطت وخمدت. ووصل الجيش، فرآها العسكر ساقطة كالطود العظيم، ومنقارها كأعظم ما يكون من المعادل، ومخالبها كأطول ما يكون من الحراب، فتعجبوا من أمرها وأثنوا على اسفنديار ثناء كثيرا.

عقاقير تحيي الموتى

كان لكسري أنوشروان مائة وعشرون طبيبا بين رومي وهندي وفارسي، وكان برزويه من أمهر أطباء الفرس وأكثرهم دراسة للكتب، فوجد في بعضها أن ببلاد الهند جبالاً، فيها من غرائب العقاقير ما يحيي الموتى فما زال ذلك يدور برأسه، ويسمو بهمته إلى طلبه وتحصيله، حتى أخبر أنوشروان بما في نفسه، واستأذنه للنهوض والسعي في الظفر ببغيته، فأذن له وأعانه على سفره، وزوده بكتاب إلى ملك الهند حتى يهتم بأمره، ويعمل على إنجاح مطلبه.

ولما دخل برزويه الهند وأوصل كتاب أنوشروان إلى ملكها أكرمه وحكمه في مناه، وأنهضه لوجهته في طلب العقاقير من مظانها. فما زال يجد ويجتهد ويتعب ويدأب في محاولة اجتنائها والتقاطها وتأليفها وتركيبها، حتى كان مثله بعد حين من الدهر كما تقول عامة بغداد: ما زلنا في لا شيء حتى فرغنا. واستشعر الكآبة والانخذال لما فاته من مراده وما ذاع من أيامه، وتصور الخجل من أنوشروان إذا عاد مخفقاً إليه، فسأل عن الأطباء الأكثر شهرة والحكماء الأشد حكمةً بأرض الهند، فدل على شيخ عالي السن، فأتاه، وقص عليه قصته، وذكر له ما قرأه في بعض الكتب من حديث جبال الهند واشتمالها من العقاقير على ما يحيي الموتى، فقال له: «يا برزويه حفظت شيئا وغابت عنك أشياء. أما علمت أن ذلك رمز للقدماء، والمراد بالجبال العلماء وبالعقاقير كلامهم الشافي الكافي. وبالموتى أن العلماء يؤدبون الجهال بحكمهم، فكأنهم يحيون الموتى. وهذه الحكم موجودة في كتاب مُعَنْوَن باسم كليلة ودمنة، لا يوجد إلا في خزانة الملك، فسرى عن برزويه وسُرَّ بما سمع.

ورغب برزويه إلى الملك في إعارته هذا الكتاب، وتقليد الملك أنوشروان بذلك منة مشكورة، فقال له الملك: سآمر بإعارته لك إيجابا لصاحبك، ورعاية لحقك، شريطة

أن تقرأه بين يدي، ولا تتخذ منه نسخة لنفسك فأجابه برزويه بالسمع والطاعة، وجعل يحضر في كل يوم مجلسه، ويدعو بالكتاب فينظر فيه، ويتحفظ معانيه، ويقيدها بالكتابة إذا رجع إلى منزله، حتى أتى على جميعه. وأستأذن الملك للعودة إلى صاحبه، فأذن له وأهدى إليه وخلع عليه. وحين وصل إلى أنوشروان أخبره بقصته وبشره بحصول الكتاب لديه، ثم عرض عليه، فأعجبه به وأجزل صلته، وأمره بزرجمهر بنقله إلى اللغة الفترسية، فتلطف برزويه وتضرع إلى الملك في الأذن، بافتتاح الباب الأول منه باسمه وذكره، فأجابه إليه. ولم يزل الكتاب مخزونا عند ملوك الفرس حتى نقله ابن المقفع إلى العربية.

صندوق السر الغامض

لما نكب كسرى أنوشروان بزر جمهر أمره بأن يختار لسكناه موضعا لا يبغي عنه حولا في الصيف والشتاء، ولطعامه شيئاً واحدا لا يستبدل به وللباسه ثوبا لا يتعداه إلى غيره، اختار السرب (البيت الذهب تحت وجه الأرض) لكونه في الصيف بارداً، واختار الفرو، ليلبسه في الشتاء حتى إذا دخل الصيف قلبه. فطالت أيامه في المحنة حتى كف بصره. وأتفق أن أنفذ قيصر إلى انوشروان صندوقا صغيراً مقفلا مختوماً، وسأله أن يحاول معرفة ما فيه قبل فتحه. فسأل أنوشروان من ببابه من العقلاء عن ذلك، فتساوت أقدامهم في القصور عن الإجابة والإصابة. وعلم أنوشروان أن ليس له إلا بزرجمهر على عماه، فأمر بإطلاقه وإدخاله الحمام وإلباسه ما كان يلبسه من ثياب الوزراء وادخله. فامتثل أمره، وأوصل بزرجمهر إلى مجلسه، فقربه، واعتذر إليه، وأخبره بحال الصندوق، وسأله عما فيه، فاستمهله ليلة. ثم ركب في الصباح الباكر وقدم أمامه رجلين وأمرهما أن يخبراه بأول من يستقبله، فاستقبلته امرأة فقال لها: أبكر أنت أم ثيب؟ فقالت: بكر، فانطلق فاستقبلته ثانية فقال لها: أأيم (لأزوج لها) أم ذات بعل؟ فقال: ألك ولد؟ فقالت: لا، وانطلق فاستقبلته ثالثة فسألها عن حالها، فقالت: ذات ولد. وانطلق بزرجمهر حتى دخل على أنوشروان، وسأله الأمر بإحضار الرسول والصندوق المختوم فاحضرا. فقال بزرجمهر: إن في الصندوق ثلاث درر إحداها غير مثقوبة والثانية منصفة، والثالثة مثقوبة. ففتح عنها، وكانت كما وصف. وتعجب أنوشروان من فطنته وندم على نكبته، وعاد إلى قديم صلته والرفق به.

صقر وعصفور

يحكى أن خسرو بن فيروز، أحد ملوك الفرس، جلس يوم مهرجان للهدايا، فجاءه منها طبق مغطى بمنديل حرير موبذان (من كهنة المجوس) فأمر بكشفه. وإذا في الطبق فحمتان محترقان، فتعجب من سخف الهدية مع شرف ظرفها (وعائها)، ثم قال: ما أراها إلا مشتملة على حكمة فعليّ بالموبذان. فلم يلبث أن قدم، وسأله خسرو عن الفحمتين، فقال: إعلم أيها الملك إني أجتزت بروضة عالية الأشجار، قد اشتعلت فيها النار، ورأيت صقراً يتعقب عصفوراً، فهرب منه العصفور، واقتحم النار من خوفه، وتبعه الصقر حتى دخل في النار على إثره حرصاً على صيده، فاحترقا معاً، وسقطا فحمتين. فأخذتهما معتبراً بهما، وقلت في نفسي: لا ينبغي للإنسان أن يشعر خوف عدوه كل الاستشعار، حتى يقدم من شدة الخوف على الاستجارة بما يهلكه كالعصفور الذي أحرق نفسه لفرط خوفه. ولا ينبغي للإنسان أيضاً أن يحرص جداً على متاع الدنيا، حتى يمشي بقدمه على دمه في التوصل إليه، كالصقر الذي جنى على نفسه بشدة حرصه. فقال خسرو: ما أوعظ هديتك وما أحسن موقعها، وما أهديت إلى اليوم مثلها، وبالغ في إكرامه والإحسان إليه.



الأساطير الإغريقية



الاوديسه

للشاعر الخالد «هوميرس»

ملخصه عن ترجمة للكاتب الإنجليزى «شابمان»

قد يكون من اللغو أن أقدم إليك هذه القصة وناظمها، وقد يكون اعتداء مني صارخاً على أدبك وعلمك أن اعتقد بأن «الاوديسه» اسم جديد أطلع به عليك. فأنت على الأقل قد عرفتها وعرفت الإلياذة وقرأت عن تأثيرها في أدب أوروبا وقصصها وخيالها الشيء الكثير، وأنت على الأقل تعرف أن نهضة القرن السادس عشر قد استمدت الوحي من هوميرس وشعره، وأن الشعراء والكتاب الذين نجموا في ربوع أوروبا، قد اتخذوا من تقليده أساسا يبنون عليه قصصهم وآدابهم.

وأنت بعد ذلك لا شك تطلّع على قراءة هذا الشعر الذي ملأ ذكره الآفاق، فما أسعدني بأن أقدمه إليك أو أن أقدم لك شيئا من روحه وعظمته، فإن أصبت الظفر فحسبي وإلا فإني أستميحك العذر.

قدم العهد بسقوط طروادة وأوبة أبطال حربها، بيد أن أوليس لم يعد إلى وطنه في اتيكا. فتقاطر نفر من المواسين على داره يرتدون لباسا مزخرفا زائفا من الأسف والأسى، وهم في الحقيقة كانوا يتوافدون ليذكروا الغائب بما يختلج قلب زوجه بنلوب وابنها تليماكوس.

وما مات أوليس ولكن المقادير طوّحت به إلى جزيرة اوجيجا حيث احتواه قصر كلبسو سبع سنين، كان فيها معتقلا رغم الأنف وأخيرا أجازت له الآلهة أن يعود إلى وطنه.

ولقد استطاع هذا السائح الغريب أن يشهد من مدائن الدنيا عديدا، كما استطاع أن يختبر الخلق وألوان حياتهم وصنوف أزيائهم، بيد أنه لقي في سبيل ذلك أهوالا جساما،

وجالد بنات الدهر وصروف الزمان جلادا. وكم وقف هو وصحبه على حافة الهاوية فجهد لخلاصه وخلاصهم حتى سقط به الإعياء وغلبه القدر إليهم.

جاءت بالاس إلى تليماكس وتقدمت إليه بأن يبحر في سفينة يتسقط أخبار سيده ثم أنحت باللائمة على الجالسين فهب من بينهم أنطونيوس وأنشأ يقول: عطف كريم وقول محمود ينم عن نفس صافية وقلب فاتر، ولكنا ننكر مثل هذا التعنيف لغير ما جريرة ولا إثم.

وألح الجمع على تليماكوس بالسفر فنزل عند إرادتهم وسار متنكرا في رفقة اثنين إلى نستور ثم إلى مينالوس في إسبرطة، فقص عليه هذا كيف اعتقل بروتوس وكيف ذبح أخاه أجاممنون. ثم جاء ذكر أوليس فقال: «لقد رأيت ابن ليرتس في قصر كلبسو (آلهة الماء) محولا بينه وبين وطنه وهو بتلك الحيلولة مبتئس حزين لا ترى في وجهه يوماً من الأيام إشراقة»

ثم أقلع تليماكوس إلى بلاده مزودا بالأعلاق والهدايا، فتآمر صحبة على أخذه غيلة في الطريق. وفيما هم في ذلك تقدم هرمز إلى الإلهة كلبسو ففكت عقال أوليس وغادر أوجيجا في زورق لم يقو على مغالبة الأنواء، فرسا في جزيرة فيكيا ونزل إلى الشاطئ حيث آوى إلى مأمن بين الأشجار اضطجع فيه ليستريح من وعثاء الطريق ويلقي عنه غبار السفر. وما هي إلاّ هنيهة حتى أخذ الكرى بمعاقد أجفانه وراح يغط في النوم غطيطا عميقاً.

تنفس الصبح عن يوم جديد جميل وخرجت الأميرة نوسيكا في جمعٍ من خادماتها وخلتها إلى شاطئ النهر يغسلن ما اجتمع لديهن من ملابسهن فلما فرغنَ منها سبحن ورتعن ما شئن ثم دهَّن أجسامهن الناعمة البضَّة بالطيب والزيوت وقمن إلى الكرة يتممن بمداعبتها مرحهن وسرورهن.

ولست بمحدثك عن نوسيكا وجمالها بأكثر من أن أقول بأنها هي المثل الأعلى للحسن والنضرة. وقفت تتوسط جمع اللاعبات وتدفع الكرة هنا وهناك في رفق ولين، وتنشد أغنية شجية بصوت عذب رخيم حتى كانت مرة شدت فيها على الكرة فخرجت عن الدائرة هاوية وسط الأشجار بين الصياح والهتاف. وأفاق أوليس من نومه فهرول إلى مبعث تلك الأصوات الناعمة.

كان في مظهره شيء من الخشونة أورثته إياه أسفار البحر وركوب الأهوال، وأنَّى

للعذارى أن يثبتن لمثل هذا المفاجئ الغريب. فطوت كل واحدة منهن ملابسها وأطلقت ساقيها في الهواء مذعورة ترى أين تختبئ، إلاّ نوسيكا فإنها وقفت مستبسلة رغم ما اعتراها من وجل وذعر. ولا غرابة فقد جاءتها بالاس ونفخت فيها من الثبات ما يعوزها في هذا الموقف وكان لها ما أرادت.

تقدم أوليس نحو الأميرة ثم جثا بين يديها ذاهلا مبهوتا وهو يقول «هل لي يا سيدتي أن أسألك فتفصحي لي إن كنت من تلك الأحياء الفانية أو من ذلك الجنس النوراني الخالد؟. إن كنت من الآلهة فأنت لا شك كوكبهم الوضاء، وأنت لا شك سيدة سكان السماء، وإن كنت بشرا تدبين على الأرض دبيبنا وتحيين في ربوعها حياتنا فسقياً ورعياً لأبوين أنجباك وهنيئاً لبعل يسعده الجد باحتضانك ورشف ماء الحياة من تلك اللمى والشفاه...».

ثم سألها أن تخلع عليه لباسا وأن تريه الطريق إلى المدينة. فهتفت بخادماتها أن يجيبونه إلى ما يطلب فكسوه وأطعموه ومنحوه زيتا وعطورا ثم انتحين ناحيةً ريثما يصلح من هندامه. ووافته في تلك الآونة بالاس فأفرغته في جمال باهر شعرت نوسيكا عند رؤيته بأن قلبها يخفق خفقانا غريبا. ولكنها انتبهت إن هي ألحقته بحاشيتها أن يتساءل الناس في المدينة، فأشارت إليه بأن يتبع أثرها وأن يكون منها على كثب ثم أنشأت تصف له قصر أبيها وتقول: إذا جئت الساحة فسل المثول بين يدي والدتي واجتهد أن تنال رضاها فقد تشرق بكلمة واحدة منها، شمس سعادتك وهنائك، قد يكون مطمح آمالك الساعة ان تركب إلى بلادك، فترى بيتك منظوما وترى آلك راتعين في حلل من الرفة وقد يكون غير ذلك ولكنها بلا شك تستطيع أن تدني إليك قطاف كل ما ترون إليه في سماء الأمل والخيال.

وسارت نوسيكا بين ندمائها كالجوهرة في العقد او كالبدر في صميم السماء وتبعهن أوليس بعد فترة ما. ثم قابلته بالاس في الطريق فحدثته عن الملك الكسينوس والملكة أرت ولكنه كان مأخوذا بالهيبة والجلال، فما زال في طريقه لا يلوى على شيء، ولا يفكر في شيء حتى دخل على الملكة فجثا أمامها وقبل الأرض بين يديها في تضرع من أثقلته الهموم. بيد أنه رغم ذلك قوبل بالتحية وأفسح له الجمع مكانا فجلس وجلسوا جميعا ينصتون إليه، ثم قام أحدهم ينغم أنغاما موسيقية وينشد عن سقوط طروادة نشيدا شجيا فبكى أوليس وانتحب فسأله الملك ما خطبه، فقص عليهم قصته وأخبار تجواله قال:

وبعد رحلة طويلة شاقة وصلنا جزيرة الأغوال وهبطت الأرض في اثني عشر رجلا من رفقتي. ولما وافينا كهف الغول الكبير ابتدرنا في لهجة المتهكم الساخر «بخ بخ للضيوف الكرام، ما الذي طوح بكم إلى هذه البحار النائية، أتجارة أم سياحة أم تلصص! أغراكم بارتياد أرض مثل هذه غريبة تعرضون فيها أرواحكم البريئة للهلاك والدمار».

ـ نحن نجاهد ابتغاء مرضاة الآلهة.

ـ آلهة ؟!. ذلك محض غباء وجنون تحاولون به أن توهمونى وتدخلوا الرهبة في قلبي. ولكني آسف شديد الأسف لطيش سهمكم دون غايتكم. فنحن الأغوال لا نحفل بآلهتكم التاعسين وأستطيع وحدي أن أقاوم إرادة جوف معبودكم العظيم.

ثم دنا والتهم اثنين من صحبي وانكفأ إلى مضجعه حتى إذا انفرجت لمة الظلام عن جبين الفجر وامتد لسان الصبح إلى حلكة الليل يمحو سوادها ويذهب بدولتها، خرج إلى سائمته فاقتادها ثم عرج فافترس اثنين آخرين. ولم يكن لنا بعد ذلك إلاً أن نصمت فحزمنا أمرنا على فقء عينه عند أوبته.

مضت سحابة النهار فعاد الغول يتوسط غنمه عند الأصيل. وما انتهى إلينا حتى بطش باثنين منا وآوى يريد أن يهجع، ولكني اجترأت على حديثه وتقدمت إليه بكأس من النبيذ قائلا «تفضل يا سيدى فاجرع هذا الكأس، فما سال ماؤه إلا في النهر المقدس، نهر نكتار. ثم انظر ألا تريد أن تعرف اسمى فإننى أدعى ـ لا أحد».

فخاطبنى في غلظة... «لا أحد ؟!. نعم سآكلك في النهاية حين لا يبقى أحد من إخوانك».

ثم انصرفتُ وما هي إلا هنيهة حتى هجع فأخذت حربة وطعنته في عينه أَعْوَلَ من هولها عويلا دونه هزيم الرعود. واجتمع الغيلان يتساءلون ما خطبه ؟ فصاح بهم (لا أحد) أوردنى مورد الحتف فهزوا أكتافهم ساخرين. ثم قالوا «إذا كنت قد جلبت على نفسك الضر وإذا لم يكن أحد قد مسك بمكروه فمن العبث أن تصيح وتعول. ولكنه قام متعثرا يتلمس الصخور والحوائط رجاء أن يمسك بإنسان. وكنا قد استلبنا ثلاثة خراف ثم أخذنا سمتنا إلى البحر. فلما نزلنا في الماء صحت أقول «أيها الغول، إذا سألك سائل عن اسم الذي جرؤ على ثلم عينك فقل أنه أوليس بن ليرتس ربيب أتيكا والحائز على لقب حامي المدينة. قل إنه فقأها وأخرجها على سن رمحه».

فلما قرع هذا سمعه ولول ولولة حانقة تجاوبت بها أرجاء الجزيرة ثم صعد على

صخرة ناتئة هوى من قمتها على السفينة ولكنه أخطأها. وهكذا استطعنا أن نفلت إلى كهوف إيلوس إله الريح ثم إلى أرض العفاريت ومنها إلى جزيرة أيا حيث تقيم جماعة السحرة. فأرسلتُ طائفة من جندي يتحسسون الطريق، فاستطاعوا أن يروا في الأفق منزل الساحرة العظيمة ورأوا أمامه جمعا هائلا من الذئاب والسباع. ثم رأوها تطعمهم وبإشارة منها واحدة ينقلبون هجوما. ولما سمعت ذلك هرولت إلى هناك ولكن هرمز اعترض طريقي ومنحني أعشابا اتقي بها السحر وكانت منه رعاية جديرة بالشكران فإنى ما كدت أصل إليها وأتمثل أمامها حتى لوحت نحوي بعصاها فاستللت سيفي على الفور وهددتها أن أضرب عنقها إن هي عادت إلى ذلك.

أجل. روعتها و أومض سيفي فأنار بوميضه ما أظلم من موقفها وأرغمها على أن تنزل منزلها فجثت بين يدي ضارعة خاشعة ثم قالت وقد جرت امواه شؤونها «رباه، أيّ أرض أنجبتك. لابد أن تكون أوليس بن ليرتس فما أحسب هذه الشهامة لأحد سواه».

فأجبتها «لقد صحت فراستك فانهضي إلى حل الرموز ودعيني أرى رفقتي» وصدعت بالأمر راضية أو راغمة وما هي إلا برهة حتى جاءونى يسعون. فتلاصقت الصدور والتفَّت الأذرع وارتفعت الأصوات بالتهنئة ولكن الساحرة لم تشأ أن نغادر الجزيرة تواً، فنزلنا عندها سنة كاملة زرت خلالها مساكن هيوز ثم سافرنا تشيعنا بالأسى والأسف وتحدثنا عما ينتظرنا من أهوال وصعاب، فذكرت السرينز وهم قوم في السحر جدّ ماهرين وذكرت السكيلا ذات الرقاب الست والأسنان الحادة ثم شاربديس التي تستطيع أن تفغر فاها فتبتلع أمواج البحر جميعا.

وقد رأينا هؤلاء فارتعنا لمنظرهم وما زلنا نفر من مكان إلى مكان حتى نزلنا جزيرة تسوم فيها قطعان البقر. وما هو إلا أن جرؤ أحد رفقتي على ذبح أحدها حتى حلَّت بنا النقمة وعمل فينا سيف الموت فلم ينج منه إلاّي.

أنصت الملك فأحزنه أمر هذا الشريد ورغب في أن يعينه على العودة إلى بلاده. نزوّده بالهدايا ورحله في سفينة إلى شاطئ أتيكا. فما نزل به حتى أعجله النوم فسقط به حيث كان ولما فتح مقلتيه رأى بالاس قد وافته لترشده إلى طريق يسلكها مع أعدائه. ثم نفخت فيه فبدلت من شبابه ونشاطه كهولة واسترخاء وجال أوليس فيما يكتنفه. فأتى على الراعية الأمينة أمايس فتقبلته هذه قبولا حسنا وقصت عليه ما أتاه المواسون من المنكرات دون أن تعرف من هو. وفي هذه اللحظة كانت بالاس قد جاءت بتليماكس من إسبرطه

وسارت به متخطية دور المواسين. وما كادت الراعية تراه حتى قامت له إجلالاً وحيَّته التحية الواجبة للأمراء، وقام الشيخ الأشيب يحيِّي الزائر، فسألته أمايس أن يجلس وألا يرهق نفسه بالقيام والقعود. ثم خرجت هذه هنيهة في بعض شأنها وخلعت بالاس على أوليس شبابه ونشاطه برهة فعرف الولد أباه وأشرق جبينه برؤيته. ثم طفق الرجل يقول «عد يا بني إلى وطنك فداهن الواشين وراوغهم واصبر على كيدهم، أما أنا فسأذهب إلى المدينة في صحبة هذه الراعية الأمينة وسأحاول الظهور بمظهر الفقير البائس العاني، فلعلهم يستخفون بي ولا يفكرون في أمري، لا تجزع يا تليماكس ان رأيتني بينهم خاشعا وحذار أن تنس التأهب والاستعداد. ليكن معك نفر من خلتك متدرعا بالأسياف والأرماح حتى إذا أعوز الأمر مضينا ومضوا ذبحا وتقتيلا».

وما زال الحديث بينهم سجالا حتى لعب الشيب بفودى الليل فاختلف الشاب إلى المدينة ينفذ وصية والده. وتبعه أوليس والراعية بعد حين، فما كاد يفد على المدينة حتى لمح في ساحة من ساحاتها كلبا يسمونه أرجوس، فعرفه وعرف أنه أليون الذي دلله وأعزَّه وأين تلك المعزة والدلال مما هو فيه من شقوة وآلام؟ لقد كان ينام في الفراش الوثير ويتستر بالدمقس والحرير فأصبح مهينا يقوم على حراسة الثيران وينصب لكسب القوت نصبا لا عهد له به. وهكذا تدور الأيام حتى على الحيوان الأعجم فتعبث به ما تعبث وتذيقه من صنوف الآلام والأوان العذاب ما تذيقه.

تقطر قلب أوليس لرؤية كلبه وزاد به الوجد عندما انتصب الحيوان قائما ودنا منه يتمسح بأرجله، فأمسك بين أهدابه دمعة حائرة كفكفها الحياء، ثم مضى في سبيله متثاقلا مضطربا حتى وافى مجلس المواسين. فرحب به تليماكس ورحبوا هم به أيضاً إلا أنطونيوس. فإنه أخذ كرميا ولطم به الطارق الغريب. فلم يأبه أوليس للطمة هذا النذل ولم يبد بها تبرما أو ضجرا وإن كان قلبه بين جناحيه قد تفجر لوقاحته.

تضجر الجميع الباقون بهذه الفعلة الشنعاء وارتفعت من جوانب المكان أصوات استنكار سمعتها بنلوب. فأرسلت إلى أمايس أن يوافيها بهذا الزائر، ولكنه لم يجد إلى ذلك سبيلا إلا بعد أن لبس ستار الليل فادلج إليها ولم يفصح لها عن أمره بل لفق حوادث وحكايات ومخاطرات قصَّها في صوت متهدج حزين، حتى أسال عبراتها ونال من قلبها، فهتفت بالخادمة العجوز أركليا وأمرتها أن تغسل للزائر أقدامه وتزيل عنه بعض ما أصابه في تلك الأسفار الطوال. وما كاد يكشف عنهما حتى افتضح السر وعرفت بنلوب كل شيء، وعرفت أنه زوجها أوليس من ندبة في إحدى رجليه. ولما انصرفت الخادمة تعانقا

بعد فراقٍ طويلٍ جرعا فيه الألم من كأسين، كأس البين وكأس الأسفار، ثم كأس المواسين وحديثهم المزعج.

ثم سأل الزوج زوجته أن تكتم الخبر وأن تدعه ينفذ الخطة التي رسمها فأنكرت منه ذلك وأبت إلا أن تعاونه ما استطاعت. وفكر الاثنان في حيلة لطيفة عقدا النية على تنفيذها.

زالت دولة الظلام وخلع العالم إهابه الحالك إلى ثياب العرس الناصعة البيضاء وأشرق النهار باسما والجو رائقاً. فنزلت بنلوب إلى جماعة المواسين ولما توسطت الجمع قالت: «لقد طالت غيبة أوليس (وهنا سقطت أمايس منتحبة باكية) حتى نفذ صبري وما كان لمثلي أن يصبر من هذا الأمد الطائل برهة واحدة. واليوم أريد أن أقيم بينكم مباراة، فمن كسبها منحته قلبي وعقدت على حبه خنصري. ذلكم قوس العزيز الراحل ستتناولونه الواحد بعد الآخر، فمن أصاب هذا الهدف المترائي في الأفق البعيد أصاب بسهمه عصفورين ثانيهما قلبي الظاميء إلى غلالة يطفئ بها شوقه وعذابه».

ثم غادرت المكان وتقدم القوم للرماية فلم يظفر بالهدف منهم ظافر وأخيرا تقدم الطارق الغريب بقدم ثابتة حتى تلاقى القوس فتأبطه وجعل يقول: «أمايس عزيزتى، أيها القوم، ألا تعرفونني، ألا تعرفون سيدكم أوليس. لقد حضرت بعد تجشم صعاب هائلة لأعود إلى الوطن فلم ألق منكم إلا العقوق والخيانة. سأشترك معكم في هذه المباراة.

وهنا ارتفعت الأصوات بالتذمر فصاح خدم القصر وصاح تليماكس وذعر المتأففون فسكتوا بجدع الأنف وأخذ أوليس يعبث بوتر قوسه فينغم نغما دونه نغم الموسيقى شجوا ورَقة ثم ما برح يعالج السهم في هوادة حتى انطلق يصفر في أجواز الفضاء فأصاب صميم الهدف وأصاب إلى جانبه أفئدة المواسين جميعا.

ولم يقف اوديسس عند هذا بل تناول سهما آخر وهو يقول في رزانة وثبات: «حسن جداً لقد أصبت الهدف الذي قصرتم جميعاً عنه، ولكن هناك هدفا أدق فانظروني قليلاً حتى أضربه». وما كاد يصل من كلامه إلى هذا الحد حتى انطلق السهم من يده فصرع أنطونيوس وسقط به في مكانه. وعلى أثر هذا ثار المواسون وحاولوا الوصول إلى سيوفهم، فوقف أوليس وخاطبهم غاضبا «مكانكم أيها الجبناء الرعاديد. لقد كنتم أمواتا في طروادة وكنتم من طلعتي تفرقون، فترتعد فرائصكم وتصطك أسنانكم فما الذي حدا بكم حتى تعيثوا في منزلي هذا العبث وتجرؤون على زوجتي هذه الجرأة ؟ ألم تحسبوا

للمستقبل حسابا ثم ألم تخشوا يوما تحاسبون فيه على أعمالكم إن شرا فشر وإن خيراً فخير ؟. لقد تناسيتم هذا اليوم مع أنه كان منكم قاب قوسين أو أدنى، وها هو اليوم قد جاء، فذوقوا العذاب بما كنتم تعملون. إن الموت الزؤام عاقبتكم ولن تجدوا منه مفرا.

ثم حمل تليماكس وأبوه على الأعداء فذبحوهم رغم حصولهم على السلاح من خادم خائن وبقيت منهم بقية ولّت الأدبار فاقتفيا أثرها وأباداها.

طار الخدم بالخبر إلى سيدتهم بنلوب فهللت له وكبرت وعاد أوليس فعانق زوجته عناقا طويلا سكبا خلاله دموع الفرح باللقاء والنصر المبين.

أما المواسون فقد طفق هرمز يجمع أرواحهم ويكدسها في منزل هيدز كما تتكدس الخفافيش في ظلمات الكهوف، حتى إذا انتهى من عمله دعا ببعض الجهنميين وساروا إلى مقر أرواح الآلهة فرأوا أرواح بتروكلس وأنطلوكوس وأجاكس تتقدم الجميع أمام بليون.

ثيسيوس.. بطل أثينا

لم يكن مِن أبطال أثينا مَنْ هو أعز على أبنائها من ثيسيوس، ولا عجب، فقد صنع بطولته بيديه القويتين، وانتزعها انتزاعا من بين براثن الأخطار. فحينما رحل أبوه إيجيوس إلى أثينا ليجلس على عرشها في عهدها الملكي الأول، تركه جنينا في بطن أمه وقال لها وهو يودعها مشيرا إلى صخرة هائلة: «إذا كان ما في أحشائك غلاما، وشبَّ قوي البأس بحيث يقدر وحده على دحرجة هذه الصخرة، فسيجد تحتها سيفي الأعظم وخفين ينتعلهما، ويستطيع حينئذٍ أن يلحق بي، ويكون خليفتي على العرش».

وجاء الوليد ذكرا، وشبَّ قوياً غاية القوة، وما علم بقصة تلك الصخرة حتى رفعها بيديه من غير كبير عناء، ثم تقلد سيف أبيه، وانتعل خفيه، وأعلن عزمه على اللحاق به. ولما أخبرته أمه بأن أباه أعد لرحلته سفينة جيدة قوية الشراع، أبى أن يركبها إلى أثينا، لأن الرحلة إليها بالبحر هينة لا مشقة فيها ولا خطر. أما الطريق البرية إليها فتحفها المخاطر والأهوال، إذ يكثر فيها القراصنة والوحوش وقطاع الطريق. وجدير بمن كان مثله ينشد إكليل الأبطال أن يركب الصعاب ويتحدى الأخطار.

وهكذا ودع أمه وجده، ثم اتجه إلى أثينا وحده، لا يؤنسه إلا سيف أبيه الباتر، وقلبه الفتى الشجاع، فلقي في الطريق أولئك الأشرار الفاتكين، الذين أشاعوا الرعب في قلوب المسافرين، فقتلهم أجميعن.

وتحدثت بلاد اليونان كلها بما صنع «ثيسيوس» البطل الشاب، فسبقته شهرته إلى أثينا واستقبله أهلها استقبال الغزاة، ودعي إلى مأدبة تكريم في قصر الملك أبيه، من غير أن يعلم هذا الأخير أنه ابنه الذي تركه جنينا في قرية نائية بالجنوب.

وأوجس الملك خيفة من شهرة البطل الفتى الذي احتل أعلى مكانة في قلوب

الاثينيين، وأوحت إليه زوجته «ميديا» ـ وكانت ساحرة عرفت بسحرها حقيقة ثيسيوس ـ أن يدس له السم في كأس الشراب أثناء تلك المأدبة. فلما هم الفتى بتناول الكأس المسمومة رافعا سيفه بتحية الفروسية التقليدية، عرف الملك ذلك السيف وحامله، وسرعان ما اختطف الكأس من يده ثم احتضنه فرحا فخورا به، بينما فرت «ميديا» ناجية بنفسها إلى آسيا.

أعلن الملك على رؤوس الأشهاد ثيسيوس ولده وولي عهده ووارث ملكه. فأقيمت معالم الأفراح، وزاد الشعب به تعلقا، ولعرش والده ولاء.

وسنحت بعد ذلك فرصة مواتية كي يزداد ثيسيوس في نظر الأثينيين قدرا ومكانة. فمن قبل ذلك بسنوات جاء ابن ملك كريت إلى بلاط أثينا زائرا، فاقترف الملك خطأ ما كان له أن يتورط فيه، إذ بعث بضيفه الشاب في مهمة خطرة، هي اقتناص ثور وحشي هائج، فقتل الثور الأمير.

وغضب ملك كريت لمصرع ولي عهده، فاجتاح مملكة أثينا وأعلن أنه سيسويها بوجه الأرض فلا تقوم لها قائمة أبد الدهر، أو يبعث إليه ملكها مرة في كل تسع سنين بجزية فريدة في بابها هي سبع عذارى وسبعة شبان من أعرق الأسر في المدينة، ليقذف بهم إلى وحش هائل يلتهمهم إلتهاما. ولم يكن هذا الوحش سوى «المينوتور» الرهيب نصف الأدنى ثور، ونصفه الأعلى بشر. وفي رأسه قرنان، وقوته قوة الضياغم، وشراسته شراسة النمور.

ولهذا الوحش الأسطوري تاريخ مسطور مشهور، فأبوه ثور أبيض رائع، أهداه الإله بوسيدون إلى مينوس ملك كريت كي يقدمه إليه قربانا على مذبح هيكله. ولكن مينوس أفتتن بجمال الثور وقوته فعز عليه أن يذبحه قربانا، واستبقاه في قصره الملكي معززاً مكرماً فغضب الإله بوسيدون، وانتقم منه بأن أشعل في قلب زوجته «باسيفاى» الحسناء حب ذلك الوحش حبا جامحا جعلها تمكنه من نفسها، وتلد مسخا يحمل آية عارها، وفضيحة زوجها الملك وذلته بين الناس. ولم يسع الملك وذلته بيت الناس. ولم يسع هذا أن يقتل ذلك الوحش، فعهد إلى مهندسه العبري «دايدالوس» بحبسه داخل حظيرة هائلة ليس إلى الخروج منها سبيلا وإلى هذه الحظيرة كان شباب أثينا والعذارى يقادون فيعجزهم الخروج، ويأتي عليهم المينوتور.

وحلت نوبة الجزية عقب وصول «ثيسيوس» إلى اثينا، فأبى إلا أن يكون من بين الشبان السبعة، وألح في ذلك إلحاحا شديدا، حتى قبل والده على مضض كبير.

ولما حان وقت الرحيل، قال ثيسيوس لأبيه:

ـ لقد نويت قتل الملك المينوتور بعون الآلهة، كي أخلصكم من هذه الجزية الشنعاء، وسأعود بعد ذلك في سفينة الوفد الأثيني جاعلا لها شراعا أبيض، بدل الشراع الأسود الذي كان شعار الحداد على ضحايا أثينا الأبرياء.

ولما وصل شباب أثينا إلى كريت، عرضوا على الناس في موكب حافل قبل أن يلقى بهم إلى «المينوتور» وكانت «أرياند» ابنة مينوس الحسناء ممن شهدوا ذلك العرض، فراق في عينيها «ثيسيوس» الوسيم القوي، وأحبته لساعتها، وانصدع فؤادها إشفاقا عليه. فبعثت من فورها إلى «دايدالوس» مهندس والدها العبقري، ليهيئ لها وسيلة للخروج منه، ثم بعثت إلى «ثيسيوس» خلسة بأنها ستعينه على النجاة إن هو وعد باصطحابها إلى أثينا حيث يتزوجها.

ولم يبد الفتى اعتراضا. فقدمت إليه «أرياند» كرة من الخيط الرفيع المتين زودها بها «دايدالوس»، وأمرته ان يربط طرف الخيط في باب الحظيرة من الداخل، ثم يبسط الخيط من الكرة وهو ماضٍ في طريقه فيدله الخيط على طريق النجاة.

وفعل ثيسيوس ما أشارت عليه به، ثم تقدم ثابت الجنان رابط الجأش يفتش عن ذلك الوحش مينوتور، إلى أن عثر عليه نائما في بعض الشعاب، فانقض عليه، وأخمد أنفاسه غير مستعين بشيء سوى قبضتيه القويتين، ثم عاد إدراجه مستهديا بذلك الخيط، ورفاقه ورفيقاته من ورائه يهتفون فرحين.

وتحت جنح الليل اختطفوا «أرياند» وركبوا سفينتهم عائدين إلى أثينا، ولكن الأميرة المنكودة ماتت في الطريق فحزن عليها ثيسيوس حزنا عظيما.

وفى غمرة ذلك الحزن الفادح على منقذة حياته، نسي ثيسيوس ما وعد به أباه، فلم يستبدل الشراع الأبيض بالشراع الأسود. وكان الملك أيجيوس من سفرة وحيده فوق مرقب الأكروبول الشاهق، لتقع عينه على السفن من أقصى الأفق. فلما رأى الشراع الحالك، أيقن بهلاك قرة عينه، وألقى بنفسه من فوق قمة الأكروبول فمات لساعته غريقا في البحر. وسمي البحر منذ ذلك اليوم بحر «ايجه» نسبة إليه.

وتسلم ثيسيوس عرش أبيه، فكان أكثر الملوك حكمةً وأنزههم مقصدا.

ولكن هل يكف مثل ثيسيوس عن طلب المخاطر ومصارعة الأهوال؟ وهل يلهيه الملك والسياسة عن هواية تجري في عروقه مجرى الدماء؟

لقد كان يخرج إلى المجاهل لصيد الوحش. فلما سئم ذلك خاطر بنفسه بالرحلة إلى بلاد «الأمازون» حيث سلالة النساء المسترجلات الفارسات اللائي لا يخضعن لمشيئة رجل، ويمتن كما ولدن أبكارا. وهناك قنص واحدة منهن تدعى «هيبوليتا» وعاد بها إلى قصره، فاستولدها ابنا دعاه «هيبوليتوس». وحاول «الأمازون» الانتقام لذلك الخرق الفاضح لناموسهن، فاقتحمن أثينا ليختطفن الطفل الوليد وأمه، ولكن «ثيسيوس» ردهن على أعقابهن مدحورات وبعث بابنه إلى بلدة أمه في جنوب اليونان حيث نشأ هو ليشب في أحضان جدته.

وماتت «هيبوليتا» بعد حين فانصرف ثيسيوس عن الزواج إلى نصره، من يستنصره من الملوك والأبطال إلى أن عشق «فيدرا» أخت اريانه فتزوجها وعاشا في أرغد حال.

وكبر ابنه هيبوليتوس، وصار شابا رائع الحسن والبأس، يحقر نعومة الترف، ويزدري هوى النساء فأعجب ثيسيوس بولده أيما إعجاب، وتوثقت بينهما المحبة أيما توثق.

وشغف هيبوليتوس بزوجة أبيه حبا، فأرقت ليلها، وعافت طعامها، والحقُّ أنها لم تكن مذنبة في ذلك لأن ربة الحب «أفروديت» هي التي زينت لها ذلك العشق الآثم، كي تنتقم من هيبوليتوس لانصرافه عن عبادتها.

وعولت «فيدرا» على الانتحار، ولكن مربيتها العجوز ردتها، ووعدتها أن تنقع غلتها وتشفي نفسها بطيب وصال من تحب. ثم ذهبت إلى الفتى تستعطفه لسيدتها، وكان والده على سفر، فأنكر عليها ذلك وغادر القصر معلنا أنه لن يعود إليه إلا وأبوه فيه.

ولم تمض دقائق حتى حضر «ثيسيوس» من سفره، فاستقبلته النسوة في الحديقة مولولات، لأن سيدتهن الملكة «فيدرا» ماتت لتوها وفي يدها رقعة إلى زوجها الملك، فانكب الملك عليها باكيا معولا، وهو يقسم لتكون رغبتها التي انطوت عليها رسالتها أمرا مقدسا.

وتلا الرقعة مثنى وثلاث ثم صاح في حاشيته كالليث الهائج:

ـ ما أشقاني بالذي قرأت! اعلموا أن ابني قد اغتصب زوجتي عنوة، فقتلت نفسها تكفيرا وأسى. اسمعي أيتها الآلهة صوتي وأنا ألعنه، ونفذي لعنتي فيه.

وأقبل هيبوليتوس مسرعا، فإذا أبوه يلقاه باللعنات ويعلنه بالنفي المؤبد. فخرج يتعثر إلى سفينة يركبها إلى منفاه. ولكن أفروديت لم تهمله، بل تذرعت بلعنة أبيه فأخرجت من اليم وحشا هائلا افترسه. ثم ظهرت «ارتميس» آلهة الصيد لأبيه فأخبرته بالحقيقة فمات أنبل الملوك، بطل أثينا الأعظم حزنا على وحيده البريء الشهيد.

أبولون ودفنى

كانت «دفنى» أول من أحب «أبولون»، على أن هذا الحب لم يأت عفوا لحوادث وإنما كان نكاية من «كيوبيدوس» وكيدا، استطاع به إله الحب الصغير، أن ينتقم لنفسه من ابن «زفس» بل من إله من أكبر الآلهة الذين عرفهم المقام الأولمبي.

فقد رأى «أبولون» الصبي «كيوبيدوس» يلعب بقوسه وسهامه وكان «أبولون» قد انتصر في ذلك الوقت على «فوثون» وما زالت نشوة الانتصار تتأجج في صدره، وتضطرم سورتها في قلبه، فراح تياها فخورا. فلما رأى الصبي في لهوه، أكبر منه أمر اللعب بالقوس والسهام وقال له:

«ما لك ولآلات الحرب، وما أنت صانع بها ؟ إنما يجب عليك أن تتركها للأيدي التي تستحق حملها، وللأبطال الذين يعرفون كيف يحمونها أيها الصبي الناشئ. أترك هذه الآلات للذين هم معتادون أن يقتحموا بها المعارك ويشقون بها طريقهم إلى النصر. أنظر إلى النصر الذي توجت به جبيني، وإلى الفتح العظيم الذي نلته بانتصاري على الحية «فوتون» وكانت قد نشرت جسمها السام على ما شئت من فضاء الأرض. ألا فاقنع أيها الصبي بمشعلك فأوقده وأرسل لظاه ووجه ألسنته إلى حيث شئت، ولكن حذار أن تتخذ من أسلحتي ألعوبة تتلهى بها»

فلما سمع ابن «فينوس» هذا الكلام التفت إلى الإله الكبير وقال له: «إن سهامك قد تصيب حيث شئت أن تصيب بها، ولكن سهامي سوف تصيبك في الصميم».

وما إن فاه بهذه الكلمات حتى اعتلى صخرة من صخور «فرناسوس» واستل من جعبته سهمين، كلا منهما يختلف عن الآخر، فأحدهما يثير الحب والثاني يقمعه وكان الأول مصنوعا من الذهب حديد السنان وصوبه نحو الحورية «دفنى» ابنة «بنيوس» إله النهر، وبالسهم الذهبي رشق «أبولون» فشك فؤاده.

وكأنما ذلك السهم الذهبي كان لهيبا أضرم في قلب أبولون لظى الحب نهام «بدفنى» هياما وأغرم بها غراما كان في قلب «دفنى» من البغض له والاشفاق منه ما يعاد له ويزيد. وإنما كان لهذه الحورية الجميلة غرام بالجراح، الغابات الملتفة، وبالألعاب التي في سكون تلك الغابات متسعا لها، ومجالا يكفيها. وقد تبعها كثير من المحبين، وتعقبها عديد من المغرمين بها فأقصتهم عنها ونفرت منهم نفورا، ومضت تجول في الغابات متنقلة في فضائها وتحت خمائلها، كأنها شعاع الشمس المضيئة في غيهب من الليل البهيم، ولم تفكر في «كوبيدوس» ولا في سهامه التي يصيب بها القلوب ويضرم بها الأحشاء.

أما أبوها فكثيراً ما نهاها عما كانت فيه، فلم تنتهِ، ونصحها فلم ترعَ. وذات يوم أقبل إليها يحدثها بلين ورفق قائلا: يا ابنتي إن لي في عنقك حفيدا، بل حفيدة.

ولكنها كانت ترى أن الزواج جريمة كبرى. بل معصية عظمى، فاحمر وجهها الجميل خجلا، ألقت بذراعيها حول عنق أبيها قائلة:

«يا أبي العزيز: هبني الهبة التي اطلبها، هبني الحرية في أن أظل عذراء، وأن أبقى بغير زواج، كما بقيت ديانا»

فلم يسعه إلا الإذعان لمشيئتها، وانصرف عنها وهو يتمتم: إن وجهك يأبى أن تظلي كما تريدين.

كان «أبولون» قد أحبها، ورغب في أن تكون له. غير أن «أبولون» ذاك الذي كان يقسم الحظوظ على الدنيا بأسرها، قد أَنِس العجز في أن يصرف حظ نفسه، وأن يسعد بأمنية قلبه. ولقد رأى ذات يوم شعرها الفاتن مرسلا من فوق كتفيها الجميلتين فأهاب بها: «إذا كان هذا مقدار ما في جمال شعرك مرسلا، فكيف بما إذا تعهدته يَدُ الصناع، فأضفى عليه الفن جمالا فوق جمال ؟» ورأى في عينيها بريق النجم المتألق ورأى شفتيها الفاتنتين، ولم يقو على أن يقنع بمرآهما. ولقد جن بيديها المواستين، وذراعيها اللتين اتخذهما الفن مثالا ينسج عليه، وكتفيها العاريتين البيضاوين، ولقد خيل إليه أن ما احتجب عن ناظريه من جسمها كان أوفى جمالا. وأعظم فتنة مما ظهر منه.

وتعقبها «أبولون» وهربت «دفنى» فكانت أسرع من الريح وأعجل من السهم الضال، ولم تثن عن التنقل فزعة خائفة لتستمع إلى شيء من تساؤلاته»: «قفي يا ابنة «بنيوس»

فلست عدوا ولا منتقما جبارا. لا تفري مني فرار الشاة من الذئب، أو فرار الحمامة من الباشق، إنما أتبعك مسوقا للحب. إن ما يسعدك يتعسني، وفرارك يؤلمني، حذار أن تزل قدمك فيصيبك من هذه الصخور أذى. أتوسل إليك أن تكوني في فرارك أكثر تريثا وأقل سرعة، وأنا أعدك أن أكون في طرادي كما تكونين في فرارك. إن أبي «المشترى»، وأنا سيد دلفوس وتندوس. إني عليم بكل الأشياء، شهادة وغيبا. إني إله الأغنية والإيقاع. إن سهامي لن تخطئ الغرض. وا أسفاه. فإن سهما أشد من سهامي فتكا وأنفذ فعلا اخترق قلبي. أنا إله الطب الذي يعرف خصائص جميع العقاقير الشافية. ولكن أشكو مرضا تعجز جميع البلاسم عن أن تبرئه».

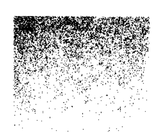
غير أن الحورية كانت تتابع الفرار، تاركة توسلاته إلى الرياح، تتولاها بالشتات والتبديد. على أن فرارها كان مبعث إعجاب في قلب «أبولون». فقد كان الهواء يعبث برفع ثيابها، وينشر شعرها الجميل مرسلا من ورائها. غير أن الإله ذهب صبره وقلت حيلته في إغرائها بالتوسل وشفاعة الحب، فأسرع الخطى، مسوقا بسهام «كوبيدوس» ليلحق بها ويقطع عليها شوط الفرار الدائم. فتبعها كما يتبع السلوقي فريسته فاتحا ذراعيه، فاغرا فاه، مبديا تواجده، والفريسة الضعيفة جادة في الهرب، مطلقة للريح ساقيها، تطلب النجاة، وعلى هذه الصورة كان الإله يتبع الحورية الربانية. هو يطير وراءها على أجنحة الحب، وهي تفر منه على أجنحة الخوف والإشفاق.

ولاحت بداية المنتهى، لما لحق بها أدركها «أبولون» فكانت أنفاسه في ظهرها، ثم مد يده فكانت في قبضته. وتراخت مفاصلها واضمحلت قواها، فترنحت وكادت تسقط على الأرض إعياء ورعبا، ولكنها وجدت بقية من قوة اليأس فصاحت بأبيها: «أدركني يا بنيوس إفتح الأرض لتنشق فتبتلعني، ثم تستوي علي. أو فغير هيئتي التي كانت سببا في أن أقع فريسة هذا العدوان».

ولم تكد تتم صيحتها حتى يبست مفاصلها. وانقلب صدرها إلى جذع شجرة كبيرة يكسوه لحاء خشن كثيف، وتطور شعرها فأصبح أوراقا، وذراعاها فصارتا أغصانا، وغاصت رجلاها في الأرض فأصبحت جذورا وشعيرات، وتحول وجهها إلى قمة شجرة، فلم يصبح فيه من شيء مما كان، اللهم إلا مسحة من الجمال تذكر من يشهدها بجمال من كانت قبل أن تنقلب ذلك الانقلاب السحري، فتصير شجرة.

ووجم «أبولون» ينظر بتعجب فيما يرى، ولمس الجذع بيده، وأراد أن يتحقق الأمر، فلمس الأوراق بفمه، فكان نباتا لا أثر للحيوانية فيه، بل تذوق فيها طعم نبات لم يعهده. وتفرس الشجرة ساعة ثم مضى يهمس بكلمات خافية:

أما وقد فاتني أن تكوني لي زوجة، فلن يفوتني أن تكوني شجرتي سأتخذ منك إكليلا ألبسه فوق رأسي. سأجمل بك قيثارتى وجعبة سهامي فإذا جاء الوقت الذي سوف يقود فيه أبطال الرومان جحافلهم قافلين إلى الوطن إثر انتصاراتهم التي سوف يشهدونها، فهنالك يعقد من أغصانك أكاليل تتوج رؤوسهم. وكما أني خصصت بهبة الشباب الأبدي فكذلك ستكون أوراقك دائمة الاخضرار، فلا تجف ولا تكون هشيما. أنت يا شجرة الغار.



الأساطير الروسية



إيفان وماريا تولستوى

تأتي أيام السباحة في الاسبوع العاشر من عيد الفصح.

آنذاك الشمس تلذع صدر الأرض بحرارتها، ويلتمع وهجها في قاع البحيرة الأخضر، تحت الجذوع المغمورة، وأعشاب الماء وعشب الشيح العجبيب يأخذ بالازدهار.

وعرائس الماء لا تجد ما تحتجب به، فتخرج في الأماسي الهادئة والليالي القمرية من تحت مياه البحيرة، وتختفي بين الاشجار، فتسمى عندئذ عرائس الاشجار.

وهذا مدخل للحكاية التي شاعت آنذاك في روسيا:

فى قديم الزمان كان ايفان واخته ماريا يعيشان في كوخ صغير على شاطىء بحيرة ساكنة، لكن سمعتها سيئة. إذ يقال ان فيها جن الماء يعربد. وعندما يرتفع القمر فوق البحيرة يأخذ جن الماء بالبقبقة، والقرقرة في أخوارالقصب، ويضرب الماء بعنف، ويخرج من القصب وهو يجلس على جذع البلوط، وعلى رأسه طرطور مصنوع من طحالب الماء. وعندما يراه المرء يختفي خشية ان يغرقه في الماء.

وكان ايفان يحذر اخته ماريا بصرامة قائلاً:

ـ في غيابي لا تخرجي من الكوخ خطوة واحدة بعد هبوط الظلام، ولا تغني عند ماء البحيرة، واجلسي وديعة هادئة كالفئران.....

فتقول مارياً:

ـ سمعاً، يا أخي.

خرج ايفان الى الغابة. واستوحشت ماريا في جلوسها وحيدة وراء ماكينة الغزل

فاتكأت على مرفقها، وانشأت تغني:

«يا قمر الذهب اين انت؟، طلع القمر فوق الماء، على البحيرة الفيحاء، وغاص في اللجة السوداء»

وفجأة صدر طرق على مصراع النافذة.

ـ من هناك ؟

ردت أصوات رقيقة وراء النافذة:

ـ أخرجي إلينا، أخرجي إلينا.

خرجت ماريا مسرعة، وارسلت آهة عجب. اذ رأت عرائس الماء يملأن الدرب من البحيرة حتى الكوخ. أمسكت إحداهن بيد الأخرى، ورحن يَدُرْنَ، ويضحكن، ويلعبن.

صفقت ماريا بيديها. لا جدوى! أحطن بها العرائس ووضعن إكليلاً على رأسها...

ـ إنضمي إلينا، يا أحلى الفتيات، وستكوني ملكتنا.

وامسكن بيد ماريا، ورحن يَدُرْنَ بها.

وفجأة طلع من وراء القصب رأس أزرق منفوخ وعليه طرطور.

قال جني الماء بصوت ابح:

ـ مرحبا، يا ماريا. كنت في انتظارك منذ زمنٍ بعيد...

ومد إليها يديه.

جاء ايفان في الضحى، وفتش عن أخته هنا وهناك فلم يجدها. وبعد قليل رأى حذاءها وحزامها على الشاطىء. فجلس ايفان، وأخذ يبكي.

وتمضي الأيام، والشمس تدنو من الارض. وجاء أسبوع السباحة. وفكّر ايفان: «سأرحل، وأقضي بقية عمري عند الغرباء. وأصنع لنفسي خفاً من ليف الشجر». ووجد وراء البحيرة شجرة زيزفون، وقطع بعض ليفها، وضفر منه حذاء، وخرج الى الغرباء.

سار وسار حتى رأى أمامه شجرة زيزفون مسلوخة، هي التي قطع الليف منها وضفر حذاءه.

فكر ايفان مع نفسه: «أوه، كنت أسير في الجهة المعاكسة». وغيّر وجهة سيره. وسار عبر الغابة ودار فيها واذا به يرى شجرة الزيزفون المسلوخة مرة أخرى.

قال ايفان في نفسه:

ـ روح شريرة.

وذعر، وراح يعدو، بينما خفّاه يستديران به من حيث جاء. استبد الغضب بايفان، فرفع الفأس يريد أن يهوى بها على شجرة الزيزفون.

فإذا بالشجرة تقول بصوت حزين:

ـ لا تقطعني، يا أخي العزيز.

وسقطت الفأس من يدي ايفان:

ـ أهذه انت، يا أختي؟

ـ أنا، يا أخي العزيز. تزوجني جني الماء، فصرت الآن شجرة عروساً. وفي الربيع سأعود عروسة ماء من جديد... وحين انتزعت الليف مني لتصنع لك خفاً، سحرتك لكيلا تذهب من هنا بعيداً.

ـ وهل يمكن أن تخرجي من قبضة جني الماء؟

ـ ممكن، إذا جلبت عشب الشيح من مكان رجراج وألقيته في وجهي.

وما إن قالت هذا حتى حمل الخفان ايفان، وانطلقا به إلى الغابة.

الريح تصفر في اذنيه، والخفان يرتفعان به فوق الأرض، ويصعدان، وايفان منطلق في الأعالي في سحابة سوداء. فكر ايفان مع نفسه: «ربما اسقط» وتشبث بغيمة رمادية لزجة رجراجة.

سار عبر غيمة، لا يرى حوله أجمة ولا عشباً. واذا بقزم بطول المرفق يتململ تحت قدميه، ويخرج من ثغرة في الغيمة، عليه طرطور أحمر. وزعق القزم بصوت عال كصوت الثور لا يناسب طوله:

ـ لماذا جئت الى هنا ؟

إنحنى ايفان له قائلاً:

ـ لأجلب عشب الشيح.

ـ سيكون لك عشب الشيخ، اذا تصارعت معي كما يتصارع الغجر.

واستلقيا على ظهريهما، كما يفعل الغجر عند المصارعة، ورفع كل منهما رجلاً الى الاعلى، وتشابكا بهما، وراح أحدهما يسحب الآخر بقدمه. والقزم بطول المرفق قوي في المصارعة، ولكن الخفين يعينان ايفان.

وصار ايفان يسحب خصمه.

صاح القزم:

ـ حالفك الحظ، وإلا لكنت في السماء السابعة. فلكم ارسلت من أمثالك الى هناك. هاك عشب الشيخ.

وألقى له حزمة. اختطف ايفان الحزمة، وانطلق الى الاسفل، واذا بالقزم بطول المرفق يهدر، ويرعد، ويخرج لسانه الأحمر من السحابة، يومض تارة، ويخفت اخرى.

وصل ايفان إلى شجرة الزيزفون، فإذا به يرى شيخاً رهيباً يقتعد الأرض، ويحرك شاربيه . . .

ويصيح ايفان:

ـ دعني أسير. فأنا أعرف من أنت. ألا تريد هذا ؟

ووخز جني الماء في وجهه بعشب الشيخ. وانتفخ جني الماء، وانفجر، وتحول الى جدول سريع يمضي الى البحيرة.

وألقى ايفان عشب الشيخ على شجرة الزيزفون، فخرجت منها أخته ماريا، وعانقت أخاها، وراحت تبكي وتضحك في آن.

هجر ايفان وماريا الكوخ الصغير عند البحيرة، وخرجا الى ما وراء الغابة الكثيفة السوداء، ليعيشا في حقل منبسط، لا يفارق أحدهما الآخر.

وهما يعيشان سويا حتى الآن، والناس ينادون دائماً عليهما سويا: ايفان، ماريا، ايفان، ماريا.

الشهور الاثنا عشر

هل تعرف عدد الشهور في العام؟ اثنا عشر شهراً.

وما اسماؤها؟ يناير، فبراير، مارس، ابريل، مايو، يونيو، يوليو، اغسطس، سبتمبر، اكتوبر، نوفمبر، ديسمبر.

وحالما ينتهي شهر، يبدأ آخر. ولم يحدث قط أن جاء فبراير قبل يناير، وسبق مايو ابريل.

وتتعاقب الشهور واحداً وراء الآخر، ولا يجتمعان البتة.

ولكن الناس يزعمون أن فتاة في بلاد بوهيميا الجبلية، رأت الشهور الأثني عشر كلها مجتمعة. فكيف حصل هذا؟ إليكم الحكاية . . .

في إحدى القرى الصغيرة كانت تعيش امرأة لئيمة شحيحة مع ابنتها، وابنة أخرى من زوجها. وكانت تحب ابنتها، ولا يروق لها شيء من ابنة زوجها، مهما فعلت، وأينما حلّت.

كانت الابنة لا تفارق فراشها الريش أياماً كاملة، وتلتهم الكعك بلا انقطاع، بينما ابنة الزوج لا تستقر في مكان من الصباح حتى الليل، تنقل الماء، وتجلب الحطب من الغابة، وتغسل الثياب في النهر، وتقلع الاعشاب الضارة في حديقة البيت.

كانت تعرف زمهرير الشتاء، وقيظ الصيف، وريح الربيع، ومطر الخريف. ولربما من أجل هذا أسعفها الحظ ذات مرة لترى الشهور الاثني عشر مجتمعة.

كان الفصل شتاء، والشهر يناير، والثلج يتساقط بكثرة، حتى اقتضى الأمر جرفه بمكانس الثلج من باب البيت، وغرقت الأشجار على سفح الجبل في أكوامه إلى النصف في الغابة، حتى لم تعد تتمايل حين تعصف بها الريح.

ولزم الناس بيوتهم، وأدفأوها بالمواقد.

في مثل هذا الوقت فتحت زوجة الأب الخبيثة باب الكوخ قليلاً عند المساء، ورأت زوبعة الثلج تدوم، ثم عادت الى الموقد الدافىء، وقالت لابنة زوجها:

ـ حبذا لو خرجت إلى الغابة، وجمعت منها زهور الثلج الزرقاء، فغداً عيد ميلاد أختك.

نظرت الفتاة الى زوجة أبيها لتعرف أهي هازلة أم جادة في إرسالها الى الغابة؟!. فما أرهب الغابة الآن! ثم أي زهور ثلج في عز الشتاء ؟ فهى لا تطلع من تحت الثلج قبل حلول مارس، ولن تجد واحدة منها الآن، ومهما تجولت في الغابة فلن تقع إلا على كثبان الثلج التي قد تنحدر بك فتهلك.

وتقول أختها لها:

ـ اذهبي، ولن يبكي أحد عليك حتى لو ضعت! ولا تعودي بدون زهور. وهذه السلة فخذيها.

بكت الفتاة، وتدثرت بمنديل رث، وخرجت من الباب.

الريح تنثر الثلج في عينيها، وتنتزع المنديل من عليها. وهي تسير لا تكاد تخرج رجليها من أكوام الثلج. ويظلم المساء حولها، ويظلم. السماء قاتمة لا تطل منها نجمة واحدة على الأرض، والأرض بساطٌ أبيض مضيء.

وها هي الغابة. الظلام فيها حالك لا يرى المرء فيه حتى يديه. جلست الفتاة على شجرة مطروحة، وبقيت جالسة. تقول لنفسها: سواء عليَّ، في أي مكان سأتجمد. وفجأة لمحت قبساً يلمع بعيداً، بين الأشجار، وكأن نجمة وقعت وتشابكت بين الأغصان.

نهضت الفتاة، وسارت نحو هذا القبس. تغوص بالثلج تارة، وتتخطى أشجاراً أوقعتها الزوبعة أرضاً تارة أخرى. وتقول في سرّها: «لا أخشى إلا ان ينطفىء القبس». ولكن القبس لم ينطفىء، بل اشتد أكثر سطوعاً لحظة بعد أخرى. وفاح دخان دافىء، وسمعت الفتاة فرقعة العساليج في النار. فسرَّعت خطاها، وخرجت الى فرجة في الغابة، لتقف مصعوقة.

كانت الفرجة مُنارة بنور كنور الشمس، وفي وسطها تشتعل نار كبيرة تكاد تبلغ السماء. وحول النار يجلس الناس بعضهم أقرب إليها، وبعضهم أبعد، يتحدثون فيما بينهم بهدوء.

نظرت الفتاة إليهم، وتساءلت: من هؤلاء يا ترى؟ فهم لا يشبهون الصيادين، وأبعد شبها بالحطابين. فهم في حلل قشيبة، فضية وذهبية وخضراء مخملية.

وأخذت تعدهم، فإذا هم اثنا عشر: ثلاثة شيوخ، وثلاثة كهول، وثلاثة شبان، والثلاثة الآخرون صبيان تماماً. الشبان أقربهم الى النار، والشيوخ أبعدهم عنها.

وفجأة نظر أحد الشيوخ ـ وهو أطولهم قامة، ذو لحية وحاجبين كثيفين ـ إلى الناحية التي وقفت فيها الفتاة التي ارتعبت، وهمت بالفرار، ولكن الأوان كان قد فات إذ سألها العجوز بصوت عال: من أين جئت، وما غايتك هنا؟

أظهرت الفتاة له سلتها الفارغة، وقالت:

ـ على ان أجمع زهور الثلج في هذه السلة.

ضحك العجوز، وقال:

ـ أي زهور ثلج في شهر يناير؟ أي مطلب هذا؟

فتجيب الفتاة:

ـ ليس طلبي هذا. بل زوجة أبي أرسلتني إلى هنا لأجمع زهور الثلج، وأمرتني بألاّ أعود إلى البيت وسلتي فارغة.

وفي تلك اللحظة نظر الاثنا عشر إليها جميعاً، وراحوا يتكلمون فيما بينهم. والفتاة في مكانها، تصغي، ولا تفهم كلامهم، كأن هؤلاء الناس لا يتكلمون، بل الأشجار فيما حولهم ترسل حفيفا. وظلوا يتكلمون، ويتكلمون، ثم سكتوا.

والتفت الشيخ الطويل من جديد، وسأل:

ـ وماذا ستفعلين، إن لم تجدي زهور الثلج؟ فهى لا تطلع قبل شهر مارس.

أجابت الفتاة:

ـ سأظل في الغابة أنتظر شهر مارس. خير لي أن أتجمد في الغابة من أن أعود الى البيت بلا زهور ثلج. قالت ذلك، وأخذت تبكي.

وفجأة نهض أحد الاثني عشر، وهو أكثرهم شباباً، مرح الأعطاف، وفروته على إحدى كتفيه، وتقدم من الشيخ قائلاً:

ـ يا اخي يناير، تنازل لي عن مكانك ساعة واحدة!

فمسَّد الشيخ لحيته الطويلة، وقال:

ـ يمكن أن أتنازل لك، ولكن كيف يسبق مارس فبراير؟

فقال شيخ آخر أشعث تماماً له لحية منفوشة:

ـ طيب، يا شيخ. تنازل. أنا لا أعترض! نحن جميعاً نعرفها جيداً. نراها تارة عند فتحة الجليد تستقي الماء في جردلين، وتارة في الغابة تحمل حزمة من الحطب وهي أليفة لكل الشهور ويجب مساعدتها.

قال يناير:

ـ حسناً، ليكن ما تريد.

وضرب الارض بعصاه الجليدية الطويلة، وراح يقول:

«يا شتاء، يا زمهرير، يا أبيض الناب، لا تسلخ القشرة من شجر الغاب، والإنسان من برده يغلق الابواب»

وسكت الشيخ، وساد السكون في الغابة. وكفَّ الزمهرير عن تجميد الأشجار فتوقفت فرقعتها، وراح الثلج ينزل غزيراً بنتف كبيرة ناعمة.

وقال يناير:

ـ والآن، جاء دورك، يا أخ.

وأعطى العصا الى أخيه الأصغر، فبراير الاشعث.

فضرب هذا الأرض، وحرك لحيته، وراح يرعد:

«اعصفي، يا ريح. عربدي، يا زوبعة. وارقصي في الليل، وانفخي في السحب، وهيّئي الحقول، مارس عن كثب»

وما إن فرغ من ذلك حتى هزت الأغصان ريح عاصفة رطبة، ودارت دوامات من

ثار الثلج، وسرت على الأرض زوابع بيض. وأعطى فبراير عصاه الجليدية الى أخيه الأصغر وقال:

ـ الآن جاء دورك، يا أخ مارس.

تناول الأخ الأصغر العصا، وضرب بها الارض.

ونظرت الفتاة إلى العصا، فإذا هي قد انقلبت غصناً كبيراً منظوماً بالبراعم.

إبتسم مارس، وغنّى يصدح بكل صوته الصبياني الرنان:

«أجري، يا جداول، سيلى، يا بُرَك، وانتَ، يا نمل، أترك الحفر. إنما الشتاء قام وارتحل»

واستغربت الفتاة، وبسطت ذراعيها دهشة. فأين ذهبت اكوام الثلج العالية؟ وأين راحت دلالات الجليد التي كانت تتدلى من كل غصن؟ وتحت قدميها أرض ربيعية لينة. وحولها يقطر الماء، ويخرخر، ويترقرق. وانتفخت البراعم على الأغصان، ومن تحت القشرة الداكنة، تفتق الأوراق الخضر الأولى.

ونظرت الفتاة، ولم تشبع من النظر فقال مارس لها:

ـ ما لك واقفة؟ أسرعي، فإن اخوي لم يعطيانا إلا ساعة واحدة.

أفاقت الفتاة من ذهولها، وركضت نحو الغابة تبحث عن زهور الثلج الزرقاء. وما أكثرها! أينما وجهت بصرها تراها تحت الاجمات، وتحت الاحجار، وعلى نتوءات الأرض، وتحتها. جمعت ملء سلة منها، وملء مئزرها، وعادت مسرعة الى فرجة الغابة، حيث كانت النار تشتعل، والأخوان الاثنا عشر يجلسون.

فلم تجد ناراً، ولا أخوة... وفرجة الغابة منوَّرة، ولكن ليس كما من قبل بضوء النار، بل بضوء القمر الذي ارتفع فوق الغابة.

تأسفت الفتاة على أنها لم تجد احداً لتشكره، وركضت عائدة الى البيت، والقمر يلاحقها.

ووصلت إلى باب البيت دون أن تحس بالأرض تحت قدميها، وما إن دخلت البيت حتى أخذت زوبعة الشتاء تعول وراء النوافذ، وأختفى القمر في السحب.

سألتها زوجة أبيها وأختها:

ـ عدت إلى البيت، إذاً؟ فأين زهور الثلج؟

لم تجب الفتاة بشيء، واكتفت بأن سكبت زهور الثلج من مئزرها على المسطبة، ووضعت السلة الى جانبها

تعجَّبت زوجة الأب والأخت، وقالتا:

ـ ولكن من أين جلبتها؟

قصت الفتاة عليهما كل ما حدث. زوجة الأب والأخت تسمعان، وتهزان رأسيهما بين مصدقة ومكذبة. والتصديق صعب ولكن ها هي كومة كبيرة من زهور الثلج على المسطبة طرية زرقاوية يفوح منها شهر مارس

تبادلت زوجة الأب وابنتها النظرات وسألتاها:

ـ والشهور ألم يعطوكِ شيئاً آخر؟

ـ ولكني لم أطلب شيئاً آخر.

فقالت الاخت:

ـ يا لك من حمقاء! تسنح الفرصة لك للإجتماع بالشهور الاثني عشر جميعاً، ولم تطلبي غير زهور الثلج!.. آه، لوكنت في مكانك، لعرفت ماذا أطلب؟. أطلب من أحدهم تفاحة، وكمثري حلوة، ومن آخر عنباً برياً ناضجاً، ومن ثالث فطراً لذيذاً، ومن رابع خياراً طازجاً!

وتقول زوجة الأب:

ـ يا لك من ذكية، يا ابنتي! العنب البرى والكمثرى في الشتاء لا يقدران بثمن. فلو بعناها لحصلنا على فلوس كثيرة! أما الحمقاء هذه فاكتفت بزهور الثلج، وجاءت تركض بها! إلبسي، يا ابنتي، ملابس تدفئك أكثر، واركضي الى فرجة الغابة. لن يخدعوك، ولو كانوا اثني عشر، وانت واحدة.

فردَّت الفتاة:

ـ وكيف يستطيعون!

ووضعت يديها في كميها، والمنديل على رأسها، ومضت وصاحت أمها في أثرها:

ـ إلبسي قفازين، وتدثري بالفراء!

ولكن الفتاة كانت قد غادرت البيت، وركضت الى الغابة!

وسارت على آثار أختها، تتعجل الوصول. وتفكر في نفسها «ليتنى أصل الى فرجة الغابة في أقرب وقت!»

والغابة تتكاثف حولها، ويشتد الظلام أكثر فأكثر. تزداد كثبان الثلج إرتفاعاً، وحطام الأشجار الذي خلفته العاصفة يقف أمامها كالجدار.

وتفكر الابنة المفضلة:

«آوه، لماذا خرجت إلى الغابة! ليتنى بقيت في البيت راقدة في الفراش الدافىء، وما خرجت أركض وأتجمد! وربما أضيع أيضاً!»

وما كادت تصل الى تفكيرها هذا، حتى رأت قبساً من بعيد، مثل نجمة صغيرة تشابكت مع الأغصان.

سارت باتجاه القبس، وظلت تسير حتى طلعت إلى فرجة في الغابة، في وسطها نار كبيرة تشتعل، وحولها يجلس الاخوة الاثنا عشر، الشهور الاثنا عشر، يتحدثون في هدوء.

تقدمت الابنة المفضلة حتى بلغت النار، دون أن تنحني بتحية، ولا تبادر بسلام، بل إختارت لها مكاناً أدفأ لها، وصارت تتدفأ.

والشهور الإخوة لزموا الصمت، وهدأت الغابة، وفجأة ضرب شهر يناير العصا بالارض. ويسأل:

ـ من أنت؟ ومن أين أتيت؟

أجابت الابنة المفضلة:

ـ من البيت. اليوم أعطيتم لاختي ملء سلة من زهور الثلج، فجئت على آثارها.

فيقول شهر يناير:

ـ أختك نعرفها. ولكن عيوننا لم تقع عليك قط. فلماذا تكرمت بالمجيء إلينا؟

ـ من أجل الهدايا. دع شهر يونيو يعطيني العنب البري، ويملأ السلة به، وبحبات أكبر. ودع شهر يوليو يقدم لي الخيار الطازج، والفطر اللذيذ، وشهر أغسطس التفاح والكمثرى الحلوة. أما شهر سبتمبر فليقدم لي الجوز الناضج، وديسمبر. . . .

فاعترضها شهر يناير بقوله:

ـ على مهلك. الصيف لا يسبق الربيع، والربيع لا يسبق الشتاء. ما زال هناك وقت بعيد إلى أن يحل شهر يونيو. والآن أنا ربّ الغابة. وسأحكم هنا واحداً وثلاثين يوماً.

فقالت الابنة المفضلة:

ـ أوه، يا حاد المزاج! أنا لم أجيء إليك. لا يُنتظر منك غير الثلج والجليد. أنا أريد شهور الصيف.

فعبس شهر يناير وقال:

ـ إبحثي عن الصيف في فصل الشتاء!

وهزّ كتفه العريض، فإذا بعاصفة من الثلج تهب في الغابة صاعدة من الأرض نحو السماء. وأكتست الاشجار وفرجة الغابة بالجمد، وحتى النار التي كان يجلس الأخوة حولها أختفت وراء الثلج، ولم يسمع غير صفير النار وفرقعتها وتوهجها في مكان خفي.

إرتعبت الابنة المفضلة، وراحت تصرخ:

ـ توقف! هذا يكفي!

ولكن مَن يسمع!

وحاصرتها العاصفة، وأعمت عينيها، وتقطعت أنفاسها. فارتمت على كومة ثلج.

أما زوجة الأب فقد انتظرت ابنتها وانتظرت، ونظرت في النافذة فخرجت راكضة لاستقبالها، ولم تجد احداً. ولم تصْبِر، فلفّت نفسها بثياب دافئة، وذهبت إلى الغابة. ولكن هل من المعقول أن تجد أحداً في جوف الغابة في مثل هذه الزوبعة والظلام!

سارت وسارت، وبحثت وفتشت، حتى نفذ البرد إلى عظامها، وغرقت في الثلج. وهكذا بقيت كلتاهما في الغابة إلى الأبد.

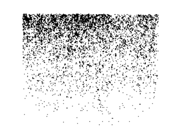
وعاشت ابنة الزوج عمراً طويلاً كبرت فيه وتزوجت وأنجبت أطفالاً.

ويقال أيضاً إنه كان لها قرب البيت حديقة رائعة لا مثيل لها على الأرض. كانت الزهور تتفتح فيها قبل تفتحها في كل الحدائق الأخرى، كذلك تبكر الأعناب والتفاح والكمثرى بالنضوج. والصيف فيها أكثر طراوة، والعاصفة الثلجية أهدأ.

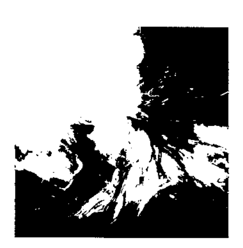
وكان الناس يقولون:

ـ الشهور الاثنا عشر يزورون ربة البيت هذه دفعة واحدة!

ومن يدري، فلربما كان ذلك.



عجائب وخوارق
من التاريخ



النساء زهور نبتت في قلوبنا

غالباً ما تشبّه المرأة بالوردة، وتذكر الميثيولوجيات القديمة أن الزهور لم تكن إلا فتيات قتلهن الحب فتحولن إلى أزهار، لذلك فإن أول تعبير يقوم به المحب هو إهداء وردة لحبيبه.

وهنا أستعرض بعض الأساطير التي ارتبطت بالمرأة

زهرة النجمة: تقول الأسطورة إن (استيرا) ملكة السماء أخذت تبكي عندما نظرت إلى الأرض ولم تجد فيها نجوماً، فنبتت زهرة النجمة في المكان الذي سقطت فيه دموعها.

الزنبق: تقول الأسطورة إن (هيرا) زوجة (زيوس) نامت عندما كانت ترضع طفلها هرقل. وعندما استيقظت مذعورة، قذفت بالطفل بعيداً عنها، فتدفق حليبها مكوناً مجرة درب التبانة (درب اللبانة).. ولكن بعض قطرات سقطت على الأرض فنبتت زهرة الزنبق.

البنفسج: تقول الأسطورة إن ملك الثلج شعر بالوحدة في قصره فبعث جنوده ليبحثوا له عن فتاة جميلة تدخل الدفء إلى قلبه، فوجد الجنود فتاة خجولاً اسمها (فيوليت) أحضروها إليه. فوقع في حبها على الفور وتحول بفعل تأثيرها من رجل قاسي القلب وعبوس، إلى رجل دافئ ولطيف. وقد رجته فيوليت مرة أن تذهب لزيارة أهلها، فسمح لها شريطة أن تزورهم في الربيع على شكل زهرة ثم تعود إليه في الشتاء. وهكذا تحولت الصبية إلى زهرة حملت اسمها.

الزعفران: تقول الأسطورة إن(كروكس) كان راعياً شاباً يتمتع بروح نبيلة، وقد وقع في حب حورية اسمها (سميلاكس). وقد تأثرت الآلهة بعمق حبه وهيامه، فحولته إلى زهرة أبدية هي الزعفران حيث تعلقت بها سيميلاكس حتى الموت.

التوليب: تقول الأسطورة الإيرانية أن شاباً اسمه (فرهاد) أحب فتاة اسمها (شيرين)، وقد وصله يوماً خبر موتها، فدفعه اليأس إلى القفز بجواده من أعلى أحد الجبال، فلقي حتفه. . وحيث نزفت دماؤه نبتت من كل قطرة زهرة توليب حمراء،رمزاً لحبه المخلص، ولذلك أصبحت التوليب زهرة الحب عند الإيرانيين القدامى.

زهرة الربيع Daisy: بحسب أسطورة رومانية ، فإن ملك الغابة غضب من حبيبته عندما راقصت ملكاً غيره، ولكي تتفادى مواجهته ومنعاً للحرج حولت نفسها إلى زهرة الربيع لذلك ارتبطت هذه الزهرة بالتواضع والبساطة.

الغار: تذكر الأسطورة اليونانية أن (دافن) كانت أجمل نساء عصرها، حتى أن الأزهار النائمة كانت ترفع رؤوسها وتفتح أكمامها عند رؤيتها،إلا أن (كيوبيد) الذي اشتهر بسهامه أراد تحدي (أبوللون) فرماها بأحد سهامه الفضية فكرهت الحب والمحبين ولكي يزيد من مرارة أبوللون رماه بسهم ذهبي فدخل الحب قلبه وهام بالصبية دافن فهرعت إلى أبيها (جوبيتير) مستغيثة من هذا الحب الجارف، وما كادت تنهي كلامها حتى تصلبت أعضاؤها وغارت قدماها في الأرض وصار رأسها أغصاناً متفرعة وارفة. وبينما كان أبوللون يلاحقها أراد أن يرتاح قليلاً في ظل الشجرة التي وصل إليها، فشعر بلحم يرتعش خلف قشرتها، فعرف أن هذه الشجرة ليست إلا حبيبته الهاربة، فضمها بذراعيه وأقسم أمامها قائلاً: «ستكونين شجرتي المحبوبة والمفضلة، وعندما يعود الفائزون بسدة النصر ستكونين تاج رؤوسهم وكما أن الشباب الدائم من صفاتي فستكونين خضراء دائماً ولن يذبل ورقك» ولم تكن هذه الشجرة سوى الغار لذلك كانت من أشرف الأشجار على الإطلاق ولا تزال رمز المجد والانتصار.

النرجس: حسب الأسطورة اليونانية فإن إحدى حوريات الغابة واسمها (الصدى) هامت بحب (نرسيس) الذي منحته الآلهة جمالاً فائقاً. وللحفاظ على جماله وشبابه لم يكن من المفترض أن يرى صورته معكوسة أبداً. ولكنه كان مغروراً ولم يأبه بعواطف الصدى التي كانت من شدة حبها قد تلاشت ولم يبق منها إلا الصوت، فقررت الآلهة (نمسيس) أن تنتقم لها فقادته إلى بحيرة مضيئة رأى فيها صورته تتلاشى، وتضمحل. ولكن الآلهة رأفت به فحولته إلى زهرة النرجس.

إكليل الجبل: رفضت صبية جميلة الخضوع للقهر والدمار الذي كان يسببه (سيرس) إله الدمار والخراب لصقلية ـ فناشدت السكان أن يرموا أنفسهم في البحر.

وأثناء سقوطها تحولت المرأة ذات العيون الزرقاء إلى زهرة إكليل الجبل تذكيراً للرجال بالتجديد المستمر لقوة الخير في العالم.

الياسمين: في أسطورة عربية أن صبية بدوية كانت تعيش في الصحراء، وتغطي وجهها بخمار شفاف. وذات مرة مر أمير بتلك الصحراء فلفتت انتباهه الفتاة ذات الخمار وجذبه غموضها. فطلبها للزواج وبعد أن أصبحت زوجته وعاشت معه سنوات في قصره وجدت نفسها سجينة جدران القصر، فهربت إلى واحة خضراء وهناك نزعت خمارها فأخذت تتحول شيئاً فشيئاً إلى زهرة ذات رائحة شذية حملت اسم الصبية (ياسمين) التي كانت تشعر بالدفء والحرية.

أسطورة شمشون الجبار

جاء الفلسطينيون إلى كنعان من جهة البحر واستوطنوا الوادي الساحلي في الجنوب. وبعد زمن قصير ضاق الساحل بالوافدين الجدد فاندفعوا باتجاه الداخل. كان الفلسطينيون مقاتلين مجربين تميزوا بالصرامة.. أضف إلى ذلك أنهم متصفدون بالحديد الذي لم يكن قد انتشر في كنعان انتشارا واسعا حتى ذلك الوقت. لذلك ليس غريبا أنهم استطاعوا السيطرة على جيرانهم من القبائل الأخرى.

في ذلك الوقت عاش في مدينة صرعة رجل من قبيلة الدانيين يدعى منوح وزوجته العاقر. وفي أحد الأيام جاءهما ملاك الرب واخبرهما أنه قريبا سيولد لهما ولد، لكنه طلب منهما أن يمتنع ابنهما المنتظر عن شرب العصير وألا يقص شعر رأسه إطلاقا لأنه (الولد) منذور للرب إلى يوم موته.

تحقق وعد الملاك وولد الصبي ودُعي شمشون. ترعرع الصبي ونما بسرعة حتى أصبح من أقوى الأقوياء. ومع أنه لم يكن يتميز بتدينه إلا أنه إلتزم بالوعد الذي قطعه والده للرب، فلم يشرب العصير ولم يقص شعر رأسه. لقد وهبت الطبيعة ذلك الشاب قوة عضلية مذهلة ولم تبخل عليه بالمكر والدهاء أيضا.

كان شمشون يحب أن يظهر قوته العضلية دائماً ويفتخر بها أمام الجميع ويميل دائما إلى مختلف ضروب الأعمال الجنونية. وكانت قريحته نبعا لا ينضب منها، يحب المزاح الثقيل جدا. فبينما يستلقي هو من الضحك، كانت ضحايا مداعباته الفظة تتلوى ألما. عموما كان الذين يحتكون به قلة نادرة. وعندما تتعرض كبرياؤه للأذى يغدو خطرا جدا بالنسبة للمحيطين به. ومع ذلك كان الرجل ضعيفا جدا أمام النساء، فما إن تعجبه امرأة ما حتى يتحول إلى حمل وديع.

كان شمشون يحب التجوال في البلاد كثيرا فوجد نفسه يوما في مدينة تمنة وهناك

وقع في غرام فتاة فلسطينية أصر على الزواج منها رغم معارضة والديه الشديدة لذلك الزواج، إذ كيف سيتزوج ابنهم من فتاة لم يختتن والدها. ولكنه أصر على موقفه بعناد وقال لأبيه: «خذها لي لأنها حسنت في عيني». وهكذا لم يبق لوالديه سوى الرضوخ لرغبة الفتى المدلل. وغدا شمشون عريسا يتردد غالبا إلى بيت عروسه.

في أحد الأيام عندما كان شمشون يتجول في كروم تمنة، ظهر للقائه شبل أسد مزمجر فشقه شمشون بيديه العاريتين شقين، ومضى في طريقه وكأنه لم يفعل شيئا، حتى انه لم يخبر أحدا في تمنة بما فعل. وفي طريق عودته إلى دار أهله رأى أن النحل بنى في جوف الشبل المقتول وصنع عسلا فأخذ من العسل وأكل وحمل الباقي لوالديه ولم يخبرهما من أين أتى بالعسل.

وأخيرا حل يوم العرس المنتظر. كانت العادة الفلسطينية أن يستمر العرس سبعة أيام. في أحدى الولائم التي ضمت شمشون وثلاثين فلسطينياً، ألّف هذا أحجية وطلب منهم حلها قبل نهاية ولائم الزفاف فان استطاعوا ذلك أعطاهم ثلاثين قميصا وثلاثين حلة، وان لم يستطيعوا أعطوه مثلها. فقبل الشباب الرهان. وقال لهم شمشون: «من الآكل خرج أكل ومن القوى خرجت حلاوة».

ومضت ثلاثة أيام من أيام العرس ولم يستطيع الفلسطينيون حل الحجية فجاؤوا إلى زوجة شمشون وهددوها قائلين: «تملقي رجلك لكي يظهر لنا الأحجية أو أحرقناك وبيت أبيك بالنار. ألتسلبونا دعوتمونا؟». فاسقط في يد المرأة المسكينة وخافت على أملاك أبيها وأرزاقه. فذهبت إلى زوجها باكية وأخذت تتوسل إليه ولم تكف عنه إلى أن أطلعها على سر أحجيته.

في اليوم التالي عندما ضمت الوليمة شمشون والثلاثين فلسطينيا سخروا منه ومن أحجيته وقالوا له إن الحديث فيها يجري عن أسد مقتول وفي جوفه نحلة صنعت عسلا. فأدرك شمشون الذي حدث من فوره وكظم غيظه وقال لهم: «لو لم تحرثوا على عجلتي لما حزرتم أحجيتي». لكن الأسوأ من ذلك كله هو كيف السبيل إلى الانتقام: ثلاثون قميصا وثلاثون حلة ليست بالأمر السهل خاصة وان والديه يعيشان عيشة متواضعة ولا يستطيع أن ينتظر منهما أية مساعده. وبينما كان يبحث عن مخرج من تلك الورطة خطرت له فكرة وجدها مناسبة تماما.

في الصباح قام وذهب إلى عسقلون حيث قتل ثلاثين فلسطينيا وسلب منهم ثلاثين

قميصا وثلاثين حلة ثم حملها وسلمها إلى جلساء السوء ورحل دون أن يلقى نظرة على زوجته المخادعة.

بعد أيام قليلة ذهب غضب شمشون فاخذ يقنع نفسه بان زوجته لم تخدعه عن سوء طوية بل تحت التهديد. وما دام الأمر كذلك فلم يعاقبها وهي لم تخدعه بارداتها؟

وهكذا اخذ معه جَدْياً لإقامة وليمة الصلح وتوجه إلى مدينة تمنة حيث تقيم زوجته مع أهلها. لكن إهانة أخرى كانت تنتظره هناك. فما إن وصل حتى توجه من فوره إلى مسكن زوجته، غير أن حماه قطع طريقه بأن أعطى زوجته لرجل آخر، ظناً منه أنه هجرها إلى الأبد. واقترح عليه أن يزوجه أختها الصغرى التي هي أجمل منها بكثير. فغضب شمشون أشد الغضب ولم يشأ سماع أي كلام عن أخت زوجته الصغرى الأكثر جمالاً، لأن الأمر الواضح الوحيد بالنسبة إليه الآن هو أنه يقف ذليلاً مهاناً أمام باب مسكن زوجته الحبيبة وأنهم عاملوه وكأنه مجرد عابر سبيل، وهو جبار الجبابرة الذي يفخر بقوته أهل ملته والغرباء. كيف يستطيع أن يواجه الناس بعد أن تلقى مثل هذه الصفعة؟ إذاً يجب أن يكون انتقامه صارماً. وبعد أن وضع خطته بدقه تجهم وجهه وقال والحقد يقطر من نظراته: «إني بريء الآن أمام الفلسطينيين إن عملت بهم شراً».

اذاً لقد بدأت معركة قاسية بين شمشون والفلسطينيين. فلم يذهب إلى البيت خجلاً من مواجهة أهله وأقربائه، بل بقي كالذئب حول مدينة تمنة يستعد للانتقام منها. وأخيراً اهتدى إلى فكرة فريدة ولكنها بربرية. فقد اصطاد ثلاثمائة ابن آوى وربطها ذنباً إلى ذنب ووضع مشعلاً بين كل ذنبين ـ ثم أشعلها وأطلق الحيوانات المرعوبة باتجاه المدينة فأحرقت في طريقها أكداس الزرع وكروم الزيتون والعنب وتحولت أرزاق الفلاحين الفلسطينيين إلى رماد. فجن جنون سكان المدينة المنكوبة فقاموا وقتلوا زوجة شمشون وأبيها. وحينما وصل النبأ إلى مسامع شمشون أقسم أن انتقامه سوف يكون مروعاً. وكان عند كلمته. فربض على الطرقات وكان يخرج وكأنه شق الأرض وظهر منها ليقتل المارة حتى زرع الرعب في طرقات المدينة وخاف أهلها أن يمدوا رؤوسهم خارج الأسوار. وسرعان ما حل الجوع بمدينة تمنة وتوقفت حركة العمل فيها. ولم يعد لأهلها من خيار سوى أن يضعوا حداً لعربدة شمشون تلك. فزحفت جيوشهم إلى أرض يهوذا واجتاحتها منذرةً بالويل طالبة تسليم شمشون. فذعرت قبيلة يهوذا وأرسلت ثلاثة آلاف رجل إلى شق صخرة عظيم حيث تحصن شمشون. وحاوره قائد الفصيل بحدة قائلاً له: «ألا تعلم أن الفلسطينيين متسلطون علينا؟ فماذا فعلت بنا؟». فأجابه شمشون بحزن: «كما فعلوا فعلت

بهم» وأردف: «احلفوا لي أنكم لن تقتلوني» فأقسموا له بذلك واستسلم لهم ثم قيدوه بالحبال دون أن يبدي أية مقاومة.

استقبل الفلسطينيون الأسير بالسخرية والهزء. لكنه تحمل الإهانات بصبر وأناة، لكن عندما أخذ بعضهم يكيل له اللكمات ثارت ثائرته فقطع الحبال التي قيدوه بها كما يقطع الخيوط وأخذ من الأرض فك حمار ميت وهجم به على الذين يعذبوه وأخذ يجول فيهم يمنياً وشمالاً. وما إن رأى الفلسطينيون ذلك المنظر حتى دبَّ الرعب في قلوبهم فولّوا هاربين. استغل شمشون الفوضى التي دبت بين الصفوف وقتل ألف فلسطيني. ثم عاد إلى وكره مزهواً وهو يغني على وقع خطواته: «بفك حمار كومة كومتين. بفك حمار قتلت ألف رجل».

لم تطل إقامة شمشون في الجبال لأن أهل ملته اختاروه قاضياً عليهم حيث حكم فيهم عشرين عاماً.

كانت ثقة شمشون بقوته العضلية كبيرة لدرجة أنه كان يتجول في مدينة الفلسطينيين وحيداً، يخطو في شوارعها ويستعرض السلع المعروضة للبيع. وكان يعرج في بعض الأحيان على غزة ،وهي مدينة كثيرة السكان وغنية بتجارتها. وفي هذه المدينة قابل شمشون زانية في غاية الجمال أعجبته كثيراً فذهب إلى بيتها. وسرعان ما انتشر خبر مبيت شمشون في مدينة الفلسطينية. وعند المساء أغلقت أبواب المدينة ووضعت عليها حراسة مشددة وأعطيت للحراس أوامر صريحة بمباغتة شمشون عند الصباح وقتله، ولكن شمشون علم بطريقة ما أن خطة أعدت لمحاصرته وقتله فقام في منتصف الليل وغادر بيت البغي ولم يكن الحراس في انتظاره في مثل ذلك الوقت بل ناموا بسلام. فقتلهم واقتلع بوابات المدينة وحملها معه إلى الجبل على طريق حبرون.

في المرة التالية أحب شمشون امرأة فلسطينية ثانية تدعى دليلة تعيش في وادي سورق. ولما انتشر الخبر جاءها القادة الفلسطينيون وقالوا لها: «تملقيه وانظري سبب قوته العظيمة، وكيف نتمكن منه ونوثقه ونذله فنعطيك كل واحد ألف شاقل من الفضة» فبرقت عينا المرأة الأنانية عندما سمعت بتلك الثروة.

انتظرت دليلة لقاءها الحميم التالي مع قتيل هواها وسألته في لحظة صفاء وبراءة كاملة عن سر قوته العظيمة. لكن شمشون كان قد أصبح أكثر حذراً ولم يعد يبوح بأسراره بسهولة. فقرر أن يداعب المرأة الفضولية وقال لها بأنه سيفقد قوته كلها إذا ما ربطوه بسبعة

أوتار طرية. وانتظرت دليلة هبوط الليل لتنفذ خطتها عندما يغفو شمشون وهكذا فعلت، إذ ما إن غفا الرجل حتى أوثقته بالأوتار إياها وانسحبت من البيت بهدوء وقادت الفلسطينيين إليه. ثم عادت إلى غرفة النوم وصرخت متظاهرة بالخوف: «شمشون! الفلسطينيون عليك». فهب الرجل من فراشه وقطع الأوتار كما يقطع فتيل المشاقة إذا مسته النار، ففر المتآمرون مذعورين. وأما هي، فقد أقسمت أصدق القسم أنها كانت نائمة إلى جانبه وما تحذيرها له سوى برهان أكيد على براءتها. فتظاهر شمشون أنه صدقها لكنه غدا أكثر حذراً وقرر أن يلعب لعبة الهر والفأر وعندما شرعت تسأله ثانية عن سر قوته، فكان يقص عليها أيّ رواية تخطر له ثم يغفو في أحضانها. وفي أحد الأيام أخبرها أنه يفقد قوته إذا أوثقوه بحبال جديدة لم تستعمل قط، ومرة أخرى قال لها إن قوته تفارقه حالما يضفر شعر رأسه سبع ضفائر تشد إلى الوتد. وكانت دليلة تمنى بالهزيمة في كل مرة والفلسطينيّون يفرون مذعورين وهو يقهقه ساخراً منهم. ولكن دليلة ما فتأت خلفه تعكر عليه صفو حياته إلى أن باح لها بالحقيقة ليهدأ قلبه ويرتاح: «لم تصل موسى رأسي لأني منذور لله من بطن أمي. فإن قُصَّ شعر رأسي فارقتني قوتي وضعفت حتى أغدو كأحد الناس».

خيانة دليلة . . . وهلاك شمشون

قامت دليلة من فورها وطلبت من أبناء جلدتها أن يأتوها ومعهم الأموال التي وعدوها بها. ثم أخذت رأس شمشون على ركبتها وشرعت تداعبه إلى أن راح في سبات عميق، فأمرت الحلاق أن يقص سبع ضفائر من شعره. وبعد أن انتهى الحلاق من عمله أيقظت دليلة شمشون ونظرت إليه باحتقار ثم طردته من بيتها. في الوقت نفسه جاء الفلسطينيون فهاجمهم ناسياً أنه حليق الرأس وأن قوة يهوه فارقته عقاباً له على مخالفته النذر. وبعد اشتباك قصير قيدوه وعصبوا عينيه وقادوه إلى غزة حيث أوثقوه بسلاسل ووضعوه في بيت السجن يطحن الحب.

قرر الفلسطينيون أن يحتفلوا بانتصارهم على عدوهم الرهيب هذا بتقديم القرابين وإقامة وليمة كبيرة في معبد إلههم داجون. كان المعبد بناء عالياً يقوم على أعمدة قوية عالية وداره واسعة محاطة بالأعمدة وثمة عدد كبير من الأروقة في الدور الأول والمقصورات في الدور الثاني. وكان قد اجتمع هنا عدد كبير من الفلسطينيين الذين أخذوا يمرحون بهرج. ومعروف عن هؤلاء حبهم للاحتفالات والولائم كثيراً.

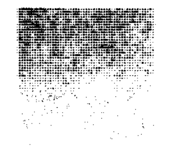
سارت الحفلة بصخبها كله وتعالى الضجيج، أما العبيد فبالكاد استطاعوا أن يلبّوا مطالب المحتفلين في الوقت المناسب. ثم طلب الضيوف أن يعزف لهم شمشون شيئاً فأتوا به من قبو السجن ووضعوا القيثارة بين يديه. ووقف الجبار الأعمى ذليلاً مهاناً مهيض الجناح بين اثنين من أعمدة المعبد وأخذ يغني لحناً كانت والدته تغنيه له في الماضي. ولكن المحتفلين لم يسمعوا شيئاً لأنهم إنما دعوه كي يستمتعوا بسقوطه وينتقموا لكل لحظة خوف، لكل إهانة سببها لهم شمشون.

كان شمشون اصفر اللون كالأموات، محجراه خاليّين من عينيه، وقف يتحمل الهزء والسخرية بصبر وأناة وكأنه فقد كل القدرة على المقاومة. ولم يكن بمقدور أحد أن يحزر معاناته في تلك اللحظة، كما لم ينتبه أحد إلى أن شعر رأسه عاد ونما من جديد، وهو مصدر قوته العظيمة.

حرّك شمشون شفتيه ببطء وتمتم متوسلاً إلى يهوه: «يا سيدي الرب أذكرني وشددني يا الله هذه المرة فقط، فأنتقم مرة واحدة عن عيني من الفلسطينيين». ثم قال للغلام الذي قاده من القبو: «دعني ألمس الأعمدة التي يقوم عليها البيت لاستند إليها». فلبى الغلام طلبه. وعندئذ صرخ شمشون بصوت عال، بعد أن أمسك بالعمودين بقوة، : «لِتَمُتْ نفسي مع الفلسطينيين!». فساد في المعبد هدوء مرعب ونهض أناس من أماكنهم ينظرون إلى الأعمى الذي شد العمودين إلى بعضهما بقوة وفي اللحظة ذاتها سقط المعبد سقوطاً مروعاً ليدفن تحت أنقاضه أقطاب الفلسطينيين ومعهم ثلاثة آلاف فلسطيني جاؤوا إلى الوليمة.

أما اليهود فاشتروا جثة شمشون وصعدوا به حيث دفنوه في قبر أبيه منوح وتناقلوا قصة حياته جيلاً عن جيل.

وهكذا انتهت أسطورة شمشون الجبار.



متفرقات



حفيد الشيطان

«اذهب إلى الشيطان!»

كان هذا هو الدوي الهائل الذي يسد أذنيه، فلا يسمع سواه في أي مكان يذهب إليه.. كان يسمعه في الطريق، وفي المدرسة، وفي المعبد.. بل وفي بيت أبيه.

ماتت أم «بيتر» ولم يزل طفلا. وسرعان ما أحضر أبوه امرأة من المدينة لتكون ربة البيت وأظهرت زوجة الأب للطفل من أول يوم دخلت فيه البيت شعور العداء الغريزي، بالرغم من استقباله لها بمظاهر الحفاوة والفرح البريء.

ولم يكن يحلو للمرأة شيء قدر ما يحلو لها تعذيب الطفل وتحقيره، والسخرية منه، والتلذذ بالكيد له عند أبيه.

ومضت السنوات، والطفل ينمو في هذا الجو الرهيب من القسوة والحقد، صابرا على الأذى، متحملا القسوة، يلوذ بهمه إلى دموعه يذرفها في نشيج مكتوم، كلما خلا إلى نفسه.

وكلما مرت الأيام، ازدادت المرأة قسوة وجبروتا، حتى أحالت حياة الفتى الصغير جحيما يصلى سعيره ليلا ونهارا.. فهي تؤلب عليه المدرسين في المدرسة فيعاقبونه دون ذنب أو جريرة ويذيقونه من العذاب ما لا يحتمله جسده الضعيف. وفي البيت، لا تفتأ تثير عليه غضب أبيه في كل مناسبة، وتنقل إليه الوشايات عن أخطاء فاحشة لم تجل يوما في خاطر الصبي، حتى امتلأ قلب الأب غلا وحقدا على ابنه البريء المسكين. وفي سورة الغضب الجارف أمسك الأب بابنه ذات يوم من عنقه وجره عبر ردهة الدار إلى الباب الخارجي، وقذف به إلى عرض الطريق، وصاح في ثورة:

ـ اذهب عني... فقد أصبحت لا أطيق رؤيتك.

ووقف الفتى في ذهول ذليلا يسأل أباه في حيرة وأسى

ـ أين اذهب يا أبتاه ؟!

فصرخ الرجل الغليظ القلب في ابنه قائلا:

ـ اذهب إلى الشيطان!

ثم انثنى المزارع إلى الداخل بعد أن جذب الباب فأغلقه في عنف في وجه الصبي الصغير.

ومشى الصبي في الطريق متثاقلا حزينا، وأخذ يتلفت خلفه بين الحين والحين ليلقي نظرات الوداع على مزرعة أبيه التي نشأ في أحضانها، ولعب في مراتعها، حتى أصبحت قطعة من كيانه لا يسهل عليه فراقها. وكادت الدموع تطفر من عينيه، لولا أن تذكر أنه قد أصبح «رجلا» لا يليق به البكاء.

ومضى في طريقه مسرعا، حتى اختفت المزرعة عن أنظاره، وعندئذ استعاد رباطة جأشه، وقوة عزيمته، وامتلأ قلبه ثقة، فقرر أن يشق طريقه في الحياة دون معونة أحد.

وبلغ الفتى مع مغيب الشمس قرية، فدخلها وسار في طرقاتها حتى وصل إلى دار كبيرة تتوسطها، فوقف أمام حديقتها، حيث كان صاحب الدار ـ ويبدو أنه من أثرياء المزارعين ـ جالسا وأمامه منضدة عليها أطايب الأطعمة، وقطع كبيرة من اللحم الشهي. ورفع الفتى قبعته يحييه قائلا:

ـ فلنحمد الله جميعا.

وأجاب الثري وهو يلتهم طعامه بنهم:

ـ إلى يوم القيامة. ماذا تريد؟.

قال بيتر:

ـ أستطيع أن أقوم بأي عمل تكلفني به، فهل أنت في حاجة إلى عامل نشيط قوي له خبرة بشؤون الحقل؟.

فابتسم الثري ساخراً، وأشار إليه بطرف إصبعه أن ينصرف، وقال:

ـ أنت... وبهذه الملابس الجميلة! إنك في هذه الصورة لا تصلح إلا أن تكون

سيدا مترفا يجيد الجلوس إلى المائدة ليلتهم الطعام دون أن يعمل. ابتعد يا فتى، فليس في مزرعتي مكان لك.

ولكن الفتى ألح في الرجاء قائلا:

ـ ولكني أجيد العمل، فلتجربني يا سيدي.

فغضب الثري، ونفد صبره من فضول الفتى وتطفله، وتعطيله عن متابعة الطعام، فصرخ فيه قائلا:

ـ قلت لك اذهب من هنا.. إذهب أنت وخبرتك إلى الشيطان، فلست في حاجة إليك.

وأحس الفتى بغصة في حلقه، وقفل راجعا وقلبه ينوء بالمرارة والهم.

وانطلق قاصدا قرية أخرى، وسأل عن مقر الشريف، ولم تمض لحظات حتى كان يقرع بابه في رهبة وحذر.

وفتحت امرأة الشريف الباب، وسألت الطارق في حدة: من أنت؟ وماذا تريد؟

فأجابها في رجاء وهدوء:

ـ إنني أبحث عن عمل أقتات منه. فهل أجده في مزرعتكم؟ إنني خبير في شؤون الزراعة.

فتفحصته المرأة، وهزت رأسها قائلة:

ـ انتظر. إن زوجي يلعب الورق مع بعض أصحابه، فاصبر حتى أسأله..

واختفت المرأة. ولم يطل انتظار الفتى، إذ سمع صوتا غاضبا يقول في خشونة وغلظة:

ـ كم مرة طلبت إليك ألا تزعجيني عندما أكون مشغولا. ليس لدي عمل لأحد، فأخبري هذا الوغد أن يذهب إلى الشيطان!

وانسحب الفتى في هدوء، وسار في الطريق إلى الغابة، ومضى يخترق مسالكها في صعوبة.. وفي رأسه دوامة هائلة من الأفكار السوداء. وبين الحين والحين يطن في أذنيه صوت له صدى رهيب يردد في مسامعه كلما توغل بين الأحراج:

ـ اذهب إلى الشيطان.. اذهب إلى الشيطان.

وتكالبت عليه الأحزان، وآلام التعب، ووطأة الجوع. فتهالك إلى جوار حجر كبير، واعتمد رأسه بين كفيه، وأطلق لأفكاره العنان. ولم يستطع «بيتر» عندئذ كبت دموعه، فانهالت العبرات على خديه في حرقة ولوعة.

وسمع الفتى وقع أقدام تقترب منه في هدوء، ورفع رأسه فأبصر أمامه سيدا مهيبا يرتدي ثيابا فاخرة، ويلتف بعباءة موشاة خضراء زاهية اللون. اقترب الرجل منه وعلى شفتيه ابتسامة غامضة، ومال عليه، وربت على كتفه في حنان وقال في رقة وعطف:

ـ ما هكذا تكون الرجولة يا بني! لعل أمرا خطيرا يبكيك. قل لي يا فتى، فقد يكون في وسعي أن أخفف عنك.

وكفكف الفتى دموعه، ولاحت له في حديث الرجل بارقة من الأمل، فأجاب في أسى ظاهر:

ـ إن الناس جميعا يوصدون أبوابهم دوني. إنني لا أستجدي يا سيدي، وإنما أبحث عن عمل شريف أعيش منه. وكلما سألت احدهم أن ييسر لي هذا المطلب، لا أسمع منه سوى الزجر مشفوعا بجواب واحد لا يتغير «فلتذهب إلى الشيطان!» فأين هو الشيطان لأذهب إليه، فقد يكون أرق قلبا من الإنسان.

وازدادت ابتسامة الرجل، وبدت أكثر غموضا من ذي قبل، وقال:

ـ رويدك يا بني.. ألا تخشى الشيطان إذا قابلته؟.

فأجابه الفتى على الفور:

ـ دلني عليه بربك، فلن يكون أقسى علي من أبي وامرأته.... و...

ولم يتم الفتى قوله. فقد رأى الرجل ينتفض فجأة انتفاضة سريعة، وإذا به يتحول إلى مسخ رهيب، له عينان تشعان في ظلام الليل وميضا من نار، وقرنان مرفوعان في حدة الرمح المسنون... وأشار بمخالبه إلى صدره الضخم، وقال من ثنايا أنيابه البارزة:

ـ ها آنذا أمامك.... أنا الشيطان!!

وبالرغم من هذه المفاجأة الرهيبة، فإن الفتى لم يفزع، وإنما تعجب، وقال في هدوء وجنان ثابت:

ـ أحقا أنت الشيطان؟!. إنه لمن بواعث سروري أن تحضر إلي في الوقت الذي أبحث فيه عنك.. أيمكن أن يكون هذا حقيقة، أم تراني في حلم؟.

ـ إنها الحقيقة يا فتى: فأنا «لوسيفر» وأنا أرحب بك إن كنت لا تزال على رأيك. ولا شك أني سأجد لك من الأعمال ما يرضي طموحك.

وسأله بيتر:

ـ ما نوع العمل الذي يمكن أن أؤديه؟

فأجاب «لوسيفر» باسما:

ـ عمل بسيط: ساعاته قليلة، وأجره ضخم. إنه عمل لا يليق إلا بمن كان شجاعا غير هياب مثلك.

وأومأ بيتر برأسه موافقا، وقال:

ـ مرحبا بالعمل معك يا لوسيفر.. هيا بنا، فإني أتحرق شوقا لأثبت لك جدارتي.

فقهقه الشيطان قهقهة صاخبة تردد صداها الرهيب في أرجاء الغابة، ومد يده للفتى قائلا:

ـ مرحى... مرحى.... سأستبقيك في خدمتي سبع سنين، أمنحك بعدها هدية تغنيك مدى الحياة.

وشد كلاهما على يد صاحبه، وطوق الشيطان حليفه الجديد، وضرب الأرض فانشقت. فغابا في أعماقها حتى بلغا غياهب الجحيم. ولفحت الفتى حرارة السعير المحرق، إلا أنه غالب إحساسه، ولم يبد عليه أنه يعاني شيئا. ففي سبيل أن يبتعد عن جحود الناس، رضي أن يقتحم الجحيم.

وناوله الشيطان عباءة من الجلد، أمره أن يلتف بها جيدا، وقاده إلى قاعة واسعة، تتوسطها ثلاث قدور هائلة، وتنعقد فوقها سحب من البخار تتخللها ألسنة زرقاء من الشرر المتطاير.

وقال الشيطان:

ـ هذا هو المكان الذي ستعمل فيه.. إن عملك هو أن تمد النار تحت القدور

الثلاث بالوقود حتى تظل مشتعلة دائما. والحذر، كل الحذر، أن تنطفئ جذورها ولو ثوانٍ. وثمة أمر آخر: إياك أن تنظر إلى داخل قدر من القدور الثلاث.

ووجد بيتر أن المهمة سهلة ميسورة، فهز رأسه قائلا:

ـ اطمئن يا سيدي.. ولن أنس تعليماتك قط.

وشمر عن ساعديه، ومضى يباشر عمله في غبطة وسعادة.

مرت الأيام والأسابيع. وبيتر عاكف على عمله يؤديه في إتقان ودأب دون أن يشعر بتعب أو ملل، محافظاً على الوعد الذي قطعه على نفسه: فهو يواصل مد النار بالوقود دون أن يحاول النظر إلى داخل القدور.

وكانت الشياطين الصغار التي تمرح في أرجاء الجحيم، قد علمت بوجوده، وتوطدت بينهما الألفة، فكانت تقضي أغلب أوقاتها معه: تسليه بلعبها، وتعاونه أحيانا في عمله حين يشعر بالحاجة إلى شيء من الراحة.

واطمأن الشيطان إلى بيتر، وإلى إخلاصه في عمله، فأضفى عليه من ضروب الرعاية والمعاملة الطيبة ما جعل الفتى يشعر وكأنه يعيش في الجنة لا في الجحيم.

ومضت السنوات أسرع مما يتصور، وبدأ بيتر يحن إلى حياة البشر، ويشعر بالشوق إلى مشاهدة الخضرة والماء، وتبادل الحديث مع القرويين. وخطر له يوما أن يسأل الشيطان عن المدة الباقية من السنوات السبع التي اتفقا عليها. فاجابه لوسيفر:

ـ غدا..... تنتهي المدة

وأصبح الصباح، وأقبل الشيطان على بيتر يحييه ويشكره قائلا:

ـ لقد انتهت المدة التي اتفقنا عليها. وقد أصبحت منذ الآن حرا. وأشهد أنك خدمتني بكل أمانة وإخلاص. فتمن علي ما تريد، وإني لك لمجيب.

فقال بيتر:

ـ أريد أن أكون غنيا!

وسأله لوسيفر:

ـ هل يكفيك أن تحصل على أي مبلغ من المال متى أردت وفي أى وقت من الأوقات ؟!

وتهلل وجه بيتر، وقال على الفور:

ـ أجل..... أجل.... هو ذاك

فقال لوسيفر:

ـ أذن خذ هذا الكيس السحري، واحتفظ به جيدا، فإذا احتجت إلى أي مبلغ من المال، فما عليك إلا أن تفتحه، وتطلب المبلغ الذي تريد، فتجده في الحال بداخله!.

وانبسطت أسارير الفتى. واستأنف الشيطان قائلا:

ـ أحب أن أنبهك إلى شيء هام... إنك ستجد المتاعب عند عودتك إلى الأرض، فإن السنوات السبع التي قضيتها في الجحيم قد سودت بشرتك. ولا تنس أنك لم تغتسل طوال هذه المدة، ولم تقص شعرك أو أظافرك، ومن ثم فإن الناس سيظنونك الشيطان.

وأجاب بيتر ذاهلا:

ـ أجل.. هذا صحيح. لقد نسيت هذا الأمر. ومع ذلك فإن من الممكن إصلاحه حالما أصعد إلى الأرض.

فأجاب «لوسيفر» وفي لهجته شيء من الرثاء:

ـ إن أي حمام لن يجديك نفعا، وماء الأرض كله لن يزيل عنك الأوساخ. فاذهب إلى الأرض كما أنت. وعندما تصل، اقرع أول ناقوس يصادفك، فإذا اجتمع الناس حولك، قل لهم إنك حفيد الشيطان، وإنك عشت معهم كما عشت معي، فلم تجد في أرضهم جزءا ضئيلا من السعادة التي نعمت بها في جحيمي. وسأراقبك دائما، فإذا وجدت نفسك بحاجةٍ إلي فنادني تجدني إلى جوارك على الفور.

وودع بيتر الشياطين السود الصغيرة، وألقى بنفسه بين ذراعي لوسيفر، فاخترق به الجحيم عائدا على سطح الأرض، وإلى المكان الذي التقى به في أول مرة منذ سبع سنوات.

واختفى لوسيفر في باطن الأرض كما جاء، ووجد بيتر نفسه وحيدا في الغابة، ومعه الكيس المسحور!

ومضى بيتر عائدا إلى قريته، وقد فاض به الشوق إلى لقاء بني جنسه، وأبصر قوما

قادمين في الطريق، فأسرع نحوهم في سعادة غامرة. وما إن وقف أمامهم ورفع يده لتحيتهم، حتى دوت في أذنيه صرخات الفزع، وفر القوم من أمامه، وهم يتعثرون في خطوهم، وصيحاتهم تخترق الفضاء في رعب وفزع:

ـ الشيطان... الشيطان..

وأحس «بيتر» بحزن عارم يكاد يعصف به.. إلا أنه تمالك شعوره سريعا، ومضى في طريقه غير ملقٍ بالا إلى الناس الذين يفرون منه كلما اقترب منهم، كما لم يعبأ بالنسوة اللائي يجذبن أطفالهن إلى داخل الدور، ويحكمن إيصاد الأبواب كلما رأينه. وتوجه من فوره إلى خان يعرفه وكان صاحب النزل وامرأته يقفان على بابه فاقترب منهما في خطو وئيد، وهمس قائلا:

ـ فلنحمد الله جميعا!

ولم يسمع ردا على تحيته، فما إن انتبه الرجل وامرأته إليه وأبصرا بشاعة خلقته، حتى هرولا إلى الداخل، وأوصدا الباب في وجهه، وصرخاتهما الفزعة تشق أجواز الفضاء.

ودفع بيتر الباب الذي نسي الزوجان، لفرط رعبهما إحكام رتاجه، فانفتح على مصراعيه، وحين ولج الباب رأى صاحب الخان وزوجته مطروحين على الأرض في غيبوبة.

ومضى الفتى إلى منضدة منعزلة، وجلس بعض الوقت، ثم قام إلى الزوجين، فسكب على رأسيهما كثيرا من الماء حتى أفاقا. وعاد إلى المائدة بعد أن أمر الرجل بأن يوافيه بأطيب الطعام وأجود الشراب.

ونهض الرجل مرتجفا يكاد يقتله الفزع، ومضى ليلبي رغبة المارد الأسود الرهيب، في حين انطلقت زوجته إلى حجرات الخان الخلفية فتوارت فيها.

ونزل الرجل إلى القبو في خطوات متعثرة واجفة، واطل من نافذة القبو على حظيرة الجياد، ودعا في همس أحد الغلمان في الحظيرة وناوله زقا من الخمر المعتقة، وقال له في صوت مرتعش:

ـ أسرع بها إلى القاعة يا «بيريك» فهناك سيد غريب ينتظرها، ولا تخف من مظهره، فإنه لن يؤذيك.

وصعد «بيريك» بالزق إلى القاعة، وتقدم على مهل. ولم يكد يلمح الغريب الجالس إلى المائدة، حتى صرخ في فوز، وانهارت أعصابه، فسقط الزق من يده وتحطم على الأرض، وسالت الخمر على سلم القبو حتى وصلت إلى صاحب الخان. واندفع الغلام هابطا وكأنما في أثره ألف شيطان!

واستقبله الرجل وفي يده عصا ضخمة، وصرخ فيه:

ـ أهكذا تكسر الزق، وتريق ما فيه من خمر؟ يا لخسارتى، ويا لضياع مالي، سأخصم ثمنها من أجرك أيها المجرم. هيا يا لعين، خذ غيرها وأصعد بها إلى السيد

ودفع الرجل الصبي الذي أخذ يصعد السلم حاملا إناء الخمر، ويجر ساقيه جرا إلى داخل القاعة وهو يتعثر.

وقال بيتر يدعوه في رقة وحنو:

ـ اقترب أيها الفتى الصغير.. لا تخف! فإني لست شيطانا كما يخيل إليك. اقترب لا تخف فلن أؤذيك!

وتقدم «بيريك» والرعدة تسري في بدنه من رأسه إلى أخمص قدميه، وأحكم قبضته على الإناء خشية أن يسقط من يده، ووضع الإناء على المائدة محاذرا أن يرفع بصره إلى وجه السيد الذي يثير منظره الرعب في أشد القلوب ثباتا

وسأله بيتر وهو يعب الخمر في نهم:

ـ من أين لكم مثل هذا الشراب اللذيذ؟

ـ قل لي: ما اسمك أيها الفتى؟

ـ وأجاب الغلام وعيناه على الأرض:

ـ بيريك اليتيم!

فقال بيتر:

ـ ولماذا تعمل في هذا المكان؟

فرد الفتى وقد بدأت الرعدة تزايله، ويحل بقلبه الاطمئنان:

ـ كان علي أن أجد أي عمل... أي عمل مهما يكن.

وسأله بيتر:

– ولكن يبدو لي أنهم لا يعاملونك هنا معاملة كريمة . . . أليس كذلك ؟

وأنس الفتى إلى السيد، وارتاحت نفسه إلى حديثه، وشعر بالاطمئنان والثقة، وأحس كأنه يتحدث إلى صديق قديم. . وفعلت رقة السيد في نفسه فعل السحر، فانحلت عقدة لسانه، وأخذ يحكي قصة حياته، وكيف لجأ إلى صاحب الخان الغليظ القلب. . الذي يستنزف قواه كلها مقابل خمسة عشر شلنا في العام!

وأثارت قصة الغلام شجون «بيتر» وتذكر قصة حياته، وقارن أوجه الشبه بين القصتين، وحملق في الغلام متأملا معالم البؤس التي تخيم على سمائه الحزينة. ولم يلبث أن أخرج الكيس المسحور، وهمس بمبلغ ضخم من المال، وأشار للغلام أن يخلع قبعته، ثم أفرغ فيها الكيس، فامتلأت القبعة بالدوكات الذهبية.

وكاد الغلام يطير فرحا، وهو يرى تلك الثروة الضخمة تهبط عليه من يدي هذا الملاك الكريم، وأخذ يقبل يديه ووجهه وثيابه، ثم انثنى يرقص، ويقفز، ويجري في كل اتجاه. . ثم هتف في سعادة:

– إنه ليس شيطانا. . إنه ملاك كريم. لقد ملأ قبعتي ذهبا. . إنه ليس شيطانا.

وأقبل صاحب الخان مهرولا على صيحات الغلام. ولم يكد يرى الذهب في قبعته، حتى تبخرت الرعدة التي انتابته في الهواء، وانقشعت عنه سحابة الجبن التي غشيته. انقلب هلعه إلى جرأة منقطعة النظير، وقفز سلالم القبو في خطوات، وعاد في ثوان يحمل دنا مليئا بالشراب معتقة منذ عشرات السنين، فوضعها أمام السيد في احترام كبير، وقال:

– إننى لا أقدم من هذا الشراب لرواد خاني على الإطلاق، ولكني أقدمها هدية مني إكراما للسيد الذي يشرفني لأول مرة. . وأقسم ألا أتقاضى عنها ثمنا.

وأطرب هذا التملق قلب بيتر، فأطلق ضحكة قوية، وقال للرجل:

– اعتقد أنى سأجد هنا غرفة ذات فراش وثير، أقضي فيها ليلتي.

فأجابه الرجل:

– الخان بجميع حجراته رهن إشارة من طرف بنانك. . يا مولاي!

لم يكد بيتر يتمدد على الفراش، حتى أحس يدا قوية تهزه في رفق. ففتح عينيه وهو يتثاءب، ففوجئ بلوسيفر كبير الشياطين يهمس في أذنه قائلا:

– أسرع إلى الحظيرة يا بيتر. . إن صاحب الخان يوشك أن يقتل الغلام من أجل الدوكات الذهبية.

فقفز بيتر من فراشه في سرعة، وفي مثل لمح البصر كان يقبض بيد من حديد على عنق صاحب الخان، الذي رفع خنجره الحاد وأوشك أن يغمده في قلب الغلام النائم ليستولى على ذهبه. وصرخ الرجل، وأخذ يئن أنينا مفزعا. وأمسك بيتر بيده، ودفعه أمامه قائلا:

– أيها القاتل، سأحملك إلى الجحيم، وألقي بك في الزيت المغلي، فتظل تصرخ إلى الأبد جزاء جرمك الشنيع

وما إن سمع الرجل تهديد السيد حتى خارت قواه، وانهار مغشيا عليه. . . . فجذبه بيتر إلى خارج الحظيرة، وعاد إلى الغلام الذي هب من نومه فزعا على صوت الرجل الغريب وهو ينذر صاحب الخان. وأدرك الفتى ما كان يدبره صاحب الخان للاستيلاء على دوكاته الذهبية، فانكب على قدمي السيد يقبلهما في شكر وامتنان.

وخطا بيتر إلى خارج الحظيرة، ومعه الغلام، وأمره بإحضار بعض الماء ورشه على صاحب الخان لافاقته. وفتح الرجل عينيه، ثم استوى جالسا في جهد. . . ولم يكد يسترد وعيه، ويدرك مغبة فعله الأحمق، حتى هرع صوب السيد الغريب والصبي، وارتمى تحت أقدامهما يطلب منهما العفو والمغفرة، ووعد بالتنازل عن كل أملاكه مقابل ألا يحمله السيد إلى الجحيم.

فقال له بيتر:

– احتفظ بأملاكك، وسأعفو عنك بشرط أن تحسن معاملة بيريك، وترسله إلى المدرسة ليتعلم. . . وسوف أنفذ تهديدي في الوقت الذي يشكو إلي فيه الغلام أنك أسأت معاملته، أو تراخيت في تعليمه!

فقال الرجل وهو يرتجف من فرط الرعب:

– أعدك يا سيدى بأن أنفذ كل ما تطلبه، وسأعامل بيتر وكأنه ابني الوحيد!

لم يغادر بيتر الخان بعد ذلك قط.... فهو يقيم في أحسن حجراته، ويتمتع بأطايب الطعام، ويلقى من صاحب الخان وزوجته خدمة لم يكن يحلم بمثلها...

وكان لدوكاته الذهبية، وإنعامه بها على أهل القرية، فعل السحر في نفوس الجميع... فلم يكن لهم من حديث في سهراتهم واجتماعاتهم إلا عن السيد الثري ساكن الخان.

وتواترت أنباء السيد الثري حتى بلغت مسامع أمير المقاطعة، الذي كان يعاني منذ وقت طويل ضائقة مالية أخذت بخناقه، فلم يعد يملك منها مخرجا...

وما إن تحقق من قصة النزيل الثري، حتى أيقن أنها فرصة أتاحتها له الأقدار، فإذا فاتته فلن يعوضها مرة أخرى... ومن ثم سارع بإيفاد رسول من طرفه يدعو السيد الثري إلى مقابلته!

واستقبل بيتر رسول الأمير في سخرية، وقال له في حزم صارم:

ـ قل لسيدك أنني لا أذهب إلى أحد. ومن يريد أن يلقاني، فعليه أن يحضر إليَّ!

وأدار ظهره للرسول، الذي انسحب في مرعة من أمامه عائدا إلى مولاه ليبلغه الرد العجيب!

واستشاط الأمير غضبا.... فهو لم يتصور قط أن أحدا من الخاضعين لأحكام إمارته يجرؤ على رفض القدوم إليه... بل ويطلب أن يذهب إليه الأمير بنفسه!

وكان «بيتر» واثقا أن الأمير سيحضر إليه مرغما... فقد كان يعلم مدى ما يعانيه من ضائقته المالية التي أوقعه فيها نزق ابنتيه الكبيرتين، وإسرافهما في بعثرة الأموال، حتى خوت خزائن البلاد، وأوشك الشعب على الثورة.... ولولا حب الأهالي لصغرى بنات الأمير «انجيلينا» وعطفهم عليها، لأعلنوا العصيان ضد الأمير، وخلعوه من منصبه منذ بعيد. فقد كان جمال الأميرة ورقتها وتجاوبها مع محبة الأهالي، وكرهها لتصرفات أختيها، سببا في تخفيف حدة الثورة ضد الأمير. وكلما فاض بهم الغضب، طافت بأذهانهم صورة الأميرة الجميلة، فهدأت ثورتهم، وصبروا أملا في أن تنجلي الغمامة بوسيلة أخرى.

وملأ حديث صاحب الخان عن «أنجيليا» أسماع بيتر، وأدار رأسه ما سمعه عن

جمالها. حتى أصبح شغله الشاغل كل مساء، أن يدعو إليه الرجل، ويغدق عليه المال، ويستدرجه في الحديث عن أنجيلينا. وقال له صاحب الخان:

ـ آه يا سيدى لو قدر لك أن ترى جمالها الملائكي الطاهر. لا أظن أن في الوجود من تضارعها جمالا ورقة، وعلى نقيض، قبح أختيها الشريرتين الحقودتين. إن أهالي القرية يا سيدى ليتمنون أن يتخلصوا من هاتين الأميرتين في كل لحظة. إن الحديث عنهما يثير الغضب. ألا فليذهبا إلى الشيطان.

واستدرك الرجل حين زل لسانه بذكر الشيطان فضرب بيده على فمه صائحا في ذعر:

ـ يا إلهي.... أنا لم أقصد.

وقاطعه بيتر ضاحكا:

ـ لا عليك. فأنا لست الشيطان كما تظن ولكني حفيده الصغير.

واقتربت من الخان ضجة يثيرها وقع حوافر جياد كثيرة وصليل أسلحة. ولم تلبث الجياد أن توقفت أمام الخان، فقام صاحبه مهرولا لاستقبال الوافدين، ففوجئ بالأمير وحرسه يلجون الباب. وابتدره الأمير في لهجة متعالية:

ـ أين حجرة السيد الغريب أيها الرجل؟

فانحنى صاحب الخان، وأشار بيده إلى الأمير أن يتفضل فيتبعه. وسار أمامه حتى بلغا حجرة بيتر، فطرق الرجل الباب، ثم دفعه في رفق، وأومأ إلى الأمير بيده، وانسحب عائدا.

وخطا الأمير إلى الداخل.. وتوقف بغتة حين أبصر ذلك المخلوق البشع الذي قام ليرحب به. وارتعدت فرائص الأمير، وهم بالفرار.. إلا أنه تذكر المهمة التي جاء من أجلها، فتمالك نفسه، وتقدم ليصافح مضيفه، محاولا أن يبدو ثابت الجنان، رابط الجأش.

وجلس حفيد الشيطان والأمير يتحادثان في تكلف ظاهر. والأمير يحاول التغلب على خجله، وينتظر الفرصة السانحة ليطرق الموضوع الذي جاء من أجله. وعندما بدا أنهما لا يجدان ما يتحدثان فيه، مال الأمير إلى مضيفه، وشرح له ما تعانيه البلاد من جراء

الضائقة المالية، وطلب إليه أن يعاونه في علاج الحالة بمنحه قرضا كبيرا يسدد منه ديون البلاد، ويساهم في إنعاش اقتصادياتها.

وأصغى إليه بيتر في اهتمام، ثم قال له بلهجة حاسمة لا تقبل النقاش:

ـ سأعطيك كل ما تطلب مقابل شرط واحد.

فسارع الأمير وأبدى استعداده لتنفيذ هذا الشرط مهما يكن.

وقال بيتر:

ـ زوجني إحدى بناتك.

وبهت الأمير، وبدا عليه التردد. إلا أنه سرعان ما قال:

ـ لا بأس.. ولكن أي بناتي تريد؟

فأجاب بيتر:

ـ أيهن سواء. وسأحضر إلى قصرك غدا لأعطيك المال واشهد عروسي المقبلة.

وعاد الأمير إلى قصره وجمع بناته الثلاث وأطلعهن على الموقف الدقيق الذي تمر به البلاد، والإفلاس الذي يعانيه وينذر بأخطر العواقب. وأشار في حديثه إلى الفرصة التي أتاحتها له الأقدار بنزول حفيد الشيطان في ضيافته وأفاض في وصف ثرائه وأكوام الذهب التي يبعثرها دون حساب. ثم بلغ بالحديث بيت القصيد فصارح الأميرات بقوله:

ـ لقد عقدت اتفاقا مع الضيف لاقراضي أموالا طائلة أسدد منها جميع ديون البلاد وديوني وتوفر لنا جميعا العيش في رخاء تام. ذلك كله سيفعله الرجل مقابل أن يتزوج إحداكن.

ومضى يشرح لبناته الثلاث حرج موقفه، والثورة التي بدت نذرها للإطاحة بعرشه، وقال:

ـ إن خلاصي في أيديكن. إن حفيد الشيطان على درجة من القبح حقا. إلا أنه إذا قص شعره وقلم أظافره واغتسل فسيصبح مقبولا لا ضير في الزواج منه.

وكانت الأميرات قد سمعن الكثير عن بشاعة هذا النزيل وقبحه، ففاجأت الأميرتان الكبيرتان أباهما بإعلان رفضهما لهذه الزيجة، ورفضتا الرأي الذي رآه أبوهما، وأخذتا تلومانه لتضحيته بهما في سبيل المال.

وحز هذا الجحود في نفس الأمير وخاصة من ابنتيه اللتين تسببتا بإسراف المال وفرض الضيق الذي تعانيه البلاد. وكادت الدموع تطفر من عينيه أسفا وحزنا.

وتقدمت أنجيليا الصغيرة، فطوقت عنق أبيها بذراعيها، وأعلنت بشجاعة أنها ستتزوج من حفيد الشيطان مهما تكن بشاعته، وستذهب معه إلى أي مكان، ولو كان الجحيم.

وأغرقت الأميرتان الشريرتان في الضحك، وقالتا للأميرة الصغيرة في سخرية:

ـ نعم، يا أختاه فإنك خير من تليق بحفيد الشيطان.

وأمسكتا عن الضحك والسخرية من أختهما عندما دخل أحد الخدم مهرولا، وعلى وجهه أبلغ مظاهر الفزع، ليعلن للأمير وصول حفيد الشيطان.

وأسرع الأمير فاستقبل ضيفه، وصافحه في ترحاب وتكريم وقاده إلى القاعة الكبرى حيث جلسا يتحدثان. ودخلت كبرى الأميرات وما كادت تلمح الضيف حتى تراجعت إلى الوراء فجأة وندت عنها شهقة رعب، واستدارت لتغادر القاعة بأقصى سرعتها وهي تصرخ في فزع.

ودخلت الأميرة الثانية بدافع من الفضول لترى الذي أثار رعب شقيقتها ولم تلبث أن عادت في هلع وعلى قسماتها من مظاهر الفزع والرعب ما أعجزها عن النطق.

وتقدمت أنجيليا في ثبات وولجت باب القاعة ولم تعد كأختيها صارخة مهرولة بل سقطت مغشيا عليها، ولم يطل إغماؤها فقد أفاقت بسرعة ولكنها ظلت ترتعد. فقام أبوها وأسندها وسار بها إلى حفيد الشيطان وقدمها إليه. وقام بيتر ومد يده فصافحها وأخذ بين يديه كفها المرتعشة التي هربت منها الدماء فصارت ببرودة الثلج وقال في رقة يهدئ روعها:

ـ لا تخشى شيئاً يا أميرتي فلن أكون على هذه الصورة البشعة دائما. بل سيتغير هذا المظهر إذا ما وثقت بي، واطمأننت إلي وتأكدت من شيء واحد فقط: هو أني أحبك وسأظل أحبك ما حييت.

وسرى صوته الرقيق في أعماق أنجيلينا كالسحر وزايلها الرعب، وأحست بالراحة والاطمئنان وإن كان قلبها الرقيق لا يزال يشعر ببعض الرهبة.

وهم بيتر بالإنصراف وانتحى بالأمير جانبا وسلمه مبلغا من المال ثم اعلن أنه سيعود بعد أسبوع لإتمام الزفاف.

انطلق بيتر في الطريق إلى الغابة حيث التقى بالشيطان أول مرة. وفي نفس المكان الذي تقابلا فيه نادى الشيطان باسمه، فانشقت الأرض عن لوسيفر وعلى وجهه ابتسامة هادئة، وقال:

ـ لبيك يا حفيدي الصغير.. أدعوتني؟.

فقال بيتر:

ـ أرجوك يا لوسيفر.. بحق إخلاصي في أداء مهمتي لديك أعد لى صورتي الطبيعية وأعدك ألا أضايقك بعد ذلك قط. أنى أحب الأميرة أنجيلينا ولا أتحمل أن أراها تقاسي الألم من منظري المخيف.

وأجابه لوسيفر.

ـ لك ما تريد.. أمسك بمعطفي وسأذهب بك إلى حيث تغتسل.

وفرح بيتر فرحا شديد وأسرع فتشبث بأطراف المعطف بكلتا يديه، ولم يلبث أن طار به الشيطان إلى عنان السماء وأخذ الشيطان يحلق فوق الجبال والوديان ويطير فوق غابات كثيفة ذات منظر عجيب وبعد وقت ليس بالقصير أخذا يهبطان حتى استقرا على شاطئ بحيرة تتلألأ مياهها كالفضة، وقال لوسيفر:

ـ انزل فاغتسل في هذه البحيرة وستخرج منها شابا أكثر بهاء وروعة مما كنت

واندفع بيتر فألقى بنفسه في الماء وجعل يغطس ويطفو في فرح وسعادة غامرة، وعندما خرج من الماء كان قد عاد فتى جميلا ناضرا، أملس الجلد، ناعم البشرة، حليق الذقن، مقلم الأظافر.

وأشار إليه لوسيفر أن يمسك بطرف معطفه، وطار به حيث أنزله في مدينة عظيمة تموج شوارعها بمتاجر فخمة تعرض أجود أنواع الملابس وأفخرها، ومضى الفتى يتجول بين المتاجر وينتقي لنفسه أروع وأبهى ما فيها واشترى عربة فخمة مذهبة تجرها جياد ناصعة البياض، واستأجر حاشية من الأتباع وانطلق في موكبه الرائع قاصدا قصر أميرته الحبيبة.

وكانت الأميرة تطل من نافذتها فأبصرت هذا الضيف يدخل في موكبه الرائع إلى

القصر فراعها جماله وأعجبت بأناقته وحسن هندامه، وظنته جاء خاطبا لإحدى شقيقاتها فشعرت بالغيرة والحسرة، وأخذت تقارن بين جماله الساحر وبشاعة قبح خطيبها. وبين الحسرات والتنهدات أحست بخطوات تقترب من باب حجرتها وسمعت طرقا خفيفا على الباب فأذنت للطارق بالدخول. فإذا الأمير الشاب الذي رأته من لحظات يسرع إليها متهلل الوجه مشرق البسمات، ويهتف في سعادة:

ـ أنجيلينا.. أميرتي المحبوبة، ثم انحنى على يدها يلثمها في وجد واشتياق.

وتراجعت الأميرة إلى الوراء وتملكتها ردة شديدة، وتسارعت نبضات قلبها تخفق في عنف وصدى الكلمات يتردد في مسامعها وقالت كمن تحدث نفسها في دهشة:

ـ لا إنه أمر غير معقول حقا إنه صوت حفيد الشيطان دون مراء، ولكن.... هذه الصورة كيف...لا...... لا شك أني واهمة!

وهتف الأمير الشاب في صوت رقيق:

ـ إنه أنا يا أنجيلينا.. بيتر... حفيد الشيطان!.

وارتمت الفتاة في أحضانه وترقرقت في عينيها دموع السعادة.

وعاشت أنجيلينا وبيتر في هناءة ورغد، يحوطهما لوسيفر برعايته. ونهشت الغيرة صدر الأختين الحقودتين فأخذتا تنفثان على سعادتهما، وقد ملأهما الندم على رفض الزواج من حفيد الشيطان، فلم يكن يدور في خلدهما قط أنه على هذه الصورة من الجمال والشباب.

وأدرك لوسيفر أن الزوجين في حاجة إلى حمايته من الشر فانقض على الأميرتين وأحاط بهما قائلا:

ـ أنا لوسيفر الذي سخرتما به ورفضتما الزواج من حفيده وسآخذكما معي لأكفي الناس شركما. لقد تزوجت الأميرة الصغيرة من حفيدي الصغير وأنتما أكبر منها فلا يليق بكما إلا شيطان كبير.

وما إن فرغ من حديثه حتى حملهما على ظهره وضرب الأرض بقدمه فانشقت فاندفع بالشريرتين إلى أغوار الجحيم.

الملك تيمورلنك

لمحة من الوفاء

كان الملك تيمورلنك قد غادر قصره في الصباح في رحلة صيد تعوَّد أن يقوم بها. والتف من حوله رجال حاشيته وبلاطه وكان معهم الوزير حكيم. وبينما هم يمارسون صيدهم ومرحهم إذ برزت فجأة أمام الملك تيمورلنك ظبية حلوة تختال طربا أمامه. ولم يكد يقع بصر الملك يقع عليها حتى غمز جواده وأطلق له العنان، وانطلق يطاردها أسرع من الريح.

ولم تكد الظبية تلمح مطاردها حتى انطلقت هي الأخرى تثير وراءها زوبعة من الغبار.. ورغم تلك السرعة التي كانت تجري بها إلا أن تيمورلنك كاد أن يلحق بها وصوَّب إليها سهماً، وهمَّ أن يرميه، ولكن في هذه اللحظة اندفعت الظبية إلى نبع أملها وقفزت فيه وغابت عن ناظريه.. وتوقف الملك بحصانه إلى جوار ذلك النبع وترجل عن جواده. وأخذ يتحسس الماء بعصاه بحثا عن طريدته التي يطاردها. فلما لم يجد لها أثرا.. تأكد من أنها جنية تقمصت صورة ظبية، حتى تستطيع العبث خلالها بقلوب الصيادين.

وعندما تأكد الملك ووزيره من ذلك، أمر حاشيته أن تنصرف وتعود إلى القصر وبقي هو والوزير حكيم بجوار الماء انتظارا لخروج الجنية إذ أنه من المعروف أن الجنيات يستطِعْن المكوث فترة طويلة في الماء.

واستلقى الملك ووزيره جوار النبع انتظارا لخروج الجنية، لكن الجهد الذي بذلوه في ذلك اليوم كان لا بد أن يسلمهما إلى النوم. فاستلقيا في نوم عميق وما كادا يستيقظان منه حتى وجدا نفسيهما فجأة أمام قصر قد انتصب أمامهما كما ينتصب عملاق مهول.

وقال الملك مخاطبا وزيره:

ـ أكاد أجن.. من الذي شيَّد هذا القصر العظيم ومتى شيده؟ ألم نكن هنا من سويعات

قلائل ولم يكن هناك شيئا سوى رمال الصحراء. أتراه ماردا من الجن الذي أقامه؟.

أجاب الوزير حكيم:

ـ ما أظنه يا مولاي إلا أنه ساحر. وهو يبغى من وراء ذلك هدفاً، لا نعلمه. هيا بنا يا مولاي نذهب قبل أن يلم بنا مكروه فنستسلم له كما استسلمنا لهذه الظبية.

ولكن الملك قال:

ـ لا، بل سوف أدخل هذا القصر بحثا عن الظبية ولكى أكتشف ما وراء هذا القصر من الأسرار.

واستسلم الوزير لأمر مليكه وانطلق معه إلى داخل القصر وإذا بهما يتوسطان قاعة واسعة، كل محتوياتها ذهب وفضة وعقيق ومن كل ركن من أركانها ينتشر عطر كعبير الجنة. واجتازا القاعة ليجدا نفسيهما في قاعة أخرى أكثر من الأولى سحرا ورونقا. تتوسطها بحيرة لامعة من زئبق يتدحرج من فوق سطحها عرش من ذهب محلى بلؤلؤ وماس، تجلس فوقه حورية حسناء كالبدر. تحيط بها خمسون غادة في ثياب من حرير يغنين ويرقصن، ويعزفن ألحانا كالسحر لم تسمع مثلها الأرض أبدا من قبل.

كانت هذه الصورة التي اطلع عليها تيمورلنك أروع مما كان يمكن أن يخطر له ببال. ووجد نفسه ينحني لهذا الجمال الذي يشع من وجه المرأة

وانطلق من شفتيه كلامٌ كالهمس يقول:

ـ رحماك يا من تجلسين فوق عرض من ذهب ويأسر وجهك كل القلوب. رحماك يا من جعلت ملكا أسيرا تحت سهام لحظك الفتاك. من تكونين أيتها الحورية التي تعجز عن الإتيان بمثلها الأزمنة والأجيال؟

أجابت الحورية:

ـ أنا من تبعتها بسهامك وأردت أن تكتب لها الموت بحد رمحك. أنا الظبية التي أغرتك وساقتك إلى حيث تعيش. من أجل صرخات حب صاخب في قلب عربية.

قال الملك:

ـ ولكن كيف يكون هذا التحول؟. ومن أين أدرك أن حبي لا يقع في شرك مسحور من أجل لحظات قصار ليصير ويلقى بعد ذلك في أتون النيران؟.

ونهضت الحورية وهي تقول للملك:

ـ لا تخش هواي أيها الملك. فهو لم يعرف السحر قط. وما تحولي إلى هذا الشكل

الذي رأيته سوى آية وهبتها لي السماء منذ أن ولدت في هذا العالم.

وأخذت الحورية بيد الملك وذهبت به إلى حجرة أخرى حتى انتهيا إلى قاعة تتوسطها مائدة جامعة بكل فاخر من طعام وشراب. لم يكد الوزير يجلس مع مليكه حتى أحاطت بهما كل الجواري يقمن على خدمتهما ويعزفن ويغنين ويرقصن. ويرفضن أن يأكلن بل يقمن على خدمتهما.

وشبع الرجلان من الطعام وتساقيا الشراب حتى ارتويا وقالت الحورية للملك:

ـ ما أحلاك أيها الحبيب!. إنني أنا التي تبثك الهوى برغم مولدي القدسي وأصلك الأرضي. أنا يا من خلقت من نار، لم أستطع أن أمنع لهيب قلبي عندما رأيتك. أنا ملكة حوريات الجن أجد نفسي أسيرة لرجل من الأنس لا يمت لي بصلة ولا نسب. فيجعلني استسلم لهواه ولا أهتم بمضي الزمن، وقد كان يجب أن أكون بالأمس في ديار والدي الذي غادرته منذ شهور ثلاثة أضرب في الأرض وأطوف أثمارها لأشهد مملكة الأنس التي لا تشبه في شيء أبدا مملكة أبي الجني، ثم وقع بصري عليك أيها الأنس وأنا في طريق العودة إلى دياري فما استطعت أن أمنع قلبي من السقوط عند قدميك وما عرفت كيف وأنا الجنية أقع في هوى أنس.

وقد كدت أعود إلى جزيرة والدي في أعماق البحر، إلا أنني وجدت قدميَّ مقيدتين إلى الأرض التي أنت عليها، فلم أستطع أن أتحرك. وهنا قررت الاستسلام لما يمليه عليَّ قلبي فانطلقت إليك وأنا أصور لك صورة الظبية وأحاول أن أغريك. ولبيت أنت ذلك النداء وتبعتني ولم تقصر في العدو خلفي بينما كنت أزيد في إغرائك ودعوتك دون أن تدري أنت ذلك، حتى ألقيت بنفسي داخل النبع وأنا أعلم أنك لن تذهب حتى ترى من تكون تلك الظبية التي أوقعتك في شراكها. ولقد صدق حدسي إذ رأيتك تتحسس الماء بعصاك وازداد حبي لك وأنا أسمع في الأعماق منك تصميما على قضاء الليل إلى جوار النبع. فألقيت على عينيك ووزيرك غشاوة الندم ثم أمرت بتشييد ذلك القصرِ لنقضي فيه معا أيام حبنا وزواجنا.. فهل أنت راض الآن عما فعلت، أم تراك غضبت لمعرفة الحقيقة؟

وانتفض الملك وقد توزع قلبه بين عرشه وبين تلك الحورية التي اعترفت له بكل ما في قلبها من حب له، وقال:

ـ أيتها الملكة الحورية.. سأعيش إلى جوارك لننعم بما كتبه الله لنا.

وهنا في تلك اللحظة بالذات فتح الباب وألقت إحدى الوصيفات نفسها تحت قدمَيْ ملكتها وهي تبكي وتقول:

ـ لقد انتقل والدك إلى العالم الآخر يا مليكتي والشعب ينتظر عودتك لكي يضع التاج فوق رأسك قبل أن ينقض عليه عمك يا مولاتي . . فلنعجل فلم يعد هناك وقت .

وصرخت الملكة وهي تنعي إليها والدها وأخذت تبكي . . غير أنها بعد فترة قصيرة استسلمت فيها لقدرها وأخذت تكلم تيمورلنك :

ـ لابد لي أن أعود إلى شعبي الذي ينتظرني لكي أدفع عنه ذلك الطاغية الذي يسعى إلى الحكم الآن . وداعا يا ملكي العزيز . . ثق أنني لن أنساك . .

ولم تكد تنطق هذه الكلمات الأخيرة حتى اختفت عن الأنظار وتحول القصر إلى سراب وكأنه لم يكن .

وعاد الملك تيمورلنك إلى قصره . . ولكنه لم يكن ذلك الملك الذي خرج منه بل حطمه الحزن . . وأخذ في الخروج كل يوم إلى النبع ينتظر أن تخرج منه تلك الحورية التي أسرت فؤاده لعلها تخرج وتخفف عنه نار الفراق .

ومضى عام وبعض عام . .

وذات يوم بينما الملك جالسٌ إلى جوار النبع كعادته، إذ به يختفي فجأة ولا يترك أثرا يدل على مكان اختفائه . وضج الشعب، وجن جنون وزيره . واضطربت صفوف القادة والجيش والجميع يبحث دون جدوى . هل لقي حتفه؟ . هل ذهب إلى المجهول؟ هل اقتنصته وحوش الغابة؟ . لم يستطع أن يخمن أين ذهب الملك ولكن وزيره كان يساوره ذلك الشك أن ملكة الجن وحوريته قد خطفت مليكه وكان محقا في ذلك .

إذ أمرت الملكة بعض جنودها وقاموا بخطف الملك بعد أن رأت هي أنها قد نفذت الوعد الذي قطعته له وهو كذلك لم ينسها . وهي لم تَنْسَه .

وأطلقت الملكة تدعو شعبها إلى لقائها . واجتمع الشعب في ساحة قصرها الملكي ووقفت هي في شرفتها وقالت لهم :

ـ هذا هو الرجل الذي أحبه قلبي، ولكنه يختلف عن هيئتنا . وإني أنوي أن أقترن به . فإما أن تجعلوه منكم بمثابة ملككم حيث وضعتموني، وإما أن تتركوني أرحل معه أشاركه عرشه وأشاركه حب شعبه .

ولكن جموع الجن التي كانت تعشق ملكتهم قالوا في صوت صاخب :

ـ نحن نبارك هذا الزواج يا مولاتي .

لم يمضِ سوى يوم واحد على القسم حتى كانت تلك المملكة تحتفل بزواج ملكتهم

على تيمورلنك

وجلست الحورية مع ملكها وقالت له :

ـ قبل أن نرتبط حتى النهاية أريد أن أنبهك إلى شيء قد لا تستطيع أن تفي به فيكون فراقنا .

وقال لها :

ـ أبدا أيتها الحبيبة . سوف أفي بجميع وعودك التي سوف أقطعها على نفسي أمامك .

ورددت هي قائلة :

ـ إنه أمر شاق ذلك العهد . وإذا نكثت فيه سوف ينتهي أمرنا . وإني أخشى أن تنكث ذلك اليمين .

وعاد تيمورلنك يقول :

ـ أنا رهن إشارتك ولن أنكث وعودي

وقال الملكة :

ـ إذا عاهدتني ألا تتدخل في أمر آنية . فنحن معشر الجن لنا من الطباع ما يختلف عن طباعكم ولنا من التصرفات ما لا يمكن أن تقبله عقولكم البشرية .

وأجاب تيمورلنك قائلا :

ـ أهذا هو كل ما تحذرني منه أيتها الجنية . لا تخشي شيئاً، ولن يحدث هذا الذي تخافين منه .

وعادت الملكة تؤكد عليه ذلك قائلة :

ـ هل أنت واثق من ذلك؟ .

وضحك تيمورلنك قائلاً :

ـ نعم . .

واقتنعت الملكة وصار تيمورلنك شريكا على عرش الجن لمملكة الجن .

وانقضى عام . .

وذات يوم أغلقت الملكة على نفسها باب حجرتها ومنعت زوجها من الدخول . . وعندما فتح الباب من جديد كانت الملكة تحمل وليدا رائعا كأنه البدر، وأخذه تيمورلنك وراح يحتضنه ويقبله وهو يكاد يرقص طربا وفرحا بمولوده الجديد . وتناولت الأم منه الطفل

ثم وقفت بجانب مدفأة وهي تضطرم بنيرانها المتأججة، وراحت تتمتم بألفاظ غريبة لم يستطع أن يفهم منها شيئا قط. ثم فجأة ألقت الوليد في تلك النار التي سرعان ما ابتلعت ذلك الطعم وخمدت وكأنه لم تكن هناك نار على الإطلاق.

وصرخ الملك رعبا وحزنا على ولده الذي راح ضحية ذلك التصرف المجنون. وكاد يصرح بما يجول في خاطره لولا أنه تذكر الوعد الذي قطعه على نفسه لزوجته ألا يتدخل في أي تصرف من تصرفاتها. وكتم ألمه داخل نفسه.

وانقضى عام آخر..

ومثلما حدث في المرة الأولى، أغلقت الملكة على نفسها الباب وعندما فتح مرة أخرى خرجت وهي تحمل مولودة كأنها البدر في ليلته وراح الملك يحتضن ابنته وهو يتوقع في كل لحظة أن تأخذها منه الملكة وتقذفها في النار، غير أن شيئا من ذلك لم يقع في ذلك اليوم فاطمأن قلبه وامتلأ حبا لزوجته وابنته. وما عاد يطيق فراق أي منهما لحظة واحدة..

غير أن الملك فوجئ بعد أسبوع من ولادة ابنته بكلبة عملاقة تدخل من باب القصر وهي فاغرة فاها الكبير، واقتربت منها الملكة وهي تحمل الطفلة الرضيعة وتقذفها داخل هذا الفم..

وكاد الملك ينفجر ورفع يده وهي تكاد تهوى على تلك الكلبة، غير أنه تذكر وعده الذي قطعه على نفسه ورفع يده كأنه يمس الكلبة وهي تمر من أمامه، وانطلق إلى مخدعه وراح يبكي وهو يحدث نفسه قائلا:

ـ يا لي من تعس، لقد تزوجت امرأة سفاحة. أين ضميرها وهي تقذف بابنها إلى النار وتلقي ابنتها بين أفواه الكلاب؟ أيكون كل هذا من تقاليد الجن؟. أتأبى أن يكون لها أولاداً من أنس.. إذا كان كذلك فلماذا تزوجتني إذن؟. ما أفظع قلب تلك المرأة! إن لصبرى حدود ولن أطيق تلك المعاملة من بعد. لن أحتمل بطبعي البشري كل هذا الهراء.

وانطلق تيمورلنك حيث توجد زوجته وقال لها:

ـ لقد اشتقت إلى أمر مملكتي وشعبي وناسي. ولقد تركتهم ولا أدري ما مصيرهم. ليتك تأذنين يا مولاتي بالذهاب ولزيارتهم ومعرفة ما ألم بهم ثم أعود بعد فترة.

وابتسمت الملكة وهي تجيب زوجها:

ـ حسنا يا زوجي العزيز.. لك ما شئت ثم أن الأعداء على أبواب بلادك العزيزة والشعب في حاجة إلى قائده الذي يقوده إلى النصر. واطمئن من هذه الناحية فلن أتركك قط

حتى ترتفع راية انتصارك إلى الأعالي.

وأمرت الملكة مارداً من الجن بنقل الملك إلى عرش بلاده.

ولم تمر لحظات حتى وجد تيمورلنك نفسه جالسا فوق عرشه، في ذلك الوقت الذي كان وزيره المخلص يقوم بحكم البلاد باسمه انتظارا لعودته. فلما أطل الوزير أمامه ووجد الملك جالسا على العرش ارتد إلى الوراء وكأن الثعابين لسعته.

فركع الوزير على ركبتيه وهو يشكر الله ثم قام واحتضن ملكه الذي كان يملأه العجب من ذلك الوفاء والإخلاص من هذا الرجل، الذي قام بحرس العرش انتظارا لعوده ملكه.

وأخذ الملك يتفقد أمور بلاده. ويعد الجيوش لملاقاة الأعداء التي تقف على أبواب المدينة.

وتجمعت الجيوش في ساحة الوغى وهي تهدر. بينما كان القائد (ساوشيم) هو المسؤول عن إمداد الجيوش بالمؤن والثمار والخبز يجمعها، ثم يرسلها مددا للجيش الذي يقف في انتظار الأعداء، غير أن هذه القوافل لم تكم تصل إلى حيث يقبع الجنود أبدا، فخلال الطريق كانت جيوش أخرى من الجن تنقض على تلك المؤن برئاسة زوجة الملك تيمورلنك وتلقي المؤن على الأرض فتفسدها. وتبقى قرب الماء فتهرقها وتسيلها على الأرض.. وقد تكررت هجمات الجن على قوافل المؤن حتى كاد القائد (ساوشيم) يجن. وحينئذ برزت له ملكة الجن وقالت له:

ـ إذهب إلى ملكك وقل له إن التي تعبث بالمؤن وتفسدها وتتلفها ليست إلا زوجتك.

وانطلق ساوشيم غاضباً على تلك المؤامرة التي تدبرها زوجة مليكه. وأخبر الملك تيمورلنك بما تفعله زوجته بأمر المؤن التي تخص الجيوش التي تقف في وجه الأعداء.

وطاش عقل الملك ولم يطق صبرا على أفعال زوجته، وبمجرد أن ظهرت تلك المرأة لم يدع لها فرصة الكلام وقال لها:

ـ لم أعد أطيق ما تفعلينه أيتها المرأة. فدون ذلك خرق المواثيق وإنهاء الوعود. أما كفاك ما تفعلينه؟. أما كفاك أنك حرقت ولدي ورميت ابنتي إلى أفواه الكلاب؟. بل ذهبت إلى أكثر من ذلك بأنك تسعين إلى قتل جيش بأسره بتحطيم مؤنه من طعام وشراب؟. أما كفاك يا سيدتي أنك تريدين قتلي أنا نفسي؟ فما أستطيع أن أقف حيًّا وسط جيش يموت.

وكانت الملكة في خلال كل ذلك قد فتحت عينيها وهي غير مصدقة. ولم يكد الملك ينتهي من كلامه حتى قالت الملكة تحدثه في صوت رهيب:

ـ يا للأسف أيها المسكين. لقد كان يجدر بك أن تلزم الصمت وتحفظ العهد الذي قطعته على نفسك من قبل. لقد حدث ما حذرتك منه من قبل. فلتسمع أيها المسكين تفاصيل ما جرى وخفي عنك. إن هذه النار التي رأيتني ألقي بابننا فيها لم تكن سوى ربة الشتاء اللبقة الحاذقة التي عهدت إليها بابننا لتعلمه وتثقفه. وهذه الكلبة التي ألقيت ابنتنا إلى فمها لم تكن سوى حورية المملكة التي تتولى تلقين الأميرات أصول الآداب والفنون. ولقد أتمت كل منهما ما عهدت به إليها وأعادت الأولاد.

وحينئذٍ صفقت الملكة بيديها فدخلت وصيفتان من الحور وبين أيديهما الأميرة والأمير الصغيران.

وجثا الملك على ركبتيه يعانق ولداه ويحتضنهما ويقبلهما.

واستمرت الملكة تقول:

ـ أما المؤن التي ظننت أنني أتلفتها. فلم تكن سوى مسمومة كانت كفيلة بالقضاء على جيشك وأنت معه، إذ أن القائد ساوشيم خائن لك، جاسوس للأعداء وإذا لم تصدق فجرب هذا الطعام.

وأمر الملك بإحضار قائده الخائن وأمره أن يتذوق طعامه المسموم. فأبى الرجل أولا ولكنه تحت تهديد السيف ابتلع بعضا منه. ولم يكن يصل إلى بطنه حتى تلوى واقعا على الأرض، وما هي إلا لحظات حتى فارق الحياة

واقتنع الملك بكلام زوجته. قال لها معتذرا:

ـ لقد ظلمتك أيتها الجنية. ولكن كيف أتصرف وجيشي لا يملك المؤن والماء والأعداء على الأبواب.

وقالت زوجته تطمئنه:

ـ لا تخشَ شيئا. . سيساعدك جنودي من الجن وسوف تهزم الأعداء

وحدث ما توقعته حقا وانتصر تيمورلنك على عدوه وردهم مدحورين، وبينما كان تيمورلنك يستقبل انتصار قادته وتهنئتهم له بالنصر جاءت زوجته وقالت له:

ـ والآن أيها الملك وقد انتهت الحرب بنصرك كما وعدتك. فلتعش في قصرك مطمئنا وسأعود أنا إلى مملكتي فما عاد بيننا لقاء قط ما دمت قد تسرعت ووقعت في المحظور مخالفا وعدك الذي قطعته على نفسك.

وجحظت عينا الرجل وهو يسمع هذا الكلام.

وقال لزوجته صارخا:

ـ كلا يا مليكتي. . اغفري لي بحق السماء

وهزت الملكة رأسها وهي تقول:

ـ لم يعد يجدي الأسف شيئاً. ولن تراني ولا أولادك بعد اليوم.

واختفت عن الأنظار وسقط زوجها مغشيا عليه.

ومضت الأيام ثقيلة سوداء على الملك. . وما عاد يطيق لقاء أحد، وازداد به الضيق، وفوض وزيره في تفويض أمور الدولة وانطلق وحده معتزلا الناس في جناحه، وقد أغلق وراءه الباب، لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه سوى وزيره الذي يحضر له الطعام والشراب.

ومرت عشر سنين كان الملك خلالها على شفا حافة القبر، وبينما هو جالس ذات يوم يتذكر الزمن الذي انقضى على فراق زوجته وأولاده. إذا بزوجته تظهر أمامه وعلى وجهها الفرح وهي تحيطه بيديها وتقول:

ـ ها قد عدت إليك يا زوجي الحبيب لأضع حدا لآلامك وأحزانك وأعيد إليك نضرة الحياة. لقد انقضت الفترة التي حددتها شريعتنا لمن يخنث في يمينه.

وانطلق أولادها يعانقون أباهم.

وتلك هي صورة من صور الوفاء.

من الأساطيـر الشيقـة في قصص ألف ليلة وليلة..

قصة القرندلى الثالث

فى الليلة الثالثة بعد الخمسين من ليالي شهرزاد، واصلت الأميرة شهرزاد سرد قصة «الحمال مع بنات بغداد» على زوجها الملك شهريار. وكانت قد وقفت عند انتهاء الصعلوك الثاني من سرد حكايته في ذلك المجلس الليلي العجيب ببيت غانيات ثلاث يعشن على إنفراد، أضفن في تلك الليلة حمالا وخليفة ووزيرا وسيافا وصعاليك ثلاثة حليقي اللحى والحواجب، عورا باليمنى. وما إن انتهى الصعلوك الثاني من قصته عن سبب فقدان عينه اليمنى وحلق لحيته وحاجبيه، واتشاحه بملابس الصعاليك، حتى اتجه القرندلى الثالث إلى ربة المنزل وخاطبها قائلا:

«يا سيدتى الجليلة!. قصتي أعجب من قصة رفيقي. ولقد كنت ملكا ابن ملك كما أنهما من أبناء الملوك، وكانا فريستين للقضاء والقدر. أما أنا فصاحب بليتي والباحث عن شقائي بنفسي. أنا عجيب بن خصيب، توليت المُلك عن أبي في بلادي الواقعة على ساحل البحر، وبها المرفأ الأمين والسفن الكثيرة، حربية أو عمالة، ومراكب خصصت لنزهتي إلى الجزائر الواقعة تحت حكمي».

«وقد خرجت إليها في أول تملكي وتعرفت إلى رعيتي من سكانها فأحبوني، وحُبِّب إليَّ البحر والأسفار البحرية. فطمعت ذات يوم أن أَلِجَ ما وراء جزائري، كاشفا عن غوامض البحر، باحثا عن عجائبه. فجهزت عشر سفائن خرجنا بها إلى عرض البحر أربعين يوما وليلة. وفي الليلة الأولى بعد الأربعين هبت علينا ريح قوية، وأخذت علينا السبيل عاصفة هوجاء أحسسنا أنّا فيها من الهالكين. ولاح الفجر فهدأت الريح وسكن

البحر وأشرقت الشمس وبددت الغياهب، وأشرفنا على جزيرة أقمنا فيها يومين. ثم خطفنا منها إلى مملكتي نطلب العودة، فسرنا عشرة أيام كنا نتوقع بعدها أن تلوح لنا الأرض فلم يظهر لها أثر، واستغرب الربان شكل البحر. فأمر الناظور أن يتسلق الدقل ويتأمل الأفق، فلما بلغ أعلى الصاري وتفرّس في الأفق نادى قائلا: يا ريس، رأيت عن يميني سمكا على وجه الماء، ونظرت إلى وسط البحر فرأيت سوادا من بعيد يلوح تارة أسود وتارة أبيض. فلما سمع الربان كلام الناظور ضرب سطح السفينة بعمامته ونتف لحيته، وأنذرنا بالويل والثبور قائلا: ضللنا الطريق ولا ريح يرجعنا. وفي الغد نصل إلى هذا السواد اللامع فهو جبل من حجر أسود يسمى حجر المغناطيس، يجتذبنا قسرا إلى ناحيته بسبب ما في السفن من حديد. فإذا أشرفنا عليه تفككت أوصال السفن وطار حديدها ليلتصق بجبل المغناطيس، وتفرقت ألواح المراكب في البحر وغرقنا».

أخذنا البحر يدفعنا إلى جبل المغناطيس دفعا حتي صرنا على مقربة منه، وحدث ما قاله الربان، وغرق أكثرنا. أما من نجا فلم يعرف مستقراً غير ألواح السفينة لتحمله الأمواج وألقت بهم وبي على الجبل.

وشاهدت على رأس الجبل قبة عظيمة صفراء مقلمة على عشرة أعمدة، وفوقها فارس من نحاس على فرس من نحاس، وفي يده رمح من نحاس، وعلى صدره لوح من رصاص به نقوش وطلاسم. فتقدم إلى القبة لا ألوي إلاّ على الهجوع تحتها، ونمت منهوك القوى ثم صحوت على صوت هاتف يقول: يا بن خصيب، قم واحفر تحت رجليك تجد قوسا من نحاس وثلاث نشابات من رصاص عليها طلاسم. خذ القوس هو الراصد لما بصخور الجبل من قوة المغناطيس، وإذا هوى فقد الجبل صفته المشؤومة. ثم أحذر بعد ذلك أن تذكر اسم الله حتى ترجع إلى بلادك.

واسترسل عجيب بن خصيب في سرد روايته، متأثراً تارة بما عاشه، ومتحسراً على ما فقده. وذكر لنا الراوي أن ابن خصيب قام ورمى الفارس بالسهم فوقع من توه في البحر، وعلا البحر حتى ساوى قمة الجبل. وإذا بزورق يجذف فيه رجل من نحاس على صدره لوح من رصاص وهو متجه إلى حيث الملك عجيب يومئ إليه أن يركب الزورق. فنزل الملك بالقارب وسار به الرجل النحاسي عشرة أيام ظهر له بعدها البرّ. نسي عجيب وصية الهاتف وحمد الله على سلامته، وإذا القارب يغوص بصاحبه بطرفة عين، وابن خصيب يسبح في الماء يومه وليلته، حتى رمى به العباب إلى ساحل وقام في صباحه فوجد نفسه فوق جزيرة صغيرة كثيرة الأشجار. وبينما الرجل متحير في أمره رأى مركبا

قادما على الجزيرة فاختبأ بين أغصان شجرة، ونظر فإذا عبيد خرجوا من المركب ومعهم المساحي والفؤوس، ومشوا في الجزيرة، وحفروا في أرضها حتى كشفوا عن سرداب فتحوا بابه وجعلوا ينقلون من المركب أحمالاً كثيرةً. فلما انتهوا عادوا إلى المركب وجاءوا بشيخ هرم يتوكأ على صبي، «أفرغ في قالب الجمال، وألبس من الحسن حلة الكمال» ، وأتوا إلى السرداب فنزلوا كلهم فيه. وبعد ساعة صعدوا جميعا إلا الصبي ذو الوجه الصبوح فلم يكن بينهم. ثم يمموا شطر المركب والشيخ معهم بعد أن أقفلوا السرداب على الفتى وأبحروا.

نزل عجيب من فوق الشجرة وانحدر من السرداب إلى بهو كبير غُطّي بسجاد وأضاءته شمعتان، وفي ركن منه سرير عليه بسط ووسائد. وقد جلس الصبي فوق السرير وبيده مروحة، وعلى مقربة منه طبق فواكه وطاقات أزهار. وفزع الصبي إذ رآه فهدّأ عجيب من روعه، وعرفه أنه من أبناء الملوك، وأن حسن الطالع قد أرسله لمعونة الصبي في محنته، وخلاصه مما أراد له الشيخ وعبيده.

فأجابه الصبي: إعلم أيها الأمير أن الشيخ أبي، وهو سر تجار الجوهرية. وقد رزق بي في شيخوخته بعد يأس، فتنبأ المنجمون لي بحياة طويلة إذا اجتزت سن الخامسة عشرة. ففي ذلك السن تتعرض حياتي لخطر كبير، إذ يكون عجيب بن خصيب قد أبطل طلاسم جبل المغناطيس، وأطاح بالفرس والفارس في البحر. ورأى المنجمون أن عجيبا هذا قاتلي إن ظفر بي في الخمسين يوما التالية لسقوط الفرس النحاسي. ولما عرف أبي أخيراً بأن الفرس النحاسي قد هوى، ومضى على زوال الطلسم عشرة أيام، جاء بي إلى هذه الجزيرة وكان قد احتفر لي فيها هذا الطابق لأقضي فيه أيام النحس التي يخشى أثناءها على حياتي. ووعدني أن يجيئني بعد أربعين. ثم أضاف مبتسما ابتسامة بريئة: وما أحسبني إلا ممضياً هذه الأربعين يوما في أمان، فمن أين لابن خصيب أن يصل إلى مخبأي في هذه الجزيرة؟. وسخر عجيب في نفسه من نبوءة المنجمين، وأكد للصبي أن الحظ قيّض له أن يكون بجانبه في تلك الأيام، ويُبعد عنه عادية من تسوّل له نفسه الاعتداء عليه.

وعاشا صفّيين تسعة وثلاثين يوما، يتلاعبان ويتسامران، وعجيب يبذل نفسه بذلا إرضاءً للصبي الجميل، مغتبطاً بهذه الفرصة المؤاتية التي مكنته من أن يعيش ناعما، مطمئنا إلى قرب عودته إلى وطنه على المركب التي يجيء بها والد الفتى. وفي صباح اليوم الأربعين نهض الصبي جذلا فرحاً وصاح بعجيب: سيدي الأمير، هذا نحن وقد

عشنا الأربعين يوما في سلام، وسيأتي أبي اليوم بصحبته إلى بلادك وبلادي. فلأغتسل لأستقبل والدي في أحسن بزة.

ويأتيه عجيب بالحوض والماء الساخن فيساعده على الاستحمام وينشف له جسده، ويدلكه وهو مسجى على سريره، ثم يغطيه. وبعد أن يغفو الصبي إغفاءة، يصحو ويطلب من صاحبه أن يناوله بطيخة. ويبحث ابن خصيب عن السكين، فيراها على رف قائم فوق سرير الفتى، فيخطو فوق السرير ويتناول السكين، وإذا بقدمه تتعثر بالغطاء، فيقع على صدر الفتى بكل حمله، والسكين في يده وقد نفذت إلى قلب الصبي الجميل فمات لساعته.

صاح الملك صيحة منكرة إذ حم القضاء سويعات قبل نهاية الفترة التي رآهما المنجمون في الطالع، واستغفر ربه ودعاه أن يقبضه إليه. ثم أدرك أن توسلاته لن تعيد الحياة إلى الفتى، وأن الشيخ لا بد في طريقه إلى السرداب، فإذا رآه فلن يجديه أن يقص عليه ما حدث، ولا الشيخ مصدق له.

اختبأ فوق شجرة حتى اقترب مركب الشيخ، ورآه يمشي إلى الشرب متحاملا تحت وقر السنين وحوله حشمه، كما رآه بعد هنيهة خارجا من الطابق محمولا على الأكتاف وقد بلل الدمع عارضيه ولحيته. كان ينشج كسير النفس يؤوده المصاب، وحكم القضاء الذي لا يرحم. وحفر العبيد للفتى قبرا دفنوه فيه، وحملوا الشيخ المسكين إلى السفينة التي أقلعت وما عتمت أن اختفت وراء الأفق.

وبقي عجيب في الطابق شهرا يقتات بما بقي من زاد الفتى، ويتجول في الجزيرة وهو يرى ساحلا نائيا جعل ملتمساً وسيلة للوصول إليه، حتى لاحظ ذات يوم أن البحر يغيض ماؤه، والجزيرة تنفسح شواطئها. فلم يبق بينه وبين ذلك الساحل سوى مسافة يستطيع سباحة قسم منها وخوض أكثرها. وهناك رأى قصرا نحاسيا تنعكس عليه أشعة الشمس فيأخذ وهجه بالأبصار، فاتخذ سمته إليه وجلس ببابه يستريح. وبعد برهة قدم إلى القصر عشرة من الفتية كأنهم عائدون من نزهة، كلهم حسنو الهيئة والبزة، إلا أنهم عور باليمنى، ومعهم شيخ فارع القامة عليه سيماء الوقار والجلال.

ترفق الشيخ والفتيان بالأمير عجيب، ودخلوا به إلى ردهة في القصر واسعة، انتظمت بها عشرة أسرّة في وضع دائري حول إيوان جلي عليه الشيخ. وجلس كل منهم على سريره، ودعوا عجيبا إلى الجلوس بينهم واستمعوا لحكايته، وتنادموا حتى هزيع

متأخر من الليل، ثم أذن أحدهم بأن قد دنت ساعة الحساب. فخرج الشيخ برهة وعاد يحمل عشر صحاف غطى كل منها بغطاء أزرق قاتم، بلون السجف وأغطية الأسرة، ووضع أمام كل واحد منهم صحفته. فكشفوا أغطيتها عن رماد وتراب وفحم وأخذوا يمزجونه بأيديهم، ثم يحثون منه على رؤوسهم ويعفرون به وجوههم، ويبكون ويضربون صدورهم ورؤوسهم قائلين: هيهات.. هيهات أن يرجع ما فات. وقضوا ما تبقى من الليل على هذا الحال.

وكان الشيخ والشبان قد اشترطوا على عجيب ألاّ يسأل عما لا يعنيه من أمرهم، ولا عن سبب إصابتهم جميعا بعيونهم اليمنى. وقد عرف كيف يكبت فضوله بشأن هذه العاهة على ما فيها من غرابة الجمع بين الفتيان العشرة واتفاقها على الناحية اليمنى فيهم بلا استثناء. ولم يستطع صبرا على هذا الندب والنحيب المنظم كأنه طقس من الطقوس. فلما قارب الفجر واغتسلوا، واستبدلوا ملابسهم المعفرة بالسواد وخرجوا للنزهة، قال عجيب:

أصدقكم يا سادتي، إنى غير مستطيع قبول شرطكم، فمظهركم ومخبركم يدل على أنكم من أهل الحجى والرزانة. ولكن فعالكم الغريبة في هزيع من الليل لا هي متفقة مع المظهر ولا مع المخبر. وما دمتم قد أثرتم فضولي إلى هذا الحد، فإنى سائلكم أن تفسروا لى أيضاً سبب ضياع عيونكم اليمنى.

فأجابوه متبرمين بفضوله، وطالبوه بأن يهون على نفسه ويهون عليهم.

ودام هذا شأنهم ليلة إثر ليلة حتى ضاق ذرع ابن خصيب بإصرارهم على تركه في حيرة من أمره، وسألهم أن يدلّوه على طريق يعود منه إلى بلاده. فليس في منظر مناحتهم الليلة، ولا في لون أوانيهم المجللة بالأزرق ما يغري بالبقاء إلى جانبهم، إلا أن يعرف على الأقل لذلك سببا.

وبعد فترة سكوت رهيبة قال له واحد منهم: أيها الفتى، ما سكوتنا إلا شفقة بك أن يصيبك ما أصابنا. فإن شئت أن تعرف من أمرنا ما تريد وكنت عاقد العزم عليه، فأعلم أن ذلك سوف يكلفك عينك اليمنى عدا الندم والحسرات

قال عجيب: هون عليك، فإذا قدر أن يحدث لي ما حدث لكم، فلست آخذكم بجريرتى.

فاستطرد الذي قطع السكوت: وأعلم، إنْ فقدتَ عينك اليمنى، لا مقام لك بيننا بعد ذلك.

وحينما استوثقت الجماعة من أن عجيبا لن يرتد عن عزمه، احضروا بهيمة وذبحوها وسلخوا جلدها وأعطوه سكينا وقالوا له: سوف نسجيك في هذا الجلد، ونخيطه عليك ونحملك إلى الخلاء، فيأتي طير عظيم يقال له الرخ فيحملك في أطباق الجو، وينزل بك على قمة جبل. فإذا أحسست أنه قد استقر بك عليه، فأسرع إلى الجلد ومزقه وانهض، لأن الرخ إذا رآك فزع منك وطار عنك. ثم رجّع البصر حولك تر قصرا منيفا، وكلفنا العلم به عيوننا اليمنى، وذلك الندم الذي ترانا نتردى فيه كل ليلة. هذا كل ما نستطيع أن نبوح لك به، ولن نزيد عليه كلمة واحدة.

تقدم عجيب إلى جلد البهيمة وتمدد فيه ممسكا بالسكين، وخاطوا الجلد عليه وحملوه إلى الخلاء. وجاء الرخ فحمله بين مخالبه وطار وعبر به الجو إلى قمة جبل وقد حسبه بهيمة فلما رآه يتلمس طريقه خارجا من الجلد طار عنه. وشاهد عجيب الطير الهائل الأبيض الذي قيل بأنه يحمل الفيلة إلى الجبال يزق بها أفراخه.

وأمام هذا المجهول لم يستطع عجيب إلاّ أن يتصرف بسرعة وذهول وأخبر: أسرعتُ يا سيدتى إلى القصر الموعود، فوصلت إليه في نصف يوم. ووجدته أغرب من أن يوجد. دخلت ساحته الواسعة فرأيت حولها تسعة وتسعين بابا من خشب الصندل والعود، أما الباب المائة فكان من ذهب. كلها مقفلة، والدخول إلى أبهاء القصر وردهاته من أبواب أخرى قائمة بأعلى درج من المرمر واسع الجنبات. أخذت طريقي إلى أكبرها وسط البناء، ودلفت منه إلى بهو واسع جلست فيه أربعون صبية يأخذ جمالهن بمجامع القلوب، ويقصر عنه وصف الواصفين، حتى لو كانوا من أعظم الشعراء.

قمن جميعا كالغزلان الرضية المستأنسة، وأقبلن عليّ يرسلن تحياتهن في جرس رخيم: أهلا وسهلا بالسيد الغطريف وانفردت إحداهن بالكلام قائلة: ما أبطأ مرور الأيام والليالي ونحن في ترقب فارس مثلك. فطلعتك وسيماؤك وقوامك على أحسن ما نرجو، وأملنا أن تجد في صحبتنا كل ما يسرك ويرضيك.

وأحللني منهن مكانا رفيعا وأنا مطرق الرأس خجلا، وأكدن لي أنهن منذ اليوم رهن إشارتي، وأني سيدهن الآمر الناهي فيهن. وجاءتنى واحدة بالطست، وأخرى بالإبريق، وثالثة بالماء المعطر، ورابعة بالمناشف. غسلتْ واحدة قدميَّ، وصبت الأخرى ماء الورد

على يديَّ، وقدمن لي الحلل الناعمة الباهرة، والطعام الشهي، وعصيراً طيباً. كل هذا في نظام وترتيب، وبخطوات متوازنة كأنها تتحرك على توقيع آلات غير منظورة.

والتفّت الصبيات حولي، واشرأبت أعناقهن إليّ ينصتن لقصة أسفاري حتى جن الليل. فجاء بعضهن بالشموع الكثيرة فنسقت في أنحاء البهو تنسيقا بديعا وأوقدت، وقدمت في الفواكه والنقل وأصناف المشموم. وجاءت البنات بآلات الطرب، وجلست أتناول الطعام وأحتسي الشراب وهنَّ حولي يوقعن ألحانا ساحرة، ويغنين غناء تذوب فيه القلوب صبابة، ويرقصن منفردات ومزدوجات في دوائر وأقواس وصفوف، ويفترقن ويجتمعن مثنى وثلاث ورباع، بأصناف من التخلع والتكسر تذهب بالعقول

وكان الليل قد انقضى منه أكثر من نصفه حينما انتهى الرقص والغناء فتقدمت إحدى الصبايا وقالت: ما نحسبك الليلة إلا متعبا من السفر، وتود أن تأوي إلى مخدعك الذي أعددناه لك. فتفضل وتخير من بيننا عروسك.

فأجبتها وأنا أدير البصر حائرا بين الأربعين غانية: حاشا أن أفاضل بين الجميلات!. يا ما أحيلى هذا الحسن، ويا ما أطيب وأظرف هذه الشمائل!. مرن عبدكن الخاضع، فهو صريع كل تلك اللحاظ، وأسير هذي القدود.

فقالت الصبية وهي تضحك من حيرتي البادية: هوِّن عليك أيها الفارس الجميل، فنحن أعرف بشهامة نفسك، وطيب عنصرك ورفيع أدبك أن تخشي أن تدب بيننا الغيرة، فنستحلفك أن لا تظن بنا الظنون، لكل واحدة منا نصيبها في صحبتك. تقدم أيها الحبيب إلى العروس السعيدة باختيارك، وعجل فما أشد حاجتك إلى الخلود والهدوء.

ومددت ذراعي نحو ذات الفصاحة والجرس الناعم، وسرنا في حشد من الحسان إلى جناح في القصر يتلألأ كأجنحة الطواويس، ويتماوج سجفه كرقاب اليمام.

وهنا أرادت شهرزاد التوقف قائلة:

ـ ولكن الصباح قد انفرق عن ثناياه يا مولاي، فهل يأذن لي مليكي بأن نترك الأمير العجيب مع صاحبته.

فلم يجب شهريار بكلمة، ولكنه تمتم في نفسه: كيف أقوى على فراقك يا شهرزاد، لقد تعلقت روحي بأطراف لسانك المعسول، إذا سلمتك للجلاد هذا الصباح، فاتني أن أعرف كيف فقد ابن خصيب عينه اليمنى، وعاد قرنديا صعلوكا. فلننتظرك أيتها الساحرة لليلة أخرى.

فلما كانت الليلة الستين قالت دنيا زاد للسلطانة: حبذا لو أتممت لنا يا أختي حديث القرندلي الثالث. فأجابت شهرزاد: سمعا وطاعة، فهذه يا مولاي بقية حديث الأمير عجيب:

«وفي ضحى اليوم التالي دخلت الصبايا إلى مخدعي واقتدنني إلى الحمام، ثم قدمت لي الحلل البهية، وخرجنا إلى قاعة الطعام، وقضينا النهار في أنس وحبور، والليل في طرب وسمر ومغازلة».

قضى الأمير عجيب عامه في ذلك الفردوس الأرضي، كأنه في حلم من أعجب الأحلام. فلما كان صباح اليوم الأول من العام التالي، دخلت الصبايا على غير عادتهن من الضحك والموسيقى الذي كان يصحو عليه، باكيات العيون مطرقات الرؤوس، وأخبرن الأمير بدنو ميعاد الفراق. فهن من بنات الملوك وعليهن واجبات يؤدينها أربعين يوما في هذا الوقت، ولا يملكن أن يحن بما في تلك الواجبات. ويكفيه أن يدرك حزنهن على فراق الأمير الجميل، حتى ولو فترة الأربعين يوما. ويخشين أن لا يطيعهن فيما يأمرنه به فتضرب الفرقة بينهن وبينه، ويكون اليوم آخر العهد به. أما إذا عرف من نفسه القدرة على صد فضوله، فلا يكونن في شك من لقائهن القريب. وتلك مفاتيح المائة باب المحيطة بساحة القصر يتركنها بين يديه ليمتع نفسه بما يشاهده خلف تلك الأبواب. إلا الباب الذهبي فحذار أن يفتحه، أو يحاول أن يعرف ما وراءه. ولكم يغريهن الخوف من عصيانه أمرهن بأن يحتفظن بمفتاح الباب المحظور. ولكنهن يتجنبن تجريح الأمير بإظهارهن الشك في ملكة احتفاظه بالأسرار، أو قدرته على امتلاك أعنة الفضول في نفسه.

وودعن الأمير باكيات وهو يكفكف عبراتهن الواحدة بعد الأخرى، وبقي وحيدا في ذلك القصر الكبير الذي لم يتركن له فرصة التفرج عليه واكتشاف خباياه، ولا كان بحاجة إلى الفرجة، أو هو فكر بها. فلقد انقضى العام بينهن كأنه يوم من الأيام، بينما تبدو الأربعون يوما بدونهن قرناً من الزمان.

وفتح الباب الأول فرأى به حدائق الفاكهة كأنها جنات عدن انتظمت أشجارها، وجرت غدرانها تسقي كل شجرة بقدر معلوم، حسب نموها وازدهارها، أو نضوج الثمار فوق أغصانها.

ونفذ من الباب الثاني إلى روضة الأزاهير من الورد والياسمين والبنفسج والنرجس، والزنبق والقرنفل والسوسن وشقائق النعمان، كلها مزهرة عاطرة في أوقاتها وغير أوقاتها، والجو عبق بما يتضوع من عبيرها، والأرض مغطاة ببساط العشب السندسي.

والباب الثالث كان باب بستان الطيور، وأرضه من مرمر، وأقفاص الطيور من خشب الصندل والعود. و بها الهزار والبلبل، والفاخت والكروان، وطيور لم يرها ولم يسمع بها طول عمره، وصحاف الحبوب من الزمرد والعقيق. والبستان نظيف طيب الراحة على ما به من طيور كثيرة، وعلى خلوه من الخول والحشم، خلو بقية البساتين.

ودخل الفتى من الباب الرابع فشاهد الكنوز الباهرة، ورأى الدر والماس والزمرد والعقيق واللازورد واليشب وسبائك الذهب والفضة، والمرجان أفرعا وأشجارا كاملة.

قضى أربعين يوما إلا يوما واحدا يشاهد عجائب القصر المسحور وراء أبوابه التسعة والتسعين. وقد رأى كنوز العالم وبدائعه الطبيعية، وروائع الفن ونفائس الأواني والطنافس مما كاد يضيع معه رشده، ويذهل له عقله.

ولم يبق على عودة حبيباته سوى يوم واحد، وعلى رؤية جميع ما يحتويه القصر إلا ما وراء الباب المائة، الباب الممنوع.

لو عرف عجيب كيف يغل النفس الآمرة بالسوء، بل لو عرف ابن آدم أن يُحكِّم ضميره ويرضخ لحكمه دون شهيد.

كأني بابن خصيب يخاطب نفسه: ما عليّ إذا فتحت هذا الباب الأخير، ومن ذا الذي يعرف بخبر فتحي إياه ولم أر أثرا لإنسان في كل ما زرته خلف الأبواب الأخرى. لقد رأيت كل ما تصبو إليه النفس، وعرفت في هذا القصر نعيما ليس من نعيم هذه الأرض. فما عسى أن يكون وراء الباب الأخير حتى يحظر على اقتحامه؟ قد لا يخبئ شيئا، وقد يخفي عجائب لا تخطر بالبال. ثم غياب الصبايا ماذا يكون معناه؟ هل يكشف لي هذا الباب عن سر رهيب؟ على أن أمر ما وراء هذا الباب لا يعنيني في ذاته بقدر ما يعنيني أنني حيال المجهول، فلأتوج نعيمي في هذا القصر بالعرفان.

لقد خفي على بنات القصر المسحور أمر هام، لو عرفنه، وكن حريصات حقا على صحبة الأمير العجيب، لما تركن له مفتاح الباب الذهبي. أو هن عارفات بهذا الأمر، وأقامهن الشيطان برهانا حيا على أن ابن آدم لم يتعظ ولم يتعلم. هل عرفت أميرات القصر المسحور أن عجيبا، قبل أن يكون ابن خصيب كان ابن طريد الفردوس وابن حواء؟

وفتحتُ الباب يا سيدتي، الباب الذي وعدت ألاَّ أفتحه. فإذا عطر قوي ينفذ إلى عرانيني فيغشى علي. وحين عدت إلى نفسي لم أعتبر بالنذير فأرتد إلى خارج الباب وأرصده. تقدمت إلى مكان فسيح أرضه من زعفران وسقفه عقود متناسقة، تضيئه شموع تفوح برائحة العنبر، قائمة في شمعدانات من الذهب الخالص، ومسارج تسقى ذبالاتها من زيوت عطرية. وتلفتت فرأيت فرسا أسود لا مثيل له، فاقتربت منه، ورأيت عليه سرجا ولجاما من ذهب، يأكل الشعير والسمسم ويشرب ماء الورد، فسحبته وخرجت به في العراء لأراه وأجربه، ومعي سوط وجدته في ركن من مربط الفرس. واعتليت صهوته فلم يتحرك، فضربته بالسوط وإذا به يصهل صهيلا داويا، وإذا له أجنحة نشرها وطار بي مخترقا شغاف الفضاء كالسهم المريش وأنا ممسك بلجامه متمالك نفسي. وظل طائرا ساعة من الزمان، ثم شعرت أنه ينحدر بي رويدا إلى الأرض حتى نزل بي على سطح قصر ولم يدعني أترجل بل رمى بي ظهريا في عنف، وضرب عيني اليمني بذيله ففقأها وطار مختفيا وراء السحاب.

عرفت يا سيدتي في تلك اللحظة أنني فقدت كل شيء، حتى صحبة الفتيان العشرة أتأسى بأساهم ويخف ندمي إذ أشاركهم الندم. ونزلت إلى داخل القصر فرأيت أواوينهم المصطفة في حلقة حول إيوان شيخهم. وكان البهو خاليا فانتظرت حتى عادوا، ولم تعرهم دهشة لرؤيتي على هذا الحال، بل قال أحدهم بصوت أجش: الآن عرفت ما عرفنا، وحظيت بما به حظينا. ولو وفينا بالوعد لبقينا في القصر المسحور ننعم بنعيم ليس بعده في هذه الدنيا نعيم. ولكنه الباب الذهبي فتحناه كما فتحته أنت في غياب بنات الملوك، ففجعنا بما فجعت به. ولعلك فهمت الآن، وإذا كنت فهمت فقد عذرت لنا طقوسنا في الحسرات، وأمان حالك مردد معنا الآن: هيهات هيهات أن يرجع ما فات.

عبد الله البري والبحري

أوشكت السنة الثالثة على النهاية منذ قدَّمت ابنة الوزير نفسها زوجة للسلطان شهريار، وقد دأب على قتل كل عروس صباح اليوم التالي للزواج، ومع ذلك فالسلطانة شهرزاد تواصل بأعجب القصص في الشرق والغرب. قصت عليه أغلب الحكايات المشهورة في الكتاب الذي خلد اسمها: السندباد البحري، وعلاء الدين، والصعاليك الثلاثة، وقمر الزمان، وحسن البصري. لم يعتريها كلال في الجسد ولا ضعف في الروح ولا وهن في قوة الإبداع. ربما أعادت سرد بعض الحكايات، ولو في وضع آخر. وكأنها

توقع تقاسيم موسيقية على أساس لحن الخوارق والأعاجيب. فروح شهرزاد وقصصها من روح الموسيقى، والسلطان مأخوذ بحلاوة تلك الموسيقى، أو هذه القصص؛ سافر محمولا على أجنحة صوتها الساحر في بحار هادئة وبحار ثائرة، وطرق باب القصور العجيبة، وشاهد الأرصاد النحاسية، ورجالا مسخوا صخورا أو طيورا، تلظى بنار العشاق الذين ضرب بينهم الفراق، وفرح بفرحهم عند اللقاء، أطربت أذنيه كل ضروب الموسيقى الوترية والغنائية، وروحت عنه رقصات الحور، وبنات الجن، وليالي السمر. شهد الوقائع الدامية وعرف «المناصف» البارعة ورحل إلى الجزائر البعيدة، ولقد عشنا كما عاش شهريار معلقين بأطراف لسان السلطانة الحلوة في عالم مسحور خلقته عبقرية امرأة.

أحقا لم تكن هذه القصص فنا للفن ولا أدبا للأدب؟ بل كانت استرحاما للسلطان الدموي، وإبعادا للسيف المسلّط على أبدع جيد؟ لقد قدمت الأميرة نفسها قربانا عن بنات جنسها، عارفة بما ينتظرها. ولكنها قبل أن تتقدم تأملت في غريمها وغريم بنات جنسها وبحثت عن مواضع الضعف في نفسه فتبينتها في جهله بالطبيعة البشرية، وقصارى نظره، وفي ذلك الغرور البالغ الذي اخترع له الذكور اسم الغيرة، والذى لم يجد له السلطان علاجا إلا بإغراقه في دم المذنبة الأولى، ودماء البريئات قبل أن يعطيهن الفرصة للمعصية أو للوفاء. فلتتقدم شهرزاد إذن إليه بصور من الضعف الإنساني في المرأة وبأكثر منها في الرجال. لم تتوقع الأميرة أن يتقبل السلطان المغرور منها درسا أخلاقيا مباشرا، إنما هي تغرر به وتسترضيه بقصصها، ولعلها بذلك تنجو من القصاص الظالم، وتنقذ حياة البريئات. أتكون كل هذه القصص حيلة للتخلص من قضاء السلطان الغاشم؟ ربما، وهو قليل إذا قيس بالحياة الغالية التي يبقي عليها، حياة الأميرة شهرزاد.

فى الهزيع الأخير من الليلة الأربعين بعد التسعمائة تختم الأميرة الساسانية قصة من القصص، كعادتها في أغلب الليالي ثم تبدأ قصة جديدة، على نغمة هادئة كأنها ألحان مرتجلة: «كان في قديم الزمان صياد فقير اسمه عبد الله»

أكاد أرى هذا الصياد المعدم عاد من صيده فارغ الجعبة، ينتظره بالبيت تسعة عيال وأمهم التي وضعت في ذلك اليوم مولودها العاشر. أراه في عودته واقفا بباب الخباز وسط الزحام، وكان «وقت غلاء ولا يوجد عند الناس من المؤن إلا القليل» يرمق الأرغفة المتراصة بنظر زائغ، ويستعبر رائحة «العيش السخن» تشتهيه نفسه. أكاد أراه ماثلا أمامي هذا «الغلبان» خرج صباح اليوم يلقي الشبكة «على بخت المولود الجديد» فما تصيد إلا رملاً وحصى وحسكا. وهو يتساءل «كيف يخلق الله هذا المولود من غير رزق» وقديما

قالوا «من شق الأشداق، تكفل لها بالأرزاق، فالله تعالى كريم رزاق».

وإذا بالخباز يسأله إن كان يطلب خبزا، ثم يلح عليه في أن يحمل منه ما يريد فهو صابر عليه حتى يأتيه الخير. ويرضى الصياد شريطة أن يقدم شبكته رهنا فيرفض الخباز احتجاز الشبكة التي يقوم عليها أود الصياد، ويعطيه خبزا بعشرة أنصاف فضة، ويقدم له عشرة أنصاف فضة «ليطبخ بها طبخة» على أن يجيئه بسمكة في الغد.

وفي اليوم التالي يخفق في صيده كما أخفق في اليوم السابق، فيخجل أن يقف بباب الخباز، ويُعجِّل بخطاه أمام دكانه. ولكن الخباز يناديه: يا صياد، تعال خذ عيشك ومصروفك فقد نسيت. ودام الحال على هذا أربعين يوما حتى سئم الصياد الحياة، وود أن لم يكن المخبز في طريقه إلى البحر حتى لا يضطر إلى المرور بالخباز الكريم. ولكن زوجه كانت تشجعه على المضي إلى البحر، وتشكر الله الذي قيض لهم هذا المحسن.

يذهب الصياد في اليوم الأول بعد الأربعين وهو يدعو الله أن يرزقه «ولو بسمكة واحدة يهديها للخباز» وإذا بالشبكة متثاقلة يسحبها في مشقة، حتى إذا هي عادت إليه، ألفاها تحمل.. حمارا ميتا. وهرب من الرائحة الكريهة إلى ناحية أخرى من الشاطئ، وتثاقلت عليه الشبكة أكثر من المرة السابقة، حتى إذا ما جذبها إليه خرج منها رجل حسبه الصياد «عفريتا ممن أعتاد سليمان أن يحبسهم في القماقم ويرمي بها إلى البحر» وصاح الصياد: الأمان يا عفريت سليمان!.

فيجيبه الرجل: تعال يا صياد، لا تهرب مني فأنا إنسان مثلك، خلصني لأنال أجري.

يخلصه الصياد ويعلم من أمره أنه ليس عفريتا من الجن. فيسأله عمن رماه في البحر، ويجيبه بأن البحر مقره ومثواه، فهو من «أولاد البحر» وقع بالشبكة صدفة. وكان بوسعه أن يقطعها ليخلص نفسه، لولا أنه «راض بما قدره الله». ويسأل الصياد أن يعتقه «ابتغاء لمرضاة الله».

ثم يتفق وإياه أن يجتمعا في ذلك الموضع كل يوم، فيأتيه الصياد بفواكه البر: «وعندكم منها العنب والبطيخ والخوخ وغير ذلك، ويأتيه هو بمعادن البحر من لؤلؤ ومرجان». ويقرآن الفاتحة، ويخلصه الصياد من الشبكة. ثم يتفقان أن ينادي الصياد عليه من البر كلما أراد، قائلا: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ فيلبي نداءه.

ـ والآن ما اسمك أيها الصياد؟

ـ اسمي عبد الله.

ـ أنت أذاً عبد الله البري وأنا عبد الله البحري. انتظر حتى آتي لك بهدية..

ويختفي عبد الله البحري في الماء هنيهة تبدو لعبد الله البري دهرا، ويتأسف على تركه هذا المخلوق يفلت من يده، وكان في استطاعته أن يأخذه إلى المدينة يعرضه في الأسواق، ويدخل به بيوت الأكابر.

ويعود عبد الله البحري باللؤلؤ والمرجان ملء اليدين، ويعتذر لأخيه البري عن عدم مكنه من أن يحمل إليه أكثر من ذلك. ولو «أن عنده مشنة لملأها له» ويتواعدان على نلقاء في الأيام التالية.

وغدا عبد الله البري رجلا واسع الثروة بفضل صداقته لسميه البحري. وقد أخفى سرَّه إلا عن الخباز الذي أحسن إليه في عسره، وراح يقاسمه الجواهر البحرية. ولكن الثروة المفاجئة توقظ شكوك الناس، وتنتهي به إلى موقف الاتهام بسرقة حلي ابنة السلطان ويقتاده الحرس بأمر شيخ الجوهرية إلى القصر. فتنكر الأميرة أن الجواهر لها وتقول بأن بعض اللآلئ أجمل من كل ما في عقودها. فيغضب السلطان وينهر شيخ الجوهرية وأتباعه. فإذا اعتذر الرجل بأن الصياد «كان فقيرا فاستكثرنا عليه هذا الغنى المفاجئ»، صاح السلطان فيه وفيمن حوله: «أتستكثرون النعمة على مؤمن؟ اغربوا عني لا بارك الله فيكم».

وسأل الصياد عن حقيقة أمره، فسرد قصته. وهنا طأطأ السلطان الحكيم رأسه هنيهة ثم رفعه قائلا: «هذا نصيبك، ولكن المال يحتاج إلى الجاه، وأنا أسندك بجاهي». ثم زوَّجه ابنته، وأقامه وزيرا، وحنا على أطفاله العشرة. وكانت زوجة الصياد موضع تكريم السلطانة، فنعمت عليها «وجعلتها وزيرة عندها».

وغداة الزواج أطلَّ السلطان ورأى وزيره وصهره عبد الله خارجا من القصر يحمل على رأسه «مشنة» ملأى بالفواكه، فناداه وأنكر عليه ذلك. ودافع عبد الله عن نفسه بأنه لا يملك أن يخلف ميعاد صديقه البحرى، أو يتعرض لاتهامه بأن «إقبال الدنيا عليه، قد ألهاه عنه»

حافظ عبد الله البري على عهد صاحبه البحري، وواصل قسمة الجواهر بينه وبين صاحبه الخباز. ثم انتهى إلى التحدث بشأنه مع الملك الذي قال له: أرسل إلى صاحبك الخباز، وهاته لنجعله وزير ميسرة.

قد تنتهي القصة عند هذا، فاستقرار الحال يؤذن بختامها. وعبد الله يذهب كل يوم بسلة الفواكه يستبدلها بجواهر البحر. وحين تخلو البساتين من الفواكه يحمل لصاحبه الزبيب واللوز والبندق والجوز والتين، ويدوم الحال على ذلك عاما. ولكن الأميرة شهرزاد أبرع من أن تقف عند هذا الحد، وهمها أن تثير شغف السلطان باقتياده إلى غير ما ينتظره، حتى تبعد عن رأسها سيفه المسلّط. وهي عند هذا القدر من القصة تعود إلى حديث عادي، وتصف له كيف دام الحال بين الصديقين، وكيف كانا يجلسان على ساحل البحر، عبد الله البري على الشاطئ، وعبد الله البحري مغمورا إلى نصفه في الماء، يتحدثان في شتات الأمور. وقد جرى الحديث بينهما مرة عن المقابر.. وهنا يبادر عبد الله البحري صاحبه قائلا:

ـ يقولون يا أخي إن النبي مدفون عندكم في البر، فهلا تعرف قبره؟

ـ نعم، فهو في مدينة يقال لها طيبة.

ـ وهل يزوره أهل البر؟

ـ نعم.

ـ هنيئا لكم يا أهل البر بزيارة قبر النبي الكريم. فمن زاره استوجب شفاعته. هل زرته أنت يا أخي؟

ـ لا، فقد كنت فقيرا لا أجد ما أنفقه في الطريق، حتى عرفتك. والآن وجبت عليَّ زيارته بعد الحج إلى بيت الله الحرام، وما منعني عن هذا إلا محبتي لك.

ـ وهل تفضل محبتي على زيارة قبر رسول الله الذي يشفع لكم يوم العرض على الله؟

ـ إن زيارته والله مقدمة عندي على كل شيء، وأطلب منك إجازة أزوره هذا العام.

ـ أعطيك الإجازة بزيارته، وإذا وقفت على قبره فاقرئه مني السلام. وعندي أمانة فادخل معي في البحر حتى آخذك إلى مدينتي وأدخلك بيتي، وأحملك الأمانة لتضعها على قبر الرسول.

ـ يا أخي، أنت خلقت في الماء، ومسكنك الماء فلا يضرك، هل إذا خرجت منه يصيبك ضرر؟

ـ نعم، يجف بدني، وتهب علي نسمات البر فأموت.

ـ كذلك أنا، خلقت في البر، ومستقري البر، فإذا غطست في البحر دخل الماء في جوفي فاختنق وأموت

ـ هوّن عليك، فإني آتيك بدهان تدهن به جسدك فلا يضرك الماء، حتى لو قضيت فيه بقية عمرك.

وعبد الله رجل كله إيمان واستكانة، فهو راض بما قدر الله. فحمل عبد الله البحري «المشنة» وغاص في البحر، ثم عاد بها ملأى «شحما كشحم البقر، لونه أصفر كلون الذهب، ورائحته زكية». وأخبر صاحبه بأنه شحم نوع من الأسماك يقال له الدندان، أعظم أصناف السمك خلقة.

ـ وماذا يأكل هذا المشؤوم يا أخي؟

ـ يأكل من دواب البحر. أما سمعت المثل القائل: مثل سمك البحر، القوي يأكل الضعيف؟

ـ أخاف يا أخي إذا طوفت معك أن يصادفني هذا الدندان فيأكلني.

ـ هوّن عليك، فإنه متى رآك عرف أنك ابن آدم فخاف منك وهرب، فالدندان أشد ما يكون خوفاً منكم، لأن شحم ابن آدم سم قاتل له، ويكفي أن يسمع صياح ابن آدم ليموت هلعا.

وتوكل عبد الله البري على الله، وخلع ملابسه ودفنها في رمال الشاطئ، ثم دهن نفسه بشحم الدندان وغاص في الماء. وفتح عينيه ومشى يمينا وشمالا والماء لا يضايقه، وجعل ينزل إلى القعر ثم يرتفع بكل سهولة».

واندفع عبد الله البحري أمامه دليلا له في تلك النزهة البحرية النادرة. فرأى عن يمينه وشماله جبالا، وشاهد أصنافا عديدة من الأسماك «البعض كبير والبعض صغير، منه ما يشبه الجاموس، ومنه ما يشبه الكلاب، وشيء يشبه الآدميين». وكلما دنا عبد الله البري من نوع تهارب منه فيسأل صاحبه:

ـ يا أخي، ما لي أرى كل هذه الأسماك تهرب مني؟

ـ مخافة منك يا أخي، فجميع ما خلق الله يخاف ابن آدم.

ووصلا إلى جبل شاهق الارتفاع، فمشى عبد الله البري بجانب الجبل، وإذا بصيحة عظيمة اتجه إلى مصدرها بنظره فرأى شيئا أسود منحدرا نحوه من الجبل، وهو أكبر من الفيل والجمل. وسمع صديقه البحري ينادي عليه:

ـ دونك وهذا الدندان، فهو متجه إلينا في طلبي ليأكلني، ازعق عليه. وصاح عبد الله طائعا فزعا، فإذا بالدندان يقع ميتا، فيتعجب عبد الله البري ويقول: «سبحان الله! لم أضربه بسيف ولا بسكين، وها هو على ضخامة جسده لا يتحمل صيحتي».

ويدخل الصاحبان مدينة «بنات البحر» فيهتم عبد الله البري بأمر كل تلك الإناث لا ذكور لها، ويتساءل عن علة اجتماعهن في مدينة واحدة؟.

ـ إنهن منفيات فيها بأمر ملك البحر، ولا يمكنهن الخروج منها أو تلتهمهن دواب البحر.

ـ هل في البحر غير هذه المدينة؟

ـ كثير غيرها.

وجعل عبد الله البرى «يفرج على عجائب البحر»، وقد رأى لبنات الماء «وجوها كالأقمار، وشعورا كالنساء. ولهن أيد وأرجل نابعة في بطونهن، وأذناب كأذناب السمك امتدت من مؤخرتهن»، والرجال كذلك فيما يتعلق بالأيدي والأرجل والأذناب.

ـ يا أخي، إني أرى الجميع مكشوفي العورة.

ـ لأن أهل البحر لا قماش عندهم.

وما زال عبد الله البحري يدور بصاحبه على المدن وأهلها في أغوار البحر ثمانين يوما، فيسأله عبد الله البري:

ـ يا أخي، هل بقيت في البحر مدائن؟

ـ لو فرجتك ألف عام، كل عام على ألف مدينة، وأطلعتك في كل مدينة على ألف أعجوبة، لما أظهرتك على كل مدائن البحر وعجائبه!

ـ يكفيني هذا، فقد سئمت أكل السمك وأنت لا تطعمني صباحا ومساء إلا سمكا طريا، لا مطبوخا ولا مشويا. أين مدينتك من هذه المدائن؟

وبلغا مدينة عبد الله البحري، فاقتاده إلى مغارة وقال له:

ـ هذا بيتي، وكل من أراد من أهل البحر أن يكون له بيت، ذهب إلى الملك وعين له الموضع الذي اختاره لسكناه. فيرسل معه الملك طائفة من السمك تعرف بطائفة «النقارين» لأن لها مناقير تفتت الجلمود.

وعندما دخلوا البيت تقدمت ابنة عبد الله البحري وبادرت أباها بالسؤال وقد نال منها العجب أن ترى مخلوقا لا ذنب له

ـ يا أبي! من هذا الغريب الذي جئت به؟

ـ هذا صاحبي البري يا بنيتى، من كنت أجيء لك من عنده بالفاكهة البرية. تعالي سلمي عليه.

وتقدمت إليه الغادة وسلمت عليه «بلسان فصيح وكلام بليغ» وقدمت له سمكتين كبيرتين: «كل واحدة منهما مثل الخروف». فأكل متبرما بهذا السمك النيء. وحضرت امرأة عبد الله البحري وهي «جميلة الصورة، ومعها ولدان، كل ولد في يده فرخ سمك قرش فيه كما يقرش الإنسان في الخيار». وما إن رأت عبد الله البرى حتى صاحت:

ـ أى شيء هذا الغريب؟

وتقدمت هي وولداها يطيلون النظر إلى مؤخرة عبد الله البري ويقولون: أي والله إنه غريب، وتضاحكوا طويلا حتى ضاق ذرع عبد الله البري بهذا الضحك، والتفت إلى صاحبه وقال:

ـ يا أخي، هل جئت بي إلى هنا لأكون سخرية زوجك وأولادك؟

فاعتذر عبد الله البحري عنهم مؤكدا لصاحبه أن المخلوق الذي لا ذنب له في البحر نادر، «فلا تؤاخذ هذه المرأة وهؤلاء الصغار، فعقولهم، كما تعرف، ناقصة»

وبينما هم في الحديث وفَد عليهم عشرة أشخاص كبار شداد، وقالوا لعبد الله البحري: لقد عرف الملك بأنك جئت بغريب من البر، وهو يريد أن يراه حالا. وأخذوه إلى الملك فتلقاه ضاحكاً وقال: مرحبا بالغريب. وجعل من في حضرة الملك يتضاحكون مرددين: أي والله إنه لغريب. وقص عبد الله البحري على الملك قصة صاحبه، ثم استأذنه في أن يعود به إلى البر «لأنه سئم أكل السمك نيئاً، ولا يحب أكله إلا مطبوخا أو

مشويا»، فتبادل الملك مع بطانته نظرات التعجب والابتسام، وأذن لرجل البر بالرحيل بعد أن زوّده بهدية عظيمة من الدر والمرجان

وعاد عبد الله البحري إلى مغارته حيث سلّمه الهدية التي يرجو أن يوصلها إلى قبر النبي، واصطحبه عائدا إلى البر.

وبينما هما في طريقهما وسط الماء، التفت عبد الله البري إلى جماعة من أهل البحر يغنون ويرقصون حول سماط ممدود من السمك، فسأل عما إذا كان ذلك عرسا، فأجابه عبد الله البحرى: إنما هو مأتم.

ـ أو إذا مات عندك ميت تفرحون له، وتغنون وتتآدبون؟

ـ نعم، وأنتم يا أهل البر، ماذا تفعلون؟

ـ ـ نحن نحزن عليه، ونبكي، وتشق النسوة جيوبهن، ويلطمن ويندبن الميت.

وهنا حملق عبد الله البحري في صاحبه هنيهة، واسترد أمانته في شيء من العنف. وعند وصولهما إلى البر قال له:

ـ لقد قطعت صحبتك وودك، فلن تراني بعد اليوم.

ـ لم هذا الكلام؟

ـ ألستم يا أهل الأرض أمانة الله؟

ـ نعم.

ـ كيف يحزنكم أن يسترد الله أمانته؟ وأنتم إذا أتاكم المولود وهو أمانة الله تفرحون به؟ كيف أحملك أمانة للنبي تندبون وتولولون إذا أخذ الله أمانةً حمَّلكم إياها إلى حين! كلا، لست أطمئن إليكم، وما بي حاجة إلى صحبتكم بعد اليوم يا أهل البر!

واختفى عبد الله البحري وسط الأمواج. وعاد عبد الله البري صهر السلطان يقص عليه ما رأى من عجائب البحار.

وقد لبث زمنا طويلا يذهب إلى الشاطئ ينادي على صاحبه: أين أنت يا عبد الله يا بحري؟ فتردد الأمواج صداه، ولكن العباب أبى أن يكشف له مرة أخرى عن سر سكان البحار

واختفى عبد الله البحري إلى الأبد.

أسطورة حسن البصري

كان حسن شابا صائغا يعيش في مدينة البصرة، ورث عن أبيه دكانا للصياغة. جاءه يوماً مجوسي اسمه بهرام وغرّر به ثم حمله على ظهر سفينة عبرت بهما البحار إلى أرضٍ مجهولة، بحجة أن يعلمه السيمياء، أى تحويل النحاس إلى ذهب. وقد انتهيا إلى جبل تختفي قمته وسط السحب بلغ حسن إلى قمته مسجًى في جلد دابة ومحمولا بين مخالب الرخ.

ونادى بهرام على حسن من أسفل الوادي بأن يلقي إليه بربطة من الحطب يعتمد عليها المجوسي في عملياته السيماوية، فإذا صدع بأمره، ضحك بهرام وعاد من حيث أتى تاركا الفتى يندب سوء حظه ويبكي ضياع شبابه.

وينتهي حسن بطريقة أو بأخرى إلى قصر في جبل السحاب، يرى ببابه فتاة من بنات الملوك تصطفيه وتتخذه أخا لها، وتأتي بقية أخواتها الست فتقدمه إليهن، ويقضي بينهن عاما في عيشة رضية وأخوة تامة. وتسافر البنات لزيارة أبيهن، ويتركن للبصري مفاتيح أبواب القصر، وله أن يفتح كل مقاصيره إلا مقصورة واحدة.

ولكنه اقتحم الباب المحظور فرأى خلفه سلماً يرقى عليه إلى سطح القصر، يشرف على البحر في ناحية، وعلى روض مزدهر عاطر في ناحية أخرى. وتقوم وسط الروض مقصورة من خشب العود والصندل تغطي بحيرة ماء حولها المقاعد والأسرة. ثم إذا هو يسمع رفرفة طيور قادمة من ناحية البحر متجهة إلى البحيرة، فيختبئ ليتمكن من مشاهدتها دون أن تنفر منه. وتحط الطيور على شجرة فيلاحظ من بينها طيرا أجمل ريشا وأرفع رأسا، والطيور تحف به كأنها من أتباعه.

وتشق الطيور عن ريشها وجلدها فإذا هي «بنات أبكار، يفضحن بحسنهن الأقمار». وتنزل البنات إلى الماء يغتسلن ويلعبن ويتمازجن. ولقد أدرك البصري إذ وقع نظره على سيدتهن أن نصيحة أخته له لم تكن عبثا. لكأنها كانت تخشى أن يشغف بالفتاة الطائرة حبا. وقد حدث ما كانت تخشاه، إذ جعل البصري يتأمل المخلوقة النادرة في ذهول من وقع عليه الحب وقع الصاعقة. «فلها فم كخاتم سليمان، وشعر أسود من ليل الصد على الولهان وجبين مضيء كهلال العيد أو رمضان، وعيون تحاكي عيون الغزلان، وخدان كأنهما شقائق النعمان، وشفتان كالمرجان، وأسنانها لؤلؤ منظوم في قلائد العقيان، وجيد كسبيكة فضة فوق قامة كغصن البان».

خرجت الصبايا من الماء فصحا البطل من ذهوله ليشعر بحرارة الحمى التي تصيب الفتيان في مثل سنه فتمنعهم الرقاد وتطير جنانهم شعاعا. ولبسن فعدن طيورا رفرفت بأجنحتها وطارت في الاتجاه الذي جاءت منه.

يعاود البصرى فتح الباب في الأيام التالية وهو يتحرق جوى وشوقا، ولكن الطيور لا تعود. فتجتمع الوحدة مع الهوى لينقلب الفتى البصري صبا مضنى، أليف السقام. فإذا عادت أخته من رحلتها عرفت كل شيء بمجرد وقوع نظرها عليه، فلامته أشد اللوم على مخالفته أوامرها. ولكن وقعت الواقعة والفتى في عداد الهالكين إن لم يفز بمعشوقته. وهنا تطلعه أخته على البنات الضاربات بالسيوف، الطاعنات بالرماح، في جيش قوامه خمس وعشرون ألف فتاة. إذا ركبت واحدة منهن جوادها ولبست آلة حربها قاومت ألف فارس. ولباس الريش الذي تلبسه الأميرة وأتباعها من صنع الجان القاطنين بجزيرة مجاورة لجزيرة النساء.

فليترقب البصري مقدم معشوقته في الشهر التالي، وليخطف ريشها ويخبئه فلا تستطيع العودة إلى جزيرتها، ويطير عنها أتباعها ليبلغن خبر ما حل بها إلى أختها الملكة، ثم ليتقدم إليها وهي خارجة من الماء فيجذبها من شعرها ويدخل بها مقصورته.

ووفدت البنات طائرات في موعدهن، وخبأ البصري ريش الأميرة، فطار عنها أتباعها وبقيت وحدها تبكي. فتقدم إليها البطل واقتادها بشعرها إلى مقصورته حيث ألقى عليها قباء وأقفل الباب وذهب إلى أخته يدعوها. فجاءت إليها ووجدتها تبكي وتعض على أناملها، ثم هي تترك البكاء لتوجه أشد اللوم إلى أخت حسن لأنها سمحت للرجل الغريب بأن يطلع على سرّها، فتدافع الفتاة عن أخيها البصري، وتفصح للأميرة الطائرة عن حب الفتى لها وكيف أخذ عليه حواسه، وهو لا شك مرديه إلا إذا رقت الأميرة الطائرة لحاله. ثم قدّمت لها الملابس وأدوات الزينة. وطيّبت خاطرها وهدّأت من روعها، وتأمرت بالمائدة لتُمَدَّ، ونادت على حسن وأمرته بأن يدخل على الأميرة ويقبل يديها ورجليها. وأخذ الفتى يبثها لواعج حبه ويفصح لها عن نبل غرضه، ويرسم لها صورة بهجة عن الحياة في البصرة وهو مزمع إذا تنازلت بالقبول، أن يتزوجها «بسنة الله ورسوله» والأميرة الطائرة صامتة مطرقة الرأس.

وأتت أخوات حسن، فقصَّت عليهن الأخت الصغرى قصة العاشق، وهي تنتظر منهن أن يوفقن بينه وبين الأميرة الطائرة، ويعقدن زواجه عليها.

ومضت أيام الخطبة على حسن ولسانه منطلق بأرق صنوف الغزل، وبنات الجن يسرين عن همّ الخطيبة بما في وسعهن، ويزجين المدح إلى الفتى البصري الذي لم تجد الأميرة أطيب منه نفسا ولا أعذب حديثا وأحلى.

فمتى عقد زواج الفتى على الأميرة، وقضى أربعين يوما مع عروسه وبين أخواته، استأذن في العودة إلى البصرة، فجهزنه بالعطايا وأهدين عروسه الحلل والجواهر، وتواعدن أن يزورهن حسن مرة كل عام.

وفرحت والدته بلقائه، ورحّبت بعروسه ونصحته أن يغادرا البصرة إلى دار السلام ليعيشا في كنف عاصمة الخلافة، ويكونا في مأمن من الظلمة الطامعين، بعد ما عاد حسن مع نفائس الجواهر. وفي بغداد يستأجرون دارا رحبة يقيمون فيها.

ولما وافى العام تهيّأ حسن للسفر إلى قصر السحاب، واستأذن زوجته بذلك، وأوصى بها أمه، وحذرها الريش الذي خبأه في صندوق دفنه في صحن الدار. وسافر لملاقاة أخته الصغرى.

واشتاقت نفس الأميرة الطائرة للخروج فألحت على حماتها أن تصحبها إلى الحمام. وما إن وقع بصر نساء بغداد على جمال الأميرة الباهر حتى كبرن وهللن، وانتشر خبر حسنها بين النسوة من داخل الحمام إلى خارجه. فتقاطرت النساء على بابه ينتظرن دورهن في مشاهدة قوامها البديع، وسواد شعرها الأثيل، وعينيها الكحيلتين الساحرتين. واتفق أن مرت بباب الحمام إحدى جواري امرأة الخليفة، فلما عرفت علة الازدحام ودخلت تشاهد الصبية وتتأمل محاسنها، بهتت بها، وجلست تتفرس فيها وهي تلبس، وتتبعها وهي خارجة إلى إيوان الحمام لتستريح برهة، والنساء حولها متزاحمات مهللات عجبا وإعجابا.

وعادت الجارية إلى قصر الخلافة تحدث السيدة زبيدة بأمر ما رأت في يومها، وتحذرها أن يرى أمير المؤمنين تلك الصبية فيقصد بزوجها شرا ليتزوج بها، فتصيح امرأة الخليفة: يا فاجرة، إن في سراي أمير المؤمنين هارون الرشيد، الخامس من بني العباس، ثلاثمائة وستين جارية. أتحسبين أن ليس بينهن من تفوق فتاتك جمالا واعتدالا؟. وتجيب الجارية: ليس في بغداد بأسرها، بل ولا في العرب ولا في العجم من يدانيها حسنا وسحرا.

أمرت امرأة الخليفة الصبية لتجئ إليها مع أم البصري، وتقبل الأرض بين يديها، ثم

ترفع رأسها القائم على جيد كأنه عمود من فضة. وتسرّح زبيدة بصرها فيها وهي تؤمّن في نفسها على ما قالت الجارية، وتأمر لها بسرير إلى جانبها، وخلعة فاخرة، وعقد من نفائس الجوهر. هذا وجلست السيدة زبيدة كمن على رأسه الطير.

وفي غضون الحديث سألتها امرأة الخليفة عما تعرف من الفنون، فأجابتها الصبية بأنها تحب الرقص. فأمرت امرأة الخليفة بالآلات والمغنيات، وطلبت إلى الغادة أن ترقص. فاستأذنت في أن ترقص رقصة الطيور على أن يسمح لها بارتداء الثوب الخاص بتلك الرقصة، وأشارت إلى مكانه. فعندما أُحضِر إليها لبسته وبدأت رقصتها بخفة الطير، تدور على نفسها وتتهادى، وتلوي برأسها ذات اليمين وذات الشمال في عجب وخيلاء، ثم تنشر أجنحتها وتطير إلى قبة البهو، وتحط على إفريزها بجانب نافذة من نوافذها، وتطل على حماتها وتقول: «إذا جاء ولدك وطالت عليه أيام الفراق، وهزته رياح المحبة والأشواق، فليبحث عني في جزائر الوقواق»، وطارت من النافذة.

وعاد حسن البصري من رحلته وعرف بمصابه فبكى وتندم ثم اعتزم السفر إلى قصر السحاب تواً ليسأل أخته المعونة. لكنها عاجزة عن معونته إلاّ أن يرضى عمها الشيخ بأن يساعده، فربما كان في مقدوره أن يعمل شيئا. وجاء الشيخ في زيارة الفتاة وأخواتها، فإذا علم بالخبر أطرق برأسه هنيهة، وهو ينكش الأرض بعود في يده ثم هز رأسه وقال: يا بناتي، لقد أتعب هذا الفتى نفسه، وهو لا شك يلقى بها إلى التهلكة إذا حاول الوصول إلى جزائر الوقواق. فبينه وبينها سبعة أودية وسبعة بحار وسبعة جبال عظام.

ولكنه إذ رأى إصرار حسن على مجابهة الأخطار سعيا وراء زوجته الحبيبة، أمره بإتباعه وسافرا إلى بلاد بعيدة، ودخلا كهفا ينشق عن فلاة واسعة وبباب الكهف فرس مسرج ملجم طلب الشيخ إلى حسن أن يمتطيه، ثم أعطاه كتابا ليحمله إلى المكان الذي يصل إليه الفرس في آخر غلواته، وهو باب كهف يترجل عنده البصري ويطلق للفرس العنان فيدخل الكهف من تلقاء نفسه. وعلى حسن أن ينتظر بالباب خمسة أيام، وفي اليوم السادس يخرج إليه شيخ عليه لباس أسود، وله لحية بيضاء مرسلة إلى أسفل صدره، يقبل حسن يديه ويسلمه الكتاب دون أن ينبس بكلمة، فيعود الشيخ إلى الكهف. وينتظره الفتى خمسة أيام أخرى، فيخرج إليه في اليوم السادس في ثياب بيض، ويمسك بيد البصرى ويقوده إلى داخل المغارة، حيث قاعة كبيرة ذات أربعة لواوين، في كل ايوان مجلس شيخ بيديه كتب كثيرة ومجامر بخور، وطلبة يقرأون عليه. يأمر الشيخ فينصرف الطلبة، ويلتف الشيوخ حول رئيسهم ذي اللحية والثياب البيضاء، فإذا عرفوا ما جاء الفتى لأجله تداولوا

بالنظرات وقال الشيخ الرئيس: يا إخواني، لم أر إنسانا كارها للحياة كره هذا الشاب لها، أو هو لم يدرك بعد ما هي جزائر الوقواق، ولا ما يتجشمه من مشاق في الوصول إليها، وما ينتظره إذا وصل إلى هناك. فزوجته هي أخت ملكة جزائر النساء ذات الحول والطول. يمحض الشيوخ النصح للفتى المحزون، وهو ثابت في عزمه يقبل يدي الشيخ الرئيس، ويفرك وجهه في لحيته البيضاء حتى يرق الشيخ له ويقول: لا تحسبن الأمر بيدي أيها الفتى، فوصولك إلى جزائر الوقواق رهين بإرادة صاحب الأمر، ولا طريق لك إلى هناك إلا أن تمر بجزائر الكافور، وسأزوره لعله مدبر لك أمرا.

سافر حسن البصري إلى جزائر الكافور، وكرّم ملكها وفادته، ثم أخذه برفق وأطلعه على الصعوبة الكبرى، وهي ليست في وصوله إلى جزائر الوقواق بقدر ما هي في دخول الجزائر نفسها. فالمراكب تسير بين جزائر الكافور وبينها، ويمكن أن يوصي به أحد ربابنته فيحمله إلى أول جزائر الوقواق. ولكن الربان والتجار لا ينزلون إلى الأرض، فتلك جزائر النساء إذا دخلها الرجال كان جزاؤهم الموت. وتحمل التجارة بين المراكب والبر في دوانيج وتترك على الساحل. فإذا جن الليل جاءت نساء الجزيرة في حرس نسائي مسلح، وحملن السلع وتركن بدلها مما تنتجه الجزائر دون أن يراهن أحد.

نزل حسن بإحدى مراكب جزيرة الكافور، فوجد عليها «خلقا مثل الحصى لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم» وأوصى الملك به الربان، وحذره ألاّ يكشف للمسافرين عما يعتزمه الفتى، كما أوصى البصري بأن يخفي غرضه عن الركاب.

وسافرت المركب في البحر عشرة أيام، ثم ألقت مراسيها بعيدا عن البر ونزل حسن في زورق الربان، وقفز منه إلى البر، وجرى إلى مقاعد مرصوصة اختبأ تحت واحد منها. ولما أرخى الليل سدوله جاء خلق كثير من النساء سائرات على أقدامهن، تضطرب السيوف المشدودة إلى أوساطهن، وتقرع الزرد الذي يغطي سائرهن. وبينهن نساء حملن المتاع، وذهبن من حيث أتين. وجلست العساكر يسترحن على المقاعد، فمسك حسن بأطراف زرد الجالسة فوق المقعد الذي اختبأ تحته، وشكا لها حاله، واستحلفها بآلهتها أن تعفو عنه، وتتستر عليه، وتشد أزره، فقد جاء من بلاد وراء البحار والجبال والوهاد، بحثا عن زوجته الحبيبة من بنات الجزيرة.

ورأت الفارسة من ملامحه ولهجته ما حرك فيها الشفقة عليه والرثاء لحاله، فأمرته أن يظل مختبئا حتى الليلة التالية حين تحضر له زردا وسيفا وخوذة.

وبذلك تمكن البصري من الاختلاط بجنود بنات الوقواق دون أن يكشف أمره، وتبعهن إلى خيامهن على ضوء المشاعل والشموع، يفوح منها عبير العود والعنبر، ودخل إلى خيمة صاحبته التي استجار بها. فلما رفعت خوذتها وكشفت عن وجهها، رآها عجوزا مشرقة الوجه مهيبة الطلعة. جلست تنصت إلى حكايته معجبة بشجاعته وشبابه، ثم قالت:

إعلم يا ولدي أننا في أول جزائرنا، لا نجيء إلى هنا إلا للتجارة، ثم نعود إلى جزيرة الوقواق نفسها، وهي السابعة في هذه الجزائر، بيننا وبينها سفر طويل في البر والبحر. نمر فيه بجزائر الطيور، ثم بجزائر الوحوش، فجزائر الجن حيث تندلع النار من أفواههم والشرر من عيونهم، وأخيرا إلى جزيرة الوقواق حيث الجبل المقدس، والأشجار التي تثمر رؤوسا كرؤوس ابن آدم إذا طلعت عليها الشمس استقبلتها صائحة واق! واق! سبحان الملك الخلاق. لا يدخل الرجال أرضنا، ومن تجرأ منهم علينا فمصيره الموت لا محالة. فكر في أمرك مليا وما زلت، تستطيع أن تعود إلى بلادك.

وهيهات أن يرجع الولهان عن عزمه، أو تثل المصاعب والأخطار في عزيمته. قالت له السيدة وقد زاد عطفها عليه: لن يقضى لك حاجتك سوى حسن نيتك، وصدق محبتك، وفرط شوقك إلى زوجتك. وسأمد إليك يد المساعدة بما تملك يميني وأنا نقيبة العساكر في هذه المملكة، وكلهن نساء، وملكتنا امرأة.

وأمرت نقيبة الجيش بالرحيل، وتمايلت طول الطريق حتى تمكن لحسن من رؤية وجه عساكرها. فمرة تفتش عليهن والخوذ مرفوعة، ومرة تأمرهن بالاستحمام. وكان حسن قد أخفى عليها أن زوجته أخت الملكة الوقواق. وعندما اقتربا من الجزيرة الكبرى، وسألته أن يصف لها زوجته، أصر على إنكاره معرفة من تكون، وراح يصفها وصف العاشق الولهان لمحاسن الحبيبة التي طال شوقه إلى رؤياها. فاصفر وجه العجوز وقالت له: لقد بليت بك أيها البصري! ليتني ما عرفتك! فمن تصف هي ملكة الوقواق بأسرها. ثب إلى رشدك وارجع عن غيك أيها المجنون، فبينك وبينها ما بين الأرض والسماء!

ولكنهم كانوا قد وصلوا إلى الجزيرة الكبرى، ولم تجد نقيبة الجيش بداً من إخبار الملكة بأمره، فقدمته لها، وغشي على الفتى في حضرتها، إذ لم يكن يتوقع أن يرى زوجته بعينها، أو أشبه الناس بها.

وفهمت ملكة الوقواق أنه زوج أختها التوأم، ولم تنس الملكة بعد فضيحة أختها وغيبتها في البلاد البعيدة حين خطفها الشاب الغريب. ولكنها أرادت اليوم أن تكشف عن سريرة تلك الأخت، وتعرف إذا كانت تحب خاطفها، أو أنها ظلت مقيمة على عهد بنات الوقواق، كارهة للرجال، مكرهة على معاشرة الرجل الذي تجرأ عليها.

أما أمر هذا الرجل الخاطف لأختها، المتجاسر على دخول جزائر النساء المطلع على أسرار بلادها، وأما أمر نقيبة العساكر ذاتها فقد أبرمته في نفسها: التعذيب حتى الموت.

فإذا اجتمعت أميرة الوقواق بزوجها حسن البصري، جرت تعانق العاشق الصنديد، ثابت الحب والحنان الذي، جاء يسعى إليها عبر الجبال والوهاد والبحار، وينتزعها من بين أهلها وجزيرتها انتزاع الفارس الشجاع، فيكفر بذلك عن سيئة اختطافها خطف الإماء تحايلا وغدرا، إنه الآن جدير بها كما هي جديرة به.

وصرخت ملكة الوقواق صراخا تهتز له أرجاء المكان. فسلوك أختها عار لصق بعرشها، وبشرف مملكتها. بل هو نذير بالبشر، العصيان والثورة على التقاليد الموروثة، قاض على الأوضاع والطقوس. غدا سوف ينتشر الخبر بين نساء الوقواق، وتنقله الأفواه إلى الأسماع، وتتردد بينهن أسطورة جديدة تنشئ تقليدا جديدا. ألم تَرَ نساء البلاط كيف أشرقت عيون الأميرة العاشقة، وتوردت وجنتاها، وكيف ارتمت على صدر الرجل تعانقه في طراوة وأنوثة، وتطبع على فمه قبلات تكاد تضطرم بنار الشوق؟ أهذا ما نشأن عليه من صراع ومبارزة وطعان، ومن ضرب الأرض بالأقدام سيرا في صفوف عسكرية، ومن صلابة في الحركات وجفاف في التعبير؟

حاولت ملكة الوقواق أن تطفئ نذر الشر والثورة بأن تجعل من أختها وزوجها ونقيبة العساكر عبرة لم تعتبر. وبعد حوادث كثيرة، ومواقع بين ملكة الوقواق وبين البصري تؤازره النقيبة، تخلّلها كثير من الخوارق وأدواتها من عصا سحرية وقلانس إخفاء وجن طائر وعون خادم، يعود البصري إلى بغداد بزوجته الأميرة، وقد اجتاز الأهوال، وتغلب على الصعاب وهدم تقاليد جزائر النساء بقوة غرامه، وصلابة عزيمته وثبات جنانه. وعاش الجميع في هناءة وسعادة، حتى أتاهم هادم اللذات، ومفرق الجماعات. فسبحان الحي الذي لا يموت.

آكلة لحوم البشر

حكي أنّ رجلاً من أهل البصرة نزل في شارع قريش وخرج من بلدته في مركب إلى بحر الهند، فانكسرت، وألقت به الأمواج على جزيرة، قال:

«صعدت تلك الجزيرة، وتعلقت بشجرة كبيرة وواريت نفسي بين أوراقها وبت ليلتي فلما أصبحت رأيت غنماً أقبلت نحو مائتي رأس، يسوقها رجل لم أر مثله، عظيم الخلقة، طويل، عريض، بشع المنظر، ومعه عصاه يسوق بها غنمه، فقعد على ساحل البحر ساعة، والغنم ترعى بين الشجر. ثم طرح نفسه على وجهه، فنام نصف النهار، ثم قام فرمى بنفسه في الماء، واغتسل وخرج، وهو عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز، إلا أنها أعرض منها، وقد جعلها في وسطه كالمئزر (ثوب نصفي) ثم عمد إلى شاة فقبض رجلها، وأخذ ضرعها في فيه، وامتصه، ثم فعل ذلك بعدد من الغنم، واستلقى في ظل شجرة.

ولم يلبث أن وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها، فأخذ حجرا ثقيلاً وقذف به الطائر، فأصابه وسقط بالقرب مني، فأومأ إلي بيده أن أنزل. ولخوفي منه بادرت وأنا ضعيف خائف وجائع. وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض، وقدّرت أن وزنه لا يقل عن مائة رطل، فنتف ريشه وهو حي يضطرب، ولما نتفه أخذ حجراً قدر عشرين رطلاً، فضرب به رأسه، وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى شقه، وجعل ينهشه بأسنانه، يأكل منه كما تأكل السباع، حتى أتى عليه، ولم يبق إلا عظامه.

ولما أصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتني. واجتمعت الغنم إلى موضع واحد، واردها خليجاً في الجزيرة فيه ماء عذب، فسقاها، وشرب وشربت وقد أيقنت بالموت. ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعاً بين الأشجار، حوله خشب كثير طولاً وعرضاً، وله شبه باب، ودخلت الغنم ودخلت معها، وإذا بي وسط ذلك الموضع، أقيم على خشب وثيق في ارتفاع نحو عشرين ذراعاً. بينما دخل الرجل أخذ

شاة من أصغر الغنم وأهزلها، فدق رأسها بحجر، ثم أجج ناراً، وجعل يقطع اللحم بيديه وأسنانه كما تفعل السباع، ورمى اللحم مع الجلد والصوف في النار، وأكل جميع ما في جوف الشاة نيئاً. ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وتلك حتى شرب من عدد كثير. ثم صعد فأخذ معه شيئاً كان يشربه، ونام وجعل يغطّ كما يغطّ الثور.

ولما انتصف الليل جعلت أدب قليلاً قليلاً إلى موضع النار وتتبعت ما بقي من اللحم، فأكلت ما يمسك رمقي، وكنت خائفاً أن تنفر الغنم فينتبه، فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة. وبقيت مطروحاً إلى الغد. فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معها، وكان يكلمني فلا أفهم كلامه، وكلمته بما أعرف من اللغات فلم يفهم مني شيئاً ،وكان قد صار على شعر عظيم، وأظنه لما رآني على تلك الصورة القبيحة عافتني نفسه، فأخر أكلي. ولم أزل معه في تلك الحال عشرة أيام، يفعل كل يوم مثل ما فعله في سابقه، ولا يمضي يوم دون أن يصطاد طائراً أو طائرين. وإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئا من الغنم، وإن قلت الطيور أكل شاة. وصرت أعاونه في إشعال النار وجمع الحطب وأخدمه، وأدبر الحيلة لنفسي حتى أتخلص منه، إلى أن مضى لي عنده شهران، وصلح جسمي. ورأيت في وجهه آثار السرور، وفهمت أنه عزم على أكلي. وكان يأخذ ثمراً من شجر في الجزيرة ينقعه في الماء، ثم يصفيه ويشربه، فيسكر طوال ليلته، حتى لا يعقل.

وكنت أرى في تلك الجزيرة طيوراً كباراً كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، ولذلك يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفاً من تلك الطيور. وفي ليلة من الليالي صبرت حتى غفا، فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصناً من أغصانها إلى الأرض، ومضيت على وجهي أطلب صحراء كنت قد رأيتها من تلك الشجرة. ولم أزل أمشي حتى الصباح، ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد أعددتها، حتى إن لحقني ضربت بها رأسه، فأما أن أقتله وأما أن يقتلني، والموت على كل حال لا بد منه. ومكثت يومي هذا في الشجرة، ولم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم، فلما أمسيت أكلتها، ونزلت فمشيت حتى الصباح، ووجدت نفسي في صحراء فيها أشجار متفرقة فمشيت وأنا لا أرى أحداً إلا الطيور وحيات ووحوشاً لا اعرفها، ورأيت ماء عذباً، فأقمت بجانبه. وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز وآكل منها والطيور تطوف بالغوطة. وعاينت طائراً منها ضخماً، فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال، ولم أزل أرصد الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه، فتعلقت بساقه وهو مشغول برعيه، وشددت نفسي بالحبال. ولما فرغ من أكله

شرب ماء، وحلق في الهواء، وأشرفنا على البحر، واستسلمت للموت، ولم يلبث أن حطَّ على جبل في الجزيرة، فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف وجعلت أجر نفسي خوفاً منه، ونزلت من الجبل وتعلقت بشجرة، وأخفيت نفسي فيها. ولما أصبحت رأيت دخاناً، فقلت لا بد أن عنده ناساً، ونزلت أمشي إلى ناحيته، فما مشيت قليلاً حتى استقبلتني جماعة، وأخذوني وكلموني كلاماً لا أفهمه، وحملوني إلى قريتهم، وأدخلوني في منزل حبسوني به مع تسع أنفس، سألوني عن خبري، فحدثتهم وسألتهم عن خبرهم فحدثوني أنهم أهل مركب كان قد خرج عن الصنف (الهند الصينية) إلى الزابج (جزر الهند الشرقية) فخرج عليهم خب (إعصار) كسر مركبهم، وتخلصوا في قارب نحو عشرين رجلاً، فوقعوا على هذه الجزيرة، فأخذهم قوم واقتسموهم، وأكلوا منهم نفرا حتى هذا الوقت. وتعجبت وقلت في نفسي: إن مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح لي، وجعلت أستأنس بالقوم. ولما كان الغد جاءونا بسمسم أو شيء يشبهه وموز وسمن وعسل، وقال لي القوم: هذا طعامنا منذ وقعنا ههنا. وأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا، ثم جاءوا فنظروا إلينا، وأخذوا أحسننا حالاً في جسده فودعناه، وأخرجوه إلى وسط المنزل ودهنوه من رأسه إلى قدميه بالسمن، ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين، واجتمعوا عليه، فذبحوه وقطعوه قطعاً، ونحن ننظر، ثم شووه وأكلوه وأكلوا أجزاء منه نيئة، ثم شربوا شراباً، فناموا، فقلت للقوم: «قوموا فنقتل هؤلاء فإنهم سكارى، ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله، وإن هلكنا فالهلاك أسهل من هذا البلاء» واختلف رأينا بقية يومنا، وأظلنا الليل، وأصبحنا، فجاءونا بما نأكل على الرسم المعتاد.

ومضت أربعة أيام على تلك الحال، فلما كان اليوم الخامس جاءونا فأخذوا منا رجلاً، ففعلوا به ما فعلوه بالأول. ولما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم، وأخذ كل واحد منا سكيناً وشيئاً من العسل والسمن والسمسم. ولما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل، ومشينا نطلب الساحل من جانب آخر غير جانب القرية. ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن ثمانية، خوفاً من القوم. ولما جن الليل نزلنا ومشينا مهتدين بالكواكب، وأمنا من هؤلاء الناس، فكنا نمشي نهاراً ونستريح ونأكل من ثمار الجزيرة وهي كثيرة الموز، وما زلنا نمشي حتى وقعنا في غوطة حسنة، وفيها ماء عذب طيب، فعزمنا على المقام بها أبداً إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها، فمات منا ثلاثة، وبقينا خمسة.

وبينما نحن في بعض الأيام نمشي وإذا بقارب قذف به الموج وفيه جماعة قد ماتوا، والقارب جانح في الطين والموج يضربه وهو مطروح فرمينا بهم في البحر وغسلنا القارب،

وصنعنا له دقلاً من الشجر، وسوينا حبالاً من خوص النارجيل (جوز الهند) وشراعاً من الليف، وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وأخذنا معنا ماء وكان بيننا ملاح يعرف السفر في البحر، وسرنا نحو خمسة عشر يوماً، حتى وقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرت بنا. وأخبرنا الناس بقصتنا، فجمعوا لكل منا زاداً، وخرج كل منا يقصد بلداً. ورجعت إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبتي، وقد مات أكثر أهلي ووجدت لأبي ولداً لم أكن أعرفه وكانوا لما انقطع خبري قسموا مالي، فلم يصل إلى منه شيء.

المراجع

* الواقع والأسطورة في التوراة — زينون كاسيدوفسكي
* فن الهوى — أوفيد ـ ترجمة ثروت عكاشة
* عجائب وأساطير — شوقي ضيف
* الشهنامة — الفردوسي
* معتقدات وخرافات — يوسف ميخائيل أسعد
* أساطير من الشرق — سليمان مظهر
* أساطير من الغرب — سليمان مظهر
* أساطير صينية — نسوجين بيه
* القوى الخفية — إبراهيم أسعد محمد
* ألف ليلة وليلة — القزويني
* عجائب المخلوقات — القزويني
* حديث السندباد القديم — حسين فوزي

المحتويات